

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY

Provided by the Library of Congress
Public Law 480 Program

74-961581

(Vol. 3)

جامع السعادات

للشيخ الجليل احد اعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

حقيقه وعلق عليه

العلامة السيد محمد كلانتر

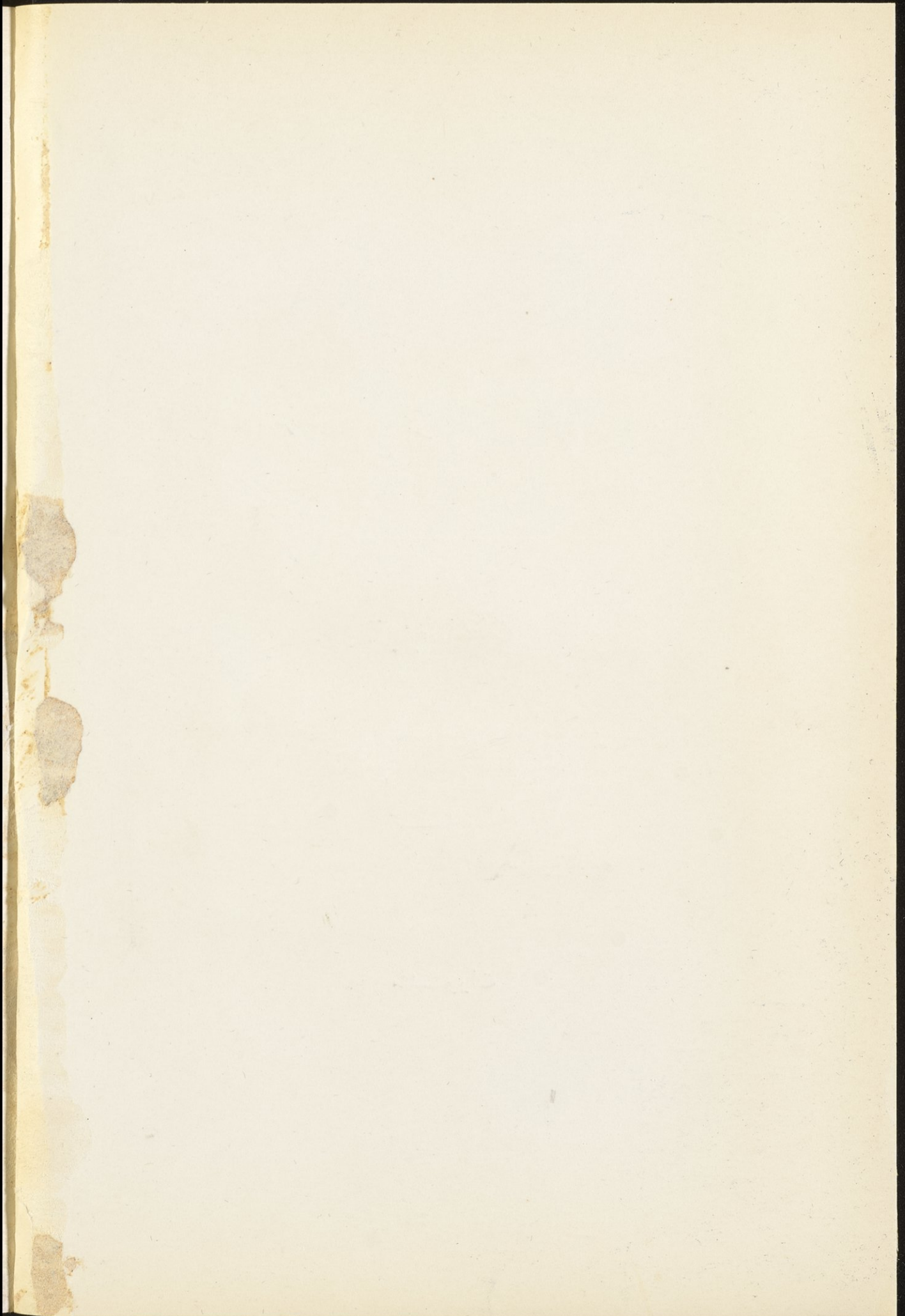
عميد جامعة النجف الدينية

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

مشورات





جامع السعادات

للشيخ الجليل أحد أعلام المجتهدين المولى

محمد مهدي النراقي

المتوفي ١٢٠٩ هـ

الجزء الثالث

حقيقه وعلق عليه

العلامة السيد محمد كلانتر

عميد جامعة النجف الدينية

قدم له

الشيخ محمد رضا المظفر عميد كلية الفقه

الطبعة الرابعة



المكتبة الاهلية

لصاحبها شمس الدين الحيدري

شارع المتنبى - بغداد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بقية المقام الرابع

ومنها (١) :

الغرور

معنى الغرور - ذمه - طوائف المغرورون من الكفار والعصاة والفساق من المؤمنين - المغترون من أهل العلم وفرقهم - المغترون من الوعاظ كثيرون - المغرورون من أهل العبادة فرق كثيرة - المغترون من المتصوفة أكثر - المغترون من الأغنياء أكثر من سائر الطوائف - ضد الغرور والفتانة والعلم والزهد .

وهو سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل اليه الطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان . فمن اعتقد أنه على خير اما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة ، فهو مغرور . ولما كان أكثر الناس ظانين بانفسهم خيرا ، ومعتقدين بصحة ما هم عليه من الأعمال والافعال وخيريته ، مع انهم مخطئون فيه ، فهم مغرورون ، مثلا من يأخذ المال الحرام وينفقها في مصارف الخير ، كبناء المساجد والمدارس والقناطر والرباطات وغيرها ، يظن أن هذا خير له وسعادة ، مع أنه محض الغرور ، حيث خدعه الشيطان وأراه ماهو شر له خيرا ، وكذا الواعظ الذي غرضه الجاه والقبول من موعظته ، يظن أنه في طاعة الله ، مع انه في المعصية بغرور الشيطان وخدعته .

ثم لا ريب في أن سكون النفس الى ما يوافق الهوى ، ويميل الطبع اليه عن شبهة ومخيلة ، مركب من امرين : (أحدهما) اعتقاد النفس بأن هذا خير له مع كونه خلاف الواقع ، (وثانيهما) حبها وطلبها باطنا لمقتضيات الشهوة او الغضب . فان الواعظ اذا قصد بوعظه طلب الجاه والمنزلة معتقدا أنه يجلب به الثواب ، تكون له رغبة الى الجاه واعتقاد بكونه خيرا له ، اذ الغني اذا أمسك ماله ولم ينفقه في مصارفه اللازمة ، وواظب على العبادة معتقدا أن مواظبته على العبادة تكفي لنجاته وان كان بخيلا ، يكون له حب

(١) اي من الرذائل المتعلقة باثنتين من القوى الثلاث اوجميعها : وهي القوة العاقلة والغضبية والشهوية . وهذه الرذيلة «الواحدة والعشرون» منها

للجمال واعتقاد بأنه على الخير . ثم الاعتقاد المذكور راجع الى نوع معين من الجهل المركب ، وهو الجهل الذي يكون المجهول المعتقد فيه شيئاً يوافق الهوى ، فيكون من ردائل القوة العاقلة ، والحب والطلب للجاه والمال من ردائل قوتي الغضب والشهوة . فالغرور يكون من ردائل القوى الثلاث ، أو من ردائل العاقلة مع احدهما .

فصل

ذم الغرور

الغرور والغفلة منبع كل هلكة وام كل شقاوة ، ولذا ورد فيه الذم الشديد في الآيات والاحبار ، قال الله - سبحانه - :
« فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور » (٢) . وقال - عز وجل -
« ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الاماني حتى جاء أمر الله وغرتكم بالله الغرور » (٣) .

وقال رسول الله (ص) : « حبذا نوم الاكياس وفطرهم ، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم ، ولثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الارض من المغترين » . وقال الصادق (ع) : « المغرور في الدنيا مسكين ، وفي الآخرة مغبون ، لانه باع الافضل بالادنى ، ولا تعجب من نفسك ، فربما اغتررت بمالك وصحة جسديك أن لعلك تبقى . وربما اغتررت بطول عمرك واولادك واصحابك لعلك تنجو بهم . وربما اغتررت بجمالك ومنيتك واصابتك مأمولك وهواك ، فظننت أنك صادق ومصيب . وربما اغتررت بما ترى من الندم على تقصيرك في العبادة ، ولعل الله يعلم من قلبك بخلاف ذلك . وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الاخلاص . وربما افتخرت بعلمك ونسبك ، وأنت غافل عن مضمرات ما في غيب الله تعالى . وربما توهمت أنك تدعو الله وأنت تدعو سواه . وربما حسبت أنك ناصح للخلق وأنت تريد لهم لنفسك أن يميلوا اليك . وربما

(٢) لقمان ، الآية : ٣٣ فاطر ، الآية : ٥

(٣) الحديد ، الآية : ١٤

ذمت نفسك وانت تمدحها على الحقيقة» (٤) .

فصل

طوائف المغرورين

اعلم ان فرق المغترين كثيرة ، وجهات غرورهم ودرجاته مختلفة ، وما من طائفة في العالم مشتركين في وصف مجتمعين على أمر ، الا ويوجد فيهم فرق من المغترين . الا أن بعض الطوائف كلهم مغترون ، كالكفار والعصاة والفساق ، وبعضهم يوجد فيهم المغرور وغير المغرور ، وان كان معظم كل طائفة أرباب الغرور . ونحن نشير الى مجاري الغرور ، والى غرور كل طائفة ، ليتمكن طالب السعادة من الاحتراز عنه ، اذ من عرف مداخل الآفات والفساد ومجاريهما يمكنه ان يأخذ منها حذره ، ويبنى على الجزم والبصيرة أمره . فنقول :

الطائفة الاولى

الكفار

وهم مغرورون بأسرهم ، وهم ما بين من غرته الحياة الدنيا ، وبين من غره الشيطان بالله ؛ وأما الذين غرتهم الحياة الدنيا ، فباعث غرورهم قياسان نظمهما الشيطان في قلوبهم : (أولهما) أن الدنيا نقد والآخرة نسيئة ، والنقد خير من النسيئة . (وثانيهما) أن لذات الدنيا يقينية ولذات الآخرة مشكوكة فيها ، واليقيني خير من المشكوك ، فلا يترك به . وهذه اقيسة فاسدة ، تشبه قياس إبليس ؛ حيث قال :

« أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » (٥)

وعلاج هذا الغرور - بعد تحصيل اليقين بوجود الواجب تعالى وبحقبة النبي (ص) ، وهو في غاية السهولة لوضوح الطرق والادلة - اما أن يتبع مقتضى ايمانه ويصدق الله تعالى في قوله :

« ما عندكم ينفذ وما عند الله باق » (٦) . وفي قوله تعالى « والآخرة خير

(٤) صحجناه على مصباح الشريعة : الباب ٣٦ .

(٥) الاعراف الآية : ١١ ، ص الآية : ٧٦

(٦) النحل الآية : ٩٦

وابقى « (٧) . وقوله : « وما عند الله خير وابقى » (٨) . وقوله : « وما
الحياة الدنيا الا مناع الغرور » (٩) . وقوله تعالى : « فلا تفرنكم الحياة
الدنيا ولا يفرنكم بالله الغرور » (١٠) .

واما أن يعرف بالبرهان فساد القياسين ، حتى يزول عن نفسه ما تأديا
اليه من الغرور . وطريق معرفة الفساد في (القياس الاول) : أن يتأمل في
أن كون الدنيا نقدا والآخرة نسيئة صحيح ، الا أن كون كل نقد خيرا من
النسيئة غير صحيح ، بل هو محل التلبيس ؛ اذ المسلم خيرية النقد على
النسيئة ان كان مثلها في المقدار والمنفعة والمقصود والبقاء ، وأما ان كان
أقل منها في ذلك وأدون ، فالنسيئة خير ، ألا ترى أن هذا المغرور اذا حذره
الطبيب من لذائذ الاطعمة يتركها في الحال خوفا من ألم المرض في الاستقبال
ويبذل درهما في الحال ليأخذ درهين نسيئة ، ويتعب في الاسفار ويركب
في الحال لأجل الراحة والربح نسيئة . وقس عليه جميع أعمال الناس
وصنائعهم في الدنيا : من الزراعة والتجارة والمعاملات ، فانهم يبذلون فيها
المال نقدا ليصلوا الى أكثر منه نسيئة ، فان كان عشرة في ثاني الحال خيرا
من واحد في الحال ، فأنسب لذة الدنيا من حيث الشدة والمدة والعدة الى
لذة الآخرة من هذه الحيشيات ، فان من عرف حقيقة الدنيا والآخرة ، يعلم
أنه ليس للدنيا قدر محسوس بالنسبة الى الآخرة ، على أن لذة الدنيا
مكدرة مشوبة بأنواع المنغصات ، ولذات الآخرة صافية غير ممتزجة بشيء
من المكدرات .

وأما طريق معرفة فساد (القياس الثاني) بأصله : هو ان يعرف أن
كون لذات الآخرة مشكوكا فيها خطأ ، وأن كل يقيني خير من المشكوك
غلط : (أما الاول) فلأن الآخرة يقينية قطعية عند أهل البصيرة . وليقينهم
مدركان : - أحدهما - ما يدركه عموم الخلق ، وهو اتفاق عظماء الناس

(٧) الاعلى ، الآية : ١٧

(٨) القصص الآية : ٦٠ الشورى الآية : ٣٦

(٩) آل عمران ، الآية : ١٨٥ . الحديد الآية : ٢٠

(١٠) لقمان ، الآية : ٣٣ ، فاطر الآية : ٥

من الانبياء والاولياء والحكماء والعلماء ، فان ذلك يورث اليقين والطمأنينة بعد التأمل ، كما أن المريض الذي لا يعرف دواء علته اذا أتفق جميع أرباب الصناعة على أن دواءه كذا ، فانه تطمئن نفسه الى تصديقهم ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين ، بل يثق بقولهم ويعمل به ، وان كذبهم صبي أو معتوه أو سوادي . ولا ريب في أن المنكرين للآخرة المغترين بالحياة الدنيا من الكفار والباطلين بالنظر الى المخبرين عن أحوال الآخرة والمشاهدين لها من الانبياء والاولياء أدون حالا وأقل رتبة من صبي أو معتوه أو سوادي بالنظر الى أطباء بلد أو مملكة . - وثانيهما - مالا يدركه الا الانبياء والاولياء ، وهو الوحي والالهام ، فالوحي للأنبياء والالهام والكشف للاولياء فانه قد كشفت لهم حقائق الاشياء كما هي عليها ، وشاهدوها بالبصيرة الباطنة كما تشاهد أنت المحسوسات بالبصر الظاهر ، فيخبرون عن مشاهدة لا عن سماع وتقليد ، ولا تظن ان معرفة النبي (ص) لأمر الآخرة ولأمر الدين مجرد تقليد لجبرئيل بالسماع منه ، كما أن معرفتك لها تقليد للنبي ، هيات ! فان الانبياء يشاهدون حقائق الملك والملكوت ، وينظرون اليها بعين البصيرة واليقين ، وان أكد ذلك بالقاء الملك والسماع منه .

وأما المعرورون بالله ، وهم الذين يقدررون في أنفسهم ويقولون بالسنتهم: ان كان لله معاد فنحن فيه أوفر حظا وأسعد حالا من غيرنا ، كما أخبر الله - سبحانه - عن قول الرجلين المتحاورين ، اذ قال :

« وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت الى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا » (١١)

وباعث ذلك : ما ألقى الشيطان في روعهم من نظرهم مرة الى نعم الله عليهم في الدنيا فيقيسون عليها نعمة الآخرة ، وينظرون الى تأخير الله العذاب عنهم فيقيسون عليه عذاب الآخرة ، كما قال الله - تعالى - :

« ويقولون في انفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم يصلونها فبئس المصير » (١٢) .

ومرة ينظرون الى المؤمنين وهم فقراء محتاجون ، فيقولون : لو أحبهم الله لأحسن اليهم في الدنيا ولو لم يحبنا لما أحسن الينا فيها ، فلما لم يحسن

(١١) الكهف ٤ الآية : ٣٧ .

(١٢) المجادلة الآية : ٨ .

اليهم في الدنيا وأحسن إلينا فيها فيكون محبا لنا ولا يكون محبا لهم ،
فيكون الامر في الآخرة كذلك ، كما قال الشاعر :

كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى
ولا ريب في أن كل ذلك خيالات فاسدة وقياسات باطلة ، فإن من
ظن أن النعم الدنيوية دليل الحب والاكرام فقد اغتر بالله ، اذ ظن أنه كريم
عند الله ، بدليل لا يدل على الكرامة بل يدل عند أولى البصائر على الهوان
والخذلان ، لان نعيم الدنيا ولذاتها مهلكات ومبعدات من الله ؛ وأن الله
يحمي احبائه الدنيا كما يحمى الوالد الشفيق ولده المريض لذائد الاطعمة ،
ومثل معاملة الله - سبحانه - مع المؤمن الخالص والكافر والفاسق ، حيث
يزوى الدنيا عن الاول ويصب نعمها ولذاتها على الثاني ، مثل من كان له
عبدان صغيران يحب أحدهما ويبغض الآخر ، فيمنع الاول من اللعب ويلزمه
المكتب ويحبسه فيه ، ليعلمه الأدب ويمنعه من لذائد الاطعمة والنفاكه التي
تضره ويستقيه الادوية البشعة التي تنفعه ، ويهمل الثاني ليعيش كيف يريد
ويلعب ويأكل كل ما يشتهي ، فلو ظن هذا العبد المهمل أنه محبوب كريم
عند سيده لتمكنه من شهواته ولذاته ، وأن الآخر مبغوض عنده لمنعه عن
مشتهياته ، كان مغرورا أحمق ، وقد كان الخائفون من ذوي البصائر اذا
أقبلت عليهم الدنيا حزنوا وقالوا : ذنب عجلت عقوبته ، واذا أقبل عليهم
الفقر قالوا : مرحبا بشعار الصالحين ! وأما المغرورون فعلى خلاف ذلك ،
لظنهم أن اقبال الدنيا عليهم كرامة من الله وأن ادبارها عنهم هوان لهم ،
كما أخبر الله - تعالى - عنه بقوله :

((فأما الانسان اذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن ، واما اذا

ما ابتلاه فقد ربه عليه رزقه فيقول ربي اهانن (١٣) .

وعلاج هذا الغرور : أن يعرف ان اقبال الدنيا دليل الهوان والخذلان
دون الكرامة والاحسان ، والتجرد منها سبب الكرامة والقرب الى الله
- سبحانه - والطريق الى هذه المعرفة : اما ملاحظة أحوال الانبياء والاولياء

وغيرهما من طوائف العرفاء وفرق الاتقياء ، او التدبر في الآيات والابخار .
قال الله — سبحانه — :

((يحسبون انما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون)) (١٤) . وقال الله — سبحانه — ((سنستدرجهم من حيث لا يعلمون)) (١٥) . وقال تعالى : ((فلما نسوا ماذكروا به فتحننا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا أخذناهم بغية فاذا هم مبلسون)) (١٦) . وقال — تعالى — : ((انما نملي لهم ليزدادوا اثما)) (١٧) . . الى غير ذلك من الآيات والابخار .

ومنشأ هذا الغرور : الجهل بالله وبصفاته ، فان من عرفه لا يأمن مكره ولا يغتر به بأمثال هذه الخيالات الفاسدة ، وينظر الى قارون وفرعون وغيرهما من الملوك والجبابرة ، كيف أحسن الله اليهم ابتداء ثم دمرهم تدميرا ، وقد حذر الله عباده عن مكره وأستدرجه فقال :
((فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون)) (١٨) وقال : ((ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين)) (١٩) .

الطائفة الثانية

العصاة والفساق من المؤمنين

وسبب غرورهم وغفلتهم : اما بعض بواعث غرور الكافرين — كما تقدم — أو ظنهم ان الله — تعالى — كريم ورحمته واسعة ونعمته شاملة ، وأين معاصي العباد في جنب بحار رحمته ، ويقولون : أنا موحدون ومؤمنون ، فكيف يعذبنا مع التوحيد والايمان ، ويقررون ظنهم بما ورد في فضيلة الرجاء — كما تقدم — . وربما أغتر بعضهم بصلاح آبائهم وعلو رتبتهم ، كأغترار بعض العلويين بنسبهم مع مخالفتهم سيرة آبائهم الطاهرين في الخوف

(١٤) المؤمنون ، الآية : ٥٦ — ٥٧

(١٥) الاعراف ، الآية : ١٨١ ، القلم الآية : ٤٤

(١٦) الانعام ، الآية : ٤٤

(١٧) آل عمران ، الآية : ١٨٧

(١٨) الاعراف ، الآية : ٩٩

(١٩) آل عمران ، الآية : ٥٤ .

والورع • وعلاج هذا الغرور : أن يعرف الفرق بين الرجاء الممدوح والتمني المذموم ، ويعلم أن غروره ليس رجاء ممدوحا ، بل هو تمنٍ مذموم ، كما قال رسول الله (ص) : « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله » • فإن الرجاء لا ينفك عن العمل ، إذ من رجا شيئا طلبه ومن خاف شيئا هرب منه ، وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولدا وهو لم ينكح ، او نكح ولم يجامع ، او جامع ولم ينزل ، فهو مغرور أحمق ؛ كذلك من رجا رحمة الله وهو لم يؤمن ، او آمن ولم يترك المعاصي ، او تركها ولم يعمل صالحا ؛ فهو مغرور جاهل ، كيف وقد قال الله - سبحانه - :

« ان الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله » (٢٠)

يعني أن الرجاء يليق بهم دون غيرهم ، وذلك لأن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الاعمال ، كما قال - تعالى - :

« جزاء بما كانوا يعملون » (٢١) . وقال : « وانما توفون أجوركم يوم القيامة » (٢٢) . وقال : « وان ليس للاء نسان الا ما سعى ، وان سعيه سوف يرى » (٢٣) وقال : « كل نفس بما كسبت رهينة » (٢٤) .

أفتري أن من استوجر على أصلح او ان وشرط له أجره عليها ، وكان الشارط كريما يفى بوعده وشرطه ، بل كان بحيث يزيد على ما وعده وشرطه ، فجاء الاجير وكسر الاواني وأفسدها جميعا ، ثم جلس ينتظر الاجر زعما منه أن المستأجر كريم ، أفيراه العقلاء في انتظاره راجيا او مغرورا متمنيا ؟ وبالجملة : سبب هذا الغرور الجهل بين الرجاء والعزة ، فليعالجه بما ذكر هنا وفيما سبق •

ثم ان المغرور بعلو رتبة آباءه ، ظانا ان الله تعالى يحب آباءه ، ومن

(٢٠) البقرة ، الآية : ٢١٨

(٢١) السجدة الآية : ١٧ ، الاحقاف الآية : ١٤ . الواقعة ، الآية ٢٤

(٢٢) آل عمران الآية : ١٨٥ .

(٢٣) النجم الآية : ٣٩ - ٤٠

(٢٤) المدثر الآية : ٣٨

أحب انسانا أحب أولاده ، أشد حقا من المغرور بالله ، لأن الله - سبحانه - يحب المطيع ويبغض العاصي من غير ملاحظة لأبائهما ، فكما أنه لا يبغض الأب المطيع ببغضه للولد العاصي فكذلك لا يحب الولد العاصي بحبه للأب المطيع ، وليس يمكن أن يسرى من الأب الى الابن شيء من الحب والبغض والمعصية والتقوى ، اذ لا تزر وازرة أخرى ، فمن زعم انه ينجو بتقوى أبيه ، كان كمن زعم انه يشبع بأكل أبيه ، او يصير عالما يتعلم أبيه ، او يصل الى الكعبة بمشى أبيه ، فهيهات هيهات ! ان التقوى فرض عين على كل أحد ، فلا يجزى والد عن ولده شيئا ، وعند الجزاء يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبه وبنيه ، ولا ينفع أحد أحدا الا على سبيل الشفاعة ، بعد تحقيق شرائطها .

ثم العصاة المغرورون ، اما ليست لهم طاعات ، فتمنيهم المغفرة غاية الجهل - كما مر - ، او لهم طاعات ولكن معاصيهم اكثر ، وهم عالمون بأكثرية المعاصي ، ومع ذلك يتوقعون المغفرة وترجح حسناتهم على على سيئاتهم ، وهو أيضا غاية الجهل ، اذ مثله مثل من وضع عشرة دراهم في كفه ميزان وفي الكفة الاخرى ألفا او ألفين ، وتوقع أن تميل الكفة الثقيلة بالخريفة ، ومن الذين معاصيهم أكثر من يظن أن طاعاته اكثر من معاصيه ، لأنه لا يحاسب نفسه ولا يتفقد معاصيه ، واذا عمل طاعة حفظها واعتد بها ، كالذي يحج طول عمره حجة ويبنى مسجدا ، ثم لا يكون شيء من عباداته على النحو المطلوب ، ولا يجتنب من أخذ أموال المسلمين ، فينسى ذلك كله ويكون حجه وما بناه من المسجد في ذكره ، ويقول : كيف يعذبني الله وقد حججت وبنيت مسجدا ؟ وكالذي يسبح الله كل يوم مائة مرة ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم ويتكلم بما لا يرضاه الله طول نهاره من غير حصر وعدد ، ويكون نظره الى عدد سبحته مع غفلته عن هديانه طول نهاره الذي لو كتبه لكان مثل تسبيحه مائة مرة ، او قد كتبه الكرام الكاتبون ، فهو يتأمل دائما في فضيلة التسبيحات ، ولا يلتفت الى ما ورد في عقوبة الكذابين والمغتائبين والنمامين والفحاشين ، ولو كان كتبه اعماله يطلبون منه أجرة الزايد من هديانه على تسبيحاته ، لكان عند ذلك يسعى في كفلسانه

عن آفاته وموازنتها بتسيبجاته ، حتى لا يكون لها زيادة عليها ليؤخذ منه
أجرة نسخ الزائد . فيا عجباً لمن يحاسب نفسه ويحتاط خوفاً أن يفوته
مقدار قيراط ولا يحتاط خوفاً من فوت العليين ومجاورة رب العالمين !

الطائفة الثالثة

اهل العلم

والمعترون منهم فرق :

(فمنهم) من اقتصر من العلم على علم الكلام والمجادلة ومعرفة آداب
المناظرة ، ليتفاخر في أندية الرجال ويتفوق على الاقران والامثال ، من غير
أن يكون له في العقائد قدم راسخ أو مذهب واحد ، بل يختار تارة ذلك
وتارة هذا ، وتكون عقيدته كخيطة مرسل في الهواء تفيئه الريح مرة هكذا
ومرة هكذا ، ومع ذلك يظن بغروره أنه اعرف الناس وأعلمهم بالله وبصفاته .
و (منهم) من اقتصر من العلم على علم النحو واللغة ، او الشعر أو
المنطق ، واغتر به وافنى عمره فيها ، وزعم ان علم الشريعة والحكمة موقوف
عليها ، ولم يعلم أن ما ليس مطلوباً لذاته ويكون وسيلة الى ما هو مقصود
لذاته يجب ان يقتصر عليه بقدر الضرورة ، والتعمق فيه الى درجات لا تنتهي
فضول مستغنى عنها ، وموجب للحرمان عما هو مقصود لذاته .

و (منهم) من اقتصر على فن المعاملات من الفقه ، المتضمن لكيفية
الحكم والقضاء بين الناس ، واشتغل بأجراء الاحكام ، وأعرض عن علم
العقائد والاخلاق ، بل عن فن العبادات من الفقه ، وأهمل تفقد قلبه ليتخلى
عن رذائل الاخلاق ويتخلى بفضائل الملكات وتفقد جوارحه وحفظها عن
المعاصي والزامها الطاعات .

و (منهم) من حصل فن العبادات أيضاً ، بل أحكم العلوم الشرعية
بأسرها وتعمق فيها واشتغل ، ولكن ترك العلم الالهي وعلم الاخلاق ، ولم
يحفظ الباطن والظاهر عن المعاصي ، ولم يعمرها بالطاعات .

و (منهم) من أحكم جميع العلوم من العقلية والشرعية ، وتعمق فيها
وأشتغل بها ، الا أنه أهمل العمل رأساً ، او واظب على الطاعات الظاهرة

وأهمل صفات القلب ، وربما تفقد صفات القلب واخلاق النفس أيضا ،
وجاهد نفسه في التبرسي عنها ، وقلع من قلبه مناقبتها الجلية القوية ، ولكن
بقيت في زوايا قلبه خفايا من مكائد الشيطان ، وخبايا وتلبيسات النفس
ما دق وغمض مدركه فلا يتفطن بها .

وجميع هؤلاء غافلون مغرورون ، اذا كان اعتقادهم أنهم على خير
وسعادة ، وان كان بينهم تفاوت من حيث الضعف والشدة ، اذ سعادة النفس
وخلصها عن العذاب لا تحصل الا بمعرفة الله - تعالى - ومعرفة صفاته
وأفعاله وأحوال النشأة الآخرة ، والعلم برذائل الاخلاق وشرائفها ، ثم
تهذيب الباطن بفضائل الاخلاق وعمارة الظاهر بصالح الطاعات والاعمال ،
فكل من يعلم بعض العلوم وترك ما هو المهم من العلم - أعني معرفة سلوك
الطريق وقطع عقبات النفس التي هي الصفات المذمومة المانعة عن الوصول
الى الله - وظن انه على خير كان مغرورا ، اذا مات ملوثا بتلك الصفات كان
محبوبا عن الله ، فمن ترك العلم المهم واشتغل بغيره ، فهو كمن له مرض
خاص مهلك فأحتاج الى تعلم الدواء وأستعماله ، فاشتغل بتعلم مرض آخر
يضاد مرضه في المعالجة ، كما ان من أحكم العلوم بأسرها وترك العمل ،
مثل المريض الذي تعلم دواء مرضه وكتبه ، وهو يقرأه ويعلمه المرضى ولا
يستعمله قط لنفسه ، فانه لا يرب في ان مجرد تعلم الدواء لا يشفيه ، بل
لو كتب منه الف نسخة وعلمه الف مريض حتى شفي جميعهم وكرره كل
ليلة الف مرة لم ينفعه ذلك من مرضه شيئا ، حتى يشتري هذا الدواء
ويشربه كما تعلم في وقته ، ومع شربه وأستعماله يكون على خطر من شفاؤه ،
فكيف اذا لم يشربه أصلا ، فلو ظن أن مجرد تعلم الدواء يكفيه ويشفيه
فهو مغرور ، فكذلك من أحكم علم الطاعات ولم يعملها ، وأحكم علم
المعاصي ولم يجتنبها ، واحكم علم الاخلاق ولم يترك نفسه عن رذائلها ولم
يتصف بفضائلها ، فهو في غاية الغرور ، اذ قال الله تعالى :

« قد افلح من زكاهها » (٢٥)

(٢٥) الشمس الآية : ٩

ولم يقل : قد أفلح من علم طريق تزكيتها .

ثم من هذه الطائفة فرقة متصفة برذائل الاخلاق والغرور ، أدى بهم الى حيث ظنوا أنهم منفكون عنها ، وأنهم ارفع عند الله من أن يبتليهم بها ، وانما يبتلى بها العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم . ثم اذا ظهرت عليه مخايل الكبر والرئاسة وطلب العلو والشرف قال : ما هذا تكبرا ، انما هو طلب أعزاز الدين ، واطهار شرف العلم ، وارغام انف المخالفين . ومهما ظهرت منه آثار الحسد ، وأطلق لسانه بالغيبة في أقرانه ومن رد عليه شيئا من كلامه ، لم يظن بنفسه أن ذلك حسد ، بل يقول : ان هذا غضب للحق ورد على المبطل في عداوته وظلمه ، مع أنه لو طعن في غيره من أهل العلم ، ورد عليه قوله ، ومنع من منصبه ، لم يكن غضبه مثل غضبه الآن ، بل ربما يفرح به ، ولو كان غضبه للحق لا للحسد على أقرانه وخبث باطنه ، لاستوى غضبه في الحالين . واذا خطر له خاطر الرياء قال : غرضي من اظهار العلم والعمل اقتداء الخلق بي ، ليهتدوا الى دين الله ويتخلصوا من عقاب الله . ولا يتأمل المغرور أنه ليس يفرح باقتداء الناس بغيره كما يفرح باقتداءهم به ، ولو كان غرضه صلاح الخلق لفرح بصلاحهم على يد من كان ، وربما يتذكر هذا ومع ذلك لا يخليه الشيطان ، بل يقول : انما ذلك لأنهم اذا أهتدوا بي كان الاجر والثواب لي ، ففرحى انما هو بثواب الله لا بقبول الخلق ، هذا ما يظن بنفسه ، والله مطلع على سريره ، اذ ربما كان باطنه في الخباثة بحيث لو علم قطعا بأن ثوابه في الخمول واخفاء العلم والعمل أكثر من ثوابه في الاظهار ، لاحتال مع ذلك في اظهار رئاسة ، من تدريس او وعظ او امامة أو غير ذلك . واذا كان بحيث يدخل على السلاطين والامراء الظلمة ويشئى عليهم ويتواضع لهم ، وخطر له أن مدحهم والتواضع لهم حرام ، قال له الشيطان : ان ذلك عند الطمع في مالهم ، وغرضك من الدخول عليهم دفع الضرر عن المسلمين دون الطمع ، والله يعلم من باطنه أنه لو ظهر لبعض أقرانه قبول عند ذلك السلطان ، وكان بحيث يقبل شفاعته في كل أحد ، وهو لا يزال يستشفع ويدفع الضرر عن المسلمين ، يثقل ذلك عليه ، بحيث لو قدر أن يقبح حاله عند السلطان لفعل . وربما اتهمى الغرور في بعضهم

الى أن يأخذ من أموالهم المحرمة ، وإذا خطر له أنها حرام ، قال له الشيطان :
هذا مال مجهول المالك يجب ان يتصدق به امام المسلمين ، وأنت امامهم
وعالمهم ، وبك قوام دين الله؛ فيحل لك أن تأخذ منها قدر حاجتك وتصرف
الباقى على مصالح المسلمين ، فيغتر بهذا التلبيس ، ولا يزال يأخذها من غير
أن يبذل شيئاً منها في مصرف غيره . وربما انتهى الغرور في بعضهم الى
حيث انه اذا حضرت مائدتهم وأكل طعامهم وقيل له : ان هذا لا يليق بمثلك .
قال : الا كل جائز بل واجب ، اذ هذا مال لا يعلم مالكة ، فيجب التصديق
به على الفقراء ؛ ويجب على مثلى بقدر القوة والاستطاعة أن يجتهد في
استخلاصه من يد الظالم وايصاله الى أهله - أعني الفقراء - وأكلى منها
نوع قدرة على استخلاصه ، فأكل منه واتصدق بقيمته على الفقراء ، والله
يعلم من باطنه أنه لا يتصدق بقيمته ولا يعتقد بحقيقة ما يقوله ، وانما هو
تلبيس ألقاه الشيطان في روعه ، لئلا يضعف اعتقاد العامة في حقه ، وربما
كان بحيث لا يبالي من أخذ مالهم وأكل طعامهم خفية ، ولو علم أنه يطلع
عليه واحد من صويلح العامة المعتقدين به ، امتنع منه غاية الامتناع . وربما
كان بعضهم في الباطن مائلاً الى الدخول على السلاطين والامراء وتاركاً له
في الظاهر ، وكان الباعث في ذلك طلب المنزلة في قلوب العامة ، ومع ذلك
يظن أن الاجتناب عنهم عين ورعه وتقواه . وربما كان بعضهم امام قوم يظن
أنه على خير وباعث لترويج الدين واعلاء الكلمة ومقيم بشعار الاسلام ،
ومع ذلك لو أمم غيره ممن هو أعلم وأورع منه في مسجده ، او يتخلف
بعض من يقتدى به عن الاقتداء به ، قامت عليه القيامة ، وربما لم يكن
باعثه على الحركة الى المسجد للامامة مجرد التقرب والامتنان لأمر الله ،
بل كان الباعث محض حب الجاه والرياسة وأعتقاد العامة ، او مركباً منه
ومن نية الثواب . وربما أتخذ بعضهم الامامة شغلاً ووسيلة لأمر المعاش ،
ومع ذلك يظن أنه مشتغل بأمر الخير ، والظاهر في أمثال زماننا ندور الامام
الذي كان قصده من الامامة مجرد التقرب الى الله ، من دون وجود شيء
من حب طلب المنزلة في القلوب ، او تحصيل المال ، او دفع بعض الشرور
عن نفسه في زوايا قلبه ، ولو وجد مثله فهو القدوة الذي يجب ان تشد

الرجال من المواضع البعيدة اليه ليقتردي به ، ومثله كلما وجد في نفسه قصد التقرب والثواب في الذهاب الى المسجد للإمامة ذهب ، ولو لم يجد ذلك من نفسه تخلف ، وصلي منفردا ، وهو الذي يستوى عنده اقتداء الناس به وعدمه ، ويستوى عنده كثرة المقتدين وقتلهم ؛ بل يكون حاله عند صلاته وهو امام لجم غفير كحالته عند صلاته منفردا ، من دون ان يجد في نفسه تفاوتاً في الحالين •

وبالجملة : أصناف غرور أهل العلم - (لا) سيما في هذه الاعصار - كثيرة ، والمتأمل يعلم ان الغرور او التلبيس او غيرهما من ذمائم الافعال انتهى في بعضهم الى أن وجودهم مضر بالاسلام والمسلمين وموتهم أنفع للايمان والمؤمنين ، لانهم دجالو الدين وقوا مو مذهب الشياطين ، ومثلهم كما قال عيسى ابن مريم (ع) : « العالم السوء كصخرة وقعت في فم الوادي فلا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يتخلص الى الزرع » •

الطائفة الرابعة

الوعاظ

والمغترون منهم كثيرون :

(فمنهم) من يتكلم في وعظه في أخلاق ، النفس وصفات القلب ، من الخوف ، والرجاء ، والتوكل ، والرضا ، والصبر ، والشكر ، ونظائرها ؛ ويظن انه اذا تكلم بهذه الصفات ودعا الخلق اليها صار موصوفاً بها ، وهو منفك عنها في الواقع ، الا عن قدر يسير لا ينفك عنه عوام المسلمين ، ويزعم ان غرضه اصلاح الخلق دون أمر آخر ، ومع ذلك لو أقبل الخلق على أحد من أقرانه وصلحوا على يديه ، وكان أقوى منه في الارشاد والاصلاح ، لمات غما وحسداً ، ولو اثنى احد المترددين عليه على بعض أقرانه ، لصار أبغض خلق الله اليه •

و (منهم) من أشغل بالشطح والطامات ، وتلفيق كلمات خارجة عن قانون الشرع والعقل ، وربما كلف نفسه بالفصاحة والبلاغة ، وتصنع التشبيهات والمقدمات ، وشغف بطيارات النكت وتسجيع الالفاظ وتلفيقها ؛ طلباً للاعوان والائصار ؛ وشوقاً الى تكثر البكاء والرقة والتواجد والرجبات

في مجلسه ، والتذاذا بتحريك الرأس على كلامه والبكاء عليه ، وفرحا بكثرة
الاصحاب والمستفيدين والمعتقدين به ، وسرورا بالتخصيص بهذه الخاصة
من بين سائر الاقران ، وربما لم يبال بالكذب في نقل الاخبار والآثار ،
ظنا منه أنه اوقع في النفوس وأشد تأثيرا في رقة العوام وتواجدتهم . ولا
ريب في أن هؤلاء شرّ الناس ، بل شياطين الانس ، ضلوا وأضلوا عن سواء
السبيل ، اذ الاولون ان لم يصلحوا أنفسهم ، فقد أصلحوا غيرهم وصححوا
كلامهم ووعظهم ، وأما هؤلاء فانهم يصدون عن سبيل الله ، ويجرون الخلق
الى الغرور بالله ، لأن سعيهم في ذكر ما يسر به العامة ، ليصلوا به منهم الى
أغراضهم الفاسدة ، فلا يزالون يذكرون ما يقوى الرجاء ، ويزيدهم جرأة
على المعاصي ورغبة في الدنيا ، (لا) سيما اذا كان هذا الواعظ أيضا ممن
يرغب الى الدنيا ، ويسر بوصول المال اليه ، ويتزين بالشباب الفاخرة والمراكب
الفارهة ، وغيرهما من زينة الدنيا . فمثله ممن يضل ويكون أفساده أكثر
من أصلحه ، ومع ذلك يظن أنه مروج الشرع والدين ومرشد الضالين ،
فهو أشد المغرورين والغافلين .

و (منهم) من هذب أخلاقه ، وراقب قلبه ، وصفاه عن جميع
الكدورات ، وصغرت الدنيا في عينه ، واقطع طمعه عن الخلق فلم يلتفت
اليهم ، ودعته الرحمة والشفقة على عباد الله الى نصحتهم واستخلاصهم عن
أمراض المعاصي بالوعظ ، فلما أستقل به وجد الشيطان مجال الفتنة ، فدعاه
الى الرئاسة دعاء خفيا - أخفى من ديب النملة - لا يشعر به ، ولم يزل
ذلك في قلبه يربو وينمو حتى دعاه الى التصنع والتزين للخلق : بتحسين
الالفاظ والنعمات والحركات ، والتصنع في الزي والهيئة والشمائل ، وأقبل
الناس اليه يعظمونه ويوقرونه توقيرا يزيد على توقير الملوك ، اذ رأوه شافيا
لأمراضهم بمحض الرحمة والشفقة من غير طمع ، فأثروه بأبدانهم وأموالهم ،
وصاروا له كالخدم والعييد ، فعند ذلك انتشر طبعه وارتاحت نفسه ، وذاق
لذة يالها من لذة ، وأصاب من الدنيا شهوة يستحققر معها كل شهوة ، فوقع
في أعظم لذات الدنيا بعد قطعه بأنه تارك للدنيا ، فقد غره الشيطان على
ما لا يشعر به . وعلامة ثوران حب الرئاسة في باطنه : انه لو ظهر من أقرانه

من مالت القلوب الى قبوله ؛ وزاد أثر كلامه في القبول على كلامه ؛ شق ذلك عليه ؛ اذ لو لا أن النفس قد أستبشرت واستلذت بالرئاسة لكان يغتنم ذلك .

وعلى هذا فينبغي ألا يشتغل أحد بالنصح والوعظ الا اذا وجد من نفسه أنه ليس له قصد سوى هدايتهم الى الله - تعالى - ، وكان يسره غاية السرور ظهور من يعينه على أرشادهم أو اهتدائهم من عند انفسهم ، وانقطع طمعه بالكلية عن ثنائهم وأمواهم ، واستوى عنده حمدهم وذمهم ، ولم يبالي بدمهم اذا كان الله يمدحه ، ولم يفرح بمدحهم اذا لم يقترب به مدح الله ، ونظر اليهم كما ينظر الى من هو أعلم منه وأورع ، حيث لا ينكر عليه ويراه خيرا من نفسه ، لدلالة الظاهر على ذلك وجهله بالخاتمة ، والى البهائم من حيث انقطاع طمعه عن طلب المنزلة في قلوبهم ، فانه لا يبالي كيف يراه البهائم ، فلا يتزين لها ؛ اذ راعي الماشية انما غرضه رعايتها ودفن الذئب عنها ، دون نظر الماشية اليه بعين المدح والثناء .

ثم لو ترقى الواعظ ، وعلم بهذه المكيدة من الشيطان ، واشتغل بنفسه وترك النصح ، او نصح مع رعاية شرط الصدق والاخلاص ، لخيف عليه الاعجاب بنفسه في فراره عن الغرور ، فيكون اعجابه بنفسه في الفرار عن الغرور غاية الغرور ، وهو المهلك الاعظم من كل ذنب ، ولذلك قال الشيطان: « يا ابن آدم ! اذا ظننت أنك بعملك تخلصت مني فبجهدك قد وقعت في حبائلي » . ثم لو دفع عن نفسه العجب ، وعلم أن ذلك من الله تعالى لامنه ، وأن مثله لا يقوى على دفع الشيطان عنه الا بتوفيق الله ، وأنه ضعيف عاجز لا يقدر على شيء أصلا ، فضلا عن دفع الشيطان ، لخيف عليه الغرور بفضل الله والثقة بكرمه والامن من مكره ، حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل . ولا ريب أن الآمن من مكر الله خاسر مغرور ، فسييل النجاة بعد تهذيب النفس وخلوص القصد والانقطاع عن الدنيا ولذاتها ، ان يرى ذلك كله من فضل الله ، وكان خائفا على نفسه من سلب حاله في كل لحظة ، وغير آمن من مكر الله ، وغير غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لامحيص عنه وخوف لانجاة منه ، الا بمجاوزة الصراط والدخول في الجنة ، ولذلك

لما ظهر الشيطان لبعض الاولياء في وقت النزح - وكان قد بقى له نفس - قال : (أفلت مني يافلان ! ؟) ، فقال : (لا ! بعد) .

الطائفة الخامسة

اهل العبادة والعمل

والمغرورون منهم فرق كثيرة :

(فمنهم) من غلبت عليه الوسوسة في ازالة النجاسة وفي الوضوء ، فيبالغ فيه ولا يرتضى الماء المحكوم بالطهارة في فتوى الشرع ، ويقدر الاحتمالات البعيدة الموجبة للنجاسة ، واذا آل الامر الى الاكل وأخذ المال قدر الاحتمالات الموجبة للحل ، بل ربما أكل الحرام المحض وقدر له محملا بعيدا لحله ، ولو انقلب هذا الاحتمال من الماء الى الطعام لكان أشبه بسيرة أكابر الاولياء . ثم من هؤلاء من يخرج الى الاسراف في صبه الماء وربما بالغ عند الوضوء في التخليل وضرب احدى يديه على وجهه أو يده الاخرى ولا يدري هذا المغرور أن هذا العمل ان كان مع اليقين بحصول ما يلزم شرعا فهو تضييع للعمر الذي هو أعز الاشياء فيما له مندوحة عنه ، وان كان بدون بل يحتاط في التخليل ليحصل الجزم بوصول الماء الى البشرة ، فما باله يتيقن بوصول الماء الى البشرة في الغسل بدون هذه المبالغة والاحتياط مع أن حصول القطع بايصال الماء الى البشرة في الغسل ألزم وأوجب . ثم ربما لم يكن له مبالغة واحتياط في الصلاة وسائر العبادات ، وانحصر احتياطه ومبالغته بالوضوء ، زاعما أن هذا يكفي لنجاته ، فهو مغرور في غاية الغرور .

(ومنهم) من أعتز بالصلاة فغلبت عليه الوسوسة في نيتها فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة ، بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة او فضيلة الوقت ، وقد يوسوس في التكبير حتى يغير صيغتها لشدة الاحتياط فيه ، يفعل ذلك في أول صلاته ثم يغفل في جميع صلاته ، ولا يحضر قلبه ، ويعتبر بذلك ، ويظن أنه اذا أتعب نفسه في تصحيح النية فهو على خير . وربما غلبت على بعضهم الوسوسة في دقائق القراءة ، وأخراج حروف الفاتحة وسائر الاذكار عن مخارجها ، فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح المخارج

والتمييز بين مخارج الحروف المتقاربة ، من غير اهتمام فيما عدا ذلك ، من حضور القلب والتفكير في معاني الاذكار ، ظنا منه أنه اذا صحت القراءة فالصلاة مقبولة ، وهذا أقبح أنواع الغرور .

و (منهم) من أغتر بالصوم ، وربما صام الايام الشريفة ، بل صام الدهر ، ولم يحفظ لسانه عن الغيبة ؛ ولا بطنه عن الحرام عند الافطار ، ثم يظن بنفسه الخير ، وذلك في غاية الغرور .

و (منهم) من أغتر بالحج ، فيخرج الى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون وطلب الزاد الحلال ، ويضيع في الطريق الصلاة ، ويعجز عن طهارة الثوب والبدن ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الاخلاق وذمائم الصفات ، ومع ذلك يظن أنه على خير . فهو في غاية الغرور .

و (منهم) من أغتر بقراءة القرآن ، فيهدئ هذا ، وربما يختم في اليوم واللييلة مرة ، فيجرى به لسانه ، وقلبه مردد في أودية الاماني ، وربما أسرع في القراءة غاية السرعة ، ويظن أن سرعة اللسان من الكمالات ، ويتفاخر به على الامثال والاقران .

و (منهم) من أغتر ببعض النوافل ، كصلاة الليل ، او مجرد غسل الجمعة ، أو امثال ذلك ؛ من غير اعتداد بالفرائض ؛ زاعما ان المواظبة على مجرد هذه النافلة ينجيه في الآخرة ؛ فهو أيضا من المغرورين .

و (منهم) من تزهد وقنع بالدون من المطعم والملبس والمسكن ، ظانا أنه ادرك رتبة الزهاد ، ومع ذلك راغب في الرئاسة بأشتهاره بالزهد ، فهو ترك أهون المهلكين بأعظمها ؛ اذ حب الجاه أشد فسادا من حب المال . ولو ترك الجاه وأخذ المال لكان أقرب الى السلامة ، فهو مغرور ، اذ ظن أنه من الزهاد ؛ ولم يعرف أن منتهى لذات الدنيا الرئاسة ، وهو يجبها ، فكيف يكون زاهدا ؟

الطائفة السادسة

المنصوفة

والمغترون فيهم أكثر من ان يحصى ؛
(فمنهم) أرباب البوقات ، وهم القلندرية الذين لا يعرفون معنى

التصوف ولا شيئاً من مراسم الدين ، و صرفوا أوقاتهم في التكدي والسؤال من الناس ، و يظنون أنهم تاركون للدنيا مقبلون على الآخرة ، مع أنهم لو ظفروا بشيء من أمور الدنيا لاخذوه بجميع جوارحهم ، فهؤلاء اذل الناس بوجوه كثيرة لا تخفى .

و (منهم) من أغتر بالزي ، والمنطق ، ولبس الصوف ، واطراق الرأس وادخاله في الجيب . وخفض الصوت ، و تنفس الصعداء ، و تحريك البدن في الطول والعرض ، و السقوط الى الارض ، (لا) سيما اذا سمعوا كلاماً في الوحدة والعشق ، مع عدم اطلاعهم على حقيقة شيء منهما . وربما تجاوز بعضهم من ذلك الى الرقص والتصفيق ، وابداء الشهيق والنهيق ، واختراع الازكار ، و التغني بالاشعار وغير ذلك من الحركات القبيحة والهيئات الشنيعة ، و يظن أن العبد بهذه الحركات والافعال يصل الى الدرجات العالية ، ولم يعلم المغرور أنها تقرب العبد الى سخط الله وعذابه .

و (منهم) من وقع في الاباحة ، وطوى بساط الشرع والاحكام ، وترك الفصل بين الحلال والحرام ، يتكالب على الحرام والشبهات ، ولا يحترز عن أموال الظلمة والسلاطين . وربما قال : المال مال الله والخلق عيال الله ، فهم فيه سواء . وربما قال : ان الله مستغن عن عملي ، فأني بحاجة الى ان أتعب نفسي فيه ؟ وربما قال : لا وزن لأعمال الجوارح ، وانما النظر الى القلوب ، وقلوبنا والهة الى حب الله واصله الى معرفة الله . وربما خاضوا في الشهوات الدنيوية ، وقالوا : انها لاتصدنا عن طريق الله . لقوة نفوسنا وقوة أقدامنا فيها ، وانما يحتاج العوام الى تهذيب النفس بالاعمال البدنية ، ونحن مستغنون عنه . فهؤلاء يرفعون درجاتهم عن درجة الانبياء عليهم السلام اذ كانوا يصرحون بأن ارتكاب الامور المباحة فضلا عن الخطايا والمعاصي يصددهم عن طريق الله ، حتى يكون سنين متوالية على ترك الراجح وفعل المرجوح ، فهم أشد الناس غرورا ، وأعظم الخلق حماقة وجهلاً .

و (منهم) من يدعى غاية المعرفة واليقين والوصول الى درجات المقربين ، ومشاهدة المعبود ، ومجاورة المقام المحمود ، والملازمة في عين الشهود ، وتلقف من الطامات كلمات يرددها ، و يظن أنه يتكلم عن الوحي

ويخبر عن السماء ، وينظر الى العباد والفقهاء والمحدثين وسائر اصناف العلماء بعين الحقارة والازدراء ، يقول في العباد : انهم اجراء مبعوثون ، وفي العلماء : انهم بالحديث عن الله لمحجوبون ، ويدعى لنفسه من الكرامات مالا يدعيه نبي ولا ولي ، ويدعى كونه واصلا الى الحق فارغا عن اعباء التكليف ، لاعلمنا احكم ولا عملا هذب ، لم يعرف من المعارف الا أسماء يتفوه بها عند الاغنياء للوصول الى بعض حطامهم الخبيثة ، فهو عند الله من الفخار المنافقين ، وعند ارباب القلوب من الحمقى الجاهلين ، مع ظنه انه من المقربين ، فهو أشد الغافلين المغرورين .

و (منهم) ملامية يرتكبون قبائح الاعمال وشنائع الافعال الموجبة للعبد عن طريق المروة ، ظنا منهم أن هذا موجب لكسر النفس وازالة ذمائم الاخلاق ، ولم يعلموا أن هذه الافعال من الذمائم ، وقد نهى صاحب الشرع عنه .

و (منهم) من أشتغل بالرياضة والمجاهدة ، وقطع بعض المنازل ، ووصل الى بعض المقامات على قدر سعيه ومجاهدته ، الا أنه لم يتم سلوكه وانقطع عن سائر المقامات ، اما لاعتراض مفسد في اثناء السلوك ، او لوقوعه في الاثنا ظنا منه أنه وصل الى الله ولم يصل بعد ، فان الله سبعين حجبا من نور ، ولا يصل السالك الى حجاب من تلك الحجب في الطريق الا ويظن أنه قد وصل ، واليه الاشارة في حكاية الخليل ، حيث رأى أولا كوكبا ، فقال : « هذا ربي » ، ثم انتقل الى القمر ، ثم عنه الى الشمس ، فانه ليس المراد بالكوكب والقمر والشمس هذه الاجسام المضيئة ، فان شأن مثل الخليل أعظم من أن يظن كونها آلهة ، بل هذا ينافي شأنه ورتبته ، فالمراد بها الانوار التي هي من حجب الله ، ويراها السالك في الطريق ، ولا يتصور الوصول الى الله الا بالوصول الى هذه الحجب ، وهي حجب من النور بعضها أعظم من بعض ، فأستعير لفظ الكوكب لصغره لاقل مراتبها ، والقمر لا وسطها ، والشمس لاعظم مراتبها ، والخليل (ع) لم يزل عند سيره في الملكوت يصل الى نور بعد نور ، ويتخيل اليه في أول ما يلقاه انه قد وصل ، ثم انكشف له أن وراءه أمر ، فيترقى اليه حتى وصل الى

الحجاب الاقرب ، فقال : هذا اكبر ، فلما ظهر أنه مع عظمته غير خال عن الهوى في حضيض النقص والانحطاط عن ذروة الكمال ، قال :

((لآحب الآفلين • انى وجهت وجهى • • • (٢٦) •

فسالك هذا الطريق قد يعتر في الوقوف على بعض هذه الحجب ، وربما يعتر بالحجاب الاول ، وأول الحجاب بين الله وبين العبد هو قلبه ، فانه أيضا أمر رباني ونور من أنوار الله ، تتجلى فيه حقيقة الحق كله ، حتى يتسع لجملة العالم ويحيط به وتتجلى فيه صورة الكل ، وعند ذلك يشرق نوره اشراقا عظيما ، اذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه ، وهو في اول الامر كان محجوبا ، فاذا تجلى نوره وانكشف فيه جماله بعد اشراق نور الله - تعالى - ربما التفت صاحب القلب الى القلب ، فيرى من جماله الفائق ما يدهشه ، وربما يسبق لسانه في الدهشه ، فيقول : انا الحق ! فان لهم يتضح له ما وراء ذلك ، اغتر به ووقف عليه وهلك ، وكان قد اغتر بكوكب صغير من انوار الحضرة الالهية ، ولم يصل بعد الى القمر ، فضلا عن الشمس ، فهو مغرور • وهذا محل الالتباس ، اذ المتجلى يلتبس بالمتجلى فيه ، كما يلتبس لون ما يترأى في المرآة فيظن انه لون المرآة ، وكما يلتبس ما في الزجاج بالزجاج فيظن انه لون الزجاج ، كما قيل :

رقّ الزجاج وورقت الخمر فتشابهها وتشاكل الامر

فكأنما خمر ولا قد وكأنما قدح ولا خمر

وبهذه العين نظر النصارى الى المسيح ، فرأوا اشراق نور الله قد تلامأ فيه ، فغلظوا فيه ، كمن يرى كوكبا في مرآة او في ماء ، فيظن ان الكوكب في المرآة او في الماء ، فيمد اليد اليه ، فهو مغرور • وانواع الغرور في طريق السلوك الى الله كثيرة لا تخفى على ارباب البصيرة •

ثم اكثر المتلبسين بلباس العارفين - مع كذبهم فيما يدعونه ، ونقصانهم في طريق السلوك ، وجهلهم بحقيقة الامر ، وعدم قطعهم جل المقامات - يتشبهون بالصادقين من العرفاء في زيهم وهيتهم وآدابهم ومراسمهم والفاظهم ، ظانين انهم بهذا التشبه يصلون الى مراتبهم ، فهيات هيات ! ان الوصول الى درجة

كل أحد انما تحصل بالاتصاف بأوصافه الباطنة والتخلق بأخلاقه النفيسة دون التشبه به في حالاته الظاهرة ، وقد شبههم بعض الاكابر بامرأة عجوز سمعت ان الشجعان من المقاتلين ثبت اسمائهم في الديوان ويقطع لكل واحد منهم قطر من اقطار المملكة ، فتاقت نفسها الى ان تكون مثلهم ، فلبست درعا ، ووضعت على رأسها مغفرا ، وتعلمت من رجز الابطال ابياتا وتعلمت كيفية جولانهم في الميدان ، وتلقفت جميع شمائلهم في الزي والمنطق والحركات والسكنات ، وتوجهت الى المعسكر ليثبت اسمها في ديوان الشجعان ، فلما وصلت اليه ، انفذت الى ديوان العرض ، وامرت بان تجرد عن المغفر والدرع وينظر الى حقيقتها ، وتمتحن بالمبارزة مع بعض الشجعان ليعرف قدر شجاعتهما فلما جردت فاذا هي عجوز ذات منة ضعيفة لا تقدر على شيء فقيل لها : اجئت للاستهزاء بالملك واهل حضرته ؟ خذوها والقوها قدام القيل ، فداسها ونحتها فهكذا يكون حال المدعين للتصوف والعرفان في القيامة ، اذا كشف عنهم الغطاء وصفاته .

وعرضوا الى القاضى الحق الذي لا ينظر الى الزي واللباس بل الى سر القلب

الطائفة السابعة

الافغنياء وارباب الاموال

والمغترون فيهم اكثر من المغترين من سائر الطوائف :
(فمنهم) من يحرص على بناء المساجد والمدارس والرباطات والقناطر وسائر ما يظهر للناس بالاموال المحرمة ، وربما غصب ارض المساجد والمدارس وربما صير لها موقوفات اخذها من غير حلها ، ولا باعث له على ذلك سوى الرياء والشهوة ولذا يسعى في كتابة اسمه على احجارها ليتخلد ذكره ويبقى بعد الموت اثره ، ويظن المسكين انه قد استحق المغفرة بذلك ، وانه مخلص فيه ، ولم يدر انه تعرض لسخط الله في كسب هذه الاموال وفي انفاقها ، وكان الواجب عليه الامتناع عن اخذها من اهله ، واذا عصى الله واخذها ، كان الواجب عليه التوبة وردها الى اهله ، فان لم يبق من اخذها منه ولا ورثته ، كان الواجب ان يتصدق بها على المساكين ، مع انه ربما كان في بلده او في جواره

مسكين يكون في غاية الفقر والمسكنة ولا يعطيه درهما .
(منهم) من ينفق الاموال في الصدقات ، الا انه يطلب الفقراء الذين
عادتهم الشكر والافشاء للمعروف ، ويكره التصديق في السر ، بل يطلب المحافل
الجامعة ويتصدق فيها ، وربما يكره التصديق على فقراء بلده ويرغب ان يعطى
اهل البلاد الأخر مع اكثرية استحقاق فقراء بلده ، طلبا لاشتهاره بالبذل والعطاء
في البلاد الخارجة البعيدة ، وربما يصرف كثيرا منه الى رجل معروف في البلاد
وان لم يكن مستحقا ، ليشتهر ذلك في البلاد ، ولا يعطى قليلا منه الى فقير
له غاية الاستحقاق اذا كان ، خامل الذكر ، يفعل هذا ويظن انه يجلب بذلك الاجر
والثواب ، ولم يدر المغرور ان هذا القصد احبط عمله واضاع ثوابه .
(منهم) من يجمع مالا من غير حله ، ولا يبالي باخذ المال من اي
طريق كان ، ثم يمسكه غاية الامسك ، الا انه لا يبالي بصرف بعضه في طريق
الحج ، اما لنظسه فقط ، او لاولاده وازواجه ايضا ، اما للاشتهار ، او لما
وصل اليه : ان تارك الحج يتلى بالفقر .

(منهم) من غلب عليه البخل ، فلا تسمح نفسه بانفاق شيء من ماله ؛
فيشتغل بالعبادة البدنية من الصوم والصلاة ، فلما منه ان ذلك يكفي لنجاته ،
ولم يدر ان البخل صفة مهلكة لا بد من ازالتها ، وعلاجه : بذل المال دون
العبادات البدنية . ومثله مثل من دخلت في ثوبه حية ، وقد اشرف على الهلاك ،
وهو مشغول بطبخ السكنجبين ليسكن الصفرء ؛ وغافل بان الحية تقتله الآن
ومن قتلته الحية فاي حاجة له الى السكنجبين ؟

وصل

ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد

قد عرفت ان الغرور مركب من الجهل وحب مقتضيات الشهوة والغضب
فضده الفطانة والعلم والزهد فمن كان فطنا كيسا عارفا بربه ونفسه وبالآخرة
والدنيا ، وعالما بكيفية سلوك الطريق الى الله وبما يقربه اليه وبما يبعده عنه ،
وعالما باقات الطريق وعقباته وغوائله ، لاجتنب عن الغرور ولم يغره الشيطان
في شيء من الامور ، اذ من عرف نفسه بالذل والعبودية وبكونه غريبا في هذا
العالم اجنبيا من هذه الشهوات البهيمية ؛ عرف كونه هذه الشهوات مضرقة له

وان الموافق له طبعاً هو معرفة الله والنظر الى وجهه ؛ فلا يسكن نفسه الى شهوات الدنيا ومن عرف الدنيا والآخرة ولدانها وعدم النسبة بينهما ثار في قلبه حب الله والرغبة الى دار الآخرة والانزجار عن الدنيا لذاتها ، واذغلبت هذه الارادة على قلبه صحت نيته في الامور كلها ، فان اكل - مثلاً او اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، واندفع عنه كل غرور منشأه تجاذب الاعراض والنزوع الى الدنيا والى الجاه والمال ؛ ومادامت الدنيا احب اليه من الآخرة وهوى نفسه احب اليه من رضاء الله ؛ لهم يمكنه الخلاص من الغرور . فالاصل في علاج الغرور : ان يفرغ القلب من حب الدنيا ، ويغلب عليه حب الله ؛ حتى تتقوى به الارادة وتصح به النية ويندفع عنه الغرور . قال الصادق (ع) : « واعلم انك لن تخرج من ظلمات الغرور والتسنى الا بصدق الانابة الى الله ، والاخبار له ؛ ومعرفة عيوب احوالك من حيث لا يوافق العقل والعلم ، ولا يحتمله الدين والشريعة وسنن القدوة وأئمة الهدى ، وان كنت راضياً بما انت فيه فما احد اشقى بعملك منك واضيع عمراً ؛ فاورثت حسرة يوم القيامة » . (٢٧)

ومنها :

طول الامل

معنى طول الامل ومرجهه - علاجه - ضد قصر الامل - اختلاف الناس في طول الامل - ذكر الموت مقصر للامل - التعجب ممن ينسى الموت - الموت اعظم الدواهي - مراتب الناس في ذكر الموت . وهو ان يقدر ويعتقد بقاءه الى مدة متمادية ، مع رغبته في جميع توابع البقاء : من المال والاهل والدار وغير ذلك ، وهو من ردائل قوتي العاقلة والشهوة اذ الاعتقاد المذكور راجع الى الجهل المتعلق بالعاقلة ، ووجه لجميع توابع البقاء وميله اليه من شعب حب الدنيا . وجهله راجع الى تعويله : اما على شبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، ولا يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر عشير أهل البلد ، وانما قتلوا لأن الموت في الشباب أكثر ، والى أن يموت شيخ يموت الف صبي وشباب ،

(٢٧) صححناه على مصباح الشريعة - الباب ٣٦ .

أو على صحته وقوته ، ويستبعد مجيء الموت فجأة ، ولا يتأمل في أن ذلك غير بعيد ، ولو سلم بعده فالمرض فجأة غير بعيد ، إذ كل مرض انما يقع فجأة ، واذا مرض لم يكن الموت بعيدا . ولو تفكر هذا الغافل ، وعلم ان الموت ليس له وقت مخصوص ؛ من شباب وشيب وكهولة ، ومن شتاء وخریف وصيف وربيع ، وليل ونهار ، وحضر وسفر ؛ لكان دائما مستشعرا غير غافل عنه ؛ وعظم أشغاله بالاستعداد له ؛ لكن الجهل بهذه الامور وحب الدنيا بعثاه على الغفلة وطول الامل ، فهو أبدا يظن ان الموت بين يديه ، ولا يقدر نزوله ووقوعه فيه ، ويشيع الجنائز ولا يقدر أن تشيع جنازته ، لأن هذا قد تكرر عليه ؛ والفه بتكرر مشاهدة موت غيره . وأما موت نفسه ، فلم يألفه ولا يتصور أن يألفه ؛ لانه لم يقع ، واذا وقع لا يقع دفعة أخرى بعده ، فهو الاول وهو الآخر !

وأما حبه لتوابع البقاء : من المال والدار والمراكب والضياع والعقار ، فراجع الى الانس بها والالتذاذ بها في مدة مديدة ، فيثقل على قلبه مفارقتها ؛ فيمنع قلبه عن التفكير في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، اذ كل من كره شيئا يدفعه عن نفسه . والانسان لما كان مشغوبا بالاماني الباطلة ، وبالذنيا وشهواتها ولذاتها وعلائقها ، فتتمنى نفسه أبدا ما يوافق مراده ، ومراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقرر في نفسه ، ويقدر توابع البقاء من أسباب الدنيا ؛ فيصير قلبه عاكفا على هذا الفكر موقوفا عليه ، فيلهو عن ذكر الموت ولا يقدر قربه ، فان خطر له في بعض الاحيان أمر الموت والحاجة الى الاستعداد له ، سوف ووعد نفسه الى أن يكبر فيتوب . واذا كبر أخر التوبة الى أن يصير شيخنا ، واذا صار شيخا يؤخرها الى أن يفرغ من عمارة هذه الضيعة أو يرجع من سفر كذا أو يفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، ولا يزال يسوف ويؤخر الى ان يخطفه الموت في وقت لا يحتسبه ، فتعظم عند ذلك بليته وتطول حسرته ، وقد ورد أن أكثر اهل النار صياحهم من سوف ، يقولون واحزنانه من سوف ! والمسوف المسكين لا يدري ان الذي يدعو الى التسويف اليوم هو معه غدا ، وانما يزداد بطول المدة قوة ورسوخا ، اذ الخائف في الدنيا

لا يتصور له الفراغ منها قط ، اذ ما قضى من أخذ منها لباتته ، وانما فرغ منها من أطرحها •

فصل

علاج طول الامل

لما عرفت أن طول الامل منشأ الجهل وحب الدنيا ، فينبغي ان يدفع الجهل بالفكر الصافي من شوائب العمى ، وبسماح الوعظ من النفوس الطاهرة ، فان من تفكر يعلم ان الموت أقرب اليه من كل شيء ، وانه لا بد ان تحمل جنازته ويدفن في قبره ، ولعل اللبن الذي يغطي به لحدده قد ضرب وفرغ منه ، ولعل أكفانه قد خرجت من عند القصار وهو لا يدري به • وأما حب الدنيا فينبغي أن يدفع من القلب بالتأمل في حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة ، وما ورد في الاخبار من الذم والعقاب في حب الدنيا والرغبة اليها ، ومن المدح والثواب على تركها والزهد عنها ، وقد تقدم ما يكفى لهذا البيان ، وينبغي - أيضا - أن يتذكر ما ورد في مدح ضد طول الامل - أعني قصر الامل كما يأتي - وما ورد في ذم طول الامل ، كقوله (ص) : « ان أشد ما أخاف عليكم خصلتان : أتباع الهوى ، وطول الامل • فأما اتباع الهوى فانه يصد عن الحق ، وأما طول الامل فانه الحب للدنيا - ثم قال - : ان الله يعطي الدنيا من يحب ويبغض واذا أحب عبدا أعطاه الايمان ، ألا ان للدين ابناء وللدنيا ابناء ، فكونوا من ابناء الدين ولا تكونوا من ابناء الدنيا ، ألا ان الدنيا قد ارتحلت مولية ، ألا ان الآخرة قد اتت مقبلة ، ألا وانكم في يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وانكم يوشك أن تكونوا في يوم حساب ليس فيه عمل » (٢٨) • وقوله صلى الله عليه وآله : « نجا اول هذه الامة باليقين والزهد ، ويهلك آخر هذه الامة بالبخل والامل » • وقول أمير المؤمنين (ع) : « ما أطال عبيد الامل الا أساء الامل » •

(٢٨) صححنا الحديث على احياء العلوم : ٣٨٤ / ٤ ، وهو يرويه عن علي عليه السلام عن النبي (ص) ولكن في كثر العمال : ٢ / ١٦٩ ، يرويه انه من كلام علي (ع) نفسه ، مع اختلاف يسير عن عبارة الاحياء وعبارة الكنز ابلغ وارصن ، وفيه كلمة « الآخرة » بدل (الدين) ، ونفس الكلام مع اختلاف يسير أيضا (وهو ابلغ وأعلى من العبارتين) مروى في نهج البلاغة : رقم ٤١ من باب الخطب ، فراجع .

وصل

قصر الامل

ضد طول الامل قصره ، وهو من شعار المؤمنين ودثار الموقنين ، ولذا ورد في الامر به والنهي عن ضده ما ورد ؛ قال رسول الله (ص) : « اذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، واذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخذ من دنياك لآخرتك ، ومن حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ؛ فانك لا تدري ما أسمك غدا » . وقال (ص) بعدما سمع ان أسامة اشترى وليدة بمائة دينار الى شهر : « ان أسامة لطويل الامل ، والذي نفسى بيده ! ما طرفت عيناى الا ظننت ان شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ، ولا رفعت طرفى فظننت انى واضعه حتى أقبض ، ولا لقيت لقمة الا ظننت انى لا اسيغها حتى اغص بها من الموت » ، ثم قال : « يا بني آدم ! ان كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى ، والذي نفسى بيده ! ان ما توعدون لآن وما أنتم بمعجزين » وروى : « أنه (ص) قد أطلع ذات عشية الى الناس ؛ فقال : أيها الناس ! أما تستحيون من الله تعالى ؟ قالوا : وما ذاك يارسول الله ! قال : تجمعون مالا تأكلون ؛ وتأملون مالا تدركون ، وتبنون مالا تسكنون » . وقال (ص) : اكلكم يجب أن يدخل الجنة ؟ قالوا : نعم يارسول الله ! قال : قصروا من الامل ، وأجعلوا آجالكم بين ابصاركم ، واستحيوا من الله حق الحياء » . وكان (ص) يقول في دعائه : « آلهم انى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل » . وكان (ص) يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ، ويقول لعلى لا أبلغه . وقال عيسى (ع) : « لا تهتموا برزق غد ، فان لم يكن غدا من آجالكم فستأتى أرزاقكم مع آجالكم ، وان لم يكن غدا من آجالكم فلا تهتموا لأرزاق غيركم » .

فصل

اختلاف الناس في طول الامل

الناس في طول الامل وقصره مختلفون : (فمنهم) من يأمل البقاء ويشتهي أبدا ، كما قال الله - سبحانه - :

((يود احدهم لو يعمر الف سنة)) (٢٩)

وهو الذي انعم في الدنيا وخاض في لذاتها ، وليس له من الآخرة نصيب . (ومنهم) من يأمل البقاء الى أقصى مدة العمر الذي يتصور لأهل عصره ، وهو الذي يحب الدنيا حبا شديدا ، ويشتنغل بجمع ما يمكنه في هذه المدة ؛ وربما يجتهد بجمع الازيد منه . (ومنهم) من يأمل أقل من ذلك الى أن ينتهي الى من لا يأمل ازيد من سنة ، فلا يشتغل بتدبير ما وراءها ، ولا يقدر لنفسه وجوده في عام قابل ، فان بلغه حمد الله على ذلك ، ومثله يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف ؛ واذا جمع ما يكفيه السنة أشتنغل بالعبادة . (ومنهم) من يأمل أقل من السنة الى أن ينتهي الى من لا يأمل ازيد من يوم وليلة ، فلا يستعد الا لنهاره دون غده . (ومنهم) من يكون الموت نصب عينيه ، كأنه واقع به وهو ينتظره ، ومثله يصلي دائما صلاة المودعين . وروى : « أن النبي (ص) سأل بعض الصحابة عن حقيقة ايمانه ، قال : ما خطوات خطوة الا ظننت أنني لا أتبعها أخرى » . وكان بعضهم اذا صلى يلتفت يمينا وشمالا ، ولما قيل له : ما هذا الالتفات ؟ قال : « انتظر ملك الموت من أي جهة يأتيني » .

ثم أكثر الخلق - (لا) سيما في أمثال زماننا - قد غلبهم طول الامل ، بحيث يأمل أقل من أقصى مدة السن ، وقل فيهم من قصر أمله ، والعجب أنه كلما يزداد السن يزداد طول الامل ؛ وفي عصرنا أكثر المشايخ والمعمرين حرصهم وطول أملهم أكثر من الشبان ، ومن هنا قال رسول الله (ص) : « يشيب ابن آدم وتشب فيه خصلتان : الحرص ، وطول الامل » . وقال صلى الله عليه وآله : حب الشيخ شاب في طلب الدنيا ، وان التفت ترقوتاه من الكبر ، الا الذين اتقوا ؛ وقليل ما هم » .

ثم يعرف طول الامل وقصره بالاعمال : فمن اعتنى بجمع أسباب لا يحتاج اليها في سنة فهو طويل الامل ، وكذلك من أنتشرت أموره ، بأن يكون له مع الناس معاملات ومحاسبات الى مدة معينة ، كالسنة وأزيد منها ، وكان

عليه ديون من الناس كذلك ، ومع ذلك لم يكن مضطربا ولا خائفا فهو طويل الامل . فعلامة قصر الامل : أن يجمع امره بحيث لا يكون عليه من الناس شيء ، ولا يسعى لطلب قوت الزائد على أربعين يوما ، ويصرف أوقاته في الطاعة والعبادة ، ويرى نفسه كمسافر يجتهد في تحصيل الزاد .

فصل

ذكر الموت مقصر للامل

ذكر الموت يقصر الامل ويدفع طوله ، ويوجب التجافي عن دار الغرور والاستعداد لدار الخلود في فضيلته والترغيب فيه اخبار كثيرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله - : « اكثروا ذكر هادم اللذات » ، قيل : وما هو يارسول الله !؟ قال : « الموت » ، فما ذكره عبد على الحقيقة في منعة الا ضاقت عليه الدنيا ، ولا في شدة الا اتسعت عليه . وقال (ص) - : « تحفة المؤمن الموت » . وقال (ص) « الموت كفارة لكل مسلم » . وقيل له (ص) : هل يحشر مع الشهداء احد ؟ قال : « نعم من يذكر الموت في اليوم واللييلة عشرين مرة » . وقال (ص) : « اكثروا من ذكر الموت ، فانه يمحص الذنوب ، ويزهد في الدنيا » . وقال (ص) : « كفى بالموت واعظا » . وقال (ص) : « الموت الموت » ، الا ولا بد من الموت ، جاء الموت بما فيه ، جاء بالروح والراحة والكرة المباركة الى الجنة عالية لاهل دار الخلود الذين كان لها سعيهم وفيها رغبتهم » وقال (ص) « اذا استحقت ولاية الله والسعادة ، جاء الاجل بين العينين وذهب الامل وراء الظهر ، واذا استحقت ولاية الشيطان والشقاوة ، جاء الامل بين العينين وذهب الاجل وراء الظهر » وذكر عنده (ص) رجل فاحسنوا الشئ عليه فقال (ص) « كيف ذكر صاحبكم للوت ؟ » قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال : « فان صاحبكم ليس هنالك » . وسئل : اي المؤمنين اكيس واكرم ؟ فقال : « اكثرهم ذكرا للموت ، واشدهم استعدادا له » ، اولئك هم الاكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة » . وقال الباقر (ع) : « اكثروا ذكر الموت فانه لم يكثر ذكره انسان الا زهد في الدنيا » . وقال الصادق (ع) : « اذا انت حملت جنازة فكن كأنك انت المحمول ، وكأنك سألت ربك الرجوع الى

الدنيا ففعل، فانظر ماذا تستأنف » ، ثم قال (ع) : « عجباً لقوم حبس اولهم عن آخرهم ، ثم نودى فيهم بالرحيل وهم يلعبون » . وقال (ع) لابي بصير بعد ماشكى اليه الوسواس - : « اذكر يا أبا محمد تقطع اوصالك في قبرك ورجوع احبائك عنك اذا دفنوك في حفرتك ، وخروج بنات الماء من منخريك واكل الدود لحملك ، فان ذلك يسلى عليك ما أنت فيه » ، وقال ابو بصير : فوالله ! ما ذكرته الا سلى عني ما انا فيه من هم الدنيا . وقال (ع) : « من كان كفته معه في بيته لم يكتب من الغافلين » ، وكان ماجورا كلما نظر اليه « (٣٠) . وقال (ع) : « ذكر الموت يمت الشهوات في النفس ، ويقطع منابت الغفلة ، ويقوى القلب بمواعد الله ، ويرق الطبع ، ويكسر اعلام الهوى ، ويطفى نار الحرص ، ويحقر الدنيا ، وهو معنى ما قال النبي (ص) : « فكر ساعة خير من عبادة سنة » ، وذلك عندما يحل اطناب خيام الدنيا ويشهدها في الآخرة ، ولا ينكر نزول الرحمة عند ذكر الموت بهذه الصفة ، ومن لا يعتبر بالموت ، وقلة حيلته ، وكثرة عجزه ، وطول مقامه في القبر ، وتحيره في القيامة : فلا خير فيه . وقال النبي (ص) : « اكثروا ذكر هادم اللذات . . » ثم ذكرت تمام الحديث كامر . . ثم قال (ع) : والموت اول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من الدنيا ، فطوبى لمن اكرم عند النزول بأولها ، وطوبى لمن احسن مشايعته في آخرها ، والموت اقرب الاشياء من بنى آدم ، وهو بعده ابعده ، فما أجزأ الانسان على نفسه ، وما اضعفه من خلق ، وفي الموت نجاة المخلصين وهلاك المجرمين ، ولذلك اشتاق من اشتاق الى الموت وكره من كره ، قال النبي (ص) « من احب لقاء الله احب لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه » (٣١) .

فصل

العجب ممن ينسى الموت

عجباً لقوم نسوا الموت وغفلوا عنه ، وهو اظهر اليقينيات والقطعيات في العالم ، واسرع الاشياء الى بنى آدم ، قال الله - سبحانه وتعالى - :

(٣٠) صححنا اكثر الاحاديث على الوسائل - ج ١ : الباب ٢٣ من ابواب

الاستحضر في كتاب الطهارة - ، وعلى احياء العلوم : ٢٨٣/٤ .

(٣١) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : الباب ٨٤ .

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » (٣٢) . وقال —
« كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار
وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور » (٣٣) .

وقال الصادق (ع): « ما خلق الله يقينا لاشك فيه اشبه بشك لايقين فيه
من الموت » . وقال امير المؤمنين (ع) « ما انزل الموت حق منزلته من عبادة
غدا من اجله » وقال (ع) : « لو راى العبد اجله وسرعته اليه ، لا بغض
العمل من الدنيا » . وقال الصادق (ع) « ما من اهل بيت شعر ولا وبر الا
وملك الموت يتصفحه كل يوم خمس مرات » . وقد تقدمت اخبار اخر في
هذا المعنى .

فصل

الموت اعظم الدواهي

اعلم ان الموت داهية من الدواهي العظمى ، ومن كل داهية اشد وادهى
وهو من الاخطار العظيمة والاهوال الجسيمة ، فمن علم ان الموت مصرعه
والتراب مضجعه والقبر مقره وبطن الارض مستقره ، والدود انيسه والعقارب
والحيات جليسه ، فجدير ان تطول حسرته وتدموم عبرته ، وتنحصر فيه فكرته
وتعظم بليته ، وتشتد لاجله رزيته ، ويروى نفسه في اصحاب القبور ويعدها
من الاموات ، اذ كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بات وحقيق الا يكون
ذكره وفكره وغمه وهمه وقوله وفعله وسعيه وجده الا فيه وله ، قال رسول الله
— صلى الله عليه وآله — : « لو أن البهائم يعلمون ما تعلمون ما اكلتم
منها سمينا » . وقال (ص) لقوم يتحدثون ويضحكون : « اذكروا الموت
اما والذي نفسي بيده ! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » .
ومر (ص) بمجلس قد استعلاه الضحك ، فقال : « شوبوا مجلسكم بذكر
مكدر اللذات » . قالوا : وما مكدر اللذات ؟ قال : « الموت » .

ثم غفلة الناس عن الموت لقلة فكرهم فيه وذكرهم له ، ومن يذكره
ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوات الدنيا وعلائقها ، فلا

(٣٢) النساء ، الآية : ٧٧ .

(٣٣) آل عمران ، الآية : ١٨٥ .

ينفع ذكره في قلبه ، فالطريق فيه : أن يفرغ القلب عن كل شيء الا عن ذكر الموت الذي بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر الى بلد بعيد ما بينهما مفازة مخطرة ، أو بحر عظيم لا بد أن يركبه ، فانه لا يتفكر الا فيه ، ومن تفكر في الموت بهذا الطريق وتكرر منه ذلك ، لاثر ذكره في قلبه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا ، وتزجر نفسه عنها ، وينكسر قلبه ، ويستعد لاجله . وأوقع طريق فيه : أن يكثّر ذكر أقرانه الذين مضوا قبله ، ونقلوا من انس العشرة الى وحشة الوحدة ، ومن ضياء المهود الى ظلمة اللحد ومن ملاءمة الجوارى والغلمان الى مصاحبة الهوام والديدان ، ويتذكر مصرعهم تحت التراب ، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ثم يتفكر كيف محي التراب الان حسن صورتهم ، وكيف تبددت اجزائهم في قبورهم ، وكيف أملوا نساءهم وأيتّموا أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساكنهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم واوحشت ديارهم ، فمهما تذكر رجلا وفصل في قلبه حاله وكيفية صيانة وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وأمله في العيش والبقاء ، ونسيانه للموت ، وانخداعه بمؤثرات الاسباب ، وركونه الى القوة والشباب ، وميله الى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهالك السريع ، وانه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله ، وكيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ، وكيف كان يضحك وقد اكل التراب اسنانه ، وكيف دبر لنفسه الامور وجمع من حطام الدنيا ما لا يتفق احتياجه اليه على مر الاعوام والشهور وكر الازمنة والدهور . ثم يتأمل أنه مثلهم ، وغفلته كغفلتهم ، وسيصير حاله في القبر كحالهم ، فملازمة هذه الافكار وامثالها ، مع دخول المقابر وتشيع الجنائز ومشاهدة المرضى ، تجدد ذكر الموت في قلبه ، حتى يغلب عليه بحيث يصير الموت نصب عينيه وعند ذلك ربما يستعدله ويتجاني عن دار الغرور ، واما الذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان فقليل الجدوى في النية والايقاظ ، ومهما طاب قلبه بشيء من اسباب الدنيا ، فينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقتة . كما نقل : ان بعض الاكابر نظر يوما الى داره فاعجبه حسنها ، فبكى وقال : والله لو لا الموت لكنت بها مسرورا .

فصل

مراتب الناس في ذكر الموت

الناس بين منهمك في الدنيا خائض في لذاتها وشهواتها ، وبين تأيب مبتدئ ، وعارف منتهي .

(فالاول) : لا يذكر الموت ، وان ذكره فيذكره ليدمه لصدده عما يحبه من الدنيا ، وهو الذي يفر منه ؛ وقال الله - تعالى - فيه :

« قل ان الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم . . . » (٣٤)

وهذا يزيد ذكر الموت بعدا من الله ، الا اذا استفاد منه التجافي عن الدنيا ، ويتنصص عليه نعيمة ؛ ويتكدر صفو لذته ، وحينئذ ينفعه ؛ لان كل ما يكدر على الانسان اللذات فهو من أسباب نجاته .

(والثاني) : يكثر ذكر الموت لينبعث من قلبه الخوف والخشية ، فيفي بتمام التوبة ، وربما يكرهه خيفة من أن يختطفه قبل الاستعداد وتهيئة الزاد وتمام التوبة ، وهو معذور في كراهة الموت ؛ ولا يدخل تحت قوله (ص) : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه » ، لان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وانما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ؛ وهو الذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارها للقائه ، وعلامة هذا : أن يكون دائم الاستعداد للموت لاشغل له سواه ، وان لم يكن مستعدا له عاملا بما ينفعه في الآخرة التحق بالاول .

(واما الثالث) : فانه يذكر الموت دائما ، لانه موعد للقائه حبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في الغالب الامر يستبطنه مجيء الموت ويحب مجيئه ، ليتخلص من دار العاصين وينتقل الى جوار رب العالمين كما روي : « أن حذيفة لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا افلح من رده ، اللهم ان كنت تعلم أن الفقر أحب الي من الغنى ، والقسم أحب الي من الصحة ، والموت أحب الي من الحياة ، فسهل علي الموت حتى ألقاك » . وأعلى رتبة منه : من يفوض امره الى الله ، ولا يختار لنفسه شيئا : من الموت

أو الحياة ، والفقر والغنى ، والمرض والصحة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، وهذا قد انتهى بفطر الحب والولاء إلى درجة التسليم والرضى ، وهو الغاية والانتها .

تتميم

المبادرة إلى الحسنات

من علامات قصر الأمل وذكر الموت : المبادرة إلى الحسنات واشتياق الخيرات ، ولذا ورد فيه الترغيب والحدذر عن آفة التأخير ، قال رسول الله - صلى الله عليه وآله - : « اغتنم خمسا قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك » . وقال (ص) : « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ، إلا أن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » (٣٥) . وكان (ص) إذا أحس من أصحابه غفلة وغرة ، نادى فيهم بصوت عال : « اتكتم المنية ، أما بشقاوة أو سعادة » . وروي : أنه ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي : أيها الناس ! الرحيل الرحيل ! . وقال بعض الأكابر : التؤدة في كل شيء خير ، إلا في أعمال الآخرة .
ومنها :

العصيان

ولاريب في كونه من ردائل قوتي الغضب والشهوة معا ، لأن بعض أنواعه من ردائل أحدهما من جانب الإفراط أو التفريط ، أو من باب رداءتها وبعض آخر من أنواعه من ردائل الأخرى . وضده (التقوى والورع) ، وبالمعنى الأعم : اعني الاجتناب عن مطلق المعصية خوفا من سخط الله ، وقد تقدم ما ورد في فضيلتهما ، فتذكر .
ومنها :

الوقاحة

وهو عدم مبالاة النفس ، وعدم انفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية أو العرفية ، وكونه من رداة قوتي الغضب والشهوة ظاهر .

(٣٥) صححنا الحديث على أحياء العلوم : ٣٩٠/٤ . وفي نسخ الكتاب

(اولج ومن اولج) .

ضدها (الحياء) ، وهو انحصار النفس وانفعالها من ارتكاب المحرمات الشرعية والعقلية والعادية حذرا من الدم واللوم ، وهو أعم من التقوى ، اذ التقوى اجتناب المعاصي الشرعية ، والحياء يعم ذلك واجتناب ما يقبحه العقل والعرف ايضا ، فهو من شرائف الصفات النفسية ، ولذا ورد في فضله ما ورد ؛ قال الصادق (ع) : « الحياء من الايمان ، والايمان في الجنة » . وقال (ع) : « الحياء والعفاف والعبي - أعني عي اللسان لا عي القلب - من الايمان » . وقال (ع) : « الحياء والايمان مقرونان في قرن ، فاذا ذهب أحدهما تبعه صاحبه » . وقال (ع) : « لا ايمان لمن لا حياء له » . ثم حقيقة الحياء - كما عرفت - هو الانفعال عن ارتكاب ما يذم شرعا أو عقلا أو عرفا ، فالانفعال عن غير ذلك حمق ، فان الانفعال عن تحقيق احكام الدين أو الخمود عما ينبغي شرعا وعقلا لا يعد حياء بل حمقا ، ولذا قال رسول الله (ص) : « الحياء حياءان : حياء عقل وحياء حمق ؛ فحياء العقل هو العلم وحياء الحمق هو الجهل » (٣٦) .

الاصرار على المعصية

ومنها :

رجوع رذيلة الاصرار الى أي القوى وذمها - ضد الاصرار التوبة وتعريفها - هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟ - وجوب التوبة - تحقيق في وجوبها - عموم وجوبها - لا بد من العمل بعدها - فضيلتها - قبولها - طريقة التوبة من المعاصي - تكفير الصغائر ومعنى الكبائر - الصغائر قد تكون كبائر - شروط كمال التوبة - هل يصح التبعية فيها ؟ - أقسام التائبين - مراتب التوبة - عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة - علاج الاصرار على الذنوب - الانابة - المحاسبة والمراقبة - المعنى الظاهر لهما حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا - مقامات مرابطة الفعل للنفس .

وهو اما ناشيء من رداءة احدى القوتين وخروجها عن اطاعة العاقلة
أو عن رداءتهما معا ، فيكون من رذائل القوتين ، وكل ما يدل على ذم مطلق
المعصية أو على ذم خصوص افرادها المعينة يدل على ذم الاصرار على المعصية
بطريق أولى واؤكد . والاخبار الواردة في ذم خصوص افراد المعاصي ربما
يظفر بجملة منها في هذا الكتاب عنند ذكر كل معصية ، واما الاخبار الواردة
في ذم مطلق الذنب والمعصية فكثيرة جدا ، كقول النبي (ص) : « ما من
يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها الا وملكان يناديان باربعة اصوات ،
يقول أحدهما : ياليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : ياليتهم اذ
خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : فياليتهم اذ لم يعلموا لماذا خلقوا
عملوا بما علموا ، فيقول الآخر : وياليتهم اذ لم يعملوا بما علموا تابوا
مما عملوا . واعلموا أن العبد ليحبس على ذنب من ذنوبه مائة عام ، وانه
لينظر الى أزواجه في الجنة يتنعمن » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « لا تبدين
عن واضحة وقد عمتك الاعمال الفاضحة ، ولا تأمن البيات وقد عملت السيئات » .
وقال الباقر (ع) : « ان الله قضى قضاء حتما ألا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها
اياه حتى يحدث العبد ذنبا يستحق بذلك النعمة » وقال (ع) : « ما من
شيء أفسد للقلب من خطيئة ، ان القلب ليواقع الخطيئة ، فما يزال به حتى
يغلب عليه ، فيصير أعلاه أسفله » . وقال (ع) : « ان العبد ليذنب الذنب
فيزوى عنه الرزق » . وقال الصادق (ع) : « يقول الله - تعالى - : ان
ادنى ما اصنع بالعبد اذا آثر شهوته على طاعتي ان احرمه لذيذ مناجاتي » .
وقال (ع) : « من هم بسيئة فلا يعملها ، فانه ربما عمل العبد السيئة فيراه
الرب - تعالى - فيقول : وعزتي وجلالي ! لا أغفر لك بعد ذلك ابدا » .
وقال (ع) : « اما انه ليس من عرق يضرب ، ولا نكبة ولا صداع ولا
مرض ، الا بذنب ، وذلك قول الله - عز وجل - في كتابه :

« وما اصابكم من مصيبة فيما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير » (٣٧) .

قال (ع) : وما يعفو الله اكثر مما يؤاخذ به » . وقال (ع) : « ان
الرجل يذنب الذنب فيحرم صلاة الليل ، وان العمل السىء أسرع في صاحبه

من السكين في اللحم» . وقال الكاظم (ع) : « حق على الله ألا يعصى في دار الا اضحاها للشمس حتى يطهرها » (٣٨) .

والاخبار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، ولا يتوهم أحد أنه يمكن ألا يصل اليه أثر الذنب ووباله ، فان هذا محال . فانه لم يتجاوز عن الانبياء في تركهم الاولى . فكيف يتجاوز عن غيرهم في كبائر المعاصي . نعم ، كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا الى الآخرة ؛ والاشقياء يمهلون ليزدادوا اثماً ، ويعذبوا في الآخرة عذاباً أكبر واشد ، أما سمعت أن اباك آدم قد اخرج من الجنة بتركه الاولى ؟ حتى روي : « أنه لما أكل الشجرة تطايرت الحلل عن جسده وبدت عورته ، وجاء جبرئيل (ع) واخذ التاج من رأسه وخلقى الاكليل عن جنبه ، ونودي من فوق العرش اهبطا من جواري ، فانه لا يجاورني من عصاني ، فالتفت آدم الى حواء باكياً ، وقال : هذا أول ثموم المعصية ، أخرجنا من جوار الحبيب » . وروي : « أنه - تعالى - قال : يا آدم ! أي جار كنت لك ؟ قال : نعم الجار يارب ! قال يا آدم ! اخرج من جواري وضع عن رأسك تاج كرامتي ، فانه لا يجاورني من عصاني » . وقد روي : « أن آدم بكى على ذنبه مائتي سنة ، حتى قبل الله توبته وتجاوز عما ارتكبه من ترك الاولى » . فان كانت مؤاخذته في نهي تنزيه مع حبيبه وصفيه هكذا ، فكيف معاملته مع الغير في ذنوب لا تحصى .

وصل

التوبة وتعريفها

ضد الاصرار (التوبة) ، وهي الرجوع من الذنب القولي والفعلية والفكري ، وبعبارة اخرى : هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من العبد الى القرب ، وبعبارة اخرى : ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير . وكما ان الاصرار على العصيان من رذائل قوتي الغضب والشهوة ، فالرجوع عنه وتركه من فضائلهما ، بمعنى

(٣٨) صححنا الاحاديث هنا على اصول الكافي « باب الذنوب »

أن العزم على ترك كل معصية يكون من عمل كليهما أو احدهما ، ومن فعل النفس باعانتها وانقيادها للعاقلة ، وان كان الباعث على الرجوع وتهيج النفس والقوتين على مباشرة الرجوع والترك هو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين المحبوب ، ويمكن أن يقال : ان التوبة هو الرجوع عن الذنب ؛ وهو من ثمرات الخوف والحب ؛ فان مقتضى الحب أن يمثل مراد المحبوب ولا يعصى في شيء مما يريده ويطلب من الحب ، فتكون من فضائل القوتين أيضا . ويمكن أن يقال : ان التوبة عبارة عن مجموع العلم بضرر الذنوب ، وكونها حجابا بينه وبين الله ، والندم الحاصل منه ؛ والقصد المتعلق بالترك حالا واستقبالا ، والتلافي للماضي والندم ، والقصد بالترك والتلافي من فعل القوتين او فعل النفس بوساطة القوتين وانقيادهما للعاقلة ، والعلم المذكور من العاقلة ؛ فتكون التوبة من فضائل القوى الثلاث .

وتوضيح حقيقة التوبة : أنه اذا علم العبد علما يقينيا أن ما صدر عنه من الذنوب حائلة بينه وبين محابه ، ثار من هذا العلم تألم القلب بسبب فوات المحبوب ، وصار متأسفا على ما صدر عنه من الذنوب ، سواء كانت افعالا أو تروكا للطاعات ؛ ويسمى تألمه — بسبب فعله او تركه المفوت لمحجوبه — ندما . واذا غلب هذا الندم على القلب ، انبعثت منه حالة اخرى تسمى ارادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال بترك الذنب الذي كان ملابسا له ، وبلاستقبال بعزمه على ترك الذنب المفوت لمحجوبه الى آخر عمره ، وبالماضي بتلافيه ما فات بالجبر والقضاء . فالعلم — أعني اليقين بكون الذنوب سמוما مهلكة — هو الاول ، وهو مطلع البواقى ، اذ مهما اشرق نور هذا اليقين على القلب أثمر نار الندم على الذنب ، فيتألم به القلب ، حيث ينظر باسراق نور الايمان واليقين انه صار محجوبا عن محجوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب او انحصار حجاب ، فيرى محجوبه قد اشرف على الهلاك ؛ فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبعث بتلك النيران ارادته للانتهاض للتدارك . فالعلم ، والندم ، والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي : ثلاثة معان مترتبة في

الحصول ، يطلق اسم (التوبة) على مجموعها • وربما اطلقت التوبة على مجرد الندم ، وجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والتترك كالثمره والتابع للمتأخر ، والى هذا الاعتبار يشير قوله (ص) : « الندم توبة » ، اذ لا يخلو الندم عن علم اوجبه واثمره ، أو عن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوظا بطرفيه ، اعني ثمرته ومثمره • وبهذا الاعتبار قيل في حدها : انها ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ ، أو نار في القلب تلتهب وصدع في الكبد لا ينشعب ، وربما اطلقت على مجرد ترك الذنوب حالا والعزم على تركها استقبالا ، وبهذا الاعتبار قيل في حدها : انها خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء ، وانها تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحموده ، أو انها ترك اختيار الذنب حالا وتوطين القلب وتجريد العزم على عدم العود اليه استقبالا • وعلى هذا لا يكون الندم داخلا في حقيقة التوبة ، وقد صرح بعض الاعاظم بخروجه عنها ، محتجا بأن الندم - وهو تألم القلب وحزنه على الذنب - غير مقدور ؛ ولذا ترى تقع الندامة على امور في قلبه وهو يريد ألا يكون ذلك فلا يكون الندم مقدورا ، وانما المقدور تحصيل اسبابه ، أعني الايمان والعلم بفوات المحبوب وتحقيقهما في قلبه • وعلى هذا فلا يكون الندم من التوبة ، اذ التوبة مقدورة للعبد ومأمور بها ، فاللازم فيها التندم دون الندم • وغير خفي بأن الندم كغيره من صفات النفس ، فان أمكن ازالة الصفات النفسية وكسبها فالندم كذلك ، والا لزم بطلان علم الاخلاق بالكلية وايضا اذا امكن تحصيل سبب الندامة - اعني العلم بفوات المحبوب - لزم ترتب المسبب - اعني الندامة عليه - فما معنى عدم كونه مقدورا ، فالندامة في الازالة والتحصيل لا يكون اصعب من كثير من الاخلاق النفسية وبعضهم يعد ماعدا التندم من شرائط التوبة ، قال « وأما الندم المحبوب - لزم ترتب المسبب - اعني الندامة عليه - فما معنى عدم كونه التوبة حقيقة ، وانما المقدور تحصيل اسبابه من العلم والايمان وتحقيقهما في قلبه » انتهى • وفيه مالا يخفى بعلاوة ما سبق ، قال الصادق (ع) : «التوبة جبل الله ومدد عنايته ، ولا بد للعبد من مداومة التوبة على كل حال وكل فرقة من العباد لهم توبة ، فتوبة الانبياء من اضطراب السر وتوبة

الاولياء من تلوين الخطرات ، وتوبة الاصفياء من التنفيس ، وتوبة الخاص من الاشتغال بغير الله ، وتوبة العام من الذنوب ، ولكل واحد منهم معرفة وعلم في اصل توبته ومنتهى أمره ، وذلك يطول شرحه هنا .
وأما توبة العام ، فإن يغسل باطنه من الذنوب بماء الحسرة ، والاعتراف بجنايته دائما ، واعتقاد الندم على ما مضى ، والخوف على ما بقى من عمره ولا يستصغر ذنوبه فيحمله ذلك الى الكسل ، ويديم البكاء والاسف على ما فاته من طاعة الله ، ويحبس نفسه عن الشهوات ، ويستغيث الى الله تعالى ليحفظه على وفاء توبته ويعصمه عن العود الى ما سلف ، ويروض نفسه في ميدان الجهاد والعبادة ، ويقضى عن الفوائت من الفرائض ، ويرد المظالم ، ويعتزل قرناء السوء ، ويسهر ليله ويظمأ نهاره ، ويتفكر دائما في عاقبته ، ويستعين بالله سائلا منه الاستقامة في سرائه وضرائه ، ويثبت عند المحن والبلاء كيلا يسقط عن درجة التوايين ، فان في ذلك طهارة من ذنوبه ، وزيادة في عمله ، ورفعته في درجاته . قال الله - عز وجل - :

« فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين » (٣٩ - ٤٠) .

تمة

هل يشترط في التوبة القدرة على الذنب السابق ؟

التوبة انما تكون عن ذنب سبق مثله ، (أما) (٤١) ترك ذنب لم يسبق مثله حالا والعزم على تركه استقبالا لا يسمى توبة ، بل يسمى تقوى ، ويسمى صاحبه متقيا لا تائبا ، ولذا يصح القول بأن النبي (ص) كان متقيا عن الكفر ، ولا يصح القول بأنه كان تائبا عنه . ثم المراد بالمثل السابق أعم من أن يكون مثلا في الصورة أو المنزلة ، فالشيخ الهيم الذي سبق منه الزنا وقطع الطريق ، ولم يقدر الساعة على فعلهما اذا أراد التوبة عنهما ، ينبغي أن يتوب عما يماثلهما منزلة ودرجة ، كالتدفع والسرقة وأمثالهما ، اذ لا معنى للتوبة عما يماثلهما صورة - اعني نفس الزنا وقطع الطريق -

(٣٩) العنكبوت ، الآية : ٣

(٤٠) صححنا هذه الرواية على « مصباح الشريعة : الباب ٨٠ » .

(٤١) وفي النسخ « او » بدل « أما » ، والصحيح ما ثبتناه .

مع عدم قدرته عليهما ، ولو لم تكن التوبة عما يماثل الشيء في المنزلة والدرجة توبة عن هذا الشيء ، لزم ان يكون باب التوبة مسدودا بالنسبة الى مثل الشيخ الهم وكل من صدر منه معصية والآن لا يقدر عليها ، وهو باطل ، لافتتاح باب التوبة الى الموت ، ولما ذكر ، قال بعض المشايخ في حد التوبة : « انها ترك اختيار ذنب سبق مثله منه منزلة لاصورة ، تعظيما لله وحذرا من سخطه » . فقوله : « سبق مثله » احتراز عن ترك ذنب لم يسبق مثله ، فانه لا يسمى توبة بل تقوى ، وقوله : « منزلة لاصورة » لادخال التوبة عما سبق ولا يقدر الآن على فعله ، وعلى هذا فتوبة العينين عن النظر واللمس وأمثال ذلك يكون توبة عن الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، والظاهر ان بناء ذلك على دلالة توبته عما يقدر عليه الآن ، على أنه لو كان قادرا على الزنا لتركه أيضا ، لاشعاره بأن توبته صدرت عن معرفة ويقين بضرر الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ، فلو كان قادرا عليه لتركه أيضا .

قال أبو حامد الغزالي : « ان قلت : هل تصح توبة العينين من الزنا الذي قارفه قبل طريان العنة ؟ قلت : لا ! لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فيما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله ، فقد أنعدم بنفسه لا بتركه اياه » ، ثم قال : « ولكنني أقول : لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذي قارفه ، وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الوقاع باقية لكانت حرقه الندم تقمع تلك الشهوة وتغلبها ، فاني أرجو ان يكون ذلك مكفرا لذنبه وماحيا عنه سيئته ، اذ لا خلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين ، وان لم تطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتتيسر أسباب قضاء الشهوة ، ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده ، فاذن لا يستحيل ان تبلغ قوة الندم في حق العينين هذا المبلغ الا أنه لا يعرفه من نفسه ، فان كل من لا يشتبه شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف ، والله مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه ، فعساه يقبله منه ، بل الظاهر انه يقبله . والحقيقة في هذا كله ترجع الى أن ظلمة

المعصية تمنحي عن القلب بشيئين : - أحدهما - حرقة الندم ، و - الآخر -
شدة المجاهدة بالترك في المستقبل ، وقد أمتنعت المجاهدة بزوال الشهوة ،
ولكن ليس محالا أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة،
ولولا هذا لقلنا : أن التوبة لا تقبل ما لم يعش التائب بعد التوبة مدة يجاهد
نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة ، وذلك مما يدل ظاهر الشرع على
أشراطه » •

فصل

وجوب التوبة

التوبة عن الذنوب بأسرها واجبة : بالاجماع ، والنقل ، والعقل :
أما الاجماع - فلا ريب في انعقاده • وأما النقل - فكقوله تعالى :
« وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون » (٤٢) • وقوله تعالى
« ياأيها الذين آمنوا توبوا الى الله نصوحا عسى ربكم ان يكفر عنكم سيئاتكم » (٤٢)
ومعنى النصوح : الخالص لله خاليا عن شوائب الاغراض ، من مال
أو جاه أو خوف من سلطان أو عدم أسباب ، والامر للوجوب ، فتكون
التوبة واجبة بمقتضى الآيتين •

وأما العقل - فهو أن من علم معنى الوجوب ومعنى التوبة فلا يشك
في ثبوته لها • (بيان ذلك) : أن معنى الواجب وحقيقته هو ما يتوقف
عليه الوصول الى سعادة الابد والنجاة من هلاك السرد ، ولولا تعلق
السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن معنى لوجوبه ، فالواجب
ما هو وسيلة وذريعة الى سعادة الابد • ولا ريب في أنه لاسعادة في دار
البقاء الا في لقاء الله والانس به ، فكل من كان محجوبا عن اللقاء والوصول
محروما عن مشاهدة الجلال والجمال ، فهو شقى لامحالة ، محترق بنار الفراق
ونار جهنم • ثم لا مبعث عن لقاء الله الا اتباع الشهوات النفسية والغضب والانس
بهذا العالم الفاني ، والاكباب على حب ما لا يلد من مفارقتة قطعا ، ويعبر عن

(٤٢) النور ، الآية : ٣١ •

(٤٣) التحريم ، الآية : ٨

ذلك بالذنوب ، ولا مقرب من لقاء الله الا قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم ، والاقبال بالكلية على الله ، طلبا للانس به بدوام الذكر ، والمحبة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته ، ولا ريب في أن الانصراف عن طريق البعد الذي هو الشقاوة واجب للوصول الى القرب الذي هو السعادة ، ولا يتم ذلك الا بالتوبة التي عبارة عن العلم والندم والعزم ، ولا يتم الواجب الا به ، فهو واجب ، فالتوبة واجبة قطعاً .

تذنيب

تحقيق في وجوب التوبة

كيف لا تكون التوبة عن المعاصي واجبة ، مع أن العلم بضرر المعاصي وكونها مهلكة من اجزاء الايمان ووجوب الايمان ومما لا ريب فيه ، والعالم بهذا العلم اذا لم يعمل به فكما لا يعلمه او ينكره فلا يكون له هذا الجزء من الايمان ، لأن كل علم يراد ليكون باعثاً على العمل ، فلا يقع التفصي عن عهدته ما لم يصير باعثاً ، فالعلم بضرر الذنوب انما أريد ليكون باعثاً على تركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الايمان ، وهو المراد بقول النبي (ص) : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » ، وما اراد به نفي الايمان بالله ووحدانته وصفاته وكتبه ورسله ، فان ذلك لا ينافي الزنا والمعاصي ، وانما اراد به نفي الايمان بالله لكون الزنا مبعداً عن الله وموجباً لسخطه ، وليس الايمان باباً واحداً ، بل هو - كما ورد - نيف وسبعون باباً ، أعلاها الشهادتان وأدناها اماطة الاذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل: ليس الانسان موجوداً واحداً ، بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها الروح والقلب وأدناها اماطة الاذى عن البشرية ، بأن يكون مقصوص الشارب مقلوم الاظفار نقي البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسله المتلوثه باروائها ، المستكرهة الصور بطول مخالبتها واظفارها ، فالايمن كالانسان ، وفقد الشهادتين كفقده الروح الذي يوجب البطلان بالكلية ، والذي ليس له الا شهادة التوحيد والرسالة ويترك سائر أجزاءه من الاعمال ، فهو كالانسان مقطوع الاطراف مفقوء العينين ، فاقد لجميع اعضاءه الظاهرة والباطنة ،

الا أصل الروح • وكما أن من هذا حاله قريب من الموت ومزايلة الروح الضعيفة المنفردة التي تخلفت عنها الاعضاء التي تمدها وتقويها ، فكذلك من ليس له الا أصل الايمان وهو مقصر في الاعمال ، قريب من أن تنقلع شجرة ايمانه اذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للايمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده ، فكل ايمان لم يثبت في النفس أصله ولم تنتشر في الاعمال فروعها ، لم يثبت على عواصف الالهوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة ، فالمحجوب عن الايمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الايمان الذي هو أصل ، كما أن الشخص الفاقد لجميع الاطراف التي هي فروع ليساق الى الموت المعدم للروح التي هي أصل ، فلا بقاء للأصل دون الفرع ، ولا وجود للفرع دون الاصل ، ولا فرق بين الاصل والفرع الا في شئ واحد ، وهو أن وجود الفرع وبقائه جميعا يستدعى وجود الاصل ، وأما وجود الاصل فلا يستدعى وجود الفرع ، ولكن بقاءه يستدعى وجود الفرع ، فبقاء الاصل بالفرع ووجود الفرع بالاصل ، فمساواة العاصي والمطيع في اسم المؤمن ك مساواة شجرة القرع وشجرة الصنوبر في اسم الشجرة ، وانما يظهر الفرق اذا عصفت الرياح القوية ، فعند ذلك تنقطع أصول شجرة القرع وتتناثر أوراقها ، وتبقى شجرة الصنوبر ثابتة على أصلها وفرعها • ومثل العاصي الذي لا يخاف الخلود في النار لاجل معصيته اتكالا على ايمانه بالتوحيد والرسالة ، كمثل الصحيح الذي ياكل الاغذية المضرة والسّمومات ولا يخاف الموت اتكالا على صحته ، فكما يؤدي صحة هذا الصحيح بتناوله السمومات والاغذية الى المرض والمرض الى الموت ، فكذلك تؤدي ذنوب العاصي الى سوء الخاتمة الى الخلود في النار ، فالمعاصي للايمان كالسمومات والماكولات المضرة للابدان ، فكما ان مضرة السمومات لاتزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الاخلاق وهو لا يشعر بها الى ان يفسد المزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة ، فكل آثار المعاصي لاتزال تتراكم في النفس حتى يفسد مزاجها فيسلب عنها اصل الايمان فالحائف من الموت في هذه النشأة القصيرة اذا وجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات ، فالحائف من الهلاك الابد اولى بان يجب ترك

الذنوب ، ومن تناول السم وندم اذا وجب عليه ان يتقياً ويرجع عن تناوله باخراجه عن المعدة ، فمتناول سموم الايمان وهى الذنوب اولى بان يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام مهلة التدارك .

فالبدار البدار معاشر اخوانى الى التوبة ! قبل ان تعمل سموم الذنوب بروح ايمانكم عملاً لا ينفع بعده الاحتماء ، ويخرج الامر فيه عن ايدى اطباء القلوب ، فلا ينفع حينئذ وعظ الواعظين ونصح الناصحين ، وتحقق عليكم كلمة العذاب . وتدخلون تحت عموم قوله — تعالى — :

« وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » (٤٤) وقوله تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة » (٤٥) . . . وغير ذلك من الآيات .

ثم مقتضى الادلة المذكورة : كون التوبة على الفور ، فيجب على كل مسلم ان يتوب عن ذنوبه فوراً ، ولا يجوز له التأخير . قال لقمان لابنه : « يابنى ! لا تؤخر التوبة ، فان الموت ياتى بغتة » . ومن ترك المبادرة الى التوبة بالتسوية كان بين خطرين عظيمين : — احدهما — ان تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصى حتى يصير ديناً وطبعاً فلا يقبل المحو — والثانى — ان يعالجه المرض او الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو . ولذلك ورد : ان اكثر صياح اهل النار من التسوية ، فما هلك من هلك الا بالتسوية .

فصل

عموم وجوب التوبة

وجوب التوبة يعم الاشخاص والاحوال ، فلا ينبغي ان ينفك عنه احد في حالة ، قال الله تعالى — :

« وتوبوا الى الله جميعاً » (٤٦) .

وهو يعم الكل في الكل . ومما يدل على وجوبها على الكل : ان كل فرد من افراد الناس اذا بلغ سن التمييز والتكليف قام القتال والنزاع في مملكة

(٤٤) يس ، الآية : ٩ .

(٤٥) البقرة ، الآية : ٧ .

(٤٦) النور ، الآية : ٣١ .

بدنه ، بين الشهوات جنود الشياطين ، وبين العقول احزاب الملائكة ، اذ لا تكمل غريزة العقل في احد الا بعد كمال غريزة الشهوة والغضب وسائر الصفات المذمومة ، واذا قام القتال بينهما لا بد بحكم العقل والشرع ان يغلب جنود الله على جنود الشيطان بقمعها بكسر الشهوات ، ورد النفس على سبيل القهر والغلبة على الصفات المحمودة والعبادات ، والامعنى لوجوب التوبة الا هذا . مما يدل على وجوبها على الدوام وفي كل حال هو ان كل عبد لا يخلو عن معصية بجوارحه ، فان خلا في بعض الاحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن رذائل النفس والههم بالذنوب بالقلب فان خلا عن ذلك ايضا فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بايراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وبصفاته وآثاره ، وكل ذلك نقص يجب الرجوع عنه وهو معنى التوبة .

ولعدم خلو احد من الخلق من نوع هذا النقص واصله في حالة ، وان تفاوتوا في المقادير ، يلزم وجوب التوبة على كل عبد في كل حالة ، ولو خلا عن التوبة عن جميع الذنوب في لحظة واختطفه الموت ، لزم خروج روحه بلا توبة ، ولعدم انفكاكه قبل موته ولو بلحظة عن فرد من المعاصي المذكورة فالتوبة واجبة على كل عبد سالك في كل نفس من انفاسه ، قال بعض العرفاء (٤٧) : « لو لم يبك العاقل فيما بقى من عمره الا على فوت ماضى من عمره في غير طاعة الله ، لكان حقيقا ان يخزيه (٤٨) ذلك الى الممات ، فكيف من يستقبل ما بقى من عمره بمثل ماضى من جهله » . ومن عرف قدر العمر وفائده وما يكتسب به من سعادة الابد يعلم ان ما يصنع منه في المعصية وغير التوبة أى حسرة وندامة يترتب عليه ، فان العاقل اذا ملك جوهرة نفيسة ، فان ضاعت منه بغير فائدة بكى عليها لامحالة ، وان ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكأوه منه اشد ، وكل نفس من العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها لا يصلها لعبد الى سعادة الابد وانقاذها اياه من شقاوة السرد ، واى جوهر انفس من هذا ، فمن ضيعها في غفلة خسر خسرانا مبينا ، ومن صرفها في

(٤٧) هو ابو سليمان الدرائى فيما نقل عنه في احياء العلوم : ١٠ / ٤٠ .

(٤٨) فى نسخ جامع السعادات (يجزيه) .

معصية فقد هلك هلاكاً ابدياً • وقد قيل : ان الله — تعالى — عبده سرين يسرهما اليه على سبيل الالهام : — احدهما — اذا خرج من بطن امه يقول له عبدي! قد اخرجتك الى الدنيا طاهراً لطيفاً واستودعتك عمرك واثمنتك عليه فانظر كيف تحفظ الامانة ، وانظر كيف تلقاني • — والثاني — عند خروج روحه يقول : عبدي ماذا صنعت في امانتي عندك ، هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فالقائك على الوفاء ؟ او اضعتها فالقائك بالمطالبة والعقاب ؟ • واليه الاشارة بقوله — تعالى :

« اوفوا بعهدي اوف بعهديكم » (٤٩) وبقوله تعالى : « والذين هم لاماناتهم

وعهدهم راعون » (٥٠)

وقد روى : ان ملك الموت اذا ظهر للعبد عند موته اعلمه انه قد بقى من عمره ساعة لا تستأخر عنها طرفة عين ، فيبدو للعبد من الحزن والحسرة والاسف ما لو كانت له الدنيا بحدافيرها لاعطاها بدل ان يضم الى تلك الساعة ساعة اخرى ليتدارك فيها تفريطه ، ولا يجد اليها سبيلاً • وقد روى — ايضا — انه اذا كشف الغطاء للعبد قال لملك الموت : اخرنى يوماً اعتذر فيه الى ربي واتوب ، واتزود صالحاً لنفسى ، فيقول : فنيت الايام فلا يوم ، فيقول : اخرنى ساعة ، فيقول : فنيت الساعات فلا ساعة ، فيغلق عليه باب التوبة ، فيغرغر بروحه ، وتتردد انفاسه في شرايينه ، ويجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب اصل ايمانه في صدمات تلك الاهوال ، فاذا زهقت نفسه ، فان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد ، وذلك حسن الخاتمة ، وان سبق له القضاء بالشقوة — والعياذ بالله — خرجت روحه على الشك والاضطراب ، وذلك سوء الخاتمة •

تذنيب

التوبة عن بعض المعاصى المذكورة — اعنى المحرمات وترك الواجبات — واجب بفتوى الشرع ، بمعنى ان التارك لهذه التوبة والمرتكب لهذه المعاصى يكون معذباً بالنار ، وهذا الوجوب يشترك فيه كافة الخلق ، وتكليف الجميع

(٤٩) البقرة ، الآية ١٠٤

(٥٠) المؤمنون الآية ٨ ، المعارج الآية : ٣٢

به لا يوجب فسادا في النظام الكلي * واما التوبة عن بعض آخريتها، كالخواطر والهيم الطارية على القلب والقصور عن معرفة كنه جلال الله وعظمته وامثال ذلك، فليس واجبا بهذا المعنى، لمنافاته انتظام العالم * اذ لو كلف الخلق كلهم ان يتقوا الله حق تقاوته، لتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية، وذلك يؤدي الى بطلان التقوى راسا، لانه ان فسدت المعاش لم يتفرغ احد للتقوى * فالتوبة عن كل ما هو المرجوح ليست واجبة بهذا الاعتبار، بل هي واجبة بمعنى آخر، وهو ما لا بد منه للوصول به الى غاية القرب الى الله، والى المقام المحمود والدرجات العالية، فمن رضى باصل النجاة وقنع به لم تكن هذه التوبة واجبة عليه، ومن طلب الوصول الى ما ذكر وجبت عليه هذه التوبة وجوبا شرطيا، بمعنى توقف مطلوبه عليه، كما جرت عليه طوائف الانبياء والاولياء واكابر العرفاء والعلماء، ولاجله رفضوا لذات الدنيا بالكلية * وعلى هذا فما ورد من استغفار الانبياء والاصياء وتوبتهم انما هو من ترك دوام الذكرو غفلتهم عن مقام الشهود والاستغراق لاجل اشتغالهم بالمباحات لاعتن ذنوب كذوبنا، لتعاليمهم وتقديسهم عن ذلك * قال الصادق (ع): « ان رسول الله كان يتوب الى الله ويستغفره في كل يوم وليلة مائة مرة من غير ذنب * ان الله تعالى يخص اولياءه بالمصائب، وليأجرهم عليها من غير ذنب كذوبنا، فان ذنب كل احد انما هو بحسب قدره ومنزلته عند الله » * وبمضمونه اخبار اخر *

فصل

لابد من العمل بعد التوبة

لا يكفي في تدارك الشهوات والتوبة عن الذنوب مجرد تركها في المستقبل بل لابد من محو آثارها التي انطبعت في جوهر النفس بنور الطاعات، اذ كل شهوة ومعصية صدرت من الانسان ارتفعت منها ظلمة الى قلبه، كما ترتفع من نفس الانسان ظلمة الى وجه المرأة الصقيلة، فان تراكت ظلمة الشهوات والمعاصي صارت رينا، كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثا، كما قال - تعالى - :

((كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون)) (١)

فاذا تراكم الرين صار طبعا فيطبع على قلبه ، كما ان الخبث في وجه المرأة اذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وافسده ، وصار بحيث لايقبل التصقيل بعده فالتائب من الذنوب لا بدله من محو تلك الآثار التي انطبعت منها في نفسه ، ولايكفى مجرد تركها في المستقبل ، كما لايكفى في تصقيل المرأة وظهور الصور فيها قطع الانفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل ، ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الآثار ، وكما ترتفع الى النفس ظلمة من المعاصي والشهوات فتظلمها ، فكذلك يرتفع نور من الطاعات وترك الشهوات فينورها ، ولهذا النور تنمحي ظلمة المعاصي والشهوات ، واليه الاشارة بقوله (ص) « اتبع السيئة الحسنة تمحها » . فاذن لا يستغنى العبد في حال من احواله من محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات ، بمعنى ان تكون الحسنة التي ترتكب لمحو السيئة مناسبة لتلك السيئة ، لقوله (ص) « اتق الله حيث كنت » ولان المرض يعالج بضده فكل ظلمة ارتفعت الى القلب ، فلا يمحوها الا نور يرتفع اليه من حسنة تضادها ، اذ الضد انما يرتفع بالضد ، فيكفر سماع الملاحى بسماع القرآن وبحضور مجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنبا بالعبادة فيه ، ويكفر مس المصحف محدثا باكرامه وتقبيله وكثرة قراءته ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق لكل شراب حلال هو احب اليه . . الى غير ذلك وليس ذلك - اى ايقاع المناسبة شرط في المحو ، فقد روى : « ان رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وآله : اني عالجت امرأة فاصبت منها كل شيء الا الميسس ، فاقض علي بحكم الله فقال : اما صليت معنا ؟ قال : بلى ! فقال : ان الحسنات يذهبن السيئات » .

وينبغي ان تكون التوبة عن قرب عهد بالخطيئة ، بان يتندم عليها ويمحو آثارها قبل ان يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، قال الله تعالى - :
« انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب » (٢)
أي عن قرب عهد بعمل السوء . وقال : « وليست التوبة للذين يعملون السيئات

حتى اذا حضر احدهم الموت قال انى تبت الآن» (٣)

قال الصادق (ع) : « ذلك اذا عاين امر الآخرة » وقد ورد مثله عن رسول الله (ص) ايضا .

فصل

فضيلة التوبة

اعلم ان التوبة اول مقامات الدين ، ورأس مال السالكين ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع التقرب الى رب العالمين ، ومدحها عظيم ، وفضلها جسيم ، قال الله - تعالى - :

« ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (٤)

وقال رسول الله (ص) : « التائب حبيب الله ، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له » . وقال الباقر (ع) : « ان الله تعالى أشد فرحا بتوبة عبده من رجل أضل راحلته وزاده في ليلة ظلماء فوجدها ، فانه أشد فرحا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها » . وقال (ع) : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمقيم على الذنب وهو مستغفر منه كالمستهزىء » . وقال الصادق (ع) : « ان الله يحب من عباده المفتن التواب » : يعنى كثير الذنب كثير التوبة . وقال (ع) : « اذا تاب العبد توبة نصوحا ، أحبه الله فستر عليه » ، فقلت : وكيف يستر عليه ؟ قال : « ينسى ملكيه ما كانا يكتبان عليه ، ويوحى الى جوارحه والى بقاع الارض أن أكتفى عليه ذنوبه ، فيلقى الله - عز وجل - حين يلقاه وليس شىء يشهد عليه بشىء من الذنوب » . وقال الصادق (ع) : « ان الله - عز وجل - اعطى التائبين ثلاث خصال لو أعطى خصلة منها جميع أهل السماوات والارض لنجوا بها : قوله - عز وجل - :

« ان الله يحب التوابين . . . » الى آخره (٥) وقوله : « الذين يحملون

(٣) النساء ، الآية : ١٧

(٤) البقرة ، الآية : ٢٢٢

(٥) البقرة ، الآية : ٢٢٢

العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فأغفر للذين تابوا - الى قوله - وذلك هو الفوز العظيم» (٦) . وقوله : « والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً ، الا من تاب وآمن - الى قوله - وكان الله غفورا رحيماً » (٧) .

وقال أبو الحسن - عليهما السلام - : « أحب العباد الى الله المنيبون »
• التوابون »

فصل قبول التوبة

التوبة المستجمعة لشرائطها مقبولة بالاجماع ، ويدل عليه قوله تعالى :
« هو الذي يقبل التوبة عن عباده » (٨) . وقوله - تعالى - : « غافر الذنب وقابل التوب » (٩) . وقوله - تعالى - : « ومن يعمل سوءاً او يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيماً » (١٠) .

وقول النبي (ص) : « ان الله تعالى يبسط يده بالتوبة لمسيء الليل الى النهار ولمسيء النهار الى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها » ، وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، وطالب التوبة يقبله ألبتة . وقوله (ص) : « ان الحسنات يذهبن السيئات ، كما يذهب الماء الوسخ » . وقوله (ص) : « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم ، لتاب الله عليكم » . وقوله (ص) : « ان العبد ليذنب الذنب فيدخل في الجنة » ، قيل : كيف ذلك يارسول الله ! قال : « يكون نصب عينيه تائباً منه فاراً حتى يدخل الجنة » . وقوله (ص) : « كفارة الذنب الندامة » . وقوله صلى الله عليه وآله : « من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته » ثم قال :

(٦) المؤمن ، الآية : ٧ - ٩ .

(٧) الفرقان ، الآية : ٦٨ - ٧٠ .

(٨) الشورى ، الآية : ٢٥ .

(٩) المؤمن ، الآية : ٣ .

(١٠) النساء ، الآية : ١٠٩ .

ان السنة لكثير ، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته * ثم قال : ان الشهر لكثير ، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته * ثم قال : ان الجمعة لكثير ، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته * ثم قال : ان يوما لكثير ، من تاب قبل ان يعاين ملك الموت قبل الله توبته * وقال الباقر (ع) لمحمد بن مسلم : « ذنوب المؤمن اذا تاب منها مغفورة له ، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة ، أما والله انها ليست الا لأهل الايمان » ، فقال له : فان عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب ، وعاد في التوبة ؟ قال : « يا محمد بن مسلم ! أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته ؟ » ، قال : فانه فعل ذلك مرارا ، يذنب ثم يتوب ويستغفر ، فقال : « كلما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة ، وان الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات ، فايالك أن تقنط المؤمن من رحمة الله » * وقوله (ع) : « اذا بلغت النفس هذه — وأهوى بيده الى حلقه — لم تكن للعالم توبة ، وكانت للجاهل توبة » * وقوله (ع) : « ان آدم (ص) قال : يارب ! سلطت علي الشيطان ، وأجريتني مني مجرى الدم ، فاجعل لي شيئا ، فقال : يا آدم ! جعلت لك : ان من هم من ذريتك بسيئة لم تكتب عليه ، فان عملها كتبت عليه سيئة ، ومن هم منهم بحسنة ، فان لم يعملها كتبت له حسنة ، فان هو عملها كتبت له عشرا ، قال : يارب ! زدني ، قال : جعلت لك : ان من عمل منهم سيئة ثم استغفر غفرت له ، قال : يارب ! زدني ، قال : جعلت التوبة ، وبسطت لهم التوبة حتى تبلغ النفس هذه ، قال يارب حسبي » * وقول الصادق (ع) : « ان الرجل ليذنب الذنب فيدخله الله به الجنة » ، قيل : يدخله الله بالذنب الجنة ؟ قال : « نعم ! انه ليذنب فلا يزال منه خائفا ماقتا لنفسه ، فيرحمه الله فيدخله الجنة » * وقوله عليه السلام : « العبد المؤمن اذا ذنب ذنبا أجله الله سبع ساعات ، فان أستغفر الله لم يكتب عليه شيء ، وان مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة ، وان المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له ، وان الكافر لينسى من ساعته » * وقوله (ع) : « مامن مؤمن يقارف

في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم : استغفر الله الذي لا آله الا هو الحي القيوم بديع السماوات والارض ذا الجلال والاکرام وأسأته أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب على ، الا غفرها الله له ، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة » (١١) . وروى : « أن الله تعالى لما لعن ابليس سأله النظرة ، فأنظره الى يوم القيامة ، فقال : وعزتك لأخرجت من قلب ابن آدم ما دام فيه الروح ، فقال الله تعالى : بعزتي لأحجبت عنه التوبة ما دام فيه الروح » . وورد في الاسرائيليات : « أن شابا عبد الله عشرين سنة ، ثم عصاه عشرين سنة ، ثم نظر في المرآة ، فرأى الشيب في لحيته ، فسأه ذلك ، فقال : إلهي أطعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة ، فان رجعت اليك اتقبلني ؟ فسمع قائلا يقول : أحببتنا فأجبنك ، فتركنا فتركناك وعيستنا فأمهلناك فان رجعت الينا قبلناك » والابخار والآثار في هذا المعنى أكثر من أن تحصى ، وفي بعض الاخبار المتقدمة دلالة عليه أيضا .

ثم الناظر بنور البصيرة لا يحتاج في هذا المعنى الى بيان ، اذ يعلم أن التوبة توجب سلامة القلب ، وكل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله ، ويعلم ان القلب خلق في الاصل سليما صافيا ، اذ كل مولود يولد على الفطرة ، وانما مرض واسود بأمراض الذنوب وظلماتها ودواء التوبة يزيل هذه الامراض ، ونور الحسنات يمحو هذه الظلمات ، ولا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، ولكدورة الوسخ مع بياض الصابون والماء الحار . نعم اذا تراكمت الذنوب بحيث صارت رينا وطبعا ، وأفسدت القلب بحيث لا يقبل الصفاء والنورانية بعد ذلك ، فمثل هذا القلب لا تفيد التوبة ، بمعنى انه لا يرجع ولا يتوب ، وان قال باللسان تبت ، اذ اوساخ الذنوب غاصت في تجاويفه وتراكمت فيه بحيث لا يقبل التطهير ، ولو بولغ فيه أدى الى انخراق القلب

(١١) صححنا الاحاديث الواردة في هذا الباب على اصول الكافي : باب الاعتراف بالذنوب ، وباب من يهمل بالحسنة او السيئة ، وباب التوبة ، وباب الاستغفار من الذنوب ، وباب فيما اعطى الله — عزوجل — آدم وقت التوبة .

وهلاكه ، لصيرورة الاوساخ جزءا من جوهره ، كما أن الثوب الذي غاص
الوسخ في تجاويفه وخملته وتراكم فيه ، لو بولغ في تطهيره بالماء والصابون
أدى ذلك الى انخراقه . وهذا حال اكثر الخلق المقبلين على الدنيا المعرضين
عن الله ، فانهم لا يرجعون ولا يتوبون ، لصيرورة ذمائم الاخلاق وردائلها
ملكات راسخة في نفوسهم وغاصت أوساخها في تجاويف قلوبهم ، بحيث
لا يتنبهون ولا يتيقظون حتى يقصدوا التوبة ، ولو قصدوها فانما هو بمجرد
اللسان ، والقلب غافل خال عن الايمان ، بل تتعذر عليه التوبة لبطان
حقيقتها .

فصل

طرق التوبة عن المعاصي

اعلم أن ما عنه التوبة هي الذنوب التي علمت تفاصيلها في هذا الكتاب ،
وهي - كما ذكرناها - لاتخلو عن الصفات والافعال الشيطانية المتعلقة
بالوهم ، والصفات والافعال السبعية المتعلقة بالقوة السبعية ، والصفات
والافعال البهيمية المتعلقة بالقوة البهيمية . ومن حيث تعلق التوبة بها وكيفية
الخروج عنها ينقسم الى أقسام ثلاثة :
أحدها - ترك الطاعات الواجبة : من الصلاة ، والصوم ، والزكاة ،
والخمس ، والكفارة وغيرها . وطريق التوبة عنها : أن يجتهد في قضاءها
بقدر الامكان .

وثانيها - المحرمات التي بين العبد وبين الله ، أعني المنهيات التي هي
حقوق الله : كشرب الخمر ، وضرب المزامير ، والكذب ، والزنا بغير ذات
بعل . وطريق التوبة عنها : أن يندم عليها ، ويوطن قلبه على ترك العود
الى مثلها أبدا .

وثالثها - الذنوب التي بينه وبين العباد ، وهي المعبر عنها بحقوق
الناس ، والامر فيها أصعب وأشكل ، وهي اما في المال ، او في النفس ،
او في العرض أو في الحرمة ، او في الدين :

فما كان في (المال) : يجب عليه ان يرده الى صاحبه ان أمكنه ،
فان عجز عن ذلك لعدم أو فقر ، وجب ان يستحل منه ، وان لم يحله أو

عجز عن الايصال لغيبة الرجل غيبة منقطعة او موته وعدم بقاء وارث له ، فليصدق عنه ان أمكنه ، والا فعليه بالتضرع والابتهاج الى الله أن يرضيه عنه يوم القيامة ، وعليه بتكثير حسناته وتكثير الاستغفار له ، ليكون يوم القيامة عوضا عن حقه ، اذ كل من له حق على غيره لا بد ان يأخذ يوم القيامة عوضا عن حقه ، اما بعض طاعاته او يتحمل هذا الغير بعض سيئاته .

وما كان في (النفس) : فان كانت جناية جرت عليه خطأ وجب ان يعطي الدية ، وان كان عمدا وجب عليه أن يمكن المجنى عليه أو اوليائه مع هلاكه من القصاص حتى يقتص منه ، او يجعل في حل ، وان عجز عن ذلك فعليه بكثرة اعتقاق الرقاب ، لأن ذلك نوع احياء وايجاد لا يقدر لانسان على أكثر منه ، فيقابل به الاعداء والامامة ، وعليه الرجوع أيضا الى الله بالتضرع والابتهاج أن يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (العرض) : بأن شتمه ، او قذفه ، او بهته ، او اغتابه ، فحقه أن يكذب نفسه عند من قال ذلك لديه ، ويستحل من صاحبه مع الامكان ، ان لم يخف تهديده وزيادة غيظه وهيجان فتنته من اظهاره ، فان خاف ذلك ، فليكثر الاستغفار له ، ويبتهل الى الله ان يرضيه عنه يوم القيامة .

وما كان في (الحرمة) : بأن خان مسلما في أهله وولده أو نحوهما ، فلا وجه للاستحلال ، اذ أظهار ذلك يورث الغيظ والفتنة ، لأن من له شوب الرجولية لا يمكن ان يحل من خان في حرمة ووطيء زوجته ، كيف ولو أحله ورضى بذلك كان فيه عرق من الديانة ، فاللازم لمثله أن يكثر التضرع والابتهاج الى الله المتعال ، ويواظب على الطاعات والخيرات الكثيرة لمن خانه في مقابلة خيائه ، وان كان حيا فليفرحه بالاحسان والانعام وبذل الاموال ، ويكرمه بالخدمة وقضاء الحوائج ، ويسعى في مهماته وأغراضه ، ويتلطف به ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه ، فاذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، فربما سمحت نفسه في القيامة بالاحلال ، فان أبى أن يكون انعامه وتلطفه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة خيائه ، فان كل ظلم وايداء وحق من حقوق العباد اذا لم يحل صاحبه يوم القيامة

يقتص من الظالم في يوم القيامة بالحكم العدل القهري بأخذ العوض ، سواء
رضى الظالم أم لا ، وسواء امتنع صاحب الحق عن القبول والابراء أم لا ،
كما أنه يحكم في الدنيا على من أتلف مال غيره باعطاء المثل ، ويقهر على
ذلك ، ويحكم على هذا الغير بقبوله ، ويجبر عليه ان امتنع عن الابراء
وعن القبول ، فكذاك يحكم أحكم الحاكمين وأعدل العادلين في محكمة
القيامة ، فيقتص من كل ظالم موزن بأخذ حسناته ووضعتها في موازين أرباب
المظالم ، فان لم تف بها حسناته ، حمل من سيئات أرباب المظالم ، فيهلك
المسكين بسيئات غيره . وبذلك يعلم : انه لا خلاص لأحد في القيامة الا
برجحان ميزان الحسنات على ميزان السيئات ، ومع الرجحان — ولو بقدر
مثقال — تحصل النجاة ، فيجب على كل معتقد بيوم الحساب أن يسعى
في تكثير الحسنات وتقليل السيئات ، حتى لا ترجح سيئاته يوم القيامة على
حسناته ولو بمثقال فيكون من الهالكين ، وعلى كل حال لا يغفل عن التضرع
والابتهال في الليل والنهار الى الله سبحانه ، لعله بعميم لطفه لا يفضحه يوم
تبلى السرائر ، ويرضى خصمه بخفى أَلطافه .

وما كان في (الدين) : بأن نسب مسلما الى الكفر او الضلالة أو
البدعة ، فليكذب نفسه بين يدي من قال ذلك عنده ، ويستحل من صاحبه
مع الامكان ، وبدونه فليستغفر له ويكثر الابتهال الى الله ليرضيه عنه يوم
القيامة .

ومجمل ما يلزم في التوبة عن حقوق الناس : أرضاء الخصوم مع
الامكان ، وبدونه التصديق وتكثير الحسنات والاستغفار ، والرجوع الى
الله بالتضرع والابتهال ، وليرضيه عنه يوم القيامة ، ويكون ذلك بمشية
الله ، فلعله اذا علم الصدق من قلب عبده . ووجد ذله وانكساره ، ترحم
عليه وأرضى خصماءه من خزائنه فضله ، فلا ينبغي لأحد أن ييأس من روح الله .

فصل

تكفير الصغائر ومعنى الكبائر

أعلم ان صاحب الشرع قسم الذنوب الى كبيرة وصغيرة ، وحكم بأن
اجتناب الكبائر يكفر الصغائر ، وأن الصلوات الخمس لا تكفر الكبائر وتكفر

الصغائر ، قال الله — تعالى — :

« ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » (١٢) • وقال :
« الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللهم » (١٣) •

وقال رسول الله (ص) : « الصلوات الخمس والجمعة تكفر ما بينهما ان اجتنبت الكبائر » واجتناب الكبيرة انما يكفر الصغيرة اذا اجتنبها مع القدرة والارادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها ، فيكفر نفسه عن الوقاع ويقتصر على نظر ولمس ، فان مجاهدته نفسه في الكف عن الوقاع اشد تأثيرا في تنوير قلبه من اقدامه على النظر في اظلامه ، فهذا معنى تكفيره فان كان امتناعه لعجز أو خوف او نحو ذلك ، فلا يصلح للتكفير ، فكذلك من يشتهي الخمر بطبعه ولو ابيح له لما شربه ، فأجتنابه لا يكفر عن الصغائر التي هي من مقدماته كسماع الملاهي والاورار ومثله •

ثم الكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع والعرف ، لان الكبير والصغير من المصافات ، وما من ذنب الا وهو كبير بالاضافة الى ما دونه ، وصغير بالاضافة الى ما فوقه • وقد اختلف العلماء في تعيين الكبائر اختلفا لا يكاد يرجى زواله ، واختلفت الروايات فيها أيضا •

والاظهر بالنظر الى الروايات والى الجمع بينها كون الكبيرة عبارة عما توعده بالنار على فعله أو ما ورد في نص الكتاب النهي عنه ، ويعنى بوصفه بالكبيرة : ان العقوبة بالنار عظيمة ، او ان تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته • ويمكن ان يقال : ان الشرع لم يعينها ، وأيهما ليكون العباد على وجل منها ، فيجتنبون جميع الذنوب ، كما أبهم القدر ليعظم جد الناس في طلبها ، ويواظبوا في ليال متعددة على العبادات ، وكما أبهم الاسم الاعظم ليواظبوا على جميع اسماء الله • والحاصل : أن كل مالا يتعلق به حكم في الدنيا جاز أن يتطرق اليه الابهام ، والكبيرة على الخصوص لاحكامها في الدنيا من حيث انها كبيرة ، فان موجبات الحدود معلومة بأساميها ،

(١٢) النساء ، الآية : ٣٠

(١٣) النجم ، الآية : ٣٢

وانما حكم الكبيرة أن اجتنابها يكفر الصغائر وأن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة ، والابهام أليق به ، حتى يكون الناس على وجل وحذر ، فلا يتجرؤن على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس واجتناب الكبائر .

فصل

الصغائر قد تكون كبائر

أعلم أن الصغيرة قد تكبر بأسباب :

أحدها - الاصرار والمواظبة ، ولذلك قال الصادق (ع) : « لاصغيرة مع الاصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار » . والسرف فيه : أن الصغيرة لقلة تأثيرها لا تؤثر في القلب باطلامه مرة او مرتين ، ولكن اذا تكررت وتراكت آثارها الضعيفة صارت قوية وأثرت على التدريج في القلب ، وذلك كما أن قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « خير الاعمال أدومها ، وان قل » . واذا كان النافع هو الطاعة الدائمة وان قلت ، فكذلك الضار هو السيئة الدائمة وان قلت . ثم معرفة الاصرار موكول الى العرف ، قال الباقر (ع) في قوله تعالى :

« ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » (١٤) :

« الإصرار : أن يذنب الذنب ، فلا يستغفر ولا يحدث نفسه بتوبة ، فذلك الاصرار » .

وثانيها - أستصغار الذنب ، فان العبد كلما استعظمه من نفسه صغر عند الله ، وكلما أستصغره كبر عند الله ؛ لأن استعظامه يصدر عن فقور القلب عنه وكرهته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به ، واستصغاره يصدر عن الالف به ، وذلك يوجب شدة الاثر في القلب ، والقلب هو المطلوب تنوره بالطاعات والمحدور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤخذ بما يجرى عليه في الغفلة ، لعدم تأثيره به ، ولذلك ورد في الخبر : « ان المؤمن

يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره » . وقال رسول الله (ص) : « أتقوا المحقرات من الذنوب ، فانها لا تغفر » ، قيل : وما المحقرات ؟ قال : « الرجل يذنب الذنب ، فيقول طوبى لي لو لم يكن غير ذلك » . وروى : « انه (ص) نزل بأرض قرعاء ، فقال لأصحابه : ائتونا بالحطب ، فقالوا : يا رسول الله ! نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب ، قال : فليأت كل انسان بما قدر عليه . فجاءوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض ، فقال (ص) : هكذا تجتمع الذنوب اياكم والمحقرات من الذنوب فان لكل شيء طالبا ، ألا وان طالبا يكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبین » . وقال امير المؤمنين عليه السلام « لا تصغر ما ينفع يوم القيامة ، ولا تصغر ما يضر يوم القيامة ، فكونوا فيما أخبركم الله كمن عاين » . وقال الباقر (ع) : « أتقوا المحقرات من الذنوب فان لها طالبا ، يقول أحدكم : أذنب واستغفر الله . ان الله - تعالى - يقول :

« ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في امام مبین » (١٥) .
وقال - عز وجل - : « انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات او في الارض يأت بها الله ان الله لطيف خبير » (١٦) .

وقال الصادق (ع) : « ان الله يحب العبد ان يطلب اليه في الجرم العظيم ، ويبغض العبد أن يستخف بالجرم اليسير » . وقال الكاظم (ع) : « لا تستكثروا كثير الخير ولا تستقلوا قليل الذنوب ، فان قليل الذنوب يجتمع حتى يكون كثيرا ، وخافوا الله في السر حتى تعطوا من انفسكم النصف » (١٧) . والسر في عظم الذنب في قلب المؤمن : كونه عالما بجلال الله وكبريائه ، فاذا نظر الى عظم من عصى به رأى الصغير كبيرا ، وقد اوحى الله الى بعض أنبيائه : « لا تنظر الى قلة الهدية وانظر الى عظم مهديها ،

(١٥) يس ، الآية ١٢ .

(١٦) لقمان ، الآية ١٦ .

(١٧) صححنا الاحاديث كلها على اصول الكافي « باب التوبة وباب تفسير

الذنوب » .

ولا تنظر الى صغر الخطيئة وانظر الى كبرياء من واجهته بها . ولذلك قال بعض الصحابة للتابعين : « انكم تعملون اعمالا هي ادق في اعينكم من الشعر ، وكنا نعدّها على رسول الله من الموبقات » ، اذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله اتم ، فكانت الصغائر عندهم بالاضافة الى جلال الله كباثر .

وثالثها - ان يأتي بالصغائر ولا يبالي بفعلها ، اغترارا بستر الله عليه ، وحلمه عنه ، وامهاله اياه ، ولا يعلم انه انما يمهل مقتا ليزداد بالامهال اثما ، فتزهق انفسهم وهم كافرون ، فمن ظن ان تمكنه من المعاصي عناية من الله به ، فهو جاهل بمكامن الغرور ، وآمن من مكر الله الذي لا يأمن منه الا الكافرون - ورابعها - السرور بالصغيرة واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة

عن كونها نقمة وسبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلوة الصغيرة عند العبد كبرت وعظم اثرها في تسويد قلبه ، فمن مزق عرض مسلم وفضحه وخجله ، او غبنه في ماله في المعاملة ، ثم فرح به ، ويقول : اما رايتنى كيف مزقت عرضه ؟ وكيف فضحته ؟ وكيف روجت عليه الزيف ؟ كانت معصيته اشد مما اذا لم يفرح بذلك وتأسف عليه ، اذ الذنوب مهلكات ، واذا ابتلى بها العبد فينبغي ان يتأسف من حيث ان العدو - اعنى الشيطان - ظفر به وغلب عليه ، لان يفرح بغلبة العدو عليه ، فالمرض الذي يفرح بانكسار اوائه الذي فيه دواؤه لتخلصه من الم شربه ، لا يرجى شفاؤه .

وخامسها - ان يذنب ويظهر ذنبه بان يذكره بعد اتيانه ، او يأتي به في مشهد غيره ، فان ذلك خيانة منه على الله الذي اسدله عليه ، وتحريك الرغبة والشر فيمن اسمعه ذنبه او اشهده فعله ، فهما خيانتان انضمتا الى خيافته فتغلظت به ، فان انضاف الى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الاسباب له صارت خيافته رابعة ، وتفاحش الامر . وهذا لان من صفات الله انه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك الستر ، فالاظهار كقران لهذه النعمة ، قال رسول الله (ص) : « المستتر بالحسنة تعدل سبعين حسنة » ، والمذيع بالسيئة مخذول ، والمستتر بها مغفور له » . وقال الصادق (ع) : « من جاءنا يلتمس الفقه والقرآن وتفسيره فدعوه ومن جاءنا يبدي عورة قدسترها الله فنحوه » وسادسها - ان يكون الآتى بالصغيرة عالما يقنطدى به الناس ، فاذا فعله

بحضرة الناس اوبحيث اطلعوا عليه ، كبر ذنبه ، وذلك كلبسه الذهب والابريسم واخذه مال الشبهة ، واطلاقه اللسان في اعراض الناس ، ونحو ذلك . فهذه ذنوب يقتدي العالم فيها ويتبع عليها ، فيموت ويبقى شره مستطيرا في العالم ، فطوبى لمن اذا مات ماتت معه ذنوبه ، وفي الخبر : « من سن سنة سيئة فعليه وزرها من عمل بها لا ينقص من اوزارهم شيء » قال الله تعالى

« ونكتب ما قدموا وآثارهم » (١٨) .

والآثار : ما يلحق الاعمال بعد انقضاء العمل . فعلى العالم وظيفتان : احدهما ترك الذنب ، والاخرى - اخفاؤه ، وكما تتضاعف اوزار العالم على السيئات اذا اتبع فيها ، فكذلك يتضاعف ثوابه على الحسنات اذا اتبع .

فصل

شروط كمال التوبة

يشترط في تمام التوبة وكمالها بعد تدارك كل معصية بمامر : من طول الندم ، وقضاء العبادات ، والخروج عن مظالم العباد ، وطول البكاء والحزن والحسرة ، واسكاب الدموع ، وتقليل الاكل ، وارتياض النفس ، ليزوب عن بدنه كل لحم نبت من الاغذية المحرمة والمشتبهة ، قال أمير المؤمنين (ع) لمن قال بحضرتة : استغفر الله : « ثكلتك أمك ! أتدري ما الاستغفار ؟ ان الاستغفار درجة العليين ، وهو اسم واقع على ستة معان : اولها : الندم على ماضى ، والثاني : العزم على ترك العود عليه ابدا ، والثالث : أن تؤدي الى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة ، والرابع : أن تعمد الى كل فريضة عليك ضيعتها تؤدي حقها ، والخامس : أن تعمد الى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالاحزان حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ منهما لحم جديد ، والسادس : أن تذيب الجسم ألم الطاعة كما أدقته حلاوة المعصية ، فعند ذلك تقول : استغفر الله » .

فصل

هل يصح التبعض في التوبة

اعلم أن التوبة عن بعض الذنوب دون بعض ممكن ويصح ، بشرط ألا

تكون الذنوب التي يتوب عنها مخالفة بالنوع للذنوب التي لا يتوب عنها، كأن يتوب عن الكبائر دون الصغائر ، أو عن القتل والظلم ومظالم العباد دون بعض حقوق الله ، أو عن شرب الخمر دون الزنا أو بالعكس ، أو عن شرب الخمر دون أكل أموال الناس بالباطل خيافة وتلييسا أو غصبا أو قهرا أو عن بعض الصغائر دون بعض الكبائر ، كالذي يتوب عن الغيبة مع اصراره على شرب الخمر . والدليل على امكان ذلك وصحته : أن العبد اذا علم أن الكبائر اعظم اثما عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب الى تطرق العفو اليها ، فلا يبعد أن يتوب عن الاعظم دون الاصغر ، وكذا اذا تصور أن بعض الكبائر أشد واغلظ عند الله من بعض ، فلا يبعد أن يتوب عن الاغلظ دون الاخف ، وقد تكون ضراوة أحد بنوع معصية شديدة ، فلا يقدر على الصبر عنها ، وتكون ضراوته بنوع آخر منها أقل ، فيمكنه الترك بسهولة ، فيتوب عنه دون الاول ، وان كان الاول أغلظ وأشد اثما، كالذي شهوته بالخمر أشد من شهوته بالغيبة، فيترك الغيبة ويتوب عنها دون الخمر ، فالتوبة عن بعض المعاصي دون بعض مع اختلافهما نوعا بأي نحو كان ممكن وصحيح ، ومعها يندفع عنه اثم ما تاب عنه ، ويكتب عليه اثم ما لم يتب عنه ، بل ربما كان أكثر ما وقع من التوبة من هذا القبيل اذ كثر التائبون في الاعصار الخالية والقرون الماضية ، ولم يكن أحد منهم معصوما ، فيكون كل منهم جازما بأنه يصدر عنه معصيته البتة . ويدل على الصحة قوله (ع) : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، حيث لم يقل : التائب من الذنوب . نعم التوبة عن بعض الذنوب دون بعض تماثلهما غير صحيح وغير معقول ، لا ستوائهما في حق الشهوة وحق التعرض لسخط الله ، فلا معنى للتوبة عن أخذ الخبز الحرام ، أو عن أخذ الدرهم الحرام دون الدينار الحرام ، أو عن ترك صلاة الظهر دون العصر ، اذ لو كان ذلك صحيحا لصح أن يتوب عن أخذ هذا الخبز دون ذلك الخبز ، أو عن أخذ هذا الدرهم دون ذلك الدرهم وهكذا . والحاصل : ان التوبة عن بعض الذنوب دون بعض مع تفاوتهما في العقاب واقتضاء الشهوة صحيح ، ومع تماثلهما فيهما غير معقول . ومن العلماء من قال : ان التوبة عن البعض

دون البعض لا تصح مطلقا ، واستدل على ذلك بأن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة - مثلا - لكونها معصية لا لكونها سرقة ، ولا يعقل أن يندم عليها دون الزنا ان كان توجهه لاجل المعصية ، اذ العلة شاملة لهما ، لان من يتوجه على قتل ولده بالسيف يتوجه على قتله بالسكين ، لان التوجه انما هو بفوات المحبوب ، سواء كان بالسيف أو بالسكين ، وكذلك توجه التائب انما هو لفوات المحبوب بالمعصية . سواء عصى بالسرقة أو بالزنا ، وجوابه قد ظهر مما ذكرناه .

فصل

اقسام التائبين

التائبون بين من سكنت نفسه عن الشروع الى الذنوب فلا يحوم حومها وبين من بقى في نفسه الشروع اليها والرغبة فيها وهو يجاهدها ويمنعها : والاول بيّن من سكون النزوع وبطلانه فيه لأجل قوة اليقين وصدق المجاهدة ، ومن سكونه واقطاعه بفتور في نفس الشهوة فقط : والاول من الاول أفضل من الثاني ، والثاني منه أدون من الثاني ، والوجه ظاهر . وأيضا التائبون بين من نسى الذنب من دون اشتغال بالتفكير فيه ، وبين من جعله نصب عينيه ولا يزال يتفكر فيه ويحترق ندما عليه . ولا ريب في أن التذكر والاحتراق بالنظر الى المبتدئ ومن يخاف عليه العود أفضل ، لانه يصدده عنه ، والنسيان بالنظر الى المنتهى السالك والواصل الى مرتبة الحب والانس الواثق من نفسه أنه لا يعود أفضل ، لانه شغل مانع عن سلوك الطريق ، وحاجب من الحضور بلا فائدة . ولا ينافيه بكاء الانبياء وتناجيهم من الذنوب ، لانهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم الى الدرجات اللاتقة بالامة ، فانهم بعثوا لارشادهم ، فعليهم التلبس بما تنتفع الامة بمشاهدته ، وان كان نازلا عن ذروة مقامهم . ولذا قال رسول الله (ص) : « أما اني لا أنسى ، ولكن أنسى لأشعر » (١٩) . ولا تعجب من هذا ، فان الامم في كنف شفقة الانبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء ، وكالمواشي في كنف الرعاة ، والاب اذا أراد

أن يستنطق ولده الصغير ينزل الى درجة نطق الصبي ، والراعي لشاة او طائر يصوت به رغاء او صفيرا شبيها بالبهيمة والطائر ، تلتظنا في تعليمه .

فصل

مراتب التوبة

أعلم ان التائب اما يتوب عن المعاصي كلها ويستقيم على التوبة الى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط ، ولا يعود الى ذنوبه ، ولا يصدر عنه معصية الا انزلات التي لا يخلو عنها غير المعصومين ، وهذه التوبة النصوح ، والنفس التي صاحبها هي النفس المطمئنة التي ترجع الى ربها راضية مرضية ، او يتوب عن كبائر المعاصي والفواحش ويستقيم على أمهات الطاعات ، الا أنه ليس ينفك عن ذنوب تصدر عنه في مجاري أحواله غفلة وسهوة وهفوة ، لا عن محض العمد وتجريد القصد ، واذا أقدم على ذنب لام نفسه وندم وتأسف ، وجدد عزمه على ألا يعود الى مثله ، ويتشمر للاحتراز عن أسبابه التي تؤدي اليه ، والنفس التي هذه مرتبتها هي النفس اللوامة التي خيرها يغلب على شرها ، مولها حسن الوعد من الله تعالى بقوله :

« الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللطم ان ربك واسع

المغفرة » (٢٠) .

والى مثلها الاشارة بقوله (ص) : « خياركم كل مفتن تواب » .
وفي خبر آخر : « المؤمن كالسنبله ، يفيء أحيانا ويميل أحيانا » . وفي خبر آخر : « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة » (٢١) : أي الحين بعد الحين . وكل ذلك شاهد صدق على أن هذا القدر من الذنوب لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبه بدرجة المصيرين ، ومن يؤيس مثل هذا عن النجاة ووصوله الى درجة التائبين فهو ناقص ، ومثله مثل الطبيب الذي يؤيس الصحيح من دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه مرة أو مرتين ، ومثل الفقيه الذي يؤيس المتفقه عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار في أوقات فادرة . ولا ريب في نقصانه ، فالعالم حق العالم هو الذي لا يؤيس الخلق

(٢٠) النجم ، الآية : ٣٢

(٢١) صححنا النبويات الثلاث على احياء العلوم : ٣٩/٤

من درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومفارقة السيئات المختطفات،
اذ أمثال الفترات وما يصدر عن السهو والغفلات لا يفسد النفس ولا يسطرها
بحيث لا يقبل الاصلاح ، او يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه
الشهوة في بعض الذنوب ، فيقدم عليه عمدا وقصدا ، لعجزه عن قهر الشهوة
وقمعها ، الا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات ، وتارك لأكثر الذنوب مع
القدرة والشهوة ، وانما قهره بعض الشهوات بحيث يغفل عند هيجانها
ويرتكب مقتضاها من دون مجاهدة وندامة ، وعند قضاء هذه الشهوة والفراغ
عنها يتندم ، ويقول سأتوب عنها ، لكنه يسول نفسه ويسوف توبته يوما
بعد يوم ، والنفس التي هذه درجتها هي التي تسمى النفس المسولة المسؤل
صاحبها ، واليها الاشارة بقوله تعالى :

((وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا) (٢٢)) .

فنجاتها من حيث مواظبته على الطاعات وكرهته لما يتعاطاه مرجو ،
فعسى الله أن يتوب عليها ، ولكن يخاف عليها من حيث تسويتها وتأخيرها ،
فربما أختطفها الموت قبل التوبة ، ويقع أمرها في المشيئة ، فيدخل في زمرة
السعداء ، أو يسلك في سلك الاشقياء ، او يتوب ويجرى مدة على الاستقامة
ثم يعود الى الذنوب عمدا وقصدا ، من غير ان يحدث نفسه بالتوبة ، ومن
غير أن يتأسف ويتندم ، بل ينهمك انهماك الغافل في الذنوب وأتباع الشهوات
وهذا معدود من المصيرين ، ونفسه محسوبة من النفوس الامارة بالسوء
الفرارة من الخير ، ومثله ان مات على التوحيد وختم له بالحسنى وغلبت
طاعاته على سيئاته كان من أهل الجنة ، وان ختم له بالسوء كان من أهل
النار ، وان مات على التوحيد ولكن ترجحت سيئاته على حسناته فأمره الى
الله ، ولعله يعذب في النار مدة بقدر زيادة سيئاته على حسناته ، ثم يخلص
منها بعميم لطفه .

فصل

عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع من التوبة

أعلم أن من تاب ولا يثق من نفسه الاستقامة على التوبة فلا ينبغي

(٢٢) التوبة الآية : ١٠٣

أن يمنعه ذلك عن التوبة ، علما منه أنه لافائدة فيه ، فإن ذلك من غرور الشيطان ، ومن أين له هذا العلم ، فلعله يموت تائبا قبل أن يعود الى الذنب .

وأما الخوف من العود ، فليتداركه بتجريد القصد وصدق العزم ، فإن وفي به فقد نال مطلبه ، والا فقد غفرت ذنوبه السابقة كلها وتخلص منها ، وليس عليه الا هذا الذنب الذي أحدثه الآن . وهذا من الفوائد العظيمة والارباح الجسيمة ، فلا يمنعك خوف العود من التوبة فإنك من التوبة أبدا بين احدي الحسنين : - احدهما - العظمى : وهي غفران الذنوب السابقة وعدم العود الى ذنبه في الاستقبال . - وثانيتهما - وهي الصغرى : غفران الذنوب الماضية ، وان لم يمنع العود الى الذنب في المستقبل . ثم اذا عاد الى الذنب ينبغي ان يتوب عنه دفعة ، ويتبعه بحسنة لتمحوها ، فيكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا . والحسنات المكفورة للذنوب اما متعلقة بالقلب : وهي الندم ، والتضرع الى الله ، والتذلل له ، واضمار الخير للمسلمين ، والعزم على الطاعات ، او باللسان : وهي الاعتراف بالظلم والاساءة ، وكثرة الاستغفار ، او بالجوارح : وهي أنواع الطاعات والصدقات . وينبغي ملاحظة المناسبة بين السيئة التي صدرت عنه والحسنة التي يتبعها لتمحوها . وفي الخبر : ان الذنب اذا أتبع بثمانية أعمال كان العفو مرجوا : أربعة من أعمال القلوب ، وهي : التوبة او العزم على التوبة ، وحب الاقلاع عن الذنب ، وتخوف العقاب عليه ، ورجاء المغفرة . واربعة من أعمال الجوارح ، وهي : أن تصلي عقب الذنب ركعتين ، ثم تستغفر الله تعالى بعدهما سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم وبحمده مائة مرة ، ثم تنصدق بصدقة ، ثم تصوم يوما . وفي بعض الاخبار : تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصلي ركعتين ، وفي بعضها : تصلي أربع ركعات . ولا تظن ان الاستغفار باللسان بدون حل عقدة الاصرار لافائدة فيه أصلا ، بل هو توبة الكذابين ، لما ورد من ان المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزىء بآيات الله لان الاستغفار الذي هو توبة الكذابين ولا فائدة فيه أصلا هو الاستغفار بمجرد اللسان وبحكم العادة وعلى سبيل الغفلة ، أي ما يكون مجرد حركة

اللسان من دون مدخلية للقلب ، كما اذا سمع شيئاً مخوفاً ، فيقول على الغفلة : استغفر الله ، او نعوذ بالله ، من غير شركة للقلب فيه وتأثره منه ، وأما اذا أنضاف اليه تضرع القلب وابتهاله في سؤال المغفرة عن صدق أرادة وخلص رغبة وميل قلبي الى انقلاعه عن هذا الذنب فهي حسنة في نفسها ، وان علم أن نفسه الامارة ستعود الى هذا الذنب فتصلح هذه الحسنة لان يدفع بها السيئة ، فالاستغفار بالقلب وان خلا عن حل عقدة الاصرار لا يخلو عن الفائدة ، وليس وجوده كعدمه . وقد عرف أرباب القلوب بنور البصيرة معرفة قطعية يقينية لا يعترها ريب وشبهة صدق قوله تعالى :

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (٢٣) .

ولذا جزموا وقطعوا بأنه لا تخاو ذرة من الخير عن أثر كما لا تخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ، ولو كانت كل شعيرة خالية عن أثر لكان لا يرجح الميزان بأجتماع الشعيرات ، فميزان الحسنات يترجح بذرات الخيرات الى أن يثقل فتسل كفة السيئات ، فاياك وأن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وتستحق ذرات المعاصي فلا تنقيها ، كالمرأة الخرفاء تكسل عن الغزل تعلملاً بأنها لا تقدر في كل ساعة الا على خيط واحد ، وأي غني يحصل منه ، وما وقع ذلك في الثياب ، ولا تدري ان ثياب الدنيا اجتمعت خيطاً خيطاً ، وأن اجسام العالم مع اتساع اقطاره اجتمعت ذرة ذرة ؛ وربما ترتب على عمل قليل ثواب جليل ، فلا ينبغي تحقير شيء من الطاعات . قال الصادق عليه السلام : « ان الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث : رضاه في طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً فلعل رضاه فيه . وغضبه في معاصيه ، فلا تحقروا شيئاً فلعل غضبه فيه . وخبأ ولايته في عبادته ، فلا تحقروا منهم أحداً فلعله ولي الله » . فاذا الاستغفار بالقلب حسنة لا يضيع أصلاً ، بل ربما قيل : الاستغفار بمجرد اللسان أيضاً حسنة ، اذ حركة اللسان بها غفلة خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالنظر الى السكوت عنه ، وان كان نقصاً بالاضافة الى عمل القلب ، فينبغي ألا تترك حركة اللسان بالاستغفار ، ويجتهد في اضافة حركة

القلب اليها ، ويتضرع الى الله أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير •

فصل

علاج الاصرار على الذنوب

اعلم أن الطريق الى تحصيل التوبة ، والعلاج لحل عقدة الاصرار على الذنوب : أن يتذكر ما ورد في فصلها - كما مر - ويتذكر قبح الذنوب وشدّة العقوبة عليها ، وما ورد في الكتاب والسنة من ذم المذنبين والعاصين ، ويتأمل في حكايات الانبياء وأكابر العباد ، وما جرى عليهم من المصائب الدنيوية ، بسبب تركهم الاولى وارتكابهم بعض صفائر المعاصي ، وأن يعلم أن كل ما يصيب العبد في الدنيا من العقوبة والمصائب فهو بسبب معصيته كما دل عليه الاخبار الكثيرة ويتذكر ما ورد من العقوبات على أحاد الذنوب : كالخمر ، والزنا ، والسرقه ، والقتل ، والكبر ، والحسد ، والكذب ، والغيبة وأخذ المال الحرام وغير ذلك من أحاد المعاصي مما لا يمكن حصره ، ثم يتذكر ضعف نفسه وعجزها عن احتمال عذاب الآخرة وعقوبة الدنيا ، ويتذكر حساسة الدنيا وشرف الآخرة ، وقرب الموت ولذة المناجاة مع ترك الذنوب ، ولا يغتر بعدم الاخذ الحالي ، اذ لعله كان من الاملاء والاستدراج . فمن تأمل في جميع ذلك وعلم ذلك على سبيل التحقيق انبعثت نفسه للتوبة البتة ، اذ لو لم ينزعج الى التوبة بعد ذلك ، فهو اما معتوه احمق او غير معتقد بالمعاد ، وينبغي ان يجتهد في قلع أسباب الاصرار من قلبه : اعني الغرور ، وحب الدنيا ، وحب الجاه ، وطول الامل وغير ذلك •

فصل

الانابة

أعلم ان الانابة هو الرجوع عن كل شيء مما سوى الله ، والاقبال على الله تعالى بالسر والقبول والفاعل ، حتى يكون دائما في فكره وذكره وطاعته ، فهو غاية درجات التوبة وأقصى مراتبها ، اذ التوبة هو الرجوع عن الذنب الى الله ، والانابة هو الرجوع عن المباحات أيضا اليه سبحانه ، فهو من المقامات العالية والمنازل السامية • قال الله سبحانه :

((وأنبيوا الى ربكم وأسلموا له)) (٢٤) . وقال - سبحانه - : ((وما يتذكر الا من ينيب)) (٢٥) . وقال : ((وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد ، هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ ، من خشى الرحمن بالفيب وجاء بقلب منيب ، أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ، لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد)) (٢٦) .

وانابة العبد تتم بثلاثة أمور :

الاول - أن يتوجه اليه بشرائحه باطنه حتى يستغرق قلبه في فكره .
الثاني - ألا يكون خاليا عن ذكره وذكر نعمه ومواهبه وذكر أهل حبه وتقربه .

الثالث - أن يواظب على طاعاته وعباداته مع خلوص النية .

المحاسبة والمراقبة

(تذنيب) - أعلم أن المحاسبة والمراقبة قريبة من التوبة في ضدتيهما من وجه الاصرار على الذنوب ، ومثلها في كونهما من ثمرات الخوف والحب وتعلقهما بقوتي الشهوة والغضب وكونهما من فضائلها ، فنحن نشير هنا الى ما يتعلق بهما من بيان حقيقتهما وفضيلتهما والاعمال التي يتوقف تماميتهما عليهما في فصول .

فصل

المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة

(المحاسبة) : ان يعين في كل يوم وليلة وقتا يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ، ليعاتب نفسه ، ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليله مقصرة في طاعة واجبة ، أو مرتكبة لمعصية ، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ، ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة .

(والمراقبة) : أن يلاحظ ظاهره وباطنه دائما ، حتى لا يقدم على شيء

(٢٤) الزمر ، الآية : ٥٤

(٢٥) المؤمن ، الآية : ١٣

(٢٦) ق ، الآية ٣١ - ٣٥ .

من المعاصي ، ولا يترك شيئا من الواجبات ليتوجه عليه اللوم والندامة وقت المحاسبة . هذا هو المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة ، ويأتى اعتبار أمور واعمال آخر فيه عرفا .

فصل

حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا

أعلم ان الكتاب والسنة واجماع الامة دالة على ثبوت المحاسبة يوم القيامة ، وحصول التدقيق والمناقشة في الحساب ، والمطالبة بمثاقيل الذر من الاعمال والخطرات والملحظات ، قال الله سبحانه :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٢٧) . وقال : « يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بامعالموا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد » (٢٨) . وقال : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يفادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك احدا » (٢٩) . وقال : « يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا اعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (٣٠) . وقال : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا » (٣١) . وقال : « ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (٣٢) . وقال : « فوركب لنسئلتهم اجمعين عما كانوا يعملون » (٣٣) .

وقال رسول الله (ص) : « ما منكم من أحد الا ويسأله رب العالمين ، ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان » . وورد بطرق متعددة : أن كل أحد في يوم القيامة لا يرفع قدما عن قدم حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن

(٢٧) الانبياء ، الآية : ٤٧ .

(٢٨) المجادلة ، الآية : ٦ .

(٢٩) الكهف ، الآية : ٥٠ .

(٣٠) الزلزال ، الآية : ٦ - ٨ .

(٣١) آل عمران ، الآية : ٣٠ .

(٣٢) البقرة ، الآية : ٢٨١ . آل عمران ، الآية : ١٦١ .

(٣٣) الحجر ، الآية : ٩٢ .

جسده فيما ابلاه ، وعن ماله من اين اكتسبه وفيما انفقه • والآيات والاخبار الواردة في محاسبة الاعمال والسؤال عن القليل والكثير والنقير والقظمير أكثر من أن تحصى ، وبأزائها أخبار دالة على الامر بالمحاسبة والمراقبة في الدنيا ، والترغيب عليها ، وعلى كونها سببا للنجاة والخلاص عن حساب الآخرة ، وخطره ومناقشته • فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب ، وطالبها في الانفاس والحركات ، وحاسبها في الخطرات واللحظات ، ووزن بميزان الشرع أعماله وأقواله : خف في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحسن منقلبه ومآله • ومن لم يحاسب نفسه : دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته الى الخزي سيئاته ، قال الله سبحانه :

« ولتنظر نفس ما قدمت لقد » (٣٤) •

والمراد بهذا النظر : المحاسبة على الاعمال • وقال رسول الله (ص) : « حاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا ، وزنوها قبل ان توزنوا » • وقال الصادق (ع) : « اذا أراد أحدكم ألا يسأل ربه شيئا الا أعطاه فليأس من الناس كلهم ، ولا يكون له رجاء الا من عند الله — تعالى — فاذا علم الله — تعالى — ذلك من قلبه لم يسأله شيئا الا اعطاه فحاسبوا أنفسكم قبل ان تحاسبوا عليها فان للقيامة خمسين موقفا ، وكل موقف الف سنة • ثم تلا :

« في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » (٣٥)

وتفريع المحاسبة على الامر باليأس عن الناس والرجاء من الله ، يدل على ان الانسان انما يرجو الناس من دون الله في عامة امره وهو غافل عن ذلك ، وان عامة المحاسبات انما ترجع الى ذلك ، وذكر الوقوف في مواقف يوم القيامة على الامر بمحاسبة النفس يدل على ان الوقفات هناك انما تكون للمحاسبات ، فمن حاسب نفسه في الدنيا يوما فيوما لم يحتج الى تلك الوقفات في ذلك اليوم ، وقال (ع) : « لو لم يكن للحساب مهول الا حياء العرض على الله — تعالى — وفضيحة هتك الستر على المخفيات ، لحق للمرء الايهبط من رؤس الجبال ، ولا يأوى الى عمران ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام الا

• (٣٤) الحشر ، الآية : ١٨

• (٣٥) المعارج ، الآية : ٤

عن اضطرار متصل بالتلف : ومثل ذلك يفعل من يرى القيامة باهوالها
شدائدها قائمة في كل نفس ، ويعاين بالقلب الوقوف بين يدي الجبار ،
حينئذ يأخذ نفسه بالمحاسبة ، كأنه الى عرصاتها مدعو وفي غمراتها مسؤل ،
قال الله - تعالى - :

« وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (٣٦) . (٣٧) .

وقال الكاظم (ع) : « ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم ، فان
عمل حسنة استزاد الله - تعالى - وان عمل سيئة استغفر الله منها وتاب
اليه » . وفي بعض الاخبار : ينبغي ان يكون للعاقل اربع ساعات : ساعة
يحاسب فيها نفسه . . .

فصل

مقامات مرابطة العقل للنفس

اعلم ان العقل بمنزلة تاجر في طريق الآخرة ، ورأس ماله العمر ، وقد
استعان في تجارته هذه بالنفس ، فهي بمنزلة شريكه او غلامه الذي يتجر في
ماله ، وربح هذه التجارة تحصيل الاخلاق الفاضلة والاعمال الصالحة الموصلة
الى نعيم الابد وسعادة السرمد ، وخسراتها المعاصي والسيئات المؤدية الى
العذاب المقيم في دركات الجحيم ، او نقول : رأس مال العبد في دينه الفرائض
وربحه النوافل والفضائل ، وخسراته المعاصي ، وموسم هذه التجارة مدة
العمر ، وكما ان التاجر يشارط شريكه اولا ، ويراقبه ثانيا ، ويحاسبه ثالثا
وان قصر في التجارة - بالخيانة والخسران وتضييع رأس المال - يعاقبه
ويعاقبه ويأخذ منه الغرامة ، كذلك العقل يحتاج في مشاركة النفس الى ان
يرتكب هذه الاعمال ، ومجموع هذه الاعمال يسمى (المحاسبة والمراقبة)
تسمية الكل باسم بعض اجزائه ، وقد يسمى (مرابطة) ايضا .

فأول الاعمال في المرابطة (المشاركة) : وهي ان يشارط النفس
ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة الا يرتكب المعاصي ، ولا

(٣٦) الانبياء الآية : ٤٧ .

(٣٧) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٨٥ ، ص ١٨٦ .

يصدر منها شيء يوجب سخط الله ، ولا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة ، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل . والاولى ان يكون ذلك بعد الفراغ عن فريضة الصبح وتعقيباتها ، فيخاطب النفس ويقول لها : يا نفس مالي بضاعة سوى العمر ، ومهما فنى رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد ، وقد امهلني الله فيه بعظيم لطفه ولو توفاني لكنت اتمنى ان يرجعني الى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً فاحسبني انك توفيت ثم رددت ، فايالك ان تضيعي هذا اليوم ، فان كل نفس من انفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها ، يمكن ان يشتري بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها ابداً الا بآدم . ويتذكر ماورد في بعض الاخبار : من ان كل عبد خلقت له بأزاء كل يوم وليلة من عمره اربع وعشرون خزانة مصفوفة ، فاذا مات تفتح له هذه الخزائن ، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها ، فاذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي اطاع الله فيها ، يراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة ، فيناله من الفرح والاستبشار بمشاهدة تلك الانوار التي هي وسائل عند الملك الجبار مالو وزع على اهل النار لادھشهم ذلك الفرح عن الاحساس بالنار ، واذا فتحت له خزانة خلقت بأزاء الساعة التي عصى الله فيها ، يراها سوداء مظلمة يفوح منها ويتغشأ ظلامها ، فيناله من الهول والفرع مالو قسم على اهل الجنة لينقص عليهم نعيمها ، فاذا فتحت له خزانة بأزاء الساعة التي نام فيها او غفل او اشتغل بشيء من مباحات الدنيا لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه ، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن ، وعند ذلك يتحسر العبد على اهماله وتقصيره ، ويناله من الغبن ما لا يمكن وصفه ، وبعد هذا التذکر يخاطب نفسه ويقول : اجتهدى اليوم في ان تعمري خزائنك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي اسباب ملكك ولا تركني الى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة ان دخلت الجنة ، اذ لم الغبن والحسرة وانحطاط الدرجة مع وجود ما فوقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال اليها ابناء نوعك مما لا يطاق ، ثم يستأنف لها وصية في اعضائه السبعة : اعني العين ، والاذن ، واللسان ، والفرج ، والبطن ، واليد ، والرجل ، ويسلمها

اليها ، لانها رعايا خادمة لها في التجارة ولا يتم اعمالها هذه التجارة الا بها ، فيوصيها بحفظ هذه الاعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها ، وباعمال كل منها فيما خلق لاجله ، ثم يوصيها بالاشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها ، وهذه شروط يفتقر اليها كل يوم ، لكن اذا اعتادت النفس بتكرار المشاركة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشاركة فيها ، وان اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة الى المشاركة فيه ، وبقيت الحاجة اليها في الباقي ، وكل من يشتغل بشيء من اعمال الدنيا : من ولاية ، او تجارة او تدريس ، او امثال ذلك : لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد ، وواقعة حادثة لها حكم جديد ، والله عليه فيها حق ، فعليه ان يجدد الاشتراط على نفسه بالاستقامة عليها والالتقياد للحق في مجاريها ، وينبغي ان يوصلها بالتدبر في عاقبة كل امر يرتكبه في هذا اليوم والليلة . وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها ، وقد روى : « ان رجلا اتى النبي صلى الله عليه وآله وقال : يا رسول الله اوصني ، فقال له : فهل انت مستوص ان انا اوصتيك ؟ - حتى قال له ذلك ثلاثا ، وفي كلها يقول الرجل نعم يا رسول الله ! فقال له رسول الله (ص) : اذا هممت بامر فتدبر عاقبته ، فان يك راشدا فامضه وان يك غيا فاتته » . ويظهر من هذا الخبر : ان التأمل في عاقبة كل امر اعظم ما يحصل به النجاة ، فينبغي ان يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرهما عن الاهمال ، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق ، فان النفس بالطبع متمردة عن الطاعات ، مستعصية عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين) فهذا وما يجري مجراه هو المشاركة ، وهو اول مقامات المراقبة .

وثانيها (المراقبة) : وهو ان يراقب نفسه عند الخوض في الاعمال ، فيلاحظها بالعين الكالئة ، فانها ان تركت طغت وفسدت ، ثم يراقب الله في كل حركة وسكون ، بأن يعلم ان الله تعالى مطلع على الضمائر ، عالم بالسرائر ، رقيب على أعمال العباد ، قائم على كل نفس بما كسبت ، وأن سر القلب في حقه مكشوف ، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف ، بل أشد من ذلك ، قال الله سبحانه :

((ان الله كان عليكم رقيبا)) (٣٦) • وقال : ((ألم يعلم بأن الله يرى)) (٣٧) •

وقال رسول الله (ص) : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » • وفي الحديث القدسي : « انما يسكن جنات عدن ، الذين اذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني ، والذين انحنى أصلابهم من خشيتي ، وعزتي وجلالي ! اني لأهمم بعذاب أهل الارض ؛ فاذا نظرت الى أهل الجوع والعطش من مخافتني صرفت عنهم العذاب » • وحكى : « أن زليخا لما خلت بيوسف ، فقامت وغطت وجه صنمها ، فقال يوسف : مالك ؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحيى من مراقبة الملك الجبار ؟ ! » • وهذه المعرفة — اعني معرفة أطلاع الله على العباد وأعمالهم وسرائرهم وكونه رقيبا عليهم — اذا صارت يقينا — أي خلت عن الشك — ثم أستولت على القلب سخرت القلب وقهرته على مراعاة جانب الرقيب وصرفت الهمة اليه ؛ والموقنون بهذه المعرفة مراقبتهم على درجتين : احداهما مراقبة المقربين ؛ وهي مراقبة التعظيم والاجلال ، وهي ان يصير القلب مستغرقا بملاحظة الجلال ، ومنكسرا تحت الهيبة ، فلا يبقى فيه متسع للالتفات الى الغير ، وهذا هو الذي صار همه هما واحدا ، وكفاه الله سائر الهموم ، وأخراهما مراقبة الورعين من أصحاب اليمين ، وهم قوم غلب عليهم يقين أطلاع الله على ظهورهم وبواطنهم ، ولكن لاتدهشهم ملاحظة الجلال والجمال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للالتفات الى الاحوال والاعمال والمراقبة فيها ، وغلب عليهم الحياء من الله ، فلا يقدمون ولا يجمعون الا بعد التثبت ، ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به في القيامة ، فانهم يرون الله مطلعاً عليهم ، فلا يحتاجون الى أنتظار القيامة • ثم ينبغي للعبد ألا يغفل عن مراقبة نفسه والتضييق عليها في لحظة من حركاتها وسكناتها وخطراتها وأفعالها •

وحالاته لاتخلو عن ثلاثة ، لانه اما أن تكون في طاعة ، او معصية ، أو مباح • فمراقبته في الطاعة ، بالقربة ، والاخلاص ، والحضور ، والاكمال

(٣٦) النساء ، الآية : ١ •

(٣٧) العلق ، الآية : ١٤ •

وحرصتها عن الآفات ، ومراعاة الادب ، ومراقبته في المعصية : بالتوبة ،
والندم ، والاقلاع ، والحياء ، والاشتغال بالتكفير ، ومراقبته في المباح :
بمراعاة الادب ، بأن يأكل بعد التسمية ، وغسل اليدين ، وسائر الآداب
المقررة في الشرع للأكل ، ويقعد مستقبل القبلة ، وينام بعد الوضوء على
اليد اليمنى مستقبل القبلة ، وبالصبر عند ابتلائه ببليّة ومصيبة ، وبالشكر
عند كل نعمة ، ويتذكر شهود المنعم وحضوره ، ويكف النفس عن الغضب
وسوء الخلق عند حدوث امر تميل النفس عنده الى الغضب والتضجر
والتكلم بما لا يحسن من الاقوال ، فان لكل واحد من أفعاله وأقواله حدودا
لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة ، ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه .
وينبغي ألا يخلو عند اشتغاله بالمباحات عن عمل هو الافضل ، كالذكر
والفكر وتخليص النية ، فان الطعام الذي يتناوله من عجائب صنع الله ،
فلو تفكر فيه وتدبر في فوائده وحكمه وما فيه من غرائب قدرة الله لكان
ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح ، والناس عند الاكل على أقسام :
(قسم) ينظرون فيه بعين التبصر والاعتبار ، فينظرون في عجائب صنعته
وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به ، وكيفية تقدير الله لأسبابها وخلق الشهوة
الباعثة عليها وخلق الآلات المسخرة للشهوة وأمثال ذلك ، وهؤلاء هم أولو
الالباب . (وقسم) ينظرون فيه بعين المقت والكرهية ، ويلاحظون وجه
الاضطرار اليها ، ويتمنون الاستغناء عنه ، وعدم كونهم مقهورين مسخرين
بشهوته ، وهؤلاء هم الزهاد . (وقسم) يرون فيه خالقه ، ويشاهدون في
الصنع الصانع ، ويترقون منه الى صفات الخالق ، من حيث ان كل معلول
أثر من العلة ، ورشحة من رشحات ذاته وصفاته ، فمشاهدته تذكر العلة ،
بل التأمل يرشدك الى أن دلالة كل ذرة ترى من ذرات العالم على ربك
وخالقتك وايجابها لحضوره عندك وظهوره لديك وتوجهه اليك وقربه منك
أشد وأقوى من دلالة مشاهدتك بدن زيد وصورته وحركاته وسكناته على
وجوده وحضوره عندك ، وسر ذلك ظاهر واضح . وهؤلاء المشاهدون
الصانع في كل مصنوع ، والخالق في كل مخلوق ، هم العرفاء المحبون ،
اذ المحب اذا رأى صنعة حبيبه وتصنيفه وآثاره وما ينتسب اليه اشتغل قلبه

بالمحبوب ، وكل ما يتردد العبد فيه وينظر اليه من الموجودات هو صنع الله تعالى ، فله في النظر منها الى الصانع مجال ان فتحت له أبواب الملكوت .
(وقسم) ينظرون فيه بعين الحرص والشهوة ، وليس نظرهم الى الطعام الا من حيث يوافق شهوتهم وتلند به ذائقتهم ، ولذلك يذمونه لو لم يوافق هواهم ، وهؤلاءهم أكثر أهل الدنيا .

وثالثها - أي ثالث مقامات المرابطة وأعمالها - هو (المحاسبة) بعد العمل ، فان العبد كما يختار وقتا في أول كل يوم ليشارط فيه النفس على سبيل التوصية بالحق ، ينبغي له أن يختار وقتا في آخر كل يوم ليطالب النفس فيه بما أوصى به ، ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ، كما يفعل التجار في آخر كل سنة مع الشركاء . وهذا أمر لازم على كل سالك لطريق الآخرة معتقد للحساب في يوم القيامة ، وقد ورد في الاخبار : أن العاقل ينبغي ان يكون له أربع ساعات : ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يتفكر في صنع الله ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب . ولذلك كان الصدر الاول من الخائفين ومن تقدمنا من سلفنا الصالحين في غاية السعي والاهتمام في محاسبة النفس ، بحيث كانت عندهم من الطاعات الواجبة ، وكانوا أشد محاسبة لنفوسهم من سلطان غاشم ، ومن شريك شحيح ، ويعتقدون أن العبد لا يكون من أهل التقوى والورع حتى يحاسب نفسه أتم من محاسبة شريكه ، وأن من لا يحاسب نفسه اما معتوه أحمق أو لا يعتقد بحساب يوم القيامة ، اذ العاقل المعتقد به مع أهواله وشدائده وما يوجبه من الخجلة والحياء والافتضاح ، اذا علم ان محاسبة النفس في الدنيا تسقطه أو توجب خفته ، كيف يجوز له أن يتركها ؟

ثم كيفية المحاسبة بعد العمل : أن يطالب نفسه اولا بالفرائض التي هي بمنزلة رأس ماله ، فان ادتها على وجهها شكر الله عليه ورغبها في مثلها ، وان فوتتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وان ادتها ناقصة كلفها بالجبران بالنوافل ، وان ارتكب معصية أشتغل بعتابها وتعذيبها ومعاقبتها ، وأستوفى منها ما يتدارك به ما فرط ، كما يصنع التاجر بشريكه . وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط والنقير والقطمير ، فيحفظ مداخل الزيادة

والنقصان حتى لا يغب في شيء منها ، كذلك ينبغي ان يفتش عن أفعال النفس ويضيق عليها ، ولينق غائلتها وحيلتها ، فانها خداعة مكاراة ملبسة ، فليطالبها اولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب قبل أن يتولاه غيره في صعيد القيامة ، ثم بتصحيح الجواب عن جميع أفعاله وأحواله : من نظره ، وقيامه ، وقعوده ، ونومه ، وأكله ، وشربه ، حتى عن سكوته لم سكت ، وعن سكونه لم سكن ، وعن خواطره ، وأفكاره وصفاته النفسية ، وأخلاقه القلبية ، فان خرجت عن عهدة الجواب عن الجميع ، بحيث أدت الحق في الجميع ، ولم تترك شيئا مما يجب عليها ، ولم ترتكب شيئا من المعاصي : حصل لها الفراغ من حساب هذا اليوم ، ولم يكن شيئا باقيا عليها ، وان أدت الحق في البعض دون البعض ، كان قدر ما أدت الحق فيه محسوبا لها ، ويبقى غيره باقيا عليها فيثبته عليها ، وليكتب على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي على شريكه على قلبه وعلى جريدته ، ثم النفس غريم يمكن أن تستوفى منها الديون ، أما بعضها فبالغرامة والضمان ، وبعضها برد عينه ، وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ، ولا يمكن شيء من ذلك الا بعد تحقق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه ، فاذا حصل ذلك أشغل بعده بالمطالبة والاستيفاء .

ورابعها - وهو آخر مقامات المرابطة - (معاتبة النفس) ومعاقبتها على تقصيرها ، والمجاهدة بتكليفها الطاعات الشاقة ، والزامها الرياضات الشديدة ، فانه اذا حاسب نفسه ، فوجدها خائنة في الاعمال ، مرتكبة للمعاصي ، مقصرة في حقوق الله ، متوانية بحكم الكسل والبطالة في شيء من الفضائل ، فلا ينبغي ان يهملها ، اذ لو أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وانس بها بحيث عسر بعد ذلك فظامها عنها . فينبغي للعاقل ان يعاتبها أولا ، ويقول : أف لك يا نفس ! هلكتيني وعن قريب تعذبن في النار مع الشياطين والاشرار ، فيا أيتها النفس الامارة الخبيثة ! أما تستحيين وعن عيبك لا تنتهين ؟ ! فما أعظم جهلك وحمقتك ! أما تعرفين ان بين يديك الجنة والنار وأنت صائرة الى أحدهما عن قريب ؟ فمالك تضحكين وتفرحين وباللهو والعصيان تشتغلين ؟ أما علمت ان الموت يأتي بغتة من غير أخبار ، وهو

أقرب اليك عن كل قريب ؟ فمالك لا تستعدين له ؟ أما تخافين من جبار
السموات والارض ، ولا تستحيين منه ؟ تعصين بحضرتة وأنت عالمة بأنه
مطلع عليك ؟ ! ويحك يا نفس ! جرأتك على معصية الله ان كانت لا اعتقادك
أنه لا يراك فما أعظم كفرك ، وان كانت مع علمك باطلاعه عليك فما أشد
وقاحتك وأقل حياؤك ، وما أعجب نفاقك ، وكثرة دعاويك الباطلة ! فانك
تدعين الايمان بلسانك ، وأثر النفاق ظاهر عليك ! فتنبهي عن رققتك وخذي
حذر ! لو أن يهوديا أخبرك في ألد اطعمتك بأنه يضرك لصبرت وتركتيه ! ولو
أخبرك طفل بعقرب في ثوبك نزعيته ! فقول الله وقول انبيائه المؤيدين
بالمعجزات وقول الاولياء والحكماء والعلماء أقل تأثيرا عندك من قول يهودي
أو طفل ؟ ! ... فلا يزال يكرر عليها أمثال هذه المواعظ والتوبيخات
والمعاتبات ، ثم يعاقبها ويلزمها ما يشق عليها من وظائف العبادات والتصدق
بما يحبه ، جبرا لما فات منها وتداركا لما فرط فيها ، فاذا أكل لقمة مشتبهة
ينبغي ان يعاقب البطن بالجوع ، واذا نظر الى غير محرم يعاقب العين بمنع
النظر ، واذا أغتاب مسلما يعاقب اللسان بالصمت والذكر مدة كثيرة ،
وكذلك يعاقب كل عضو من أعضائه اذا صدرت منه معصية بمنعه من
شهواته ، واذا أستخف بصلاة ألزم نفسه بصلاة كثيرة بشرائطها وآدابها ،
واذا أستهان بمفقير اعطاه صفو ماله ، وهكذا الحال في سائر المعاصي
والتقصيرات .

وطريق العلاج في الزام النفس — بعد تقصيرها في العمل على هذه
العقوبات وربطها على تلك الطاعات الشاقة والرياضات — أمران :
الاول — تذكر ما ورد في الاخبار من فضيلة رياضة النفس ومخالفتها ،
والاجتهاد في الطاعة والعبادة ووظائف الخيرات ، قال الصادق (ع) :
« طوبى لعبد جاهد في الله نطقه وهواه ! ومن هزم جند هواه ظفر برضاء
الله ، ومن جاوز عقله نفسه الامارة بالسوء بالجهد والاستكانة والخضوع
على بساط خدمة الله تعالى فقد فاز فوزا عظيما ، ولا حجاب أظلم وأوحش
بين العبد وبين الله تعالى من النفس والهوى ، وليس لقتلها وقطعها سلاح
وآلة مثل الافتقار الى الله ، والخشوع ، والجوع والظماء بالنهار ، والسهر

بالليل ، فإن مات صاحبه مات شهيدا ، وان عاش واستقام أداه عاقبته الى
الرضوان الاكبر ، قال الله عز وجل :

« **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين** » (٣٨) .

وإذا رأيت مجتهدا أبلغ منك في الاجتهاد ، فوبخ نفسك ولمها وعيرها ،
تحشيشا على الازدياد عليه ، واجعل لها زماما من الامر ، وعناقا من النهي ،
وسقها كالرابط للفقارة الذي لا يذهب عليه خطوة من خطواته الا وقد صح
اولها وآخرها ، وكان رسول الله (ص) يصلى حتى تورمت قدماه ، ويقول:
(أفلا أكون عبدا شكورا) ، أراد ان يعتبر به أمته . فلا تغفلوا عن الاجتهاد
والتعبد والرياضة بحال . ألا وانك لو وجدت حلاوة عبادة الله ، ورأيت
بركاتها ، واستنضأت بنورها ، لم تصبر عنها ساعة واحدة ولو قطعت أربا
أربا ، فما أعرض عنها من أعرض الا بحرمان فوائد السلف من العصمة
والتوفيق » (٣٩) . قيل لربيع بن خيثم : مالك لاتنام بالليل ؟ قال :

« **لاني أخاف البيات** » . والايخار الواردة في فضل السعي والاجتهاد
ومخالفة النفس والهوى أكثر من أن تحصى .

الثاني - مصاحبة أهل السعي ، والاجتهاد في العبادة ، ومجالسة
المجاهدين المرتاضين الذين لا ينفكون ساعة من مشاق الطاعات والعبادات
والزام نفوسهم على ضروب النكال والعقوبات ، فملاحظة أحوالهم ومشاهدة
أعمالهم أقوى باعث للاقتداء بآثارهم وأفعالهم ، حتى قال بعضهم : « اذا
اعترتني فترة في العبادات ، نظرت الى بعض العباد واجتهاده في العبادة
فكنت بعد ذلك أعمل اسبوعا » ، الا أن ذلك غير مرجو في أمثال زماننا ،
اذ لم يبق في عباد الله من يجتهد في العبادة أجتهد الاولين ، وليس فينا من
تقرب عبادته عبادة أدنى رجل من سلفنا الصالحين . فينبغي ان يعدل من
المشاهدة الى سماع أحوالهم ، ومطالعة حكاياتهم وأخبارهم ، ومن لاحظ
حكاياتهم وسمع أحوالهم وأطلع على كيفية أجتهدهم في طاعة الله ، يعلم أنهم

(٣٨) العنكبوت ، الآية : ٦٩ .

(٣٩) الحديث بطوله مروى عن (مصباح الشريعة) : باب ٨١ ص
١٨٤ ، مع اختلاف يسير هنا ، فصححناه عليه كما كان هناك .

عباد الله واحباؤه وأنهم ملوك الجنة ، قال بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « صلينا خلفه الفجر ، فلما سلم انتقل الى يمينه وعليه كآبة ، فمكث حتى طلعت الشمس ، ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد (ص) وما أرى اليوم شيئا شبههم ، وكانوا يصبحون شعثا غربا صفرا ، فقد باتوا لله سجدا وقيامما ، يتلون كتاب الله عز وجل ، ويرأوحون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا اذا ذكروا الله مادوا كما يمد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكان القوم باتوا غافلين » . وكان اويس القرني يقول في بعض الليالي : « هذه ليلة الركوع » فيحیی الليل كله في ركعة ، ويقول في بعضها : « هذه ليلة السجود » فيحیی الليل كله في سجدة . وقال ربيع بن خثيم : « أتيت اويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ، فجلست موضعا ، وقلت : لا أشغله عن التسبيح . فمكث مكانه حتى صلى الظهر ولم يقم حتى صلى العصر ، ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ، ثم ثبت حتى صلى العشاء ، ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ، ثم جلس فغلبته عيناه ، فقال : آلهم اني أعوذ بك من عين نائمة وبطن لا تشبع » . وروى : « أن رجلا من العباد كلم امرأة ووضع يده على فخذها ، ثم ندم فوضع يده في النار حتى نشت (٤٠) عقوبة لها . وبعضهم نظر الى امرأة فجعل على نفسه ألا يشرب الماء البارد طول حياته ، فكان يشرب الماء الحار لينغص على نفسه العيش . ومر بعضهم بغرفة فقال : متى بنيت هذه الغرفة ؟ ثم اقبل على نفسه وقال : تسألين عما لا يعينك ؟ ! لأعاقبك بصوم سنة ، فصامها » وروى : « أن أبا طلحة الانصاري شغل قلبه في الصلاة طين في الحائطة ، فتصدق بالحائطة جبرا لما فاته من الحضور في الصلاة » . وكان بعضهم اعتلت احدى قدميه فيصلی على قدم واحدة حتى يصلى الصبح بوضوء العشاء . وكان بعضهم يقول : « ما أخاف من الموت الا من حيث يحول بيني وبين صلاة الليل » . وحكى رجل : « أنه

(٤٠) النشيش : صوت غليان الماء .

نزل بعض أهل الله عندنا بالمحصب (٤١) وكان له أهل وبنات ، وفي كل ليل يقوم ويصلي الى السحر ، فاذا كان السحر ينادي بأعلى صوته : ايها الراكب المعرسون ! (٤٢) أكل هذا الليل تنامون فكيف ترحلون ؟ فيسمع صوته كل من كان بالمحصب ، فيتواثبون بين باك وداع ، وقاريء ومتوضىء واذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح يحمد القوم السرى » • وهكذا كان عمل عمال الله وسلوك سالكي طريق الآخرة، وحكاياتهم غير محصورة خارجة عن الاحصاء ، أشرنا الى النموذج منها ليعلم الطالبون كيفية سيرة الرجال في مرابطة النفس ومراقبتها ، ويعلمون ان عباد الله ليسوا أمثالنا ، بل هم قوم آخرون • قال بعض الحكماء : « ان لله عبادا انعم عليهم فعرفود وشرح صدورهم فأطاعوه ، وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والامر اليه ، فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ، وبيوتاً للحكمة ، وتوايت للعظمة • وخزائن للقدرة ، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون ، وقلوبهم تجول في الملكوت ، وتلوز (٤٣) بحجب العيوب ، ثم ترجع ومعها طوائف من طوائف الفوائد ما لا يمكن لو اصف ان يصفها ، فهم في باطن امورهم كالديباج حسنا ، وفي الظاهر مناديل مبذولون لمن ارادهم تواضعا ، وطريقهم لا يبلغ اليها بالتكلف وانما هو فضل الله يؤتيه من يشاء » • فعليك يا حبيبي بمطالعة احوالهم وحكاياتهم ، لينبعث نشاطك وتزيد رغبتك ، واياك ان تنظر الى اهل عصرك ولعمرى ! قل في امثال زماننا من يذكر الله رؤيته ، ويعينك في طريق الدين صحبته ، فان تطع اكثر من في بلدي وعصرك يضلوك عن سبيل الله •

ومنها :

الغفلة

وهي فنور النفس عن الالتفات والتوجه الى ما فيه غرضها ومطلبها ، اما عاجلا او آجلا • وضدها : النية ، وترادفها : الارادة والقصد ، وهي انبعاث

(٤١) المحصب - بالمهملتين وضم الميم وتشديد الصاد - : موضع بمكة

على طريق منى ، ويسمى (أ بطحاء) •

(٤٢) التعريس : نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة ، من اقولهم :

عرس القوم •

(٤٣) في القاموس : اللوز - بالزاي - : الملاذ والملجأ •

النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها حالا او مآلا والموافق لغرض النفس ان كان خيرا لها وسعادة في الدنيا او الدين ، فالغفلة عنه وعدم انبعاث النفس الى تحصيله رذيلة ، والنقصان والنية له والقصد اليه فضيلة وكمال ، وان كان شرا وشقاوة ، فالغفلة عنه وكف النفس منه فضيلة ، والنية له وارادته رذيلة . ثم باعث النفس على النية او الغفلة والكف ، ان كان من القوة الشهوية كانت النية او الغفلة متعلقة بها فضيلة او رذيلة ، وان كان من قوة الغضب كانت النية او الغفلة متعلقة بهذه القوة كذلك . فالنية والعزم على التزويج متعلقة بالقوة الشهوية ، وعلى دفع كافر يؤذى المسلمين متعلقة بقوة الغضب ، والنية في العبادات مع انضمام التقرب اليها تسمى اخلاصا . ثم المتبادر من الموافق للغرض والمطروب لما كان ماهو كذلك عند العقلاء وارباب البصيرة ، فيكون المراد منه ماهو مرغوب ومطلوب في نفس الامر وما تحصيله خير وسعادة ، وبهذا الاعتبار تكون الغفلة باطلاقها مذمومة والنية ممدوحة ، فلو ذمت الغفلة باطلاقها ومدحت النية كذلك ، كان بهذا الاعتبار والآيات والاحبار الواردة في ذم الغفلة خارجة بهذا الاعتبار ، كما وصف الله الغافلين وقال :

« ان هم الا كالانعام بل هم اضل سبيلا » (٤٤) . وقال : « اولئك هم

الغافلون » (٤٥) .

(تنبيه) : الغفلة بالمعنى المذكور اعم من ان يكون فتور النفس وخمودها عن الانبعاث الى ما يراه موافقا للغرض مع الجهل بالموافق والملائم ، او مع العلم به ومع النسيان عنه ، او مع التذكر له ، وربما خص في عرف اهل النظر بصورة الذهول وعدم التذكر . ثم الكسالة والبطالة قريب من الغفلة بالمعنى العام ، وربما فرق بينهما ببعض الاعتبارات .

تتميم

الغفلة موجبة للحرمان

الغفلة والكسالة عما ينبغي تحصيله من أمور الدنيا والدين توجب الحرمان

(٤٤) الفرقان ، الآية : ٤٤ .

(٤٥) الاعراف ، الآية : ١٧٨ .

عن سعادة الدارين ، وتؤدي الى شقاوة النشأتين ، اذ الاهمال في رعاية امر المعيشة ومصالحها يؤدي الى هلاكة الشخص وانقطاع النوع ، والغفلة عن اكتساب المعارف والاخلاق الفاضلة وعن أداء الفرائض والنوافل تنجر الى ابطال غاية الابدان - اعنى بلوغ كل شخص الى كماله المستعد له - وهو مع كونه صريح المضادة والمنازعة لخالق العباد يوجب الهلاكة والشقاوة ابد الآباد .

وصل

ضد الغفلة النية - تأثير النية على الاعمال - النية روح الاعمال والجزاء بحسبها - عبادة الاحرار والاجراء والعبيد - نية المؤمن من العمل - النية غير اختيارية - الطريق في تخليص النية .

قد عرفت ان ضد الغفلة النية ، وهي انبعاث النفس وتوجهها الى ما يراه موافقا لغرضها ، وقد عرفت ايضا ان النية والارادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد ، وهى واسطة بين العلم والعمل ؛ اذ ما لم يعلم امر لم يقصد وما لم يقصد لم يفعل ، فالعلم مقدم على النية وشرطها ، والعمل ثمرتها وشرطها اذ كل فعل وعمل يصدر عن فاعل مختار فانه لا يتم الا بعلم وشوق وارادة وقدرة ، اذ كل انسان خلق بحيث يوافق بعض الامور ويلائم غرضه ويخالفه بعض الامور ، فاحتاج الى جلب الموافق ودفع المخالف المنافي ، وهو موقوف على ادراك الملائم النافع والمنافي الضار ، اذ ما لم يعرف الشيء لم يعقل طلبه او الهرب عنه ، وهو العلم ، وعلى الميل والرغبة والشهوة الباعثة عليه ، وهو الشوق اذ من ادرك الغذاء او النار لا يكفيه ذلك للتناول والهرب ، ما لم يكن شوق الى تناول والهرب ، وعلى القصد والشروع والتوجه اليه ، وهو النية ، اذ كم مشاهد للطعام راغب فيه شائق اليه لا يريد له كونه مؤذيا او حراما او لعذر آخر ، وعلى القدرة المحركة للاعضاء اليه - أى الى جلب الملائم او دفع المضار - وبها يتم الفعل فهى الجزء الاخير للعلة التامة التى بها يتم فعل الفاعل المختار ، فالاعضاء لا تتحرك الى جانب الفعل ولا توجد الا بالقدرة والقدرة تنتظر النية ، والنية تنتظر الداعية الباعثة - اعنى الشوق - والشوق ينتظر العلم او الظن بكون ما يفعل موافقا له ، فان كان الشوق صادرا عن القوة

البهيمية ، بان يكون الفعل مما تقتضيه هذه القوة : كأكل ، وشرب ، وجماع وكسب مال ، وامثال ذلك من الالتذات الشهوية ، كانت النية والقصد ايضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها او رذائلها ، وان كان مما تقتضيه القوة السبعية : من دفع مود ، او طلب الاستعلاء ، او تفوق ، وامثال ذلك كانت النية ايضا متعلقة بهذه القوة معدودة من فضائلها او رذائلها . وقد ظهر بما ذكر : ان المحرك الاول هو الغرض المطلوب — اعنى المقصود المنوى بعد تعلق العلم به — وهو الباعث الاول ، وينبعث منه الشوق وهو الباعث الثانى ويتولد منه القصد والنية وهو الباعث الثالث المحرك للقدرة الباعث لانتهاؤها على تحريك الاعضاء الى جانب العمل .

فصل

تأثير النية على الاعمال

العمل غرضه الباعث ، أي باعته الاول ، اما واحد ، كالقيام للاكرام ، أو للهرب من السبع المتهجم عليه ، أو متعدد مع استقلال كل واحد بالباعثية متساويا أو متفاوتا : كالتصدق للفقر والقراءة بالنظر الى من ينتهض فيه كل واحد بانفراده سببا للاعطاء ، أو بدون استقلال واحد لو انفرد ، بل المستقل المجموع ، كالمثال المذكور بالنظر الى من يعطي ماله قريبه الفقير ويمتنع عند الاتفراد ، أي لا يعطيه قريبه الغني ، ولا الاجنبي الفقير ، أو مع استقلال بعض دون بعض : بأن يكون للثاني تأثير بالاعانة والتسهيل دون البعث والتحصيل ، ثم يتعدد الجزاء بتعدد البواعث ، ان خيرا فخير : كالدخول في المسجد لزيارة الله ، ولانتظار الصلاة ، والاعتكاف والانزواء والتجرد للذكر . وترك الذنوب ، وملاقات الاتقياء واخوانه المؤمنين واستماع المواعظ واحكام الدين ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وان شرا فشر : كالقعود فيه للتحدث بالباطل ، وملاحظة النساء ، والمناظرة للمباهة والمرآة ، وربما كان بعض البواعث خيرا وبعضها شرا : كالتصدق للثواب والرياء ، ودخول المسجد لبعض البواعث الاول ، وبعض البواعث الثانية ، والعمل الذي باعته من هذا القسم قد ظهر حكمه في باب الاخلاص . ثم باعث

العمل المباح ان كان خيرا بجعله عبادة ، كالتنظيف يوم الجمعة لاقامة السنة ، وتعظيم المسجد واليوم ، ودفع الاذى بالنتن ، والاكل لقوة العبادات ، والجماع للولد وتطبيب خاطر الزوجة : والترفة بنومة أو دعابة مباحة لرد نشاط الصلاة ، وان كان شرا بجعله معصية ، كالتنظيف للتفاخر باظهار الثروة والتزين للزنا ، ولا يؤثر في الحرام ؛ فلا يباح شرب الخمر لموافقة الاقربان والاخوان ، فالمعاصي لا تتغير موضوعاتها بالنية ، بخلاف الطاعات والمباحات فانها بالنية الصحيحة تصير أقرب القربات ، وبالمفاسدة تصير أعظم المهلكات فما أعظم خسران من يغفل عن النية ، ويتعاطى الاعمال تعاطي البائس المهمة على قصد حظوظ النفس او على السهو والغفلة ، وقد كانت غاية سعي السلف ان يكون لهم في كل شيء نية صحيحة ، حتى في اكلهم وشربهم ونومهم ودخولهم الخلاء .

ولا ريب في امكان تصحيح النية في كل مباح ، بحيث يترتب عليه الثواب ، بل يمكن تصحيح النية في كل نقصان مالي وعرضي ، فان من تلف له مال ، فان قال : هو في سبيل الله ، كان له أجر ، وان سرقه أحد أو غصبه يمكن أن ينوي كونه من ذخائر الآخرة ، واذا بلغه اغتياب غيره له فيمكن أن يطيب خاطره بأنه سيحمل عليه سيئاته وينقل الى ديوانه حسناته فاياك ان تستحقر شيئا من نياتك وخطرات قلبك ، ولا تقدم على عمل الابنية صحيحة ، فان لم تحضرك النية توقف ، اذ النية لا تدخل تحت الاختيار ؛ وقد قيل : « ان من دعا أخاه الى طعام بدون رغبة باطنة في اجتنابه ، فان أجابه فعليه وزران : النفاق ، وتعريضه أخاه لما يكرهه لو علمه ، وان لم يجبه ولم يأكل فعليه وزر واحد هو النفاق ! » . فلا بد للعبد من خالص النية في كل حركة وسكون ؛ لانه اذا لم يكن كذلك غافلا ، والغافلون قد وصفهم الله — تعالى — فقال :

« ان هم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا » (٤٦) .

وصاحب خالص النية صاحب القلب السليم ؛ قال الصادق (ع) :

(٤٦) الفرقان ، الآية : ٤٤ .

« صاحب النية الصادقة صاحب القلب السليم ، لانه سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخليص النية لله في الامور كلها ، قال الله — عز وجل — :
« يوم لا ينفع مال ولا بنون ، الا من أتى الله بقلب سليم » (٤٧) .

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الاوقات في معنى قوته وضعفه ، وصاحب النية الخالصة نفسه وهواه مقهورتان تحت سلطان تعظيم الله — تعالى — والحياء منه ، وهو من طبعه وشهوته ومنيته نفسه ، في تعب ، والناس منه في راحة » (٤٨) .

فصل

النية روح الاعمال ، والجزاء بحسبها

النية روح الاعمال وحقيقتها ، والجزاء يكون حقيقة عليها ، فان كانت خالصة لوجه الله — تعالى — كانت ممدوحة ، وكان جزاؤها خيرا وثوابا ، وان كانت مشوبة بالاغراض الدنيوية كانت مذمومة ، وكان جزاؤها سرا وعقابا ، قال الله — سبحانه — :

« ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه » (٤٩) .

والمراد بالارادة : النية ، لترادفهما — كما تقدم — . واوحى الله الى داود : « يا داود ! لا تطاول على المرئيين ، لو علم أهل محبتي منزلة المرئيين عندي لكانوا لهم أرضا يمشون عليها ، يا داود ! لئن تخرج مريدا من كربة هو فيها تستعده ، كتبك عندي حميدا ، ومن كتبته حميدا لا يكون عليه وحشة ولا فاقة الى المخلوقين » . وقال رسول الله (ص) : « انما الاعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته الى الدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه » ، وانما قال ذلك حين قيل له : ان بعض المهاجرين

(٤٧) الشعراء الآية : ٨٨ — ٨٩ .

(٤٨) هذا بعض الحديث المذكور في مصباح الشريعة — الباب الرابع ص ١٣٥ — ، وفي البحار — الجزء الثاني من المجلد الخامس عشر ، باب النية وشرائطها ومراتبها ، ص ٧٧ ، ط أمين الضرب — . لكن المذكور في البحار فيه اختلاف يسير عما في المصباح ، /فصححناه على البحار ، لكون المذكور في البحار أصح مما في المصباح .

(٤٩) الاتعام ، الآية : ٥٢ .

الى الجهاد ليست نيته من تلك الهجرة الا أخذ الغنائم من الاموال والسبايا
أو نيل الصيت عند الاستيلاء ، فبين (ص) : أن كل احد ينال في عمله
ما يبغيه ، ويصل الى ما ينويه ، كائنا ما كان ، دنيويا كان أو أخرويا وهذا
الخبر مما يعده المحدثون من المتواترات وهو أول ما يعلمونه أولادهم ،
وكانوا يقولون : انه نصف العلم • وقال (ص) : « ان الله لا ينظر الى
صوركم واموالكم ، وانما ينظر الى قلوبكم واعمالكم ، وانما ينظر الى القلوب
لأنها مظنة النية » • وقال (ص) : « ان العبد ليعمل عملا حسنة فتصعد
بها الملائكة في صحف مختومة ، فتلقى بين يدي الله - تعالى - ، فيقول :
القوا هذه الصحيفة ، فانه لم يرد بما فيها وجهي ، ثم ينادي الملائكة :
اكتبوا له كذا وكذا ، فيقولون : يا ربنا ! انه لم يعمل شيئا من ذلك ،
فيقول الله - تعالى - : انه نواه » • وقال (ص) : « الناس أربعة : رجل
آتاه الله - عز وجل - علما ومالا فهو يعمل بعلمه في ماله ، فيقول رجل :
لو آتاني الله - تعالى - مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الاجر
سواء ، ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما ، فهو يتخبط بجهله في ماله ،
فيقول رجل : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملت كما يعمل ، فهما في الوزر
سواء ، ألا ترى كيف شاركه بالنية في محاسن عمله ومساويه ؟! » • ولما
خرج (ص) الى غزوة تبوك ، قال : « ان بالمدينة اقواما ، ما قطعنا واديها ،
ولا وطأنا موطئا يغيظ الكفار ، ولا اتفقنا نفقة ، ولا أصابتنا مخمصة ،
الا شاركونا في ذلك وهم في المدينة » ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله
وليسوا معنا ؟! فقال : « حسبهم العذر ، فشاركونا بحسن النية » • وفي
الخبر : « أن رجلا من المسلمين قتل في سبيل الله بايدي الكفار ، وكان يدعي
بين المسلمين قتيلا الحمار ، لانه قاتل رجلا من الكافرين نية أن يأخذ حماره
وسلبه ، فقتل على ذلك فاضيف الى نيته • وهاجر رجل الى الجهاد مع
اصحاب النبي (ص) ، وكانت نيته من الهجرة أن يأخذ امرأة كانت في
عساكر الكفار ويتزوجها - وتسمى أم قيس - فاشتهر هذا الرجل عند
اصحاب النبي بمهاجر أم قيس » • وفي اخبار كثيرة : « من هم بحسنة
ولم يعملها كتب له حسنة » كما تقدم ، وقد ورد : أنه اذا التقى المسلمان

بسينهما ، فالقاتل في النار ، وكذا المقتول ، لانه أراد قتل صاحبه * وقال
- صلى الله عليه وآله - : « اذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الخلق
على مراتبهم : فلا يقاتل للدنيا ، فلان يقاتل حمية ، فلان يقاتل عصبية
الا فلا تقولوا قتل فلان في سبيل الله الا لمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا »
وقال (ص) : « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي اداءه فهو زان ،
ومن استدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق ، ومن تطيب لله تعالى
جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ، ومن تطيب لغير الله جاء يوم القيامة
وريحته اتن من الجيفة ^(٥٠) ، وكل ذلك مجازاة على حسب النية * وقال
الصادق (ع) : « ان العبد المؤمن الفقير ليقول : يارب ! ارزقني حتى أفعل
كذا وكذا من البر ووجوه الخير ، فاذا علم الله عز وجل - ذلك منه بصدق
النية كتب له من الاجر مثل ما يكتب له لو عمله ، ان الله واسع كريم *
وسئل (ع) عن حد العبادة التي اذا فعلها فاعلمها كان مؤدياً ، فقال : « حسن النية
بالطاعة » * وقال (ع) : « وانما خلد أهل النار في النار لان نياتهم كانت في
الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله - تعالى - ابداً ، وانما خلد أهل
الجنة في الجنة لان نياتهم كانت في الدنيا ان لو بقوا فيها أن يطيعوا الله ايداً ،
فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ، ثم تلى قوله - تعالى - :

« قل كل يعمل على شاكلته » (١) *

قال : على نيته ^(٢) وأمثال هذه الاخبار اكثر من ان تحصى ، وأي
شبهة في ان عماد الاعمال النيات ، والعمل مقتدر الى النية ليصير خيراً ، والنية في
نفسها خير وان تعذر العمل ، وعون الله - تعالى - للعبد على قدر النية
فمن تمت نيته تم عون الله له ، وان نقصت نقص بقدره ، فرب عمل صغير تعظمه
النية ، ورب عمل كبير تصغره النية ، ولذلك كان السلف يتعلمون النية للتعلم
كما يتعلمون العمل ، ونقل : « أن بعض المرتدين يطوف على العلماء ويقول :
من يدلني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله - تعالى - ، فاني لا أحب أن

(٥٠) صححنا النبويات كلها على أحياء العلوم : ٣١٠/٤ ، ٣١١ ، ٣١٧ ،

باب فضيلة النية .

(١) الاسراء الآية : ٨٤ .

(٢) صححنا الاخبار كلها على أصول الكافي - الجزء الثاني ، باب النية .

تأتي علي ساعة من ليل أو نهار الا وأنا عامل من عمال الله - تعالى - . فقال له بعض العلماء : أنت قد وجدت حاجتك ، فاعمل الخير ما استطعت ، فاذا فترت أو تركته فهم بعمله ، اذ من هم بعمل الخير كمن يعمل به « . ثم السر في مجازاة الاعمال على حسب النية ، وكون النية حقيقة العمل وعماداً وروحاً له : ان العمل من حيث هو عمل لا فائدة فيه ، وانما فائدته للآثر الذي يصل منه الى النفس من النورانية والصفاء ، ولا يزال يتكرر وصول هذا الآثر من الاعمال اليها حتى تحصل لها غاية الضياء والصفاء ، فيحصل لها التجرد التام وينخرط في سلك الملائكة ، ولا ريب في أن وصول هذا الآثر من الاعمال انما هو مع صحة النية وخالوصها ، وكونها لله - سبحانه - من دون شوب الاغراض ، بل التأمل يعطي أن هذا الآثر انما هو حقيقة من محض النية ، وان كانت حادثة لاجل العمل .

فصل

عبادة الاحرار والاجراء والعبيد

قد ظهر مما ذكر : أنه لا يحسب من عبادة الله ولا يعد من طاعة الله بحيث يترتب عليه الاجر في الآخرة الا ما يراد التقرب الى الله والدار الآخرة أي يراد به وجه الله من حيث هو ، من دون غرض آخر من الاغراض الدنيوية ، أو يراد به التوصل الى ثوابه ، أو الخلاص من عقابه ، فمن أراد بعبادته محض وجه الله ، واخلصها له لكونه أهلاً للعبادة ، ولمحبته له لما عرفه بجلاله وجماله وعظمته ولطف فعاله ، فاحبه واشتاق اليه ، ولا يريد سواه ولا يتتهج بغير حبه وانسه والاستغراق في لجة شهوده ، فيفرح بعبادته وتوجيه قلبه اليه بطاعته : فجزاؤه أن يحبه الله ويحببه ، ويقربه الى نفسه وبدنه قرباً معنوياً ودنواً روحانياً ، كما قال في حق بعض من هذا صفتة :

« وان له عندنا لزلفى وحسن مآب » (٣) .

والى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) بقوله : « الهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعا في جنتك ، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك » .

وأما من غرضه نيل الثواب والخلاص من العقاب ، نظرا الى إلهه لم يعرف من الله سوى كونه الها صانعا للعالم قادرا قاهرا علما ، وان له جنة ينعم بها المطيعين ، ونارا يعذب بها العاصين ، فعنده ليفوز بجنته او يتخلص من ناره : فجزاؤه بمقتضى نيته أن يدخل جنته ، وينجيه من ناره ، لان جزاء الاعمال حسب النيات ، كما اخبر الله — تعالى — عنه في غير موضع من كتابه ، فان لكل امريء ما نوى ، ولا تصنع الى قول من ذهب الى بطلان العبادة اذا قصد بفعالها الثواب او الخلاص من العقاب زعما منه أن هذا القصد مناف للاخلاص الذي هو ارادة وجه الله وحده ، وان من قصد ذلك اثما قصد جلب النفع الى نفسه ، ودفع الضرر عنها ، لا وجه الله — سبحانه — ، فان هذا قول من لا معرفة له بحقائق التكاليف ومراتب الناس فيها ، بل ولا معرفة له بمعنى النية وحقيقتها ، فان حقيقة النية عبارة من انبعاث النفس وميلها وتوجهها الى ما فيه غرضها ومطلبها ، اما عاجلا أو آجلا ، لا مجرد قول الناوي عند العبادة : أفعل كذا قربة الى الله ، ومجرد تصور هذا القول بخاطره وملاحظته بقلبه وان لم يكن لنفسه انبعاث الى التقرب ، هيهات هيهات ! انما هذا تحريك لسان وحديث فطس ، وما ذلك الا كقول الشبعان : أشتهي هذا الطعام ، قاصدا حصول الاشتهاء ، وهذا الانبعاث اذا لم يكن حاصلًا للنفس لا يمكنها اختراعه واكتسابه بمجرد القول والتصور ، واكثر الناس تتعذر منهم العبادة ابتغاء لوجه الله وتقربا اليه ، لانهم لا يعرفون من الله — تعالى — الا المرجو والمخوف ، فغاية مرتبتهم أن يتذكروا النار ويحذروا انفسهم عقابها ، ويتذكروا الجنة ويرغبوا انفسهم ثوابها ، وخصوصا من كان ملتفتا الى الدنيا ، فانه قلما تنبعث له داعية الى فعل الخيرات لينال بها ثواب الآخرة ، فضلا عن عبادته على نية اجلال الله — تعالى — لاستحقاقه الطاعة والعبودية ، فانه قل من يفهمها فضلا عن يتعاطاها ، فلو كلف بها لكان تكليفا بما لا يطاق ، وليس معنى الاخلاص في العبادة الا عدم كونها مشوبة بشوائب الدنيا والحفظ العاجلة للنفس ، كمدح الناس ، ونيل المال ، والخلاص من النفقة لعشق العبد ونحو ذلك ، وظاهر أنه لا تنافيه ارادة الجنة والخلاص من النار بما وعد في الآخرة ، وان

كان من جنس المألوف في الدنيا ، ولو كان مثل هذه النيات مفسدة للعبادات لكان الترغيب والترهيب والوعد والوعيد عبثا ، اذ كل ما وعد به الجنة وأوعد عليه النار مما رغب ووعد به ورهب وأوعد عليه ، وما ورد في الترغيب والترهيب والوعد والوعيد من الآيات والاحبار أكثر من ان يحصى قال الله - سبحانه - :

« ويدعوننا رغبا ورهبا » (٤) .

ثم كيف يمكن للعبد الضعيف الذليل المهين الذي لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياتا ولا شيئا مما ينفعه ويؤذيه ، ان يستغني عن جلب النفع لنفسه او دفع الضرر عنها من مولاه . ومن تأمل يجد أن القائل ببطلان العبادة باحدى النيتين ترجع نيته الصحيحة في عبادته الى احدهما وهو لا يشعر به .

ومما يدل صريحا على ما ذكرناه قول الصادق (ع) : « العباد ثلاثة : قوم عبدوا الله - عز وجل - خوفا ، فتلك عبادة العبيد . وقوم عبدوا الله - تبارك وتعالى - طلب الثواب ، فتلك عبادة الاجراء . وقوم عبدوا الله - عز وجل - حبا له ، فتلك عبادة الاحرار ، وهي أفضل العبادة » (٥) . وهذا يدل على ان العبادة على الوجهين الاولين لا تخلو من فضل ايضا ، فضلا عن أن تكون صحيحة . نعم ، لا ريب في أن العبادة على الوجه الاخير لانسبة لمنزلتها ودرجتها الى درجة العبادة على الوجهين الاولين ، فان من تنعم بلقاء الله والنظر الى وجهه الكريم ، يسخر ممن يلتفت الى وجه الحور العين كما يسخر المتنعم بالنظر الى وجه الحور العين بالملتفت الى الصور المصنوعة من الطين ، وكما يسخر المتنعم بالنظر الى وجوه النساء الجميلة بالخنفساء التي تعرض عن النظر الى وجوههن وتلتفت الى صاحبتهما وتآلف بها ، بل هذه أمثلة أوردناها من باب الاضطرار ، اذ التفاوت بين جمال الحضرة الربوبية وجمال الحور العين او النسوان الجميلة أعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين وبين جمال

(٤) الانبياء ، الآية : ٩٠ .

(٥) صححنا الرواية على أصول الكافي : الجزء الثاني ، باب العبادة .

النسوان الجميلة والخنفساء ، كيف والتفاوت في الثاني متناه وفي الاول غير متناه ، وأي نسبة للمتناهي الى غير المتناهي ؟

فصل

نية المؤمن خير من العمل

لما عرفت ان النية روح العمل وحقيقته ؛ وتوقف نفع العمل عليها دون العكس ، وكون الغرض الاصيلي من العمل تأثير القلب بالميل الى الله تعالى وتوقفه على النية ، فهي خير من العمل ، بمعنى ان العمل اذا حلل الى جزئية يكون جزؤه القلبي - اعني النية - خيرا من جزئه الجسماني - اعني ما يصدر من الجوارح - ، والثواب المترتب عليه أكثر من الثواب المترتب عليه ، ولذا قال الله - سبحانه - :

« لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » (٦) .

فان المقصود من اراقة دم القربان ميل القلب عن حب الدنيا ، وبذاتها ايثارا لوجه الله ، دون مجرد الدم واللحم ، وميل القلب انما يحصل عند جزم النية والهم ، وان عاق عن العمل عائق ، (فلن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) ، والتقوى صفة القلب ، ولذا ترى أن المجامع امرأته على قصد أنها غيرها آثم ، بخلاف المجامع غيرها على أنها امرأته ، ولذا ورد : أن من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة ؛ لان هم القلب هو ميله الى الخير وانصرافه عن الهوى ؛ وهو غاية الاعمال الحسنة ؛ وانما الاتمام بالعمل يزيدا تأكيدا . وبما ذكر ظهر معنى الحديث المشهور : « نية المؤمن خير من عمله ، ونية الكافر شر من عمله » . وكل عامل يعمل على نيته . وحاصله : ان كل طاعة تتضمن نية وعملا ، وكل منهما من جملة الخيرات ، وله أثر في المقصود ، وتكون النية خيرا من العمل وأثرها أكثر من أثره . والغرض : أن للمؤمن اختيارا في النية وفي العمل ؛ فهما عملان ؛ والنية من الجملة خيرهما ؛ أي النية التي هي جزء من طاعته خير من عمله الذي هو جزؤها الآخر .

فان قيل : ما ذكرت لا يفيد أزيد من أن العمل اذا كان مع النية يكون كل من العمل والنية خيرا وذا ثواب ، واذا كان بدونها لا يكون خيرا ولا يكون له ثواب ، والمقصود كون النية خيرا من العمل في الصورة الاولى وكون ثوابها اعظم ، ولهم يظهر وجه الخيرية مما ذكرت .
قلت : ذلك وان ظهر اجمالا ، الا انه لا بد لتوضيحه لتظهر جلية الحال ، فنقول :

الوجه في كون النية خيرا من العمل وراجحة عليه في الثواب : أنه لا ريب في أن المقصود من الطاعات شفاء النفس وسعادتها في الآخرة وتنعمها بلقاء الله - سبحانه - ، والوصول الى اللقاء موقوف على معرفة الله ووجهه وانسه ، وهي موقوفة على دوام الفكر والذكر الموجبين لانقطاع النفس من شهوات الدنيا وتوجهها الى الله - سبحانه - ، فاذا حصل بمجرد المعرفة الحاصلة من الفكر ميل وتوجه الى الله - تعالى - كان ضعيفا غير راسخ وانما يترسخ ويتأكد بالمواظبة على أعمال الطاعات وترك المعاصي بالجوارح لان بين النفس وبين الجوارح علاقة يتأثر لاجلها كل واحد منها عن الآخر، فيرى ان العضو اذا اصابته جراحة تتألم بها النفس ، وان النفس اذا تألمت بعلمها بموت عزيز أو بهجوم امر مخوف تأثرت الاعضاء وارتعدت الفرائص ، فالطاعات التي هي فعل الجوارح انما شرعت للتوصل بها الى صفة النفس - اعني التوجه والميل الى الله سبحانه - ، فالنفس هو الاصل والمتبوع والامير، والجوارح كالخدم والاتباع ، وصفات القلب هي المقصود لذاتها، وافعال الجوارح هي المطلوبة بالعرض ، لكونها مؤكدة وموجبة لرسوخ النفس - اعني الميل والنية والتوجه - ولا ريب في ان ما هو المقصود بالذات خير مما هو مقصود بالعرض ، وثوابه اعظم من ثوابه .

ومن المعاني الصحيحة للحديث : ان المؤمن بمقتضى ايمانه ينوي خيرات كثيرة لا يوفق لعملها ، اما لعدم تمكنه من الوصول الى اسبابها ، أو لعدم مساعدة الوقت على عملها ، أو لممانعة رذيلة نفسانية عنها بعد الوصول الى اسبابها ، كالذي ينوي ان آتاه الله مالا ينفقه في سبيله ، ثم لما آتاه يمنعه البخل عن الانفاق ، فهذا نيته خير من عمله ، وايضا المؤمن ينوي دائما أن

تقع عباداته على أحسن الوجوه ، لان ايمانه يقتضي ذلك ، ثم اذا اشتغل بها لا يتيسر له ذلك ، ولا يأتي بها كما يريد ، فما ينويه دائما خيرا مما يعمل به في كل عبادة . والى هذا اشار الباقر (ع) حيث قال : « نية المؤمن خيرا من عمله وذلك لانه ينوي الخير مالا يدركه ، ونية الكافر شر من عمله ، وذلك لان الكافر ينوي الشر ويأمل من الشر مالا يدركه » . وقيل للصادق (ع) : سمعتك تقول : نية المؤمن خيرا من عمله ، فكيف تكون النية خيرا من العمل ؟ قال عليه السلام : « لان العمل انما كان رياء للمخلوقين ، والنية خالصة لرب العالمين ، فيعطي - عز وجل - على النية مالا يعطي على العمل » ، ثم قال : « ان العبد لينوي من نهاره أن يصلي بالليل فتغلبه عينه فينام ، فيثبت الله له صلاته ويكتب نفسه تسبيحا ويجعل نومه صدقة » . وبعض الاخبار المتقدمة يعضد ذلك ويؤكد ايضا . وقيل : معنى الحديث : « ان النية بمجرد هذا خيرا من العمل بمجرد بلا نية » . وفيه : ان العمل بدون النية لا يتصف بالخيرية أصلا ، فلا معنى للترجيح في الخيرية ، وقيل : سبب الترجيح : « ان النية سر لا يطلع عليه الا الله ، والعمل ظاهر ، وفعل السر افضل » وهذا وان كان في نفسه صحيحا ، الا انه ليس مرادا من الحديث ، لانه لو نوى احد ان يذكر الله - تعالى - بقلبه او يتفكر في مصالح المؤمنين ، كانت نيته بمقتضى عموم الحديث خيرا من العمل الذي هو الذكر والتفكير مع اشتراك النية والعمل في السرية ، وبداهة كون الذكر والتفكير خيرا من نيتهما .

فصل

النية غير اختيارية

النية غير داخلية تحت الاختيار ، وذلك لما عرفت من انها انبعاث النفس وتوجهها وميلها الى ملائم ظهر لها ان فيه غرضها اما عاجلا او آجلا ، وهذا الميل اذا لم يكن حاصلًا للنفس لم يكن اختراعه واكتسابه بمجرد الاخطار بالبال والاجراء على اللسان ، بل ذلك كقول الشبان : نويت ان اشتهي الطعام واميل اليه ، او قول الفارغ : نويت ان اعشق فلانا ، واحبه ، فلا طريق الى اكتساب صرف القلب الى الشيء وميله اليه وتوجهه نحوه ، الا باكتساب اسبابه ،

وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه ، وانما قد تنبعث النفس الى الفعل اجابة للغرض الباعث ، الموافق للنفس الملائم لها ، ومالم يعتقد الانسان ان غرضه منوط بفعل من الافعال فلا يتوجه قصده نحوه ، وذلك مما لا يقدر على اعتقاده دائما ، واذا اعتقد فانما يتوجه القلب اذا كان فارغا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوى منه ، وذلك لا يمكن في كل وقت ، والدواعي والصوارف لها اسباب كثيرة بها ، تجتمع وتختلف ذلك بالاشخاص والاحوال والاعمال فاذا غلبت شهوة النكاح ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد لم يمكنه ان يتزوج على نية الولد ، بل لا يمكن الا على نية قضاء الشهوة ، اذ النية اجابة الباعث ، ولا باعث الا الشهوة فكيف ينوي الولد ، ولذا كان اهل السلوك من السلف كثيرا ما يمتنعون عن جملة من الطاعات اذا لم تحضرهم النية ، وكانوا يقولون : ليس تحضرنى نية ، وذلك لعلمهم بان النية روح الاعمال وقوامها ، وان العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وسبب مقت لاسبب قرب وروي : «انه اتى الصادق (ع) مولى له ، فسلم عليه وجلس ، فلما انصرف (ع) انصرف معه الرجل ، فلما انتهى الى باب داره دخل وترك الرجل ، فقال له ابنه اسماعيل يا ابيه ! الا كنت عرضت عليه الدخول ؟ فقال : لم يكن من شأنى ادخاله ، قال : فهو لم يكن يدخل ، قال : يا بنى ! انى اكره ان يكتبنى الله عراضا» .

تتميم

الطريق في تخلص النية

الطريق في تخلص النية في الطاعات تقوية ايمانه بالشرع ، وتقوية ايمانه بعظم ثواب الطاعات مع خلوص النية ، واذا قوى ايمانه فربما انبعث من نفسه رغبة الى فعل الطاعة مع خلوص النية مثلا من لم تكن له نية الولد في النكاح بل كانت نيته فيه مجرد قضاء الشهوة فينبغي له ان يقوى ايمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير امة محمد (ص) ، ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد ، كثقل المؤونة وطول المتعب وغيره ، واذا فعل ذلك انبعث من نفسه رغبة الى تحصيل الولد للشواب .

ومنها :

الكراهة

وهى نفرة الطبع عما لا يخلو عن ايلام واتعاب ، فاذا قويت سميت مقته .
وضدها الحب ، وهو ميل الطبع الى الشئ الملد ، فان تأكد ذلك الميل وقوى
سمى عشقا .

اعلم ان عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد امور متناسبة مترتبة
بعضها على بعض ، وكذا أضدادها - اعني الشوق والنية والحب والانس -
امور متناسبة يترتب بعضها على بعض ، فنحن هنا نشير اجمالا الى معانيها
والفرق بينها ، ثم نذكرها مفصلة على الترتيب .

فنقول : قد عرفت ان الغفلة والنية ضدان ، وهما عبارتان عن عدم
انبعاث النفس وانبعاتها الى ما فيه غرضها الملائم اما عاجلا أو آجلا ، واما عدم
الرغبة والشوق فهما ايضا ضدان ومبدأان للغفلة والنية .

بيان ذلك : ان معنى عدم الرغبة ظاهر ، والشوق عبارة عن الرغبة الى
الشئ الذى لم يصل اليه وكان مفقودا عنه بوجه ، فالشوق لا يخلو عن ألم
المفارقة ، ولو زالت المفارقة وحصل الوصول انتفى الشوق . ثم فرق الشوق
عن النية ظاهر ، فان الشوق مجرد الرغبة الى الشئ من دون اعتبار انبعث النفس
الى طلبه في مفهومه ، والنية هى الانبعث المذكور ، فالشوق مبدأ النية ، والنية
مترتبة عليه ، وبذلك يظهر الفرق بين ضديهما أيضا - اعنى عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الكراهة والحب) : فقد عرفت انهما عبارتان عن نفرة الطبع
عن المؤلم ، وعن ميله الى الملد ، سواء انبعثت النفس عن طلبه ام لا ، وبهذا
يفترق الحب عن النية ، فان النية هى انبعث النفس ، وهو مغاير لمجرد الميل
بل الميل منشأ للانبعث ، وسواء حصل الوصول الى الملد ام لا ، وبهذا
يفترق عن الشوق فان الشوق يعتبر في مفهومه عدم الوصول ، فالشوق والنية
والارادة لا ينفكان عن الحب والحب يكون مقارنا لهما البتة ، فاذا حصل
الوصول الى المطلوب زال الشوق والارادة وبقي الحب بدونهما . وبما ذكر
يظهر الفرق بين الكراهة وبين عدم الرغبة والغفلة .

وأما (الانس) : فهو عبارة عن استبشار النفس بما يلاحظ من
المطلوب المحبوب بعد الوصول واستحكامه ورسوخه والبعد عبارة عن عدم

الوصول الى المحبوب او الوصول الى ما لا يستبشر ولا يبتهج بملاحظته ، لعدم الرغبة اليه او للتنفر عنه ، فالحب مشأ الانس ، والانس يترتب عليه وهو غاية المحبة ، فلا يخلو انس عن المحبة والمحبة قد تكون بدونها ، ثم المطلوب المحبوب قد يكون مطلوباً للقوة العاقلة ، كالعلم بحقائق الاشياء ، وقد يكون مطلوباً للقوة الشهوية كالمال والازواج ، وعلى كل تقدير تكون الامور - اعنى عدم الرغبة والغفلة والكراهة والبعد - واضدادها - اعنى الشوق والارادة والحب والانس - متعلقة بتلك القوة ، معدودة من رذائلها او فضائلها . ثم المحبوب ان كان مما يستحسن حبه وطلبه شرعاً وعقلاً ، كان ما يتعلق به من الشوق والارادة والحب والانس من الفضائل واضدادها من الرذائل ، ان كان مما يذم حبه وطلبه شرعاً وعقلاً كان بالعكس .

فصل

الشوق - افضل مراتب الشوق الشوق الى الله - تعلق الحب بجميع القوى - اقسام الحب بحسب مبادئه - لامحبوب حقيقة الا الله - الشهود التام هو نهاية درجات العشق - سريان الحب في الموجودات - رد المنكرين لحب الله - معرفة الله اقوى سائر اللذات - تحقيق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه - الطزيق الى الرؤية واللقاء - تفاوت المؤمنين في محبة الله - الواجب اظهر الموجودات - علائم محبة الله - معنى حب الله لعبده - الحب في الله والبغض في الله - الوفاء في الحب - الانس - الانس قد يثمر الادلال .
قد تقدم تفصيل الكلام في النية والغفلة .

واما الشوق ، فنقول في بيانه : قد عرفت ان الشوق عبارة عن الميل والرغبة الى الشيء عند غيبته ، فان الحاصل الحاضر لا يشتاق اليه ، اذ الشوق طلب يسوق الى نيل امر ، والموجود لا يطلب ، فالشوق لا يتصور الا الى شيء ادرك من وجه ولم يدرك من وجه ، فما لا يدرك اصلاً لا يشتاق اليه ، اذ لا يتصور ان يشتاق احد الى شخص لم يره ولم يسمع وصفه ، وما ادرك بكماله لا يشتاق اليه ايضاً ، اذ المداوم لمشاهدة المحبوب والواصل اليه من

جميع الوجوه لا يتصور ان يكون له شوق ، فالشوق يختص تعلقه بما ادرك من وجه دون وجه ، وهذا انما يكون بأحد وجهين :

(احدهما) ان يتضح الشئ اتضاحا ما ، ولم يستكمل الوضوح ، فاحتاج الى استكماله فيكون الشوق الى ما بقى من المطلوب مما لم يحصل . مثال ذلك : ان من غاب عنه معشوقه ، وبقي في قلبه خياله ، يشتاق الى استكمال خياله بالرؤية ، ومن رأى معشوقه في ظلمة ، بحيث لا تكشف له حقيقة صورته ، يشتاق الى استكمال رؤيته باشراق الضوء عليه ، فلو رآه بتمام الرؤية اتفى الشوق ، كما انه لو انمحي عن قلبه ذكره وخياله ومعرفته حتى نسيه لم يعقل وجوده .

(ثانيهما) ان يدرك بعض كمالات المحبوب ، ووصل اليه ، وعلم اجمالا ان له كمالات اخر ، ولم يدركها ولم يصل اليها ، فيكون له شوق الى ادراك تلك الكمالات . مثال ذلك : ان يرى وجه محبوبه ، ولا يرى شعره ولا سائر اعضائه ، فيشتاق الى رؤية ذلك .

فصل

أفضل مراتب الشوق الشوق الى الله

افضل مراتب الشوق هو الشوق الى الله - سبحانه - والى لقائه ، وهى المظنة الى الوصول اليه ، والى حبه وانسه والتقرب لديه ، وهو رأس مال السالكين ، ومفتاح ابواب السعادة للطالبيين ، والوجهان الموجبان للشوق متصوران في حق الله ، بل هما ثابتان وملازمان لجميع العارفين ، فلا يخلو عارف من الشوق الى الله :

اما الوجه الاول ، فلان ما اتضح للعارفين مع الامور الالهية وان بلغ غاية الوضوح ، فكأنه من وراء ستر رقيق ، فلا يكون متضحاً غاية الاتضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات المكدرة للمعلومات والمائعة عن ظهورها اليقيني ، (لا) سيما اذا انضاف اليها شواغل الدنيا ، فكمال الوضوح في الامور الالهية انما هو بالمشاهدة واشراق التجلي ، ولا يكون ذلك في هذا العالم ، بل يكون في الآخرة ، فهذا احد الموجبين لشوق العارفين الى الله

— سبحانه — وهو الشوق الى استكمال الوضوح فيما اتضح اتضاحا ما .
واما الثانى ، فلأن الامور الالهية لانهاية لها ، وانما ينكشف لكل عارف
بعضها ، وتبقى امور غير متناهية خفية عنه ، والعارف اجمالا وجودها
وكونها معلومة لله — تعالى — ويعلم ان ماغاب عن علمه من المعلومات اكثر
مما حضر ، فلا يزال متشوقا الى ان يحصل له من المعلومات المتعلقة بعظمة الله
وجلاله وصفاته وافعاله بما لا يعرفها اصلا ، لامع الوضوح ولا مع الابهام
والاجمال . والشوق الاول ربما انتهى في الآخرة اذا حصل الشهود واللقاء
المعنوي لاجل استخلاص النفس من موانع الطبيعة وقشوراتها وحصول التجرد
التام لها ، واما الشوق الثانى فلا يمكن ان ينتهي في الدنيا ولا في الآخرة ،
اذ نهاية ذلك ان ينكشف للعبد في الآخرة من عظمة الله وكبريائه وجلاله
وصفاته واحكامه وافعاله ماهو معلوم لله — تعالى — وهو محال ، اذ معلومات
الله المتعلقة بذاته وصفاته وافعاله غير متناهية قوة وشدة وعدة ، فتمتنع احاطة
الانسان بها ، فلا يزال العبد عالما بانه قد بقى من جلال الله وعظمته ومن صفته
وفعله ما لم يتضح له ، فلا يسكن قط شوقه ، وما من عبد الا ويرى فوق
درجته درجات كثيرة لانهاية لها ، فيشتاق اليها ألبتة ، واذا كان أصل الوصال
واللذة حاصل ، فربما كان الشوق الى المراتب التى فوق مرتبتها شوقا
لذيذا لا يظهر فيه الم ، وربما كانت لطائف الكشف والبهجة ودرجاتها متوالية
الى غير النهاية وتحصل للعبد هذه الدرجات في الآخرة على التدرىج ، فلا
يزال العبد يتصاعد ويترقى اليها ، ولا يزال النعيم واللذة تتزايد له ابد الآباد
من غير انقطاع له ، وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعيم شاغلا له عن
الاحساس بالشوق الى ما لم يحصل له الم ، فان امكن في الآخرة حصول
الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا ، لكان حصول
المعارف والابتهاجات والافوار وتجدها في الآخرة ممكنا ، وان لم يكتسب
أصلها في الدنيا فيتجدد ويتوارد على العبد في الآخرة على الدوام والاستمرار
من دون أن ينتهي الى حد . وربما كان قوله — تعالى — :

« نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا انهم لنا نورنا » (٧) :

أشارة الى هذا المعنى ، ويكون المراد به اتمام النور في عين ما أستنار

في الآخرة أستنارة محتاجة الى الظهور ، ثم الى زيادة الاستكمال والاشراق وان أختص حصول نعم الآخرة وأنوارها وابتهاجاتها على النعم التي تزود من أصلها ولم يحصل للعبد ما لم يكتسب في الدنيا أصله من الانوار والابتهاجات ، فيكون ترقى العبد في الآخرة في ازدياد الابتهاج والاشراق فيماحصل له أصله ، وعلى هذا ، فربما انتهى الى حد ووقف هناك ولا يتضاعف ، وقوله تعالى : « نورهم يسعى ... الى آخر الآية » يحتمل لهذا المعنى أيضا ، بأن يكون المراد طلب اتمام نور تزود من الدنيا أصله .
(قيل) : وقوله تعالى :

((انظرونا نقنبس من نوركم قيل أرجعوا وراءكم فالتمسوا نورا)) (٨) :

يدل على أن الانوار لا بد أن يتزود أصلها في الدنيا ، ثم يزداد في الآخرة أشراقا ، فأما ان يتجدد نور لم يكتسب أصله في الدنيا فلا .
ثم لا يخفى أن تعيين الاصل والفرع للأنوار والابتهاجات ومراتب الآخرة عندنا مشكل ، وليس لنا طريق الى القطع بأن أي شيء اصل لأي نور وبهجة ، وربما كان المظنون عندنا : ان أصل كل نور وسعادة وبهجة هو اليقين القطعي الاجمالي بأن الواجب سبحانه في غاية العظمة والجلال والقدرة والكمال ، وأنه تام فوق التمام ، وكل ما سواه من المهيئات الموجودة صادرة عنه على أشرف انحاء الصدور وأقواها وأدناها على العظمة ، وأنه لا موجود ولا شيء الا الواجب وصفاته وأفعاله ، وان ذاته الاقدس ذات لا يمكن أن يكون لذهن من الاذهان العالية ، ولا لمدرک من المدارک المتعالية عقلا كان أو نفسا او غيرهما ، لو أمكن ان يكون مدرکا ، أن يدرك في لحاظ التعقل ذاتا يمكن أن تكون فوقه أو مثله ، بل كلما تصور أجمالا فهو فوقه ، وكذا صفاته الكمالية وأفعاله ، وأن صفاته الكمالية : من عظمتها ، وجلاله ، وقدرته ، وجماله ، وعلمه ، وحكمته ، وغير ذلك غير متناهية ، وليس لها حدٌ وغاية ، وما تعلق به علمه من مخلوقاته لانهاية له كثرة وقوة وكمالا ، وأن له من المراتب الغير المتناهية من العظمة والجلال مالا يطبق أشرف الموجودات وأقواها لادراك أولها ، فمن عرف ذلك وتيقن به ، وعلم

ان هذا العالم وما فيه لانسبة له الى عالم الآخرة وما فيه ، وأن أطفاه
ومزاياه الى عباده الذين عرفوا نسبتهم اليه ، وتيقنوا بأن لاشرافة ولا كمال
للنفوس والعقول فوق معرفة ربهم والتقرب اليه والوصول الى حبه وانسه ،
فقد وصل الى أصل كل سعادة ونور وبهجة ، لاسيما اذا دفع عن نفسه
ذمائم الاخلاق واتصف بفضائلها . وقد ظهر مما ذكرناه انه لا ريب في ثبوت
الشوق للعباد الى الله سبحانه . والعجب ممن أنكر حقيقة الشوق الى الله
سبحانه لانكاره المحبة له كما يأتي ، اذ لا يتصور الشوق الا الى محبوب ،
وقد عرفت ثبوته من حيث النظر والاعتبار . ولا ريب في ثبوته أيضا من
الآيات والاخبار : قال الله سبحانه :

« فمن كان يرجو لقاء ربه . . . » الى آخر الآية (٩) .

فان الرجاء لا ينفك عن الشوق . وقال رسول الله (ص) في دعائه :
« اللهم اني اسألك الرضاء بعد القضاء ، وبرد العيش بعد الموت . ولذة
النظر الى وجهك الكريم ، وشوقا الى لقاءك » . وفي بعض الكتب
السماوية : « طال شوق الابرار الى لقائي ، وأنا الى لقاءهم لأشد شوقا » .
وفي أخبار داود (ع) : « اني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ، ونعمتها
بجلالي » . وفيها أيضا : « انه تعالى اوحى الى داود : يا داود ! الى كم
تذكر الجنة ولا تسألني الشوق الي » ؟ قال : يارب ! من المشتاقون اليك ؟
قال : ان المشتاقين الي الذين صفتهم من كل كدر ، ونبتهم بالحذر ،
وخرقت من قلوبهم الي خرقا ينظرون الي ، واني لاحمل قلوبهم بيدي فأضعها
على سمائي ، ثم ادعو بملائكتي ، فاذا اجتمعوا سجدوني ، فأقول : اني لم
اجمعكم لتسجدوني ، ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين الي ،
واباهي بهم اياكم ، فان قلوبهم لتضىء في سمائي لملائكتي كما تضىء الشمس
لاهل الارض ، يا داود ! اني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني ، ونعمتها
بنور وجهي فأخذتهم لنفسي محدثين ، وجعلت أبدانهم موضع نظري الى
الارض ، وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به الي ، يزدادون في كل يوم
شوقا » . وأوحى الله اليه أيضا : « يا داود ! لو يعلم المدبرون عني كيف

انتظاري لهم ورفقي بهم وشوقي الى ترك معاصيهم ، لما توار شوقا الى ،
وتقطعت اوصالهم عن محبتي » • وفي بعض الاخبار القدسية : « ان لي
عبادا يحبونني واحبهم ، ويشتاقون الى واشتاق اليهم ، ويذكرونني واذكرهم
وأول ما اعطيتهم ان اقدف من نوري في قلوبهم ، فيخبرون عني كما أخبر
عنهم ، ولو كانت السماوات والارض وما فيهما في موازينهم لاستعد بها
لهم ، وأقبل بوجهي عليهم ، لا يعلم أحدا ما أريد ان أعطيه » • وقال الصادق
عليه السلام : « المشتاق لا يشتهي طعاما ، ولا يلتذ شرابا ، ولا يستطيع
رقادا ، ولا يأنس حميا ، ولا يأوى دارا ، ولا يسكن عمرا ، ولا يلبس
ثيابا ، ولا يقر قرارا ، ويعبد الله ليلا ونهارا ، راجيا بأن يصل الى ما يشتهى
اليه ، ويناجيه بلسان الشوق معبرا عما في سيرته ، كما أخبر الله تعالى عن
موسى بن عمران في ميعاد ربه بقوله : (وعجلت اليك رب لترضى) ، وفسر
النبي (ص) عن حاله : (أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ، ولا اشتهى شيئا
من ذلك في ذهابه ومجيئه اربعين يوما شوقا الى ربه) ، فاذا دخلت ميدان
الشوق ، فكبر على نفسك ومرادك من الدنيا ، وودع جميع المألوفات ،
وأصرفه عن سوى مشوقك ، ولب بين حياتك وموتك : لبيك اللهم لبيك !
اعظم الله أجرك ، ومثل المشتاق مثل الغريق ، ليس له همة الا خلاصه ،
وقد نسي كل شيء دونه » (١٠) • وما ورد في الادعية المعصومية من طلب
الشوق أكثر من ان يحصى ، والظواهر الآتية المثبتة للمحبة والانس تثبت
الشوق أيضا •

وأما (الكراهة والبغض وضدهما اعني الحب) فنقول : قد عرفت أن
الكراهة والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب ، والحب الذي هو
ضدهما عبارة عن ميل الطبع الى الملائم الملد •
وتوضيح ذلك : انه لا يتصور حب الا بعد معرفة وادراك ، وكذلك
لا يتصف بالحب جماد ولا يحب الانسان ما لا يعرفه ولم يدركه ، فالحب من
خاصية الحي الدراك ، بعد حصول الادراك بالفعل •
ثم لما كانت المدركات منقسمة الى ما يوافق طبع المدرك ويلذه ، والى

(١٠) صححنا الحديث على مصباح الشريعة : باب ٩٩ ، ص ١٩٣-١٩٤ •

ما يخالفه ويؤلمه ، والى مالا يؤثر فيه بالذاذ وايلام ، فالتقسيم الاول يكون مرغوبا عند المدرك ، ويسمى رغبة ، وميله اليه حبا ، والتقسيم الثاني يكون منظوراً عنده ، وتسمى نفرتة عنه كراهة وبغضا ، والثالث لا يوصف بميل وكراهة ، فلا يوصف بكونه محبوبا ، ولا مكروها . ثم اللذة لما كانت عبارة عن ادراك الملائم المذ ونيله ، فالحب الذي هو الميل والرغبة اليه لا يخلو عن لذة محققة او خيالية ، وعلى هذا فيمكن أن تعرف المحبة بأنها ابتهاج النفس بادراك الملائم ونيله ، هذا فانك قد عرفت ان المدرك ان كان مما يستحسن حبه شرعا وعقلا ، كان كراهته وبغضه من الرذائل وحبه من الفضائل ، وان كان مما يذم حبه ، كان بالعكس من ذلك .

فصل

تعلق الحب بجميع القوى

والحب والكراهة لما كانا تابعين للادراك ، فينقسمان بحسب انقسام القوة المدركة ، التي هي الحواس الظاهرة ، والحواس الباطنة ، والقوة العاقلة . فمن الحب ما يتعلق بالحواس الظاهرة ، بمعنى ان المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الجميلة المرئية ، والنعمات الموزونة ، والروائح الطيبة ، والمطاعم النقيسة ، والملبوسات اللينة بالنظر الى الخمس الظاهرة . ومنه ما يتعلق بالحواس الباطنة ، بمعنى ان المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالصور الملائمة الخيالية ، والمعاني الجزئية الملائمة بالنسبة الى المتخيلة والواهمة . ومنه ما يتعلق بالعاقلة ، بمعنى ان المحبوب مما هو مدرك وملذ عندها ، كالمعاني الكلية ، والذوات المجردة . ولا ريب في أن العقلي من الحب والذات أقوى اللذات وأبلغها ، اذ البصيرة الباطنة أقوى من البصيرة الظاهرة والعقل أقوى ادراكا وأشد غوصا ونفوذاً في حقائق الاشياء وبواطنها من الحس ، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة الحسنة ، فتكون لذة العقل وحبه بما يدركه من الامور الشريفة الإلهية التي جلت عن ادراك الحواس اتم وأبلغ ، ولذا جعل رسول الله (ص) الصلاة أبلغ المحبوبات عنده في الدنيا ، حيث قال : « حب الي من دنياكم ثلاث :

الطيبه، والنساء، وجعلت قره عيني في الصلاة » ، فان الالتذاذ بالصلاة لذة عقلية ، كما أن الالتذاذ بالطيب لذة شمية ، وبالنساء نظرية ولمسية .
فان قيل : حقيقة الانسان نفسه الناطقة ، ولها ثلاث قوى ، وهي :
العاقلة ، والشهوية ، والغضبية ، وقوى أخرى هي : الحواس الظاهرة والحواس الباطنة ، وشأن العاقلة - كما ذكرت - ادراك المعاني الكلية ، والحقائق المجردة ، وشأن الحواس الظاهرة ادراك المبصرات والمسموعات والمشمومات والمذوقات والملموسات ، وشأن الحواس الباطنة ادراك المعاني الجزئية ، والصور المدركة بالحواس الظاهرة وضبطها ، ومن جملة ما يدرك بالحواس ما يتعلق بقوتي الغضب والشهوة ، من الغلبة والاستيلاء والوصول الى المناكح والمطاعم وضدهما ، فالمحب لهذه المدركات والملتذ بها ماذا من النفس وقواها المذكورة ، وهل المحب والملتذ هو المدرك بعينه أو غيره ؟
قلنا : المحب والملتذ أولا في كل من هذه المدركات هو المدرك ، وثانيا وبالواسطة هو النفس ، اذ كل أدراك يتعلق باحدى القوى ، ليصل بالآخرة الى النفس ، فيحدث فيها ما يقتضيه من اللذة والالام ، الا ان ما يدرك بالحواس مما يتعلق بقوتي الشهوة والغضب لا بد ان يصل اليهما أيضا ، فيحصل لهما اللذة أو الالام ، وبواسطة يوصل الى النفس ، فالمدرك أولا للغلبة أو العجز هو الوهم ، فيلتذ او يتألم ، ثم يصل منه أثر الادراك والالتذاذ والالام الى القوة الغضبية ، ويصل منها الاثر الى النفس فيلتذ او يتألم ، والمدرك للطعم والريح واللين والنعومة هي الذائقة والشامة واللامسة فالالتذاذ والتألم لها أولا وبواسطة للقوة الشهوية ، وهذا ان كانت الشهوية قوة على حدة سوى الذائقة والشامة واللامسة وسائر الحواس الظاهرة ، وان كانت معنى جنسيا شاملا لجميعها فالامر ظاهر . وبما ذكر ظهر وجه تعلق الحب بجميع القوى .

فصل

اقسام الحب بحسب مبادئه

أعلم ان أسباب الحب ومبادئها لما كانت متعددة مختلفة فينقسم الحب لأجلها على أقسام :

الاول - حب الانسان وجود نفسه وبقائه وكماله ، وهو أشد أقسام
الحب وأقواها ، لان المحبة انما تكون بقدر الملاءمة والمعرفة ، ولا شيء
أشد ملاءمة لاحد من نفسه ، ولا هو بشيء أقوى معرفة منه بنفسه ، ولهذا
جعلت معرفة نفسه مفتاحا لمعرفة ربه (١١) . وكيف لا يكون حب الشيء
لذاته أقوى المراتب ، مع أن الحب كلما صار أشد جعل الاتحاد بين المحب
والمحبوب اوكد وأبلغ ؟ وأي اتحاد أشد من الوحدة ورفع الاثنينية بالمرة ؛
كما بين الشيء ونفسه ؛ فالمحب والمحبوب واحد ؛ وسبب الحب غريزة في
الطباع بحكم سنة الله :

« ولن تجد لسنة الله تبديلا » (١٢) .

ومعنى حبه لنفسه كونه محبا لدوام وجوده ؛ ومكرها لعدمه وهلاكه
فالبقاء ودوام الوجود محبوب ، والعدم منقوت ، ولذا يبغض كل أحد الموت
لا بمجرد ما يخافه بعده ، او لمجرد ما يلزمه من سكراته ، بل لظنه انه يوجب
أنعدام كله او بعضه ، ولذا لو أختطف من غير ألم وتعب ، واميت من غير
ثواب وعقاب ، كان كارها لذلك ، وكما أن دوام الوجود محبوب فكذلك
كمال الوجود محبوب ؛ لأن فاقد الكمال ناقص ، والنقص عدم بالاضافة
الى القدر المفقود ، فالوجود محبوب في أصل الذات وبقائه وفي صفات
كماله ، والعدم منقوت فيها جميعا .

والتحقيق : أن المحبوب ليس الا الوجود ، والمبغوض ليس الا العدم ،
وجميع الصفات الكمالية راجعة الى الوجود ، وجميع النقائص راجعة الى
العدم ، الا أن كل فرد من الموجود لما كان له نحو خاص من الوجود ،
وكانت تمامية نحو وجوده بوجود بعض الصفات الكمالية التي هي من مراتب
الموجودات ، فكان وجوده مركب من وجودات متعددة ، فاذا فقد بعضها
فكأنه فاقد لبعض أجزاء وجوده ، وبذلك يظهر ان الموجود كلما كان أقوى
وكان نحو وجوده أتم ، كان اجمع لمراتب الوجودات في القوة والشدة

(١١) كما قال أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام : « من عرف نفسه

فقد عرف ربه » .

(١٢) الاحزاب ، الآية : ٦٢ . الفتح ، الآية : ٢٣ .

والعدة ، وكانت صفاته الكمالية أقوى وأكثر ، لكونها من مراتب الوجودات فالوجود الواجبي الذي هو التام فوق التمام والقائم بنفسه المقوم لغيره ينطوي فيه جميع الوجودات ، ويكون محيطاً بالكل ، ثم محبة الاولاد من التحقيق يرجع الى هذا القسم ؛ لأن الرجل انما يحب ولده ويتحمل المشاق لأجله ، وأن لم يصل منه اليه نفع وحظ ؛ لعلمه بانه خليفته في الوجود بعد عدمه ، فكأن بقاءه نوع بقاء له ، فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وبمنزلة جزء منه ، لما عجز من الطمع في بقاء نفسه ، ولعدم كون بقاءه هو بقاءه بعينه يكون بقاء نفسه أحب اليه من بقاء ولده لو كان طبعه باقياً على اعتداله ، وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع الى حبه لكمال نفسه ، فانه يرى نفسه كبيراً قوياً لأجلهم ، متجماً بسببهم ، اذ العشيرة كالجنح المكمل للانسان (١٣) .

الثاني - حبه لغيره لأجل انه يلتذ منه لذة حيوانية ، كحب كل من الرجل والمرأة للآخر لأجل الجماع ، وحب الانسان المأكولات والملبوسات ، والسبب الجامع في هذا القسم هو اللذة ، وهو سريع الحصول وسريع الزوال ، وأضعف المراتب ، لخساسة سببه وسرعة زواله .

الثالث - حبه للغير لأجل نفعه واحسانه ، فان الانسان عبد الاحسان ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن اليها وبغض من أساء اليها ، ولذا قال رسول الله (ص) : « اللهم لاتجعل لفاجر عليّ يداً فيحبه قلبي » . فالسبب الجامع في هذا القسم هو النفع والاحسان ، وهذان القسمان عند التحقيق يرجعان الى القسم الاول ، لان المحسن من أمد بالمال والمعونة وسائر الاسباب الموصلة الى دوام الوجود وكمال الوجود ، وسبب اللذة باعث للحصول الحظوظ التي بها يتهيأ الوجود .

والفرق أن الاعضاء ، والصحة ، والعلم ، والطعام ، والشراب ؛ والجماع : محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال ، وأما الطبيب

(١٣) كما قال أمير المؤمنين - عليه الصلاة والسلام - في جملة ما أوصى به ولده الامام المجتبي - عليهما الصلاة والسلام - : « وأكرم عشيرتك ، فانهم جناحك الذي به تطير ، لوأصلك الذي آليه تصير ، ويدك التي بها تصول » نهج البلاغة : ٣ / ٦٣ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة .

الذي هو سبب الصحة ، والعالم الذي هو سبب العلم ، ومعطي الطعام والشراب ، والمرأة التي هي آلة الوقاع : محبوبة لا لذواتها ، بل من حيث انها وسائل الى ما هو محبوب لذاته ؛ فاذن يرجع الفرق الى تفاوت الرتبة ، والكل يرجع الى محبة الانسان نفسه ، فمن أحب المحسن لاحسانه فما أحب ذاته تحقيقا ، بل أحب احسانه ، ولو زال احسانه زال حبه مع بقاء ذاته ؛ ولو نقص نقص الحب ؛ ولو زاد زاد . وبالجملة : يتطرق الى حبه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه .

الرابع - أن يحب الشيء لذاته ، لا لحظ يناله منه وراء ذاته ، بل تكون ذاته عين حظه ، وهذا هو الحب الحقيقي البالغ الذي يوثق به ، وذلك كحب الجمال والحسن ، فان كل جمال محبوب عند مدركه ، وذلك لعين الجمال ؛ لأن ادراك الجمال عين اللذة ، واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها . ولا تظن ان حب الصور الجميلة لا يتصور الا لأجل قضاء الشهوة ؛ فان قضاء الشهوة لذة حيوانية ، قد يحب الانسان الصور الجميلة لأجلها ، وادراك نفس الجمال لذة أخرى روحانية يكون محبوبا لذاتها ، ولا ريب في أن حب الصور الجميلة بالجهة الاولى مذموم ، وبالجهة الثانية ممدوح ، والعشق الذي يقع لبعض الناس من أستحسان الصور الجميلة يكون مذموما ان كان سببه اللذة الشهوية الحيوانية ، ويكون ممدوحا ان كان سببه الابتهاج بمجرد ادراك الجمال ، ولأجل التباس السبب في هذا العشق أختلف العقلاء في مدحه وذمه ، وكيف ينكر حب الصور الجميلة لنفس جمالها من دون قصد حظ آخر ، مع ان الخضرة والماء الجاري محبوبان لا لتؤكل الخضرة ويشرب الماء ، او ينال منهما حظ سوى نفس الرؤية ، وقد كان رسول الله (ص) تعجبه الخضرة والماء الجاري والطباع الصافية السليمة قاضية بأستلذاذ النظر الى الانوار والازهار والاطيار المليحة الالوان الحسنة النفس المناسبة الشكل ، حتى الانسان لتتفرج عنه الغموم بمجرد النظر اليها من دون قصد حظ آخر منها . وبما ذكرناه ظهر ضعف ظن بعض ضعفاء العقول ، حيث زعموا انه لا يتصور ان يحب الانسان غيره لذاته ، مالم يرجع منه حظ الى المحب سوى ادراك ذاته ، ولم يعلموا ان الحسن والجمال

ليس مقصورا على مدركات البصر ، ولا على تناسب الخلقة ، اذ يقال : هذا صوت حسن ، وهذا طعم حسن ؛ وهذا ريح طيب ، وليس شيء من هذه الصفات مدركة بالبصر ، وكذا ليس الحسن والجمال مقصورا على مدركات الحواس ، لوجودهما في غيرها ، فان اكثر خصال الخير يدرك بالعقل بنور البصيرة الباطنة ، اذ يقال : هذا خلق حسن ، وهذا علم حسن . وهذه سيرة حسنة ، ولا يدرك شيء من هذه الصفات بالحواس ، بل يدرك بالبصيرة الباطنة ، وكل هذه الخصال المدركة حسنها بالعقل محبوبة بالطبع ، والموصوف بها ايضا محبوب عند من عرف صفاته .

ومما يدل على تحقق الجمال المدرك بالعقل وكونه محبوبا : ان الطباع السليمة مجبولة على حب الانبياء والأئمة - عليهم السلام - مع انهم لم يشاهدوهم ، حتى ان الرجل قد تجاوز حبه لصاحبه مذهبه حد العشق ، فيحمله ذلك على ان ينفق جميع امواله في نصرته مذهبه والذب عنه ، ويخاطر بروحه في قتال من يطعن في امامه او متبوعه ، مع انه لم يشاهد قط صورته ولم يسمع كلامه ، فما حملة على الحب هو استحسانه بصفاته الباطنة : من الورع ، والتقوى ، والتوكل ، والرضا ، وغزارة العلم ، والاحاطة للمدارك الدين ، وانتهازه لافاضة علم الشرع ، ونشره هذه الخيرات في العالم ، وجملتها ترجع الى العلم والقدرة ، اذ جميع الفضائل لا تخرج عن معرفة حقائق الامور والقدرة على حمل نفسه عليها بقهر الشهوات ، وهما - اعنى العلم والقدرة - غير مدركين بالحواس ، مع انهما محبوبان بالطبع . ومن الشواهد على المطلوب : ان الناس لما وصفوا (حاشا) بالسخاء و(انوشيروان) بالعدالة ، احبتهما القلوب حبا ضروريا ، من دون نظرهم الى صورهما المحسوسة ، ومن غير حظ ينالونه منهما ، بل كل من حكى عنه بعض خصال الخير وصفات الكمال غلب على القلوب حبه ، مع عدم مشاهدته ويأس المحبين من انتشار خيره واحسانه اليهم ، ومن كانت بصيرته الباطنة أقوى من حواسه الظاهرة ، ونور العقل اغلب عليه من آثار الحواس الحيوانية ، كان حبه للمعاني الباطنة اكثر من حبه للمعاني الظاهرة ، فشتان بين من يجب نقشا على الحائط لجمال صورته الظاهرة ، وبين من يجب سيد الرسل (ص) لجمال صورته

الباطنة •

الخامس - محبته لمن بينه وبينه مناسبة خفية ، او مجانسة معنوية ، فرب شخصين تتأكد المحبة بينهما من غير ملاحظة جمال ، ولا طمع في جاه ومال ، بل بمجرد تناسب الارواح ، كما قال النبي (ص) : الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف •

السادس - محبته لمن حصل بينه وبينه الالف والاجتماع في بعض المواضع لاسيما اذا كان من المواضع الغريبة ، كالسفن والاسفار البعيدة • والسبب فيه : كون افراد الانسان مجبوله على المؤانسة مع التلاقي والاجتماع ، ولكون المؤانسة مركوزة في طبيعة الانسان سمي انسانا ، فهو مشتق من الانس دون النسيان - كما ظن - ، والمؤانسة لاتنفك عن المحبة ، وربما كان حصول المؤانسة والحب بين اهل البلد ، أو بين اهل القرى ، او بين اهل البلاد المتباعدة والمواضع المختلفة ، من جملة اسرار الامر بالجمعة والجماعة ، وصلاة العيدين ، والحج الباعث لاجتماع عموم الخلائق في موقف واحد •

السابع - محبته لمن يشاركه في وصف ظاهر ، كميل الصبي الى الصبي لصباه ، والشيخ الى الشيخ لشيخوخته ، والتاجر الى التاجر لتجارته ، وهكذا • فان كل شخص مائل الى من يشاركه في وصفه وصنعتة وشغله وحرفته ، والسبب الجامع فيه هو الاشتراك في الوصف والصنعة •

الثامن - حب كل سبب وعلة لمسببه ومعلوله وبالعكس ، فان المعلول لما كان مثالا من العلة ، ومرتسحا عنها ومنبجسا منها ، ومناسبا لها لكونه من سنخها ، فالعلة تحبه لانه فرعها وبمنزلة بعض اجزائها التي كانت منطوية فيها ، والمعلول يحبها لانها أصله وبمنزلة كله الذي كان محتويا عليه ، فكان كلا منهما في حبه للآخر يجب نفسه •

ثم السبب ان كان علة حقيقية موجودة ، تكون سببية اقوى في حصول المحبة والاتحاد مما اذا كان علة معدة • فاقوى اقسام المحبة ما يكون للواجب - سبحانه - بالنسبة الى عبادته ، وبعد ذلك لا محبة اقوى من محبة العباد العارفين بالنسبة اليه - سبحانه - فان محبتهم له من حيث كونه موجدا مخرجا لهم من العدم الصرف الى الوجود ، ومعطيا لهم ما احتاجوا اليه في النشاطين

ومن حيث انه - تعالى - تام فوق التمام في الذات والصفات الكمالية ،
والنفس بذاتها مشتاقا الى الكمال المطلق ، وهذه المحبة فرع المحبة ولا تحصل
بدونها ، ولذا قال سيد الرسل (ص) : « ما اتخذ الله وليا جاهلا قط » .
وحب الاب لابنه وبالعكس نسبة هذا القسم ، من حيث ان الاب سبب ظاهر
لوجود الابن ، وان لم يكن سببا حقيقيا ، بل علة معدة له ، فيحبه لانه
يراه بمنزلة نفسه ، ويظنه مثلا من ذاته ، ونسخة نقلتها الطبيعة من صورته
ويعد وجوده بعده بمنزلة البقاء الثاني لنفسه ، فيظنه انه جزؤه وفي الخلق
والخلق مثله ، وكذا كل ما يريد لنفسه من الكمالات يريد أفضله له ويفرح
بترجيحه عليه ، وتفضيله عليه عنده بمثابة أن يقال : انه في الآن أفضل من
السابق ، ومما يؤكد محبته له : أنه يرجو منه انجاح مقاصده ومطالبه في
حياته ومماته ، وليست محبة الابن للاب كمحبة الاب للابن ، بل هو
أضعف ، لفقد بعض الاسباب الباعثة له ، ولذا امر الاولاد في الشريعة بحب
الآباء دون العكس ، وكذا المحبة التي بين المعلم والمتعلم من هذا القسم ، لان
المعلم كالسبب القريب للحياة الروحاني للمتعلم وافاضة الصورة الانسانية
عليه ، كما ان الاب كالسبب لحياته الجسمانية ورتبته الصورية ، فهو والد
روحاني له ، وبقدر شرافة الروح على الجسم يكون المعلم أشرف من الاب
وعلى هذا ينبغي ان تكون محبة المعلم أدون من محبة الموجد الحقيقي وأكثر
من محبة الاب ، وقد ورد في الحديث : « أن آباءك ثلاثة : من ولدك ،
ومن علمك ، ومن زوجك ، وخير الآباء من علمك » . وسئل عن ذي القرنين :
أن آباك أحب اليك أم معلمك ؟ قال : « معلمي أحب الي ، لانه سبب
لحياتي الباقية ، وأبي سبب لحياتي الثمانية » . وقال أمير المؤمنين (ع) :
« من علمني حرفا فقد صيرني عبدا » . وعلى هذا ينبغي أن يكون حب
النبي (ص) وأوصياؤه الراشدين - عليهم السلام - أوكد من جميع أقسام
الحب بعد محبة الله - سبحانه - ، لانه المعلم الحقيقي والمكمل الاول ،
ولذا قال (ص) : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من نفسه
وأهله وولده » .

التاسع - محبة المتشاركين في سبب واحد بعضهم لبعض ، كمحبة

الاخوان والاقارب . وكلما كان السبب أقرب كانت المحبة أوكد ، ولذا تكون محبة الاخوين أشد من محبة ابناء الاعمام مثلا ، ومن عرف الله وانتساب الكل اليه ، وبلغ مقام التوحيد ، وعرف النسبة والربط الخاص الذي بين الله وبين مخلوقاته ، يجب جميع الموجودات من حيث اشتراكه معها في الموجد الحقيقي . ثم قد يجتمع بعض اسباب المحبة او أكثرها في شخص واحد ، فيتضاعف الحب ، كما لو كان لرجل ولد جميل الصورة ، حسن الخلق ، كامل العلم ، حسن التدبير ، محسن الى والده والى الخلق كان حب والده له في غاية الشدة ، لاجتماع اكثر اسباب الحب فيه ، وربما أحب شخصا آخر لوجود بعض أسباب الحب فيه من دون عكس ، لعدم تحقق سبب من أسباب الحب فيه ، وقد تختلف فيهما أسباب الحب ، فيحب كل منهما الآخر من جهة ، وتكون قوة الحب بقدر قوة السبب ، فكلما كان السبب أكثر واقوى كان الحب اشد وأوكد .

فصل

لا محبوب حقيقة الا الله

اعلم انه لا مستحق للحب غير الله - سبحانه - ، ولا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر الا هو ، ولو كان غيره - تعالى - قابلا للحب وموضعا له فانما هو من حيث نسبته اليه - تعالى - ، فمن أحب غيره - تعالى - لامن حيث نسبته اليه ، فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله ، وكيف يكون غيره - سبحانه - من حيث هو ، لامن جهة انتسابه اليه ، مستحقا للحب وهو في نفسه مع قطع النظر عنه - تعالى - وعن انتسابه اليه ليس الا العدم ، والعدم كيف يصلح للحب ، فينبغي أن يكون حبه لعموم الخلق بعموم النسبة ، أي من حيث انها منه - تعالى - ، وآثاره ، ومعلولاته ، وأضواؤه واطلاله ، ولخصوص بعض الخواص الذين لهم خصوصية نسبة اليه - تعالى - ، كالحب ، والانس ، والمعرفة ، والاطاعة لخصوص النسبة ايضا .

ومما يوضح المطلوب : ان جميع اسباب الحب مجتمعة في حق الله - تعالى - ، ولا توجد في غيره حقيقة ، ووجودها في حق غيره وهم وتخيل

ومجاز محض لا حقيقة له .

أما السبب الاول - اعني محبة النفس : فمعلوم أن وجود كل أحد فرع لوجود ربه وظل له ، ولا وجود له من ذاته ، بل هو من حيث ذاته ليس محض وعدم صرف ، فوجوده ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وبالله والى الله ، فهو الموجود المخترع له ، وهو المبقي له ، وهو المكمل لوجوده بايجاد صفات الكمال فيه ، فهو صرف العدم لولا فضل الله عليه بالايجاد ، وهالك بعد وجوده لولا فضله عليه بالابقاء ، وناقص بعد بقاءه لولا فضله عليه بالتكميل ، فليس في الوجود شيء له قوام بنفسه الا القيوم المطلق الذي هو قائم بذاته ومقوم لغيره . وحينئذ ، فمحبة كل شيء لنفسه ترجع إلى محبة ربه ، وان لم يشعر المحب به ، وكيف يتصور ان يجب الانسان نفسه ولا يجب ربه الذي به قوام نفسه ؟ مع أن من أحب الظل أحب بالضرورة الاشجار التي بها قوام الظل ، ومن أحب النور أحب لامحالة الشمس التي بها قوام النور ، وكل ما في الوجود بالاضافة الى قدرة الله - تعالى - كالظل بالاضافة الى الشجرة والنور بالاضافة الى الشمس ، اذ الكل من آثار قدرته ، ووجوده تابع لوجوده ، كما أن وجود الظل تابع لوجود الشخص ، ووجود النور تابع لوجود الشمس ، بل هذا المثال انما هو للتفهيم ، وبالاضافة الى أوهام العوام ، حيث يتوهمون ان الظل والنور تابعان للشاخص والشمس وفايضان عنهما ، وعند التحقيق ليس الظل والنور أثرين للشخص والشمس وموجودين بهما ، بل هما فايضان من الله - تعالى - موجودان به بعد حصول الشرائط ، كما أن أصل الشخص والشمس وشكلهما وصورتها وسائر صفاتها منه - تعالى - .

وأما السبب الثاني ، والثالث - اعني الالتذاذ والاحسان ، سواء كان متعديا الى المحب أم لا : فمعلوم أنه لالذة ولا احسان الا من الله - تعالى - ولا محسن سوى الله ، فانه خالق الاحسان وذويه ، وفاعل اسبابه ودواعيه وكل محسن فهو حسنة من حسنات قدرته وحسن فعاله ، وقطرة من بحار كماله وافضاله .

وأما الرابع - اعني الحسن والجمال والكمال : فلا ريب في أنه تعالى

هو الجميل بذاته والكمال بذاته ، وهو الجمال الخالص ، والكمال المطلق ،
وحقيقتهما منحصرة به - تعالى - ، وما يوجد في غيره - تعالى - من
الجمال والكمال لا يخلو عن شوائب الخلل والنقصان ، اذ النقص شامل
لجميع الممكنات ، وانما تتفاوت في درجات النقص . وقد عرفت أن الجمال
المعنوي اقوى من الجمال الصوري ، ومن كان أهل البصيرة والكمال يكون
حبه للجمال الباطن المعنوي أكثر واقوى من حبه للجمال الصوري ، وحقيقة
الجمال المعنوي الذي هو وجوب الوجود ، وكمال العلم والقدرة والاستيلاء
على الكل ، واستناد الجميع اليه ، منحصر بالله - تعالى - ، فاذا كان الجمال
المشوب بالنقص محبوبا ، فكيف لا يكون الجمال الخالص البحت الذي
لا يتصور جمال فوقه محبوبا ، بل المحبوب حقيقة ليس الا هو .

باده خاك آلودتان مجنون كند صاف اگر باشدند انهم چون كند (١٤)
على أن كل جميل بالجمال الظاهر الصوري ، أو بالجمال الباطن المعنوي
رشحة من رشحات جماله ، وكل كامل فكماله فرع كماله ، فكل من أحب
جميلا أحب خالقه ، وما أحب احدا غير الله - تعالى - ، لكنه احتجب
عنه تحت وجوه الاحباب واستار الاسباب ، هذا مع ان عمدة جمال المخلوقين
انما هو علمهم بالله وبصفاته وافعاله ، وقدرتهم على اصلاح نفوسهم بازالة
الرزائل والخبائث الشهوية المانعة عن التقرب الى الله - تعالى - ، وباتصافهم
بمعالي الصفات وشرائفها المقربة الى الله ، وعلى اصلاح عباد الله بالارشاد
والسياسة ، ومعلوم ان هذه الامور اضافات الى الله - سبحانه - ، فحبها
يرجع الى حبه - تعالى - .

وأما الخامس - أعني المناسبة الخفية والمجانسة المعنوية : فلا ريب في
أن للنفس الناطقة الانسانية مناسبة مجهولة خفية مع باريها وموجدتها ، اذ
هي شعلة من شعلات جلاله ، وبارقة من بوارق جماله ، ولذا قال الله سبحانه :
« قل الروح من أمر ربي » (١٥) . وقال : « اني جاعل في الارض

(١٤) ان خمركم الملوث بالفبار يجنني !!
فلمست أدري ما هو مفعوله ان كان صافيا !! ؟

(١٥) بني اسرائيل ، الآية : ٨٥ .

• خليفة « (١٦) »

اذ لم يستحق آدم خلافة الله الا بتلك المناسبة ؛ وبهذه المناسبة ينقطع العبد الى ربه ، ويعرفه عند ابتلائه بمصيبة وبليية ، وهذه المناسبة لا تظهر ظهورا تاما الا بالمواظبة على النوافل بعد احكام الفرائض ، كما قال الله - تعالى - : « لا يزال العبد يتقرب الي بالنوافل حتى احبه ، فاذا احببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » . وهذا موضع تزل فيه الاقدام ، حتى وقع قوم في التشبيه الظاهر ، وآخرون في الحلول والاتحاد ، وأهل الحق الذين انكشفت لهم استحالة التشبيه والاتحاد ، وفساد طرفي التفريط والافراط ، واتضح لهم حقيقة السر ، وعرفوا تلك المناسبة واستقاموا عليها : هم الاقلون . ثم من المناسبة الظاهرة التي بين العبد وبين ربه هو قرب العبد من الله في الصفات الربوبية والاخلاق الالهية : كالعلم ، والبر ، والاحسان ، واللطف ، وافاضة الخير والرحمة على الخلق ، وارشادهم الى الحق . . . الى غير ذلك من الصفات الالهية ، ولذا قيل : تخلقوا باخلاق الله . ولا ريب في أن كل ذلك يقرب العبد الى الله ، ويصيره مناسبا له . وأما العلية والمعلولية فالامر فيه ظاهر ، وباقي الاسباب أسباب ضعيفة نادرة ، اعتبارها في حق الله نقص .

وقد ظهر مما ذكر : أن اسباب الحب بجملتها متظاهرة في حق الله - تعالى - تحقيقا لا مجازا ، اوفي أعلى الدرجات لا أدناها ، ثم كل من يجب أحدا من الخلق بسبب من هذه الاسباب يتصور أن يجب غيره لمشاركته اياه في السبب . والشركة نقصان في الحب ، لا يتصف احد بوصف محبوب الا ويوجد شريك له فيه ، والله - سبحانه - هو الذي لا يشاركه غيره في اوصاف الكمال والجمال ، لا وجودا ولا امكانا ، فلا جرم لا يكون في حبه شركة ، فلا يتطرق اليه نقصان ، كما لا تنطرق الشركة والنقصان الى أوصاف كماله ، فهو المستحق لاصل المحبة وكمالها ، ولا متعلق للمحبة الا هو ، الا انه لا يعرف ذلك الا العارفون من أوليائه واحبائه ، كما قال

سيد الشهداء (ع) في دعاء عرفة بقوله : « وأنت الذي أزلت الاغيار عن قلوب أحبائك ، حتى لم يجبوا سواك ، ولم يلجأوا الى غيرك » .

تكميل

الشهود التام هو نهاية درجات العشق

قد صرح اساطين الحكمة : (أن الاشياء المختلفة لا يمكن ان يحصل بينها تشاكل وتآلف تام حتى يحصل بينها الاتحاد والمحبة ، واما الاشياء المتماثلة المتشاكلة فيشتاق بعضها الى بعض ويسر بعضها ببعض ، ويحصل بينها التآلف والحب والوحدة والاتحاد) .

والتوضيح : ان الجواهر البسيطة لتشاكلها وتمائلها يحن بعضها الى بعض فيحصل بينها التآلف التام ، والتوحد الحقيقي في الذوات والحقائق بحيث يرتفع عنها التغير والاختلاف ، اذ التغير من لوازم المادية . وأما الماديات فلا يمكن ان يحصل بينها هذا التآلف والتوحد ، ولو حصل بينهما تآلف وشوق ، فانما هو بتلاقي السطوح والنهايات دون الحقائق والذوات وليس يمكن ان يبلغ مثل هذه الملاقاة الى درجة الاتحاد والاتصال فيحصل بينها الانفصال . فالجوهر البسيط المودع في الانسان - اعني النفس الناطقة - اذا صفي عن الكدورات الطبيعية ، وتطهر عن الاخبثات الجسمانية ، وتخلي عن حب الشهوات والعلائق الدنيوية ، انجذب بحكم المناسبة الى عالم القدس ، وحدث فيه شوق تام الى أشباهه من الجواهر المجردة، ويرتفع منها الى ما هو فوق الكل ومنبع جميع الخيرات ، فيستغرق في مشاهدة الجمال الحقيقي ، ومطالعة جمال الخير المحض ، وينسجى في انوار تجلياته القاهرة، ويصل الى مقام التوحيد الذي هو نهاية المقامات ، فيفيض عليه من انواره ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على خاطر ، فيحصل له من البهجة واللذة ما يضمحل عنده كل بهجة ولذة ، والنفس التي بلغت هذا المقام لا يتفاوت حالها كثيرا في حالتها المتعلقة بالبدن والتجرد عنه ، اذ استعمال القوى البدنية لا يصدها عن ملاحظة الجمال المطلق ، وما يحصل لغيرها من السعادة في الآخرة يحصل لها في هذه النشأة :

امروز در آن كوش كه بينا باشي

حيران جمال آن دلارا باشي

شرمت يادا چو كودكان در شب عيد

تا چند در انتظار فردا باشي ؟ (١٧)

نعم ، الشهود التام ، والابتهاج الصافي عن الشوب ، يتوقف على تجردها الكلي عن البدن ، فانها وان لاحظت بنور البصيرة في هذه النشأة جمال الوحدة الصرفة ، الا أن ملاحظتها لاتخلو عن شوائب الكدرة الناشئة من الطبيعة ، فالصفاء التام يتوقف على التجرد الكلي ، ولذا تشتاق ابدا الى رفع هذا الحجاب ، ويقول :

حجاب جهرة جان ميشود غبار تنم

خوشا دمي كه از اين چهره پرده بر فكتم

چنين قفس سراي چو من خوش الحاني است

روم بروضة رضوان كه مرغ آن چمنم (١٨)

وهذه المحبة نهاية درجات العشق ، وغاية الكمال المتصورة لنوع الانسان ، وذروة مقامات الواصلين ، وغاية مراتب الكاملين ، فما بعدها مقام الا وهو ثمرة من ثمراتها ، كالانس والرضا والتوحيد ، ولا قبلها مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها ، كالصبر والزهد وسائر المقامات . وهذا العشق هو الذي أفرط العرفاء وأرباب الذوق في مدحه ، وبالغوا في الثناء عليه ثرا ونظما ، وصرحوا بأنه غاية الاتحاد والكمال المطلق ، ولا كمال الا هو ، ولا سعادة الا به ، كما قيل :

عشق است هرچه هست بگفتيم وگفته اند

عشقت بوصل دوست رساند بضر ب دست (١٩)

(١٧) أسع سعيك اليوم لتكون على بصيرة .

ولتكون متلهفا لجمال ذلك الحبيب الفتان !

أما تستحي انك على غرار الاطفال في ليلة العيد ؟ ! !

الى متى تنتظر اليوم الغد ؟ ! !

(١٨) أن غبار الجسد يكون حجابا لروحي ونقابا !

فما أحلى اللحظة التي أطرحت فيها عن وجهي هذا الستار ! !

ان هكذا قفصا لا يليق لذي تغريد بهيج مثلي ! !

سأذهب الى (روضه الرضوان) . . . فأنى من طيور ذلك المرج والبستان !!

(١٩) كل ما يكون هو العشق - كما قالوا وقلنا - . . .

وقيل :

جز محبت هرچه بر دم سود در محشر نداشت
دين ودانش عرض كردم كس بچيزي بر نداشت (٢٠)

فصل

سريان الحب في الموجودات

اكثر أقسام المحبة فطرية طبيعية ، كمحبة المتناسبين والمتجانسين ، والعلة والمعلول ، ومحبة الجمال وغير ذلك ، والارادي الكسبي منها قليل ، كمحبة المتعلم للمعلم ، وربما أمكن أرجاعه أيضا الى الطبيعي . واذا كان الحب طبيعيا ، فالاتحاد الذي من مقتضياته يكون أيضا طبيعيا ، فيكون لذلك أفضل من العدالة التي تقتضي الاتحاد الصناعي . ثم مع وجود المحبة لاجابة الى العدالة ، اذ هي فرع الكثرة المحوجة الى الاتحاد القشري ، فمع وجود الاتحاد الطبيعي لا يقع الاحتياج اليه ، وقد صرح قدماء الحكمة بأن قوام الموجودات وأنتظامها بالمحبة ، والمحبة الفطرية ثابتة بينها ، وليس شيء من الموجودات خاليا عنها ، كما أنه ليس شيء منها خاليا عن الوجود والوحدة ، وقد صرحوا بأنه كل الوحدة ، فهو سار في جميع الكائنات : من الافلاك والعناصر والمركبات ، اذ الحب والشوق الى التشبه بالتفاعل رقص الافلاك ، وادار رحاها ، (بسم الله مجراها ومرساها) ، والحب هو سبب ميل العناصر الى أجسادها الطبيعية ، وميل المركبات بعضها الى بعض : سر حب ازلي بر همه اشيا ساريست ورنه بر گل نزدي بلبل بيدل فرياد (٢١) ثم لما كانت المحبة التي هي ظل الوحدة مقتضية للبقاء والكمال ، وضدها موجبا للفساد والاختلال ، ولكل منهما مراتب ودرجات ؛ فتختلف الموجودات بحسبها في درجات الكمال والنقصان ، والمتأخرون خصصوا الحب بذوي العقول ، فلا يطلقون اسم الحب على ميل العناصر الى مراكزها ،

ف عشقك يوصلك الى الحبيب بالجهد والشاطرة !!
(٢٠) سوى الحب لم يفد في الحشر مما صحبتته !!
عرضت الدين والعلم . فلم يعرهما أحد اهتماما !!
(٢١) ان (سر الحب الازلي) لسار في جميع الموجودات !
والا لم تغرد البلابل على الازهار والاوراد !!

وميل المركبات بعضها الى بعض ، كميل الحديد الى المغناطيس ، ولا اسم الكراهة والبغض على المنافرة التي بينها ، كمنافرة الحجر الباغض الحبل من الحبل ، بل يسمونها بالميل والهرب ، وكذا الموافقة والمعادة اللتين بين العجم من الحيوانات ، لا يطلقون عليها اسم الحب والبغض ، بل يسمونها بالالف والنفرة .

فصل

رد المنكرين لحب الله

قد ظهر مما ذكر : ثبوت حقيقة المحبة ولوازمها من الشوق والانس لله تعالى ، وأنه المستحق للحب دون غيره ، وبذلك ظهر فساد زعم من أنكروا حصول محبة العبد لله - تعالى - وقال : (لا معنى لها الا المواظبة على طاعة الله ، وأما حقيقة المحبة فمحال الا مع الجنس والمثل) .

ولما أنكروا المحبة ، أنكروا الانس والشوق ولذة المناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ، ويدل على فساد هذا القول مضافا الى ما ذكر اجماع الامة على كون الحب لله ولرسوله فرضا ، وما ورد في الآيات والاحبار والآثار من الامر به والمدح عليه ، واتصاف الانبياء والاولياء به ، وحكايات المحبين ، وقد بلغت من الكثرة والصراحة حدا لا يقبل الكذب والتأويل ، فمن شواهد القرآن قوله تعالى :

« يحبهم ويحبونه » (٢٢١) . وقوله : « والذين آمنوا أشد حبا لله » (٢٣) .
وقوله - تعالى - : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ... - الى قوله - : « أحب اليكم من الله ورسوله ... » الى آخر الآية (٢٤) .

وأما الاخبار الواردة والآثار ، فقد قال رسول الله (ص) : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » . وقال (ص) : « الحب من شروط الايمان » . وقال (ص) : « أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب الله » . وقد نظر (ص) الى بعض أصحابه

(٢٢) المائة ، الآية : ٥٧ .

(٢٣) البقرة ، الآية : ١٦٥ .

(٢٤) التوبة ، الآية : ٢٥ .

مقبلا وعليه اهاب كبش ، فقال (ص) : « انظروا الى هذا الرجل الذي
قد نور الله قلبه ، لقد رأيت بين ابويه يغذوانه بأطيب الطعام والشراب ،
فدعاه حب الله وحب رسوله الى ما ترون » . وقال (ص) في دعائه :
« اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب من يقربني الى حبك ، واجعل
حبك احب الي من الماء البارد » . وفي الخبر المشهور : « ان ابراهيم (ع)
قال لملك الموت ، اذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله ؟
فأوحى الله تعالى اليه : هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه ؟ فقال : ياملك
الموت ! الآن فاقبض » . وأوحى الله الى موسى (ع) : « يا ابن عمران !
كذب من زعم أنه يحبني فاذا جنه الليل نام عني ، أليس كل محب يحب
خلوة حبيبه ، ها أنا ذا يا ابن عمران مطلع على أحبائي ، اذا جنهم الليل
حولت ابصارهم الى من قلوبهم ، ومثلت عقوبتي بين أعينهم ، يخاطبوني عن
المشاهدة ، ويكلموني عن الحضور ، يا ابن عمران ! هب لي من قلبك
الخشوع ، ومن بدنك الخضوع ، ومن عينك الدموع في ظلم الليل ، فانك
تجدني قريبا » . وروى : « أن عيسى (ع) مر بثلاثة نفر قد نحت
أبدانهم وتغيرت ألوانهم ، فقال لهم : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟ فقالوا :
الخوف من النار ، فقال : حق على الله أن يؤمن الخائف . ثم جاوزهم
الى ثلاثة أخرى ، فاذا هم أشد نحولا وتغيرا ، فقال لهم : ما الذي بلغ
بكم ما أرى ؟ فقالوا : الشوق الى الجنة ، فقال : حق على الله ان يعطيكم
ما ترجون . ثم جاوزهم الى ثلاثة أخرى ، فاذا هم أشد نحولا وتغيرا ،
كأن على وجوههم المرايا من النور ، فقال : ما الذي بلغ بكم ما أرى ؟
قالوا : حب الله عز وجل ، فقال : انتم المقربون » . وفي بعض الروايات :
« انه (ع) قال للطائفتين الاوليين : مخلوقا خفتهم ، ومخلوقا رجوتهم .
وقال للطائفة الثالثة : انتم اولياء الله حقا ، معكم أمرت ان أقيم » . وقال
رسول الله (ص) : « ان شعيبا (ع) بكى من حب الله عز وجل حتى
عمى ، فرد الله عليه بصره ، ثم بكى حتى عمى ، فرد الله عليه بصره ، فلما
كانت الرابعة أوحى الله اليه : يا شعيب ! الى متى يكون هذا أبدا منك ،
ان يكن هذا خوفا من النار فقد أجرتك ، وان يكن شوقا الى الجنة فقد

أبحتك . فقال : إلهي وسيدي ! أنت تعلم اني ما بكيت خوفاً من نارك ،
ولا شوقاً الى جنتك ، ولكن عقد حبك على قلبي ، فلمست أصبر او أراك .
فأوحى الله : أما اذا كان هذا هكذا سأخدمك كليمي موسى بن عمران » .
وروى : « انه جاء أعرابي الى النبي (ص) فقال : يا رسول الله ! متى
الساعة ؟ فقال (ص) : « ما أعددت لها ؟ قال : ما أعددت لها كثير صلاة
ولا صيام ، الا أني أحب الله ورسوله ، فقال له النبي : المرء مع من أحب » .
وفي أخبار داود : « قل لعبادي المتوجهين الى محبتي : ما ضرکم اذا احتجبتهم
عن خلقي اذ رفعت الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا الي بعيون
قلوبكم ، وما ضرکم ما زويت عنكم من الدنيا اذ بسطت ديني لكم ، وما
ضرکم مسخطة الخلق اذ التمسستم رضاي » . وفيها أيضاً : « يا داود ! انك
تزعم انك تحبني ، فان كنت تحبني فأخرج حب الدنيا عن قلبك ، فان
حبي وحبا لا يجتمعان في قلب » . وقال أمير المؤمنين (ع) في دعاء كميل :
« فهبني يا الهی وسیدی ومولای وربی صبرت على عذابك ، فكيف اصبر على
فراقك » . وقال (ع) : « ان الله - تعالى - شراباً لا اوليائه ، اذا شربوا
وسكروا ، واذا سكروا طربوا ، واذا طربوا طابوا ، واذا طابوا ذابوا ، واذا
ذابوا خلصوا ، واذا خلصوا طلبوا ، واذا طلبوا وجدوا ، واذا وجدوا وصلوا
واذا وصلوا اتصلوا ، واذا اتصلوا لافرق بينهم وبين حبيبهم » (٢٥) . وقال
سيد الشهداء في دعاء عرفة : « انت الذي ازلت الاغيار عن قلوب احبائك
حتى لم يحبوا سواك ولم يلجأوا الى غيرك » . وقال (ع) « يامن اذاق
احباءه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين » . وفي المناجاة الانجيلية
المنسوبة الى سيد الساجدين (ع) : « وعزتک ! لقد احببتك محبة استقرت
في قلبي حلاوتها ، وانست نفسي ببشارتها ، ومحال في عدل اقتضيتك ان
تسد اسباب رحمتك عن معتقدی محبتك » . وفي مناجاته الاخرى : « آلهی
فاجعلنا من الذين توشحت اشجار الشوق اليك في حدائق صدورهم ، واخذت
لوعة محبتك بمجامع قلوبهم » . ثم قال : « والحقنا بعبادك الذين هم

(٢٥) لم نعر على مصدر لهذه الرواية في كتب أصحابنا الامامية .

رضوان الله عليهم .

بالبدار اليك يسارعون، وبابك على الدوام يطرقون ، واياك في الليل والنهار
يعبدون ، وهم من هيبتك مشفقون ، الذين صنيت لهم المشارب ، وبلغتهم
الרגائب ، وانجحت لهم المطالب ، وقضيت لهم من وصلك المآرب ، وملأت
لهم ضمائهم من حبك ، ورويتهم صافي شرابك ، فبك الى لذيذ مناجاتك وصلوا
ومنك على اقصى مقاصدهم حصلوا » * * * ثم قال : « فقد انقطعت اليك
همتي ، وانصرفت نحوك رغبتى ، فأنت لاغيرك مرادى ، ولك لاسواك
سهرى وسهادى ، ولقاؤك قرّة عيني ، ووصلك منى نفسى ، واليك شوقى
وفي محبتك ولهى ، والى هواك صبابتى ، ورضاك بغيتى ورؤيتك حاجتى
وجوارك طلبى ، وقربك غاية مسألتى ، وفي مناجاتك روحى وراحتى ، وعندك
دواء علتى ، وشفاء غلتى ، وبرد لوعتى ، وكشف كربتى » * ثم قال :
« ولا تقطعنى عنك ، ولا تباعدنى منك ، يا نعيمى وجنتى ! ويا دنياى وآخرتى »
وقال (ع) ايضا : الهى ! من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا ،
ومن ذا الذي انس بقربك فابتغى عنك حولا ، الهى ! فاجعلني ممن اصطفيتهم
لقربك وولائيتك ، واخلصته لودك ومحبتك ، وشوقته الى لقائك ، ورضيته
بقضائك ، ومنحته بالنظر الى وجهك ، وحبوته برضاك ، واعذته من هجرك
ثم قال : « وهميت قلبه لارادتك ، واجتبيته لمشاهدتك ، واخليت وجهه لك
وفرغت فؤاده لحبك » * * * ثم قال : « آلهم اجعلنا ممن دأبهم الارتياح
اليك والحنين ، ودهرهم الزفرة والأنين ، وجباههم ساجدة لعظمتك ، وعيونهم
ساهرة في خدمتك ، ودموعهم سائلة من خشيتك ، وقلوبهم معلقة بمحبتك
وافئدتهم منخلعة من مهابتك ، يأمن انوار قدسه لابصار محبيه رائقة وسبحان
نور وجهه لقلوب عارفيه شائقة ! يا منى قلوب المشتاقين ، ويا غاية آمال
تجعلك احب الي ممن سواك » * وقال (ع) ايضا : الهى ! ما لذ خواطر
النظر الى وجهك ، وقرارى لا يقر دون دنوى منك ، ولهفتى لا يردها الا روحك
المحبين ! اسالك حبك وحب من يحبك وحب كل عمل يوصل الى قربك ، وان
الالهام بذكرك على القلوب ، وما احلى المسير اليك في مسالك الغيوب ،
وما اطيب طعم حبك ، وما أعذب شرب قربك » * وقال (ع) أيضا : « وغلتى
لا يردها الا وصلك ، ولوعتى لا يطفئها الا لقاؤك ، وشوقى اليك لا يبله الا

وسقمتى لا يشفيه الا طبك ، وغمى لا يزيله الا قربك ، وجرحى لا يبرؤه الا صفيحك ، ورين قلبي لا يجلوه الا عفوك ، ووسواس صدري لا يزيحه الا امرك (٢٦) . وقال الصادق (ع) : « حب الله اذا اضاء على سر عبد اخلاه عن كل شاغل وكل ذكر سوى الله ، والمحب اخلص الناس سرا لله ، واصدقهم قولا ، واوفاهم عهدا ، وازكاهم عملا ، واصفاهم ذكرا ، واعبدتهم نفسا ، تنباهى الملائكة عند مناجاته ، وتفتخر برؤيته ، وبه يعمر الله بلاده ، وبكرامته يكرم الله عباده ، ويعطيهم اذا سألوه بحقه ، ويدفع عنهم البلياء برحمته ، ولو علم الخلق ما محله عند الله ومنزلته لديه ما تقربوا الى الله الا بتراب قدميه » وقال امير المؤمنين (ع) : « حب الله نار لا يمر على شيء الا احترق ، ونور الله لا يطلع على شيء الا اضاء وسماء الله مظهر من تحته شيء الا غطاه ، وريح الله ماتهب في شيء الا حركته ، وماء الله يحيى به كل شيء ، وارض الله ينبت منها كل شيء ، فان احب الله اعطاه كل شيء من الملك والمملك » وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « اذا احب الله عبدا من امتي قذف في قلوب اصفيائه وارواح ملائكته وسكان عرشه محبته ليجبوه ، فذلك المحب حقا ، طوبى له ثم طوبى له ! وله عند الله شفاعة يوم انقيامه » (٢٧) الى هنا كلام الصادق . عليه السلام - وماورد في الحب من الاخبار والادعية المعصومية اكثر من ان يحصى ، وحكايات العشاق والمحبين لم تبلغ من الكثرة والتواتر حدا يمكن انكاره ، وقد روى : « ان داود (ع) سأل ربه ان يريه بعض اهل محبته ، فقال له : ائت جبل لبنان ، فان فيه اربعة عشر نفسا ، فيهم شبان وكهول ومشايخ ، واذا ائيتهم فاقرأهم منى السلام ، وقل لهم : يقول ربكم الاتسألونى حاجة ، فانكم احبائى واصفيائى واوليائى ، افرح لفرحكم واسارع الى محبتكم . فاتاهم داود ، فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة الله وملكوته ، فلما نظروا الى داود ، نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال لهم داود انا رسول الله اليكم ، جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم . فأقبلوا نحوه ، والقوا

(٢٦) صححنا فقرات المناجاة الانجيلية والمناجاة الاخرى على (البحار) :

باب ادعية المناجاة : مج ١٩ / ١٠٧ - ١١٤ ، ط امين الضرب .

(٢٧) صححنا الاحاديث الثلاثة على « مصباح الشريعة » - الباب السابع والتسعون ، ص ١٩٣ - .

اسماعهم نحو قوله ، والقوا ابصارهم الى الارض ، فقال داود : ربكم يقرؤكم السلام ، ويقول لكم : الا تسألونى حاجة ، الا تنادونى فاسمع صوتكم وكلامكم ؟ فانكم احبائي واصفيائي وأوليائي ، أفرح لفرحكم وأسارع الى محبتكم ، وانظر اليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيعة . ولما قال داود ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبح الله كل واحد منهم ومجده ، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحب والشوق » .

فصل

معرفة الله أقوى سائر اللذات

قد عرفت ان الحب هو الميل الى الشئ الملد الملائم للمدرك والابتهاج بادراك الملائم ونيله ، واللذة هى نفس ادراك الملائم الملد ونيله ، وهذا الادراك ان كان متعلقا بالقوة العاقلة - أي ان كان المدرك هو القوة العاقلة - عبر عنه بالعلم والمعرفة ، وقد عرفت انه اقوى واشد واشرف من الادراكات الحسية التى هى الابصار والاستماع والذوق والشم واللمس . ثم هذا الادراك - اعنى العلم والمعرفة - يختلف ايضا في الشرافة والكمال بحسب شرافة المدرك ، اى المعلوم ، فكلما كان المدرك اجل واشرف كان الادراك - اى المعرفة - اجل واعلى . ولا ريب في ان الواجب - سبحانه - اشرف الموجودات واجلها ، فالمعرفة به اعلى المعارف واشرفها ، ويثبت من ذلك : ان اجل اللذات واعلاها هو معرفة الله - تعالى - والنظر الى وجهه الكريم ، ولا يتصور ان يؤثر عليها لذة اخرى الا من حرم هذه اللذة . وبيان ذلك بوجه اوضح : ان اللذات تابعة للادراكات ، والانسان جامع لجملة من القوى والغرائز ، ولكل قوة وغريزة لذة ، ولذتها عبارة عن نيلها مقتضى طبعها الذى خلقت له ، فغريزة الغضب لما خلقت للتشفى والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام ، وغريزة الشهوة لما خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها في نيل الغذاء وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الاستماع والابصار والاستشمام ، وغريزة العقل المسماة بالبصيرة الباطنة خلقت لتعلم بها حقائق الاشياء كلها ، فلذتها في العلم والمعرفة ، والعلم لكونه منتهى الكمال واخص صفات الربوبية ، يكون اقوى اللذات والابتهاجات ،

ولذلك يرتاح الطبع اذا اثنى عليه بالذكاء وغزارة العلم لانه يستشعر عند سماع الثناء كمال ذاته وجمال علمه ، فيعجب بنفسه ، ويلتذ به .

والتحقيق : ان الادراك والنيل الذي هو الكمال ليس الا العلم ، وسائر الادراكات - اعني نيل الغلبة والغذاء والاستماع والابصار والاستشمام - لا تعد كمالات ، ثم ليست لذة كل حلو واحدة ، فان لذة العلم بالحراثة والخياطة والحياكة ليست كلذة العلم بسياسة الملك وتدير امور الخلق ، ولالذة العلم بالنحو والشعر والتواريخ كلذة العلم بالله وبصفاته وملائكته وملكوت السماوات والارض ، بل لذة العلم بقدر شرف العلم ، وشرف العلم بقدر شرف المعلوم ، فان كان في المعلومات ما هو الاشرف الاجل والاعظم والاكمل فالعلم به الذ العلوم واشرفها واكملها واطيبها ، وليت شعري هل في الوجود شيء أعلى وأجمل واشرف وأكمل من خالق الاشياء كلها وقيومها ، ومكملها ومربيها ، ومبدئها ومعيدها ، ومديرها ومرتبها ، وهل يتصور ان يكون أحد في الملك والكمال والعظمة والجلال والقدرة والجمال والكبرياء والبهاء أعظم ممن ذاته في صفات الكمال ونعوت الجلال فوق التمام ، وقدرته وعظمته وملكه وعلمه غير متناهية ، فان كنت لا تشك في ذلك ، فينبغي ألا تشك في أن لذة المعرفة به أقوى من سائر اللذات لمن له البصيرة الباطنة وغريزة المعرفة ، فان اللذات مختلفة بالنوع أولاً ، كمخالفة لذة الوقاع ولذة السماع ، ولذة المعرفة ولذة الرئاسة ، وكل نوع مختلف بالضعف والقوة ، كمخالفة لذة الشبق المعتلم (٢٨) من الجماع ، ولذة الفاتر الشهوة منه ، ومخالفة لذة النظر الى الوجه الجميل ولذة النظر الى الوجه الاجمل ، ومخالفة لذة العلم باللغات ولذة العلم بالسماويات ، وانما يعرف اقوى اللذتين من أضعفهما ، بأن يؤثر عليه ، فان المخير بين النظر الى صورة جميلة وبين استنشاق روائح طيبة ، اذا اختار الاول كان عنده ألد من الثاني ، والمخير بين الاكل واللعب بالشطرنج ، اذا اختار الثاني كانت لذة الغلبة

(٢٨) الغلظة - وزان لغرفة - : شدة الشهوة وعلم غلما : من باب تعب ، اذا اشتد شبقه . المعتلم : المنقاد للشهوة .

في الشطرنج أقوى عنده من لذة الاكل ، وهذا معيار في الكشف عن ترجيح اللذات .

وحينئذ نقول : لا ريب في أن المعاني واللذات الباطنة أغلب على ذوي الكمال من اللذات الظاهرة ، فلو خير الرجل بين لذة أكل المطاعم الطيبة ولذة الرئاسة والاستيلاء ، فإن كان عالي الهمة كامل العقل ، أختار الرئاسة وترك الاكل ، وصبر على الجوع أياما كثيرة فضلا عن مدة قليلة ، نعم ، ان كان خسيس الهمة ميت القلب ، ناقص العقل والبصيرة ، كالصبي والمعتوه ، ربما أختار لذة الاكل ، وفعل مثله ليس حجة . ثم كما أن لذة الرئاسة والكرامة أغلب وارجح من اللذات الحسية عند من جاوز قفصان الصبي والسفاهة ، فكذلك لذة المعرفة بالله ومطالعة جمال الحضرة الربوبية ألدعنده من لذة الرئاسة ، بشرط ان يكون ممن ذاق اللذتين وأدركهما ، فلو كان ممن لم يذق لذة المعرفة بالله لم يكن أهلا للترجيح ومحلا للكلام ، لاختصاص لذة المعرفة بمن نال رتبته وذاقها ، ولا يمكن أثبات ذلك عند من ليس له قلب ، كما لا تثبت لذة الابصار عند الاعمى ، ولذة الاستماع عند الاصم ، ولذة الوقاع عند العنين ، ولذة الرئاسة عند الصبي والمعتوه ، وليت شعري من لا يفهم الا حب المحسوسات كيف يؤمر بلذة النظر الى وجه الله تعالى ، وليس له شبه وشكل وصورة ، فحقيقة الحال كما قيل : (من ذاق عرف) ، فمن ذاق اللذتين يترك لذة الرئاسة قطعا ، ويستحقر أهلها لكونها مشوبة بالكدورات ومقطوعة بالموت ، ويختار لذة المعرفة بالله ، ومطالعة صفاته وأفعاله ، ونظام مملكته من أعلى عليين الى أسفل السافلين ، فانها خالية عن الاقطاع والمكدرات ، متسعة للمتواردين عليها ، لاتضيق بكثرتهم دائما وعرضها من حيث التفهيم والتمثيل أعظم من السماوات والارض ، ومن حيث الواقع ونفس الامر فلا نهاية لعرضها ، فلا يزال العارف بمطالعتها ومشاهدتها في جنة غير متناهية الاطراف والاقطار ، يرتع في رياضها ، ويكرع (٢٩) في حياضها ، ويقطع من أثمارها ، وهو آمن من اقطاعها ، اذ ثمارها غير مقطوعة ولا ممنوعة ، بل هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت ، اذ الموت لا يهدم

(٢٩) كرع - من باب نفع - : هو الشرب بفيه من موضعه .

النفس الناطقة التي هي محل المعرفة ، وانما يقطع شواغلها وعوائقها ويخليها من جنسها ، فاذن جميع أقطار ملكوت السماوات والارض ، بل أقطار عالم الربوبية التي هي غير متناهية ، ميدان للعارفين ؛ يتبوؤن منها حيث يشاؤون ؛ من غير حاجة الى حركة أجسامهم ، ومن غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلا ، الا أنهم يتفاوتون في سعة ميادينهم بحسب تفاوتهم في اتساع الانظار وسعة المعارف :

« ولكل درجات مما عملوا » (٣٠) .

ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم ، ومن عرف هذه اللذة انسحت همومه وشهواته ، وصار قلبه مستغرقا بنعيمها ، ولا يشغله عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة ، فكيف تشغله عنه لذات الدنيا وعلائقها ، وكان في الدنيا والآخرة مشغولا بربه ، فلو القى في النار لم يحس به لاستغراقه ، ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت اليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية ، ولعل سيد الرسل (ص) عبر عن هذه اللذة - أي لذة مطالعة جمال الربوبية - حيث قال حاكيا عن الله سبحانه : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » . وهذه اللذة هي المرادة من قوله تعالى :

« فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » (٣١) .

وربما تعجل بعض هذه اللذات لمن انتهى صفاء قلبه الى الغاية ، ومع ذلك لا يخلو عن توسط بعض الحجب المانعة عن الوصول الى كنهها ، ما لم يحصل التجرد الكلي وخلع البدن العنصري ، ولذلك قال بعضهم : اني أقول : « يارب يا الله ! فأجد ذلك اثقل على قلبي من الجبال ، لأن النداء يكون من وراء حجاب ، وهل رأيت جليسا ينادي جليسه » . ثم من عرف الله وعرف حقيقة هذه اللذة ، عرف ان اللذات المقرونة بالشهوات المختلفة منظوية تحت هذه اللذة ، كما قيل :

كأنت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذراتك العين اهوائي

(٣٠) الانعام ، الآية : ١٣٢ . الاحقاف ، الآية : ١٩ .

(٣١) السجدة ، الآية : ١٧ .

فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الورى مذصرت مولائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلا بذكرك يا ديني ودينائي

فصل

تحقق رؤية الله في الآخرة ولذة لقائه

أعلم ان معرفة الله اذا حصلت في الدنيا لم تكن خالية عن كدرة ما
كما أشير اليه ، الا أنه اذا اكتسب أصلها في الدنيا فيزيدها في الآخرة
انكشافا وجلاء بقدر صفاء القلوب وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية ،
الى أن يصير أجلى وأظهر من المشاهدة بمراتب ، فالاختلاف بين ما يحصل
في الدنيا من المعرفة وما يحصل في الآخرة من المشاهدة واللقاء انما هو
بزيادة الانكشاف والجلاء .

مثال ذلك : ان من رأى انسانا ، ثم غض بصره ، وجد صورته حاضرة
في خياله كأنه ينظر اليها ، ولكن اذا فتح العين وأبصر ، ادرك تفرقة بين
حالتي غض العين وفتحها ، ولا ترجع التفرقة الى اختلاف بين الصورتين
لاتحادهما ، بل الافتراق انما هو بمزيد الكشف والوضوح ، فالصورة
المتخيلة صارت بالرؤية أتم انكشافا ، فاذا الخيال أول الادراك ، والرؤية
استكمال لادراك الخيال ، وهي غاية الكشف ، لا لانها في العين ، بل لو
خلق الله هذا الادراك الكامل المتجلى في الصدر أو الجهة او أي عضو
فرض ، استحق أن يسمى رؤية . واذا فهمت هذا في المتخيلات - أي
المدركات التي تدخل في الخيال من الصور والاجسام - فقس عليه الحال
في المعلومات - أي ما يدرك بالعقل - ، ولا يدخل في الخيال كذات الباري
وكل ما ليس بجسم ، كالعلم والقدرة والارادة وغيرها ، فان لمعرفتها وادراكها
أيضا درجتين : احدهما : أولى ، والثانية : استكمال لها ، وبينهما من
التفاوت في مزيد الكشف والايضاح ما بين المتخيل والمرئي ، فتسمى الثانية
بالإضافة الى الاولى لقاء ومشاهدة ورؤية ، وهذه التسمية حق ، لأن الرؤية
سميت رؤية لانها غاية الكشف ، وكما أن سنة الله جارية بأن تطبق الاجفان
يمنع من تمام الكشف الذي هو الرؤية في المتخيلات ، فكذلك سنته ان
النفس ما دامت محجوبة بالبدن وعوارضه وشهواته ، لم يحصل لها تمام

الكشف الذي هي المشاهدة واللقاء في المعلومات الخارجة عن الخيال ، فاذا ارتفع بالموت حجاب البدن ، وخلصت النفس ، لم يكن بعد في غاية التنزه عن كدورات الدنيا ، بل كانت ملوثة بها ، الا ان النفوس مختلفة في ذلك : فمنها : ما تراكم عليه الخبث والصدى ، فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الخبث جوهرها ، فلا تقبل الاصلاح والتصقيل ، وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد ، نعوذ بالله من ذلك . ومنها : ما لم ينته الى حد الرين والطبع ، ولم يخرج عن قبول التزكية والتصقيل ، وهذه النفوس غير متناهية الدرجات والمراتب ، اذ المتلوث بالكدورات عرض عريض في (الواقع) بين الرين والطبع ، وبين التزكية التامة والتجرد الكلي الذي لم يكن فيه شوب من الكدورات ، وهذه النفوس المتلوثه على اختلاف درجاتها ومراتبها تحتاج الى التطهير لتستعد للمشاهدة واللقاء بتجلي الحق فيها ، وتطهيرها انما هو بنوع عقوبة من العقوبات الاخرية ، وهي كمراتب التلوث غير متناهية الدرجات ، اولها سكرة الموت ، وآخرها الدخول في النار ، وما بينهما عقوبات البرزخ وأهوال القيامة بأنواعها ، فكل نفس لا بد لها من عقوبة من هذه العقوبات لتتطهر من كدورتها : فمنها : ما ينتظر بمجرد سكرة الموت وشدة النزاع ، ومنها : ما ينتظر بها ، وينقص عقوبات البرزخ ، ومنها : ما لا ينتظر الا بأن يذوق بعض عقوبات الآخرة ، ومنها ما لا يحصل تطهيره الا بالعرض على النار عرضا يقمع منها الخبث الذي تدنست به ، فربما كان ذلك لحظة حقيقة ، وربما كان سبعة آلاف سنة - كما وردت به الاخبار - وربما كان اقل أو اكثر ، ولا يعلم تفصيل ذلك الا الله سبحانه ، والمحجوبون الذين بلغوا حد الرين والطبع يكونون مخلصين في النار .

ثم النفوس القابلة للتطهير اذا أكمل الله تطهيرها وتزكيتها ، وبلغ الكتاب أجله ، استعدت حينئذ لصفائها وبقائها عن الكدورات لأن تتجلي فيها جلية الحق ، فتتجلي فيها تجليا يكون انكشاف تجلية بالاضافة الى ما علمته وعرفته كأنكشاف تجلي المرئيات بالاضافة الى المتخيلات ، وهذه المشاهدة والتجلي تسمى رؤيية ، لانه في الظهور والجلاء والوضوح والانكشاف كالرؤيية بالبصر ، بل هو فوقه بمراتب شتى ، اذ الرائي في الاول العقل ،

وفي الثاني البصر ، وشتان ما بينهما ، فان الاختلاف في مراتب الادراك والرؤية بحسب اختلاف نورية المدرك ؛ وأي نسبة لنورية البصر الى نورية العقل وأشراقه ، وما للعقل من النفوذ في حقائق الاشياء وبواطنها أنى يكون للبصر .

وقد ظهر مما ذكر : أنه لا يفوز بدرجة الرؤية والمشاهدة الا العارفون في الدنيا ، لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة ، كما تنقلب النواة شجرة والبذر زرعاً ، ومن لانواة له كيف يحصل له النخل ، ومن لم يلق البذر كيف يحصد الزرع ، فمن لم يعرف الله في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ، ومن لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في العقبى ، اذ لا يستأنف لاحد في الآخرة ما لم يصحبه في الدنيا ، فلا يحصد المرء الا ما زرع ، ولا يحشر الا على ما مات عليه ، ولا يموت الا على ما عاش عليه .

ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة ، يكون التجلي أيضاً على درجات متفاوتة ، فأختلاف التجلي بالاضافة الى اختلاف المعارف كأختلاف النبات بالاضافة الى اختلاف البذور ، اذ يختلف لامحالة : بكثرتها ، وقلتها ، وجودتها ، ورداءتها ، وضعفها . ثم كلما كان التجلي والمشاهدة أقوى ، كان ما يترتب عليه من حب الله والانس به أشد وأقوى ، وكلما كان الحب والانس أزيد ، كان ما يترتب عليه من البهجة واللذة أعلى وأقوى ، وتبلغ هذه اللذة مرتبة لا تؤثر عليها لذة اخرى من نعيم الجنة ، بل ربما بلغت حدا تتأذى من كل نعيم سوى لقاء الله ومشاهدته ، فالنعمة والبهجة في الجنة بقدر حب الله ، وحب الله بقدر معرفته ، فأصل السعادات هي المعرفة التي عبر الشرع عنه بـ (الايمان) .

فان قيل : اللقاء والمشاهدة ان كانت زيادة كشف للمعرفة حتى تتحقق بين لذة الرؤية ولذة المعرفة نسبة ، لكانت لذة اللقاء والرؤية قليلة ، وان كانت اضعاف لذة المعرفة ، اذ هي في الدنيا ضعيفة ، فتضاعفها الى اي حد فرض لا ينتهى في القوة ، الا ان يستحقر في جنبها سائر لذات الجنة ونعيمها . قلنا : هذا الاستحقر والتقليل للذة المعرفة باعثة عدم المعرفة او ضعفها

فان من خلا عن المعرفة ، او كانت له معرفة ضعيفة وقلبه مشحون بعلائق الدنيا ، لا يدرك لذتها ، فمن كملت معرفته وصفت عن علائق الدنيا سريرته ، قويت بهجته واشتدت لذته ، بحيث لا توازنها لذة ، فان للعارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله عز وجل ابتهاجات ولذات لو عرضت عليهم الجنة ونعيمها في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوها بها . ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها اصلا الى لذة اللقاء والمشاهدة ، كما لانسبة للذة خيال المعشوق الى رؤيته ، ولا للذة استنشاق روائح الاطعمة الطيبة الى ذوقها واكلها ، ولا للذة اللمس باليد الى لذة الوقاع .

ومما يوضح ذلك ، ان لذة النظر الى وجه المعشوق تتفاوت بأمر :

احدها - كمال جمال المعشوق ونقصانه .

وثانيها - كمال قوة الحب والشهوة وضعفه .

وثالثها - كمال الادراك وضعفه ، فان الالتذاذ برؤية المعشوق في ظلمة ،

او من بعد ، او من وراء ستر رقيق ، ليس كالاتذاذ برؤيته على قرب من غير ستر عند كمال الضوء .

ورابعها - عدم الآلام الشاغلة والعوائق المشوشة ووجودها ، فان التذاذ

الصحيح الفارغ المتجرد للنظر الى المعشوق ليس كالاتذاذ الخائف المذعور

او المريض المتألم ، او المشغول قلبه بمهم من المهمات ، فلو كان العاشق

ضعيف الحب ، ناظرا الى معشوقه على بعد ومن وراء ستر رقيق ، مشغول

القلب بمهمات ، مجتمعة عليه حيات وعقارب تؤذيه وتلدعه ، لم يكن خاليا

عن لذة ما في هذه الحالة من مشاهدة معشوقه ، الا أنه اذا فرض ارتفاع

الستر وأشراق الضوء ، واندفاع الحيات والعقارب المؤذية ، وفراغ قلبه

من المهمات ، وحدوث عشق مفرط ، وشهوة قوية ، بحيث بلغت أقصى

الغايات ، تضاعفت لذته ، بحيث لم تكن لذته الاولى نسبة اليها بوجه ،

فكذلك الحال في نسبة لذة المعرفة في الدنيا مع حجاب البدن والاشتغال

بمهمات ، ومع تسلط حيات الشهوات وعقاربها : من الجوع ، والعطش

والشبق ، والغضب ، والحزن ، والهم ، ومع ضعف النفس وقصورها

ونقصانها في الدنيا عن التشوق الى الملأ الأعلى ، لإلتفاتها الى أسفل السافلين .

الى لذة اللقاء والمشاهدة التي يندفع فيها جميع ذلك عن النفس ، فالعارف لعدم خلوه في الدنيا عن هذه العوائق والمشوشات وان قويت معرفته لا يمكن أن تكمل لذته وتصفو بهجته ، وان ضعفت عوائقه ومشوشاته في بعض الاحوال وبقي سالماً ، لاح له من جمال المعرفة ماتعظم لذته وبهجته ويدهش عقله ، بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ، الا أن ذلك كالبرق الخاطف ، ولا يمكن أن يدوم ؛ اذ الخلو عن العوائق والمشوشات ليس يمكن ان يدوم بل هو آني ، ويعرض بعد الآن من الشواغل والافكار والخواطر ما يشوشه وينقصه ، وهذه ضرورة قائمة في هذه الحياة الفانية ؛ فلا تزال هذه اللذة منقصة الى الموت ، وانما الحياة الطيبة بعده ؛ وانما العيش عيش الآخرة ، فان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ، ولذا كل عارف كملت معرفته في الدنيا وأحب لقاء الله يحب الموت ولا يكرهه ، الا من حيث ارادة زيادة استكمال في المعرفة ، فان المعرفة كما عرفت بمنزلة البذر ، وكلما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وبأفعاله وبأسرار مملكته ، قويت المشاهدة وأشدت ، وكثر النعيم في الآخرة وعظم ، كما أنه كلما كثر البذر وحسن كثر الزرع وحسن . ولا ريب في أن المعرفة لاتنتهي الى مرتبة لاتكون فوقها مرتبة ، اذ بحر المعرفة لاساحل له ، والاحاطة بكنهه جلال الله محال ؛ فالعارف وان قويت معرفته ؛ ربما أحب طول العمر ، وكره الموت لتزداد معرفته .

ثم أهل السنة قالوا : « ان الرؤية في الآخرة مع تنزهها عن التخيل والتصوير والتقدير بالشكل والصورة والتحديد بالجهة والمكان : تكون بالعين دون القلب » : (وهو عندنا باطل) : اذ الرؤية بالعين محال في حق الله تعالى ، سواء كانت في الدنيا أو في الآخرة ، فكما لاتجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لاتجوز في الآخرة ، وكما تجوز رؤيته في الآخرة بالعقل والبصيرة لاهل البصائر - أعني غاية الانكشاف والوضوح بحيث تتأدى الى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الدنيا بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس الا الجهل وقلة المعرفة دون الجسد ، فان العارفين وأولياء الله يشاهدونه في الدنيا في جميع أحوالهم ومنصرفاتهم ،

وان كان الحاصل في الآخرة أزيد انكشافا وأشد انجلاء بحسب زيادة صفاء النفوس وزكائها وتجردها عن العلائق الدنيوية - كما تقدم مفصلا - ، وقد ثبت ذلك من أئمتنا الراشدين العارفين بأسرار النبوة ، روى شيخنا الاقدم (محمد بن يعقوب الكليني) وشيخنا الصدوق (محمد بن علي بن بابويه) رحمهما الله باسنادهما الصحيح عن الصادق (ع) : « أنه سئل عما يروون من الرؤية ، فقال : الشمس جزء من سبعين جزء من نور الكرسي ، والكرسي جزء من سبعين جزء من نور العرش ، والعرش جزء من سبعين جزء من نور الحجاب ، والحجاب جزء من سبعين جزء من نور الستر ، فان كانوا صادقين فليملأوا أعينهم من نور الشمس ليس دونها سحب » . وبأسنادهما عن أحمد بن اسحاق قال : « كتبت الى ابي الحسن الثالث (ع) أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس ، فكتب : لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء ينفذه البصر فاذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه ، لان الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه ، وكان ذلك التشبيه لان الاسباب لا بد من اتصالها بالمسببات » . وعن ابي بصير عن الصادق (ع) قال : « قلت له : اخبرني عن الله - عزوجل - هل يراه المؤمنون يوم القيامة ؟ قال : نعم ! وقد راوه قبل يوم القيامة » . فقلت : متى ؟ قال : حين قال لهم الست بربكم ، قالوا بلى . . . ثم سكت ساعة ، ثم قال : وان المؤمنين ليرونه في الدنيا قبل يوم القيامة ، الست تراه في وقتك هذا ؟ قال ابو بصير فقلت له : جعلت فداك ! فاحدث بهذا عنك ؟ فقال : لا ! فانك اذا حدثت به فانكره منكر جاهل بمعنى ما تقوله ، ثم قدر ان ذلك تشبيه كفر ، وليست الرؤية بالقلب كالرؤية بالعين ، تعالى الله عما يصفه المشبهون والملحدون » . وسئل امير المؤمنين (ع) : « هل رايت ربك حين عبدته ؟ فقال : ويلك ! ما كنت اعبد رباً لم اره . قيل : وكيف رايته ؟ قال : ويلك ! لا تدركه العيون في مشاهدة الابصار ، ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان » (٣٢) . وقال سيد

(٣٢) صححنا الاحاديث كلها على (اصول الكافي) : الجزء الاول ، باب

ابطال الرؤية . وعلى (الوافي) : ١ / ٦٩ ، باب ابطال الرؤية .

الشهداء (ع) : « كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر اليك ايكون لغيرك من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ، متى غبت حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ، ومتى بعدت حتى تكون الاثار هي التي توصل اليك ، عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لهم تجعل من حبك نصيباً » . وقال (ع) ايضاً : « تعرفت لكل شيء فما جهلك شيء » وقال : « وانت الذي تعرفت الي في كل شيء ، فرايتك ظاهراً في كل شيء ، وانت الظاهر لكل شيء » (٣٣) . وامثال ذلك مما ورد عنهم - عليهم السلام - اكثر من ان تحصى .

فصل

الطريق الى الرؤية واللقاء

الطريق الى تحصيل محبة الله وتقويتها ثم استعداد الرؤية واللقاء امران احدهما - تطهير القلب من شواغل الدنيا وعلائقها ، والتبطل الى الله بالذكر والفكر ، ثم اخراج حب غير الله من القلب ، اذ القلب مثل الاناء الذي لا يسع الماء - مثلاً - ما لم يخرج منه الخل . وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وكمال الحب في ان يحب الله بكل قلبه ، وما دام يلتفت الى غيره فراوية من قلبه مشغولة بغيره ، وبقدر ما يشتغل بغير الله ينقص منه حب الله الا ان يكون التفاتته الى الغير من حيث انه صنع الله - تعالى وفعله ومظهر من مظاهر اسماء الله تعالى - ، والى التجريد والتفريد الاشارة بقوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » (٣٤)

وثانيهما - تحصيل معرفة الله وتقويتها وتوسيعها وتسليطها على القلب والاول ، اعنى قطع العلائق ، بمنزلة تنقية الارض من الحشائش ، والثاني اي المعرفة ، بمنزلة البذر فيها ، ليتولد منه شجر المحبة . ثم لتحصيل المعرفة طريقان :

احدهما - الاعلى ، وهو الاستدلال بالحق على الخلق ، وذلك بأن

(٣٣) صححنا فقرات دعاء عرفة على «مفاتيح الجنان» : ص ٢٧٢ - ٢٧٤

طبعة الكراورى .

(٣٤) الانعام ، الآية : ٩١

يعرف الله بالله ، وبه يعرف غيره ، اى افعاله وآثاره • والى هذا اشير في الكتاب الالهي بقوله :

((او لم يكف بربك انه على كل شء شهيد)) (٣٥)

وهذا الطريق غامض ، وفهمه صعب على الاكثيرين • وقد اشرنا الى كيفيته في بعض كتبنا الالهيات •

وثانيهما - وهو الادنى ، الاستدلال بالخلق على الحق - سبحانه - وهذا الطريق في غاية الوضوح ، واكثر الافهام يتسكن من سلوكه ، وهو متسع الاطراف ، ومتكثر الشعوب والاكناف ، اذ ما من ذرة من اعلى السماوات الى تخوم الارضين الا وفيها عجائب آيات وغرائب آيات وغرائب بينات تدل على وجود الواجب وكمال قدرته وغاية حكمته ونهاية جلاله وعظمته ، وذلك مما لا يتناهى •

((قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل ان تنفد

كلمات ربي)) (٣٦)

وعدم وصول بعض الافهام من هذا الطريق الى معرفة الله مع وضوحه ، انما للاعراض عن التفكير والتدبر والاشغال بشهوات الدنيا وحفظ النفس • ثم سلوك هذا الطريق ، اى الاستدلال على الله - تعالى - وعلى كمال قدرته وعظمته ، بالتفكر في الآيات الآفاقية والانفسية ، خوض في بحار لاساحل لها ، اذ عجائب ملكوت السماوات والارض مما لا يمكن ان تحيط به الافهام ، فان القدر الذى تبلغه أفهامنا القاصرة من عجائب حكمته الباهرة تنقضى الاعمار دون ايضاحه ولانسبة لما احاط به علمنا الى ما احاط به علم العلماء ، ولانسبة له الى ما احاط به علم الانبياء ، ولانسبة له الى ما احاط به علم الخلائق كلهم ، ولا نسبة له الى ما استأثر الله بعلمه ، بل كلما عرفه الخلائق جميعا لا يستحق أن يسمى علما في جنب علم الله ، ونحن قد اشرنا الى لمعة يسيرة من عجائب حكمته المودعة في بعض مخلوقاته في مبحث التفكير •

(٣٥) فصلت ، الآية : ٥٣ .

(٣٦) الكهف ، الآية : ١١٠ .

فصل

تفاوت المؤمنين في محبة الله

اعلم ان المؤمنين جميعا مشتركون في اصل محبة الله لاشتراكهم في اصل الايمان ، ولكنهم متفاوتون في قدرها ، وسبب تفاوتهم امران :

احدهما - اختلافهم في المعرفة وحب الدنيا ، فان اكثر الناس ليس لهم من معرفة الله الا ما قرع اسماعهم من كونه متصفا بصفات كذا وكذا ، من دون وصول الى حقيقة معناها ، والى اعتقادهم بأن الموجودات المشاهدة صادرة عنه ، من غير تدبر في عجائب القدرة وغرائب الحكمة المودعة فيها .

وأما العارفون : فلهم الخوض في بحر التفكير والتدبر في انواع المخلوقات ، واستخراج ما فيها من الحكم الخفية ، والمصالح العجيبة ، التي كل واحد منها كمشعلة في ازالة ظلمة الجهل ، والهداية الى كمال عظمة الله ، ونهاية جلاله وكبريائه ، فمثل الاكثرين كمثل عامي احب عالما بمجرد استماعه أنه حسن التصنيف ، من دون علم ودراية بما في تصانيفه ، فتكون له معرفة مجملة ويكون له بحسنه ميل مجمل ، ومثل العارفين كمثل عالم فتش عن تصانيفه واطمع على ما فيها من دقائق المعاني وبلاغة العبارات . ولا ريب في أن العالم بجملته صنع الله وتصنيفه ، فمن عرف ذلك مجملا تكون له بحسبه محبة مجملة ، ومن وقف على ما فيه من عجائب القدرة ودقائق الحكمة تكون له غاية الحب ، وكلما ازدادت معرفته بوجود الحكم والمصالح المودعة في كل مخلوق ازداد حبه ، فمن اعتقد ان ما تبنيه النحل من البيوت المسدسة انما هو بالهام الله - تعالى - اياها ، من غير استعداد لفهم الحكمة في اختيار الشكل المسدس على سائر الاشكال ، لا يكون في معرفة الله وادراك عظيمته وحكمته كمن يفهم ذلك ويتيقنه . ثم ، كما ان دقائق الحكم وعجائب القدرة غير متناهية ، ولا يمكن لاحد ان يحيط بها ، وانما ينتهي كل الى ما يستعد له ، فينبغي أن تكون مراتب الحب أيضا غير متناهية ، وكل عبد ينتهي الى مرتبة تقتضيها معرفته .

وثانيهما - اختلافهم في الاسباب المذكورة للحب ، فان من يحب الله لكونه منعما عليه ومحسنا اليه ، ضعفت محبته لتغيرها بتغير الانعام والاحسان

ولا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرخاء والنعماء • وامامن يحبه لذاته ، أو بسبب كماله وجماله ومجده وعظمته ، فانه لا يتفاوت حبه بتفاوت الاحسان اليه •

فصل

الواجب اظهر الموجودات

عجبا لا قوام عميت قلوبهم عن معرفة الله — سبحانه — ، مع أن الله — تعالى — أظهر الموجودات وأجلاها ، لان البديهة العقلية قاضية بأنه يجب ان يكون في الوجود موجود قائم بذاته ، أي ما هو صرف الوجود ، ولولاه لم يتحقق موجود أصلا ، فتحقق صرف الوجود القائم بذاته المقوم لغيره أظهر واجلى من تحقق كل موجود بغيره عند البصيرة الصافية ، قال الله — سبحانه — :

« الله نور السماوات والارض » (٣٧)

والنور هو الظاهر لنفسه المظهر لغيره ، ومبدأ الادراك من المدرك انما هو الوجود ، فكلما ادركته انما تدرك اولا وجوده ، وان لم تشعر بذلك • ولا ريب في أن الظاهر لنفسه اظهر من الظاهر بغيره ، وأيضا كل موجود سوى الله — سبحانه — يعلم وجوده بقليل من الآثار ، فان وجود الحياة لزيد — مثلا — لا يدل عليه الا حركته وتكلمه وبعض آخر من اعراض نفسه ، ولا يدل عليه شيء آخر من سائر الموجودات ، وكذا وجود السماء — مثلا — لا يدل عليه سوى وجود ظهور جسمها وحركتها ، ولا يدل عليه شيء آخر من الموجودات التي تحتها وفوقها •

وأما وجود الواجب — تعالى — فيدل عليه كل شيء ، اذ ليس في الوجود مدرك محسوس أو معقول ، وحاضر أو غائب ، الا وهو شاهد ومعرف لوجوده ، فالسبب في خفائه مع كونه أجلى واظهر من كل شيء غاية وضوحه وظهوره ، فان شدة ظهور الشيء قد يكون سببا لخفائه ، لانه يكل المدارك ويحصرها ، فشدة ظهوره — سبحانه — بلغت حدا بهرت العقول وادهشتها ،

فضعفت عن ادراكه . وهذا كما ان الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ،
لا لخفاء النهار واستتاره ، بل لشدة ظهوره وضعف بصر الخفاش ، فان بصره
ضعيف يبهره نور الشمس اذا اشرق ، فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصره
سببا لا متناع ابصاره ، فلا يرى شيئا الا اذا امتزج بالضوء الظلام وضعف
ظهوره ، فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الالهية في نهاية الاشراف
والاستنارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم تشد عن ظهوره
ذرة من ملكوت السماوات والارض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فسبحان
من احتجب باشراق نوره ، واختفى عن العقول والبصائر بشدة ظهوره !
ولا تتعجب من اختفاء شيء بسبب شدة ظهوره ، فان الاشياء انما تستبان
باضدادها ، وما عم وجوده حتى لا ضد له عسر ادراكه ، فلو اختلفت
الاشياء ، فدل بعضها على الله - تعالى - دون بعض ، ادركت التفرقة على
قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد ، اشكل الامران ، ومثاله
نور الشمس المشرق على الارض ، فانا نعلم أنه عرض من الاعراض يحدث
في الارض ، ويزول عند غيبة الشمس ، فلو كانت الشمس دائمة الاشراف
لا غرب لها ، لكننا نظن أن لا هيئة في الاجسام الا الوانها ، وهي السواد
والبياض وغيرهما ، وأما الضوء فلا ندركه وحده لكن لما غابت الشمس
واظلمت المواضع ادركنا تفرقة بين الحالتين ، فعلمنا ان الاجسام قد استضاءت
بضوء فارقتها عند الغروب ، فعرفنا وجود النور بعدمه وما كنا نطلع عليه
اولا عدمه الا بعسر شديد ، وذلك لمشاهدتنا الاجسام متشابه غير مختلفة
في النور والظلام . وهذا مع ان النور اظهر المحسوسات ، اذ به تدرك سائر
المحسوسات ، فما هو ظاهر في نفسه مظهر لغيره انظر كيف استبهم امره
بسبب ظهوره لولا طريان ضده ، فاذن واجب الوجود لذاته هو اظهر
الاشياء وبه ظهرت الاشياء كلها ولو كان له عدم او غيبة او تغير ، لانهدت السماوات
والارض وبطل الملك والملكوت ، وادركت التفرقة بين الحالتين ، ولو كان بعض
الاشياء موجودا به ، وبعضها موجودا بغيره ، لادركت التفرقة بين الشيين
في الدلالة ، ولكن دلالة عامة في الاشياء على نسق واحد ، ووجوده دائم
في الاحوال يستحيل خلافه ، فلا جرم أورثت شدة ظهوره خفاء كما قيل :

خفي لأفراط الظهور تعرضت لأدراكه أبصار قوم أخافش
وحظ عيون الزرق من نور وجهه لشدته حظ العيون العوامش
قال أمير المؤمنين (ع) : « لم تحط الاوهام ، بل تجلى لها بها ، وبها
امتنع منها » وقال (ع) : « ظاهر في غيب ، وغائب في ظهور » • وقال (ع) :
« لاتجنه البطون عن الظهور ، ولا تقطعه الظهور عن البطون ، قرب فتأى
وعلا فدننا ، وظهر فبطن وبطن فعان ، ودان ولم يدن » : أى ظهر وغلب ،
ولم يغلب • ومن هناك قيل : « عرفت الله بجمعه بين الاضداد » •

فصل

علامم محبة الله

محبة العبد لله - سبحانه - له علامات :
الاولى - أن يحب لقاءه بطريق المشاهدة والعيان في دار السلام ،
ولتوقفه على الموت يحب الموت ويتمنيه ، اذ كل من يحب شيئاً يحب لقاءه
ووصله ، واذا علم انه يمتنع الوصول اليه الا بالارتحال من الدنيا بالموت
لاحب الموت لامحالة ، وكيف يثقل على المحب ان يسافر من وطنه الى مستقر
محبوبه ليتنعم بمشاهدته ، ولذا قال (حذيفة) عند موته : « حبيب جاء على
فاقة ، لا أفلح اليوم من ندم » • قال بعض الاكابر : « لا يكره الموت الا
مريب ، لان الحبيب لا يكره لقاء الحبيب على كل حال » •
ثم من يكره الموت ، فان كانت كراهته له لحب الدنيا والتأسف على
فراق الاهل والاولاد والاموال ، وكان حبه للدنيا وتأسفه على مفارقتها في
غاية الكمال ، بحيث لم يحب الموت ولم يسر قلبه اصلا بما يترتب عليه من
لقاء الله - تعالى - ، ولم يجد في قلبه شوقا اليه مطلقا ، فلا ريب في كون
مثل هذه الكراهة منافيا لاصل الحب ، ولو لم يكن حبه للدنيا في غاية
الكمال ، بحيث لم يجد في قلبه ميلا الى ما يترتب على الموت من لقاء الله ،
بل كان محبا للدنيا ، الا انه كان له شوق الى لقاء الله - تعالى - ايضا
او كان لذلك كراهته للموت ضعيفة ، فمثل هذا الحب للدنيا ينافي كمال
حب الله ، لان الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ، ولا يبعد ان
تكون معه شائبة ضعيفة من حب الله ، فان الناس متفاوتون في حب الله ،

فمنهم من يحبه بكل قلبه • ومنهم من لا يحبه بكل قلبه ؛ بل يحب معه غيره أيضا من الاهل والولد والمال ؛ فلا جرم يكون فرحه بلقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وكرهته لفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها ، وان كانت كراهته للموت لاجل ارادته الاستعداد والتهيؤ للقاء الله ، ومشاهدته بتحصيل زيادة العلم والعمل ؛ لا لحب الاهل والمال ؛ ولا للتأسف على فراق الدنيا ؛ فهو لا يدل ضعف الحب ولا ينافي اصله ؛ وهو كالمحب الذي وصل اليه خبر قدوم حبيبه ؛ فأحب ان يتأخر قدومه ساعة ليعمر داره ويفرشها ويهيئ أسبابها ؛ ليلقاه فارغ القلب عن الشواغل ؛ وعلاوة ذلك : الجد في العمل ؛ واستغراق الهم في تحصيل المعرفة ؛ والاستعداد للآخرة .
الثانية - أن يؤثر مراد الله - سبحانه - على مراده ، اذ المحب لا يخالف هوى محبوبه لهوى نفسه ، كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجري فاترك ما اريد لما يريد
فمن كان محبا لله : يمتثل اوامره ويجتنب نواهيه ، ويحترز عن اتباع الشهوات ، ويدع الكسالة والبطالة ؛ ولا يزال مواظبا على طاعته واطياعه ويكون مبتهجا متنعما بالطاعة ولا يشغلها ؛ ويسقط عنه تعبها • وقد روي : « أن زليخا لما آمنت ، وتزوج بها يوسف (ع) ؛ انفردت عنه ؛ وتخلت للعبادة ؛ وانقطعت الى الله - تعالى - ؛ وكان يوسف يدعوها الى فراشه نهارا فتدافعه الى الليل ، واذا دعاها ليلا سوفت الى النهار ، فعاتبها في ذلك فقالت ارسول الله ! انما كنت أحبك قبل أن أعرف ربك ، فاما اذ عرفته فلا أؤثر على محبته محبة من سواه ، وما أريد به بدلا » • ثم الحق ان العصيان يضاد كمال المحبة لا أصلها ، ولذا قد يأكل الرجل المريض ما يضره ويزيد في مرضه مع أنه يحب نفسه ، ويجب صحته ، والسبب ضعف المعرفة وغلبة الشهوة ، فيعجز عن القيام بحق المحبة •

الثالثة - الا يغفل عن ذكر الله - سبحانه - ، بل يكون دائما مستهترا بذكره ، اذ من أحب شيئا أكثر ضرورة ذكره وذكر ما يتعلق به فمحب الله لا يخلو عن ذكر الله وذكر رسوله وذكر القرآن وتلاوته ، لانه كلامه ، ويكون محبا للخلوة ليتنزه بذكره وبمناجاته ، ويكون له كمال

الانفس والالتئاذ بمناجاته ، وفي اخبار داود : « كذب من ادعى محبتي
واذا جنه الليل قام عني ، أليس كل محب يجب لقاء حبيبه ، فها أناذا موجود
لمن طلبني » •

الرابعة - ألا يحزن ولا يتألم عن فقد شيء ، ولا يفرح بوجود شيء
سوى ما يقربه الى الله او يبعده عنه ، فلا ينبغي أن يحزن ويجزع في
المصائب ، ولا يسر بنيل المقاصد الدنيوية ، ولا يتأسف على ما يفوته الا على
ما فات منه من طاعة مقربة الى محبوبه ، او على صدور معصية مبعدة ، او
على ساعة خلت عن ذكر الله والانس به •

الخامسة - ان يكون مشفقاً رؤفاً على عباد الله ، رحيماً على اوليائه
وشديداً على اعداء الله ، كارهاً لمن يخالفه ويعصيه ، اذ مقتضى الحب الشفقة
والمحبة لاهياء المحبوب والمنسويين اليه ، والبغض لاعدائه ومخالفيه •

السادسة - ان يكون في حبه خائفاً متذللًا تحت سلطان العظمة
والجلال ، وليس الخوف مضادا للحب ، كما ظن ، اذ ادراك العظمة يوجب
الهيبة وادراك الجمال يوجب الحب ، ولخصوص المحبين خوف الاعراض ،
وخوف الحجاب ، وخوف الابعاد ، وخوف الوقوف ، وسلب المزيد وقال
بعض العرفاء : « من عبد الله بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط
والادلال ، ومن عبده من طريق الخوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد
والاستيحاش ، ومن عبده من طريقهما أحبه الله ، فقربه ومكنه وعلمه » •

السابعة - كتمان الحب والشوق من اظهاره ومن اظهار الوجد واجتناب
الدعوى ، تعظيماً للمحبوب واجلالاً له ، وهيبة منه وغيره على سره ، فان
الحب سر من اسرار المحبوب ، فلا ينبغي افشاؤه ، ولانه ربما يدخل في
الدعوى ما يجاوز حد الواقع ، فيكون من الافتراء ، وتعظم به العقوبة
في العقبي والبلية في الدنيا • نعم ، ربما غشيتته سكرة في حبه ، حتى يدهش
فيها ، وتضطرب احواله ، فيظهر عليه حبه من دون اختيار وتمحل • فمثله
مغذور ، لانه تحت سلطان المحبة مقهور ، ومن عرف أن حصول حقيقة
المعرفة والمحبة التي تنبغي ان تكون في حق الله يستحيل ان يحصل لاحد
وان يطلع على ما اعترف عظماء الانسان - اعني الانبياء والاولياء - من

العجز والقصور ، وان صنفا واحدا من الاصناف الغير المتناهية من ملائكته ملائكة بعدد جميع ما خلق الله من شيء ، هم أهل المحبة لله ، ما خطر على قلوبهم مذ خلقهم الله - وهو ثلاث مائة ألف سنة قبل خلق العالم - سوى الله - سبحانه - ، وما ذكروا غيره ؛ لاستحبي منه حق الحياء ان يعد ما عليه من المعرفة والمحبة معرفة ومحبة ، وخرس لسان عن التظاهر بالدعوى . وروي في بعض الاخبار : « ان بعض أهل الله سأل بعض الصديقين أن يسأل الله - تعالى - أن يعطيه ذرة من معرفته ، ففعل ذلك ، فحار عقله وذهل لبه ، وواله قلبه ، وهام في الجبال ، وبقي شاخصا سبعة ايام ، لا ينتفع بشيء ولا ينتفع به شيء ؛ فسأل له الصديق ربه أن ينقص بعض الذرة من المعرفة التي اعطاه ، فأوحى الله - تعالى - اليه : (انا اعطيناه جزءا من مائة ألف جزء من ذرة من المعرفة ؛ وذلك ان مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا ، فأخرت اجابتهم الى أن شفعت انت لهذا ، فلما أجبتك فيما سألت اعطيتهم كما اعطيته ، فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد ؛ فهذا ما أصابه من ذلك) . فقال : سبحانك سبحانك ! أتقصه مما أعطيته ، فأذهب الله عنه جملة ما اعطاه ، وأبقى فيه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة ، فاعتدل خوفه وحبه ورجاؤه ، وسكن ، وصار كسائر الكمل من العارفين » (٣٨) .

والحق ان حقائق الصفات الالهية اجل واعظم من ادراك العقول البشرية ، ولا يطبق أحد من الكمل ان يتحمل لفهم جزء من الاجزاء الغير المتناهية منها ، فالوصول الى ما عليه الحضرة الربوبية من العظمة والجلال وسائر صفات الكمال في حيز المحال ، (وما قيل أو يقال فيه) وهم اوخيائ فأين يحصل لاحد ما يليق به من المعرفة والمحبة ؟ فلو امكن ان تدخل امثال هذه العوالم المخلوقة من السماوات والارضين وما فوقهما وأضعافهما بقدر غير متناه في جوف خردلة ، لأمكن أن تدخل في أعظم العقول ذرة من عظمته وجلاله ، وغاية المعرفة أن يعرف عظمته وقدرته وجلاله وعزته وسائر اوصافه الكمالية بأمثال هذه العنوانات والتشيلات ، وهي أيضا لو ضوعفت الى

غير النهاية في أزمنة غير متناهية ، لكائنات بيانات قاصرة ، بل وهمية خيالية ، فسبحان من لا سبيل الى معرفته الا بالعجز عن معرفته ! • ومن علامات المحبة الانس والرضا كما يأتي • وقد جمع بعض العارفين علامات المحب في أبيات ، فقال :

لا تخذعن فللمحب دلائل	ولديه من تحف الحبيب وسائل
منها تنعمه بمر بلائنه	وسروره في كل ما هو فاعل
فالمنع منه عطية مقبولة	والفقر أكرام وبر عاجل
ومن الدلائل أن ترى من عزمه	طوع الحبيب وان ألح العاذل
ومن الدلائل ان يرى متبسما	والقلب فيه من الحبيب بلا بل
ومن الدلائل أن يرى متفهما	لكلام من يحظى لديه سائل
ومن الدلائل أن يرى متقشفا	متحفظا عن كل ما هو قائل
ومن الدلائل ان تراه مشمرا	في خرقتين على شطوط الساحل
ومن الدلائل حزنه ونحيبه	خوف الظلام فماله من عاذل
ومن الدلائل ان تراه باكيا	أن قد رآه على قبيح فاعل
ومن الدلائل ان تراه راضيا	بمليكه في كل حكم نازل
ومن الدلائل زهده فيما ترى	من دار ذل والنعيم الزائل
ومن الدلائل ان تراه مسلما	كل الامور الى المليك العادل
ومن الدلائل ضحكه بين الورى	والقلب مجزون كقلب الثاكل
ومن الدلائل ان تراه مسافرا	نحو الجهاد وكل فعل فاضل

فصل

معنى حب الله لعبده

أعلم ان شواهد الكتاب والسنة ناطقة بأن الله سبحانه يحب العبد ، كقوله تعالى :

« يحبهم ويحبونه » (٣٩) وقوله تعالى - : « ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله » (٤٠) • وقوله - تعالى - : « ان الله يحب التوابين ويحب

(٣٩) المائة ، الآية : ٥٧

(٤٠) الصف الآية : ٤

المتطهرين» (٤١) وقوله - تعالى - : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم » (٤٢) .

وقال رسول الله (ص) : « ان الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الايمان الا من يحب » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، وان رضى اصطفاه » . وقال (ص) : « من اكثر ذكر الله أحبه الله » . وقال (ص) حاكيا عن الله : « لا يزال العبد يتقرب اليّ بالنوافل حتى أحبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به » . وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ، جعل له واعظا من نفسه ، وزاجرا من قلبه ، يأمره وينهاه » وأمثال ذلك اكثر من أن تحصى .

ثم حقيقة الحب - وهو الميل الى موافق ملائم - غير متصور في حق الله تعالى ، بل هذا أنما يتصور في حق نفوس ناقصة ، والله سبحانه صاحب كل جمال وكمال وبهاء وجلال ، وكل ذلك حاضر له بالفعل أزلا وأبدا ، اذ لا يتصور تجدده وزواله ، فلا يكون له الى غيره نظر من حيث انه غير ، بل اينهاجه بذاته وصفاته وأفعاله ، وليس في الوجود الا ذاته وصفاته وأفعاله ولذلك قال بعض العرفاء - لما قرىء قوله - تعالى - : (يحبهم ويحبونه) : « نحن نحبهم ، فانه ليس يحب الا نفسه » ، على معنى انه الكل ، وانه في الوجود ليس غيره ، فمن لا يجب الا ذاته ، وصفات ذاته ، وأفعال ذاته ، وتصانيف ذاته ، فلا يجاوز حبه وذاته وتواضع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته ، فهو اذا لا يجب الا ذاته . وليس المراد من محبة الله لعبده هو الابتهاج العام الذي له تعالى بأفعاله له ، اذ المستفاد من الآيات والاحبار : أن له تعالى خصوصية محبة لبعض عباده ليست لسائر العباد والمخلوقات ، فمعنى هذه المحبة يرجع الى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه ، والى تمكينه اياه من القرب اليه ، والى ارادته ذلك به في الازل ، والى تطهير باطنه عن

(٤١) البقرة الآية : ٢٢٢ .

(٤٢) آل عمران ، الآية : ٣١

حلول الغير به ، وتخليته عن عوائق تحول بينه وبين مولاه ؛ حتى لا يسمع
الا بالحق ومن الحق ، ولا يبصر الا به ، ولا ينطق الا به - كما في الحديث
القدسي ، فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه ، وارتفاع الحجاب عن
قلبه ، وحصوله في درجة القرب من ربه ؛ وكل ذلك من فضل الله تعالى
ولطفه به .

ثم يقرب العبد من الله لا يوجب تغيرا وتجديدا في صفات الله تعالى ، ان
التغير عليه سبحانه محال ، لانه لا يزال في نعوت الكمال والجلال والجمال
على ما كان عليه في ازل الآزال ، بل يوجب مجرد تغير العبد بترقيه في
مدارج الكمال ، والتخلق بمكارم الاخلاق التي هي الاخلاق الالهية ، فكلما
صار اكمل صفة وأتم علما واحاطة بحقائق الامور ، وأثبت قوة في قهر الشياطين
وقمع الشهوات ، وأظهر نزاهة عن الرذائل ، وأقوى تصرفا في ملكوت
الاشياء ، صار أقرب الى الله ؛ ودرجات القرب غير متناهية ، لعدم تناهي
درجات الكمال ، فمثل تقرب العبد الى الله ليس كتقرب أحد المتقاربين الى
الآخر اذا تحركا معا ، بل كتقرب أحدهما مع تحركه الى الآخر الذي كان
ساكنا ، او كتقرب التلميذ في درجات الكمال الى استاذه ، فان التلميذ
متحرك مترق من حضيض الجهل الى بقاء العلم ، ويطلب القرب من استاذه
في درجات العلم والكمال ، والاستاذ ثابت واقف ، وان كان التلميذ يمكن
ان يصل الى مرتبة المساواة لاستاذه لتناهي كمالاته ، وأما العبد ، كائنا من
كان ، لا يمكن ان يصل الى كمال يمكن ان تكون له نسبة الى كمالاته
سبحانه ، لعدم تناهي كمالاته شدة وقوة وعدة ، وعلامة كون العبد محبوبا
عند الله : أن يكون هو محبا له تعالى ، مؤثرا اياه على غيره من المحاب ،
وأن يرى من بواطن أموره وظواهره انه تعالى يهيء له أسباب السعادة
فيها ، ويرشده الى ما فيه خيره ، ويصده عن المعاصي بأسباب يعلم حصولها
منه سبحانه ، وأنه تعالى يتولى أمره ؛ ظاهره وباطنه ؛ وسره وجهه ،
فيكون هو المشير عليه ؛ والمدبر لأمره ؛ والمزين لأخلاقه ؛ والمستعمل
لجوارحه ، والمسدد لظواهره وباطنه ، والجاعل لهومهما واحدا ، والمبغض
للدنيا في قلبه ؛ والموحش له من غيره ، والمونس له بلذة المناجاة في خلواته ؛

والمكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته .

تذنيب

الحب في الله والبغض في الله

أعلم ان الاخبار متظاهرة في مدح الحب في الله والبغض في الله وعظم فضيلته وثوابه ، ومعناه لا يخلو عن أبهام ، فلا بد ان نشير الى بعض هذه الاخبار ، ثم نبين حقيقته ونكشف عن معناه :

أما الاخبار : كقول النبي (ص) : « ودّ المؤمن للمؤمن في الله أعظم شعب الايمان ، ألا ومن أحب في الله ، وبغض في الله ، ومنع في الله ، فهو من أصفياء الله » . وقال (ص) لأصحابه : « أي عرى الايمان اوثق ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم فقال بعضهم : الصلاة ، وقال بعضهم : الزكاة ، وقال بعضهم : الصيام ، وقال بعضهم : الحج والعمرة ، وقال بعضهم الجهاد فقال رسول الله (ص) : « لكل ما قلتم فضل وليس به ، ولكن اوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله ، وتوالي اولياء الله والتبري من أعداء الله » . وقال (ص) : « المتحابون في الله يوم القيامة على أرض زبرجدة خضراء في ظل عرشه عن يمينه وكلتا يديه يمين - وجهوهم أشد بياضاً وأضواً من الشمس الطالعة ، يغبطهم بمنزلتهم كل ملك مقرب وكل نبي مرسل ، يقول الناس : من هؤلاء ؟ فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال سيد الساجدين (ع) : « اذا جمع الله عز وجل الاولين والآخرين ، قام مناد فنادى ليسمع الناس ، فيقول : أين المتحابون في الله ؟ قال : فيقوم عنق من الناس ، فيقال لهم : اذهبوا الى الجنة بغير حساب . قال : فتلقاهم الملائكة فيقولون : الى أين ؟ فيقولون : الى الجنة بغير حساب ، فيقولون : أي حزب اتم من الناس ؟ فيقولون : نحن المتحابون في الله . قال : فيقولون : وأي شيء كانت أعمالكم ؟ قالوا : كنا نحب في الله ونبغض في الله . قال : فيقولون : نعم أجر العاملين » . وقال الباقر (ع) : « اذا أردت ان تعلم ان فيك خيراً ، فأنظر الى قلبك ، فان كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته فبيك خير والله يحبك ، واذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك والمرأ مع من أحبه » . وقال (ع) :

« لو أن رجلا أحب رجلا لله ، لأثابه الله على حبه اياه ، وان كان المحبوب في علم الله من أهل النار ، ولو ان رجلا أبغض رجلا لله ، لأثابه الله على بغضه اياه ، وان كان المبغض في علم الله من أهل الجنة » . وقال الصادق عليه السلام : « من أحب لله ، وأبغض لله ، وأعطى الله ، فهو ممن كمل إيمانه » . وقال (ع) : « ان المتحابين في الله يوم القيامة على منابر من نور ، قد أضاء نور وجوههم ونور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء ، حتى يعرفوا به فيقال : هؤلاء المتحابون في الله » . وقال (ع) : « وهل الايمان الا الحب في الله والبغض في الله ؟ ثم تلا هذه الآية :

« حب اليكم الايمان وزينه في قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان

أولئك هم الراشدون (٤٣)

وقال (ع) : « ما التقى المؤمنان قط الا كان أحدهما أشدهما حبا لأخيه » . وقال (ع) : « من لم يحب على الدين ولم يبغض على الدين فلا دين له » والاعبار بهذه المضامين كثيرة (٤٤) .

وإذا عرفت ذلك ، فلنشر الى معنى الحب في الله والبغض في الله فنقول : الحب الذي بين انسانين ، اما يحصل بمجرد الصحبة الاتفاقية ، كالصحبة بحسب الجوار ، او بحسب الاجتماع في سوق ، او مدرسة ، أو سفر ، او باب سلطان ، او امثال ذلك ، ومعلوم ان مثل هذا الحب ليس من الحب في الله ، بل هو الحب بحسب الاتفاق ، او لا يحصل بمجرد ذلك ، بل له سبب وباعث آخر ، وهذا على أربعة أقسام :

الاول - أن يحب انسان انسانا لذاته ، لا ليتوصل به الى محبوب ومقصود وراءه ، بأن يكون هو في ذاته محبوبا عنده ، بمعنى انه يلتذ برؤيته ومعصيته ومشاهدته اخلاقه ، لاستحسانه له ، فان كل جميل لذيد في حق من ادرك جماله ، وكل لذيد محبوب ، واللذة تتبع الاستحسان ، والاستحسان يتبع المناسبة والموافقة والملائمة بين الطباع . ثم ذلك المستحسن ؛

(٤٢) الحجرات ، الآية : ٧

(٤٤) صححنا الاحاديث كلها على « اصول الكافي » : ج ٢ ، باب الحب في الله والبغض في الله وعلى « الوافي » : ٣/٣٤٤ ، باب الحب في الله والبغض في الله .

اما أن يكون جمال الصورة؛ وكمال العقل؛ وغزارة العلم؛ وحسن الاخلاق والافعال؛ وكل ذلك يستحسن عند الطباع السليمة؛ وكل مستحسن مستلذ به ومحجوب، ومن هذا القسم ان يحبه لأجل مناسبة خفية معنوية بينهما، فانه قد تستحکم المودة بين شخصين من غير حسن في خلق وخلق • ومن دون ملاحظة في صورة • ولاغيرها من الاعضاء، بل المناسبة باطنية توجب الأنفة والموافقة والمحبة؛ فان شبه الشيء ينجذب اليه بالطبع، والاشياء الباطنة خفية، ولها أسباب دقيقة ليس في قوة البشر ان يطلع عليها، والى هذا القسم من الحب والموافقة أشار رسول الله (ص) بقوله: «الارواح جنود مجندة؛ فما تعارف منها ائتلف؛ وما تناكر منها اختلف» • فالحب نتيجة التناسب الذي هو التعارف؛ والبغض نتيجة التناكر • ومعلوم ان هذا القسم من الحب لا يدخل في الحب لله، بل هو حب بالطبع وشهوة النفس، لذا يتصور ممن لا يؤمن بالله، الا انه ان اتصل به غرض مذموم صار مذموما، والا فهو مباح لا يوصف بمدح وذم •

الثاني - أن يحبه لالذاته، بل لينال منه محبوبا وراء ذاته، وكانت لهذا المحبوب فائدة دنيوية • ولا ريب في أن كلما هو وسيلة الى المحبوب محبوب، وعدم كون هذا الحب من جملة الحب في الله ظاهر •

الثالث - أن يحبه لالذاته، بل لغيره، وذلك الغير راجع الى حظوظه في الآخرة دون الدنيا؛ وذلك كحب التلميذ الاستاذ، لان يتوصل به الى تحصيل العلم وتحسين العمل، ومقصوده من العلم والعمل سعادة الآخرة • وهذا الحب من جملة الحب في الله، وصاحبه من محبي الله؛ وكذلك حب الاستاذ للتلميذ؛ لانه يتلقف منه العلم؛ وينال بواسطته مرتبة التعليم؛ ويطرقى به الى درجة التعظيم في ملكوت السماء • قال عيسى (ع) : «من علم وعمل وعلم؛ فذلك يدعى عظيما في ملكوت السماء» • ولا يتم التعليم الا بمتعلم؛ فهو اذن آلة في تحصيل هذا الكمال؛ فان أحبه لانه آلة اذ جعل صدره مزرعة لحرثه؛ فهو محب لله •

بل التحقيق : أن كل من يحب أحدا لصنعتة، او فعله الذي يوجب تقربه الى الله، فهو من جملة المحبين في الله، كحب من يتولى له ايصال

الصدقة الى المستحقين ، وحب طباخ يحسن صنعته في الطبخ لأجل طبخه لمن يضيفه تقربا الى الله ، وحب من ينفق عليه ويواسيه بكسوته وطعامه ومسكنه وجميع مقاصده التي يقصده في الدنيا ، ومقصوده من ذلك الفراغ لتحصيل العلم والعبادة ، وحب من يخدمه بنفسه من غسل ثيابه وكسب بيته وطبخ طعامه وأمثال ذلك من حيث أنه يفرغه لتحصيل العلم والعمل ...
وقس على ما ذكر أمثاله ، والمعيار أن كل من أحب غيره من حيث توسله لأجله الى فائدة أخروية فهو محب لله وفي الله .

الرابع - ان يحبه لله وفي الله ، لا لينال منه علما او عملا ، او يتوسل به الى أمر وراء ذاته ، وذلك بأن يحبه من حيث أنه متعلق بالله ومنسوب اليه ، اما بالنسبة العامة التي ينتسب بها كل مخلوق الى الله ، او لأجل خصوصية النسبة أيضا ، من تقربه الى الله ، وشدة حبه وخدمته له تعالى . ولا ريب في أن من آثار غلبة الحب ان يتعدى من المحبوب الى كل من يتعلق به ويناسبه ، ولو من بعد ، فمن أحب انسانا حبا شديدا ، أحب محب ذلك الانسان وأحب محبوبه ومن يخدمه ومن يمدحه ويشنئ عليه أو يشنئ عليه محبوبه ، وأحب ان يتسارع الى رضاه محبوبه ، كما قيل :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

وأما البغض في الله ، فهو أن يبغض انسان انسانا لأجل عصيانه لله ومخالفته له تعالى ، فان من يجب في الله لا بد وأن يبغض في الله ، فانك ان أحببت انسانا لانه مطيع لله ومحبوب عنده ، فان عصاه لا بد ان تبغضه ، لانه عاص فيه ومنقوت عند الله ، قال عيسى (ع) : « تحببوا الى الله ببغض أهل المعاصي ، وتقربوا الى الله بالتباعد عنهم ، واتمسوا برضاء الله بسخطهم » وروى : « انه تعالى اوحى الى بعض أنبيائه : أما زهدك في الدنيا فقد تعجلت الراحة ، وأما اقطاعك الي فقد تعززت بي ، ولكن هل عاديت في عدوا ، او واليت وليا ؟ »

ثم للمعصية درجات مختلفة ، فانها قد تكون بالاعتقاد ، كالكفر والشرك والبدعة ، وقد تكون بالقول والفعل ، وهذا اما أن يكون مما يتأذى به

غيره ؛ كالقتل والغضب والضرب وشهادة الزور وسائر أنواع الظلم ؛ او لا يكون مما يتأذى به غيره ، وهذا اما يوجب فساد الغير ، كالجمع بين الرجال والنساء ، وتهيئة أسباب الشر والفساد على ماهو دأب صاحب المآخور ، أو لا يوجب فساد الغير ؛ كالزنا وشرب الخمر ؛ وهذا أيضا اما كبيرة او صغيرة . واطهار البغض أيضا له درجات مختلفة ؛ كالتباعد والهجران ، وقطع اللسان عن المكالمة والمحادثة ، والتغليظ في القول ، والاستخفاف والاهانة ؛ وعدم السعي في اطاعته ؛ والسعي في اساءته وافساد مآربه ؛ وبعض هذا أشد من بعض ؛ كما أن درجات الفسق والمعصية أيضا كذلك . فينبغي ان يكون الأشد من درجات البغض بازاء الأشد من درجات المعصية والفسق ؛ والوسط بازاء الوسط ؛ والاضعف بازاء الاضعف . وينبغي ألا يترك أولا النصيحة ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر وتغليظ القول في الوعظ والارشاد ؛ لاسيما اذا كان العاصي ممن بينه وبينه صحبة متأكدة . ثم العاصي ان كان ممن له صفات محمودة ، كالايمان والعلم والسخاء والعبادة والطاعة او أمثال ذلك ، ينبغي ان يكون مبعوضا لأجل معصيته ومحبوبا لأجل صفته المحمودة ، وهذا كما أن من وافقك في غرض وخالفك في آخر تكون معه على حالة متوسطة بين التردد اليه والتوخش عنه ؛ فلا تبالغ في اكرامه مبالغتك في اكرام من يوافقك في جميع اغراضك ولا تبالغ في أهانتة مبالغتك في اهانة من خالفك في جميع اغراضك .

تتميم

الوفاء في الحب

اعلم ان من تمام الحب للأخوان في الله (الوفاء) ، وهو الثبات على الحب ولوازمه وادامته الى الموت ويعده مع أولاده واصدقائه ، وضده (الجفاء) ؛ وهو قطع الحب أو بعض لوازمه في أيام الحياة او بعد الموت بالنسبة الى أولاده وأحبته ، ولولا الوفاء في الحب لما كانت فيه فائدة ، اذ الحب انما يراد للآخرة ، فان انقطع قبل الموت لضاع السعي وحبط العمل ؛ ولذلك قال رسول الله في السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة : « وأخوان تحابا في الله أجمعوا على ذلك وتفرقا عليه » . وروى : « أنه (ص) كان

يكرم بعض العجائز كلما دخلت عليه ، فقبل له في ذلك ، فقال : انها كانت
تأتينا أيام خديجة ، وان كرم العهد من الدين « . فمن الوفاء مراعاة جميع
الاصدقاء والاقارب والمتعلقين ، ومراعاتهم أوقع في القلب من مراعاة الاخ
المحبوب في نفسه ، فان فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر من فرحه بتفقد
نفسه ، اذ لاتعرف قوة المحبة والشفقة الا بتعديها من المحبوب الى كل من
يتعلق به ، حتى أن من قوى حبه لأخيه تميز في قلبه كلبه الذي على باب
داره من سائر الكلاب . ولا ريب في أن المحبة التي تنقطع - ولو بعد
الممات - لاتكون محبة في الله ، اذ المحبة في الله دائمة لا انقطاع لها . فما
قبيل من ان (قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره حال الحياة) انما هو
لدلالته على كون الحب في الله . وبالجملة : الوفاء بالمحبة تمامها . ومن
آثار الوفاء أن يكون شديد الجزع من مفارقتة ، وألا يسمع بلاغات الناس
عليه ، وأن يحب صديقه ويبغض عدوه ، وليس من الوفاء موافقة الاخ فيما
يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين ، بل من الوفاء المخالفة له وارشاده
الى الحق .

هذا وأما البعد والانس ، فقد عرفت ان الانس عبارة عن استبشار
القلب بما يلاحظه من المحبوب بعد الوصول ، والبعد خلافه ، والانس
والخوف والشوق ، كلها من آثار المحبة ، وكل واحد منها يرد على المحب
بحسب نظره ، ومما يغلب عليه في وقته ، فاذا غلب عليه التطلع من وراء
حجب الغيب الى منتهى الجمال ، واستشعر قصوره من الاطلاع على كنه
الجلال ، انبعثت النفس وانزعجت له ، وهاجت اليه ، فسميت هذه الحالة
في الانزعاج (شوقا) ، وهو بالاضافة الى أمر غائب ، واذا غلب عليه
الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف ، وكان نظره
مقصورا على مطالعة الجمال الحاضر المكشوف ، غير ملتفت الى مالم يدركه
بعد ، استبشر القلب بما يلاحظه فيه ، فيسمى استبشاره (أنسا) ، وان
كان نظره الى صفات العز والجلال والاستغناء وعدم المبالاة ، واستشعر
امكان الزوال والبعد ، تألم قلبه بهذا الاستشعار ، فيسمى تألمه (خوفا) ،
وهذه الاحوال تابعة لهذه الملاحظات ، فان غلب الانس وتجرد عن ملاحظة

ما غاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال ، عظم نعيمه ولذته ؛ وغلب عليه الانس بالله ؛ ولم تكن شهوته الا في الانفراد والخلوة ، وذلك لأن الانس بالله يلازمه التوحش من غير الله ، بل كلما يعوق من الخلوة يكون أثقل الاشياء على القلب ؛ كما روى : « ان موسى (ع) لما كلمه ربه ، مكث دهرًا لا يسمع كلامه أحد من الخلق الا أخذه الغشيان » ، لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره ، فيخرج عن القلب عذوبة ما سواه فان خالط الناس كان كمنفرد في جماعة ؛ ومجتمع في خلوة ، وغريب في حضر ؛ وحاضر في سفر ؛ وشاهد في غيبة ، وغائب في حضور ؛ ومخالط بالبدن ؛ متفرد بالقلب المستغرق في عذوبة الذكر ، قال أمير المؤمنين (ع) في وصفهم : « هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر ، فباشروا روح اليقين ؛ واستلانوا ما أستوعره المترفون ، وأنسوا بما أستوحش منه الجاهلون ؛ صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها متعلقة بالمحل الاعلى ، أولئك خلفاء الله في ارضه ؛ والدعاة الى دينه » .

فصل

الانس بالله

من أنكر وجود الحب والشوق أنكر وجود الانس أيضا ، فلنا أنه يدل على التشبيه ؛ وهو ناش عن الجهل بالابتهاجات العقلية واللذات الحقيقية وعن القصور في طريق المعرفة ، والجمود على أحكام الحس ؛ والغفلة عن عالم العقل والبصيرة ؛ وقد ظهر ثبوت الانس من بعض الاخبار السابقة ، ويدل عليه ما ورد في أخبار داود : « ان الله عز وجل أوحى اليه : يا داود ! أبلغ أهل ارضي : اني حبيب لمن أحبني ، وجليس لمن جالسني ؛ ومؤنس لمن أنس بذكرى . وصاحب لمن صاحبني ؛ ومختار لمن أختارني ؛ ومطيع لمن اطاعني ، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه الا قبلته لنفسي ؛ واحببته حبا لا يتقدمه أحد من خلقي ؛ من طلبني بالحق وجدني ؛ ومن طلب غيري لم يجدني ، فارفضوا يا أهل الارض ما اتتم عليه من غرورها ؛ وهلموا الى كرامتي ومصاحبتي ومجالستي ، وآنسوا بي او انسكم ، واسارع الى محبتكم » .

فصل

الأنس قد يثمر الادلال

قال ابو حامد الغزالي : « الأنس اذا دام وغلب واستحكم ، ولم يشوشه قلق الشوق ؛ ولم ينغصه خوف البعد والحجاب ، فانه يثمر نوعا من الانبساط في الاقوال والافعال والمناجاة مع الله سبحانه ، وقد يكون منكرا بحسب الصورة ؛ لما فيه من الجرأة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ؛ ومن لم يقم في ذلك المقام وتشبه بهم في الفعل والكلام ، هلك وأشرف على الكفر . ومثاله مناجاة (برخ الاسود) الذي أمر الله تعالى كليمة موسى (ع) أن يسأله ليستسقى لبني إسرائيل ، بعد أن قحطوا سبع سنين ؛ وخرج موسى في سبعين الفاً ، فأوحى الله عز وجل اليه : كيف استجيب لهم وقد أظلت عليهم ذنوبهم ؟ سرائرهم خبيثة ، يدعونني على غير يقين ، ويأمنون مكري ؛ ارجع الى عبد من عبادي يقال له (برخ) ؛ فقل له : يخرج حتى استجيب له . فسأل عنه موسى ، فلم يعرف ؛ فبينما موسى ذات يوم يمشى في طريق ، اذا بعبد اسود قد استقبله ؛ بين عينيه تراب من أثر السجود ، في شملة قد عقدها على عنقه ؛ فعرفه موسى بنور الله عز وجل ؛ فسلم عليه وقال له : ما اسمك ؟ فقال : اسمي برخ ، قال : فأنت طلبتنا منذ حين ؛ أخرج فأستسقى لنا ؛ فخرج ؛ فقال في كلامه : ما هذا من فعالك ؛ ولا هذا من حلمك ، وما الذي بدا لك ؟ أتعصت عليك غيومك ؟ أم عادت الرياح عن طاعتك ؟ أم فقد ما عندك ؟ ام أشتد غضبك على المذنبين ؟ ألسنت كنت غفارا قبل خلق الخاطئين ؟ خلقت الرحمة وأمرت بالعفو ، أم ترينا انك ممتنع ؟ أم تخشى القوت فتعجل بالعقوبة ؟ ! .. قال : فما برح حتى اخضل بنو اسرائيل بالمطر ، وانبت الله عز وجل العشب في نصف يوم حتى بلغ الركب ، ثم رجع (برخ) ، فأستقبله موسى ؛ فقال : كيف رأيت حين خاصمت ربي ، كيف أنصفتني ؟ ! فهمم به موسى ، فأوحى الله اليه : ان برخا يضحكني كل يوم ثلاث

مراته» !! (٤٥) ولاريب في أن امثال هذه الكلمات الصادرة عن الانبساط والادلال يحتتمل من بعض العباد دون البعض ، فمن انبساط الانس قول موسى :

« ان هي الا فتنتك » (٤٦)

وقوله في التعلل والاعتذار ؛ لما قيل له :

« اذهب الى فرعون انه طفى » (٤٧) : « ولهم علي ذنب فاخاف ان

يقتلون » (٤٧) . وقوله : « ويضيق صدري » (٤٩) . وقوله : « اتنا نخاف ان

يفرط علينا أو أن يطغى » (٥٠) .

وهذا من غير موسى سوء الادب ؛ لأن الذي أقيم مقام الانس يلاطف ويحتتمل منه مالا يحتتمل من غيره ؛ كيف ولم يحتتمل من يونس النبي (ع) ما دون هذا الحال ؛ أقيم مقام القبض والهيبة ؛ فعوقب بالسجن في بطن الحوت في ظلمات ثلاث ؛ فنودي عليه الى يوم الحشر ؛ لولا أن تداركته نعمة من ربه لنبد بالعراء وهو مذموم ؛ ونهى نبينا ان يقتدى به ؛ فقيل له :

واصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو مكظوم » (١) .

وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف المقامات والاحوال ؛ وبعضها لما سبق في الازل من التفاضل والتفاوت في القسمة بين العباد ؛ قال الله سبحانه :

تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم

درجات » (٢)

فالانبياء والاولياء مختلفون في الصفات والاحوال ؛ ألا ترى أن عيسى

(٤٥) هذا من عجائب المنقولات الخرافية ، والغريب من «ابى حامد الغزالي»

ان يركن الى مثله ، وقد أشار المصنف - قدس سره - الى بطلان ما نقله بقوله : « ولا ريب » .

(٤٦) الاعراف ، الآية : ١٥٤ .

(٤٧) طه ، الآية : ٢٤ النازعات ، الآية : ١٧ .

(٤٨) الشعراء ، الآية : ١٤

(٤٩) الشعراء ، الآية : ١٣

(٥٠) طه ، الآية : ٤٥

(١) القلم ، الآية : ٤٨

(٢) البقرة ، الآية : ٢٥٣

بن مريم (ع) كان في مقام الانبساط والادلال ؛ ولإدلاله له سلم على نفسه ؛ فقال :

« والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا » (٣) .

وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف في مقام الانس . وأما يحيى عليه السلام فإنه أقيم مقام الهيبة والحياء ؛ فلم ينطق حتى سلم عليه خالقه ؛ فقال :

« والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » (٤)

وانظر كيف أحتمل لاختوة يوسف ما فعلوا به ؛ وقد قال بعض العلماء :
« قد عدت من أول قوله تعالى » :

« اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا » (٥) .

الى رأس العشرين آية من أخباره تعالى عنهم ، فوجدت به نيفا واربعين خطيئة ، بعضها أكبر من بعض ؛ وقد يجتمع في الكلمة الواحدة الثلاث والاربع ؛ فغفر لهم وعفى عنهم ، ولم يحتمل لعزير في مسألة واحدة سأل عنها في القدر ، حتى قيل : لئن عاد محي اسمه عن ديوان النبوة « . ومن فوائد هذه القصص في القرآن : أن تعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل ، فما في القرآن شيء الا وفيه أسرار وأنوار يعرفها الراسخون في العلم .

تذنيب

العزلة

أعلم ان من بلغ مقام الانس ؛ غلب على قلبه حب الخلوة والعزلة عن الناس ؛ لأن المخالطة مع الناس تشغل القلب عن التوجه التام الى الله . فلا بد لنا من بيان أن الافضل من العزلة والمخالطة أيهما ؛ فان العلماء في ذلك مختلفون ؛ والاخبار أيضا في ذلك مختلفة ؛ ولكل واحد منهما أيضا

(٣) مريم ، الآية : ٣٣

(٤) مريم ، الآية : ١٤

(٥) يوسف ، الآية : ٨

فوائد ومفاسد ؛ فنقول : الظاهر من جماعة : تفضيل العزلة على المخالطة مطلقا . والظاهر من الاخرى : عكس ذلك .

نظر الاولين الى اطلاق ما ورد في مدح العزلة ؛ والى فوائدها وما ورد في مدحها ؛ كقول النبي (ص) : « ان الله يحب العبد التقي الخفي » ؛ وقوله (ص) : « أفضل الناس مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله ؛ ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب » ؛ وقوله (ص) لمن سأله عن طريق النجاة : « ليسعك بيتك ، وامسك عليك دينك ، وابك على خطيئتك » ؛ وقول الصادق (ع) : « فسد الزمان ، وتغير الاخوان ؛ وصار الانفراد أسكن للفؤاد » ؛ وقوله (ع) : « أقلل معارفك ؛ وانكر من تعرف منهم » ؛ وقوله (ع) : « صاحب العزلة متحصن بحصن الله تعالى ؛ ومحرس بحراسته ؛ فيأطوبى لمن تفرد به سرا وعلاوية ! وهو يحتاج الى عشر خصال : علم الحق والباطل ؛ وتحبب الفقر ؛ واختيار الشدة ؛ والزهد ؛ واغتنام الخلوة ؛ والنظر في العواقب ؛ ورؤية التقصير في العبادة مع بذل المجهود ؛ وترك العجب ؛ وكثرة الذكر بلا غفلة ؛ فان الغفلة مصطاد الشيطان ورأس كل بلية وسبب كل حجاب ؛ وخلوة البيت عما لا يحتاج اليه في الوقت . قال عيسى بن مريم عليهما السلام : (أخزن لسانك لعمارة قلبك ، وليسعك بيتك ، واحذر من الرياء وفضول معاشك ، واستح من ربك ؛ وابك على خطيئتك وفر من الناس فرارك من الاسد والافعى فانهم كانوا دواء فصاروا اليوم داء ثم الق الله متى شئت) قال ربيع بن خثيم : « ان استطعت ان تكون اليوم في موضع لا تعرف ولا تعرف فافعل ففي العزلة صيانة الجوارح وفراغ القلب وسلامة العيش ، وكسر سلاح الشيطان ، والمجانبة من كل سوء وراحة القلب ؛ وما من نبي ولا وصي الا واختار العزلة في زمانه ؛ اما في ابتدائه واما في انتهائه » (٦)

واما فوائد العزلة ؛ فكالفراغ للعبادة ، والذكر والفكر ، والاستيناس بمناجات الله والاشتغال باستكشاف اسرار الله في ملكوت السماوات والارض

(٦) صححنا هذا القول ، وكذا الحديث السابق ، على «مصباح الشريعة» باب ٢٤ ، وعلى (البحار) : باب العزلة عن شرار الخلق - : مج ١٥ / ٥١ ط أمين الضرب .

والتخلص عن المعاصي التي يتعرض للانسان لها غالبا بالمخالطة : كالفجأة والرياء
وسائر آفات اللسان ومسارقة الطبع الاعمال الخفية ؛ والاخلاق الرديئة من
الناس والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستخلاص من الفتن
والخصومات واطارها أو من شر الناس وايدائهم قولا وفعلا ، وقطع طمعه عن
الناس وقطع طمعهم عنه ، والخلاص من مشاهدة الظلمة ، والفسقة والجهال
والثقلاء والحمقى ؛ ومقاساة اخلاقهم •

ونظر الآخرين - اعني القائلين بتفضيل المخالطة على العزلة - الى
اطلاق الظواهر الواردة في مدح المخالطة والمؤانسة والمؤانسة والى فوائد
أما ماورد في مدحها ؛ كقول النبي (ص) : « المؤمن الف مألوف ولاخير فيمن
لايألف ولايؤلف » وقوله (ص) : « من فارق الجماعة مات ميتة الجاهلية »
وكالأخبار الواردة في ذم الهجرة عن الاخوان ؛ وقوله (ص) : « اياكم والشعاب
وعليكم بالعامية والجماعة والمساجد » •

وأما فوائد المخالطة : كالتعليم والتعلم وكسب الاخلاق الفاضلة من
مجالسة المتصنفين بها واستماع المواعظ والنصائح ونيل الثواب بحضور
الجمعة والجماعة والجنائز وعيادة المرضى وزيارة الاخوان وقضاء حوائج
المحتاجين ورفع الظلم عن المظلومين وادخال السرور على المؤمنين والاستيناس
بالاخوان وباهل الورع والعبادة والتقوى وهو يروح القلب ويهيج داعية النشاط في
العبادة وايصال النفع الى المسلمين بالمال والجاه واللسان واستفادة مزيد
الاجر والثواب بتحصيل المعاش والكد على العيال وارتياض النفس بمقاساة
الناس في تحمل اذاهم ؛ وكسر النفس وشهواتها وادراك صفة التواضع
لتوقفه على معاشره الناس ومخالطتهم وعدم حصوله في الوحدة ؛ واستفادة
التجارب والكياسة في مصالح الدنيا والدين فانها لا تحصل الا من مخالطة
الخلق ومشاهدة مجارى احوالهم • هذه هي فوائد كل من العزلة والمخالطة ؛
وفوائد كل منهما مفاسد وغوائل للآخر • وانت - بعدما عرفت فوائد كل
منهما وغوائله - تعلم ان الحكم بترجيح احدهما على الآخر على الاطلاق
خطأ • كيف يجوز ان يقال : ان العزلة افضل لشخص جاهل لم يتعلم شيئا من اصونه
وفروعه ؛ ولم يقرع سمعه علم الاخلاق ولم يميز بين فضائل الصفات وردائلها

فضلا عن ان تحصل له التخلية والتحلية ومع ذلك يمكن ان يحصل ذلك بالمخالطة مع العلماء واولى الاخلاق الفاضلة؟ وكيف يجوز ان يقال : ان المخالطة افضل لمن حصل مافي وسعه وقدرته من العلم والعمل ؛ ووصل الى مرتبة الابتهاج والالتذاذ بالطاعات والمناجاة ، ولم يترتب على مخالطته مع الناس شيء من الفوائد الدينية والدنيوية ؛ بل تترتب عليه المفسدات الكثيرة ؟ فالصحيح ان يقال : ان الافضلية فيهما تختلف بالنظر الى الاشخاص والاحوال والازمان والامكنة . فينبغي ان ينظر الى كل شخص وحاله ؛ والى خليطه والى باعث مخالطته والى مايحصل بمخالطته من فوائد المخالطة وما يفوت لاجلها من فوائد العزلة ويوازن بين ذلك ؛ حتى يظهر الافضل والارجح . ولاختلاف ذلك في حق الاشخاص بملاحظة الاحوال والفوائد والآفات ؛ ربما يظهر - بعد التأمل - ان الافضل لبعض الخلق العزلة التامة ولبعضهم المخالطة ولبعضهم الاعتدال في العزلة والمخالطة . وبما ذكر يظهر ان الافضل لمن بلغ مقام الانس والاستغراق : الخلوة والعزلة اذ لا ريب في ان المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والانس ؛ ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك . ولذلك كان المحبون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة . قال اويس القرني : « ما كنت ارى احدا يعرف ربه فيأنس بغيره » . وقال بعضهم : « اذا رأيت الصبح ادركني استرجعت كراهية لقاء الناس » . وقال بعضهم : « سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة ربه » وقال بعض الصالحين : « رايت في بعض البلاد عابدا خرج من بعض قتل الجبال ؛ فلما رأى تنحى عنى وتستر بشجرة ؛ فقلت له : سبحان الله ! اتبخل علي بالنظر اليك ؟ فقال : يا هذا ! اني قمت في هذا الجبل دهرا طويلا اعالج قلبي في الصبر عن الدنيا واهلها فطال في ذلك تعبي وفنى فيه عمري ؛ فسألت الله - تعالى - ان يعطيني ذلك فسكن قلبي عن الاضطراب والف الوحدة والافراد ؛ فلما نظرت اليك خفت ان اوقع في الاول فاني اعوذ من شرك برب العالمين وحبيب القاتنين ثم صاح وقال : واغماه من طول المكث في الدنيا ! ثم حول وجهه عنى وقال : سبحان من ذاق قلوب العارفين من لذة الخلوة وحلاوة الاقتران اليه ! ما ألهمى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور

الحسان» . وقال بعض الاكابر : انما يستوحش الانسان من نفسه لخلو ذاته عن الفضيلة فبملاقاة الناس ومخالطتهم يفرح ويترد الوحشة من نفسه فاذا كانت ذاته فاضلة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة ؛ ويستخرج العلم والحكمة» ومن هنا قيل : (الاستيناس بالناس من علامات الافلاس) . فمن تيسر له منزلة بدوام الذكر والانس بالله ، وبدوام الفكر والتحقيق في معرفة الله ، فالتجرد والخلوة أفضل له من كل ما يتعلق بالمخالطة ؛ فان غاية العبادات وثمرتها المجاهدات أن يموت الانسان محباً لله عارفاً بالله ، ولا محبة الا بالانس الحاصل بدوام الذكر ؛ ولا معرفة الا بدوام الفكر ؛ وفراغ القلب شرط لكل منهما ؛ ولا فراغ مع المخالطة .

فان قلت : لا منافاة بين المخالطة مع الناس والانس بالله ؛ ولذا كان الانبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والانس .

قلنا : لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهراً ؛ والاقبال التام على الله سرّاً ؛ الا قوة النبوة . فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه ؛ فيطمع في ذلك . ثم ؛ بما ذكرناه يظهر وجه الجمع بين الاخبار الواردة من الطرفين فان ما ورد في فضيلة العزلة انما هو بالنظر الى بعض الناس ؛ وما ورد في فضيلة المخالطة انما هو بالنظر الى بعض آخر .

ومنها :

السخط

السخط فيما يخالف هواه من الواردات الالهية والتقدير الربانية ، ويرادفه الانكار والاعتراض ، وهو من شعب الكراهة لافعال الله ؛ وهو ينافي الايمان والتوحيد . وما للعبد العاجز الدليل المهين الجاهل بمواقف القضاء والقدر ؛ والغافل عن موارد الحكم والمصالح ، والاعتراض والانكار والسخط لافعال الخالق الحكيم العليم الخبير ، وانى للعبد ألا يرضى بما يرضى به ربه ؛ ولعمري ! أن من يعترض على فعل الله فهو أشد الجهلاء ؛ ومن لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقد ورد في الخبر القدسي : « خلقت الخير والشر ، فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه ، وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه ، وويل ثم ويل لمن قال لم

وكيف ! » • وفي خبر قدسي آخر : « أنا الله لا اله الا أنا ، من لم يصبر على بلائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يرض بقضائي ؛ فليخذ ربا سواي » • وفي مناجاة موسى : « أي رب ! أي خلقك أحب اليك ؟ قال : من اذا أخذت منه المحبوب سامني • قال : فأبي خلقك أنت عليه ساخط ؟ قال : من يستخيرني في الامر ، فاذا قضيت له سخط قضائي » • وفي الخبر القدسي : « قدرت المقادير ، ودبرت التدبير ، وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا مني حين يلقاني ؛ ومن سخط فله السخط مني حين يلقاني » • وقال الباقر (ع) : « من سخط القضاء مضى عليه القضاء ؛ وأحبط الله أجره » • وقال الصادق (ع) : « كيف يكون المؤمن مؤمنا ؛ وهو يسخط قسمته ؛ ويحقر منزلته ؛ والحاكم عليه الله ؛ وأنا الضامن لمن لم يهجمس في قلبه الا الرضا أن يدعو الله فيستجاب له » وفي بعض الاخبار : « ان نبيا من الانبياء شكى الى الله - عز وجل - الجوع والفقر والعري عشرين يوما فما أجيب اليه ؛ ثم أوحى الله - تعالى - اليه : كم تشكوا ؟ وهكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل ان اخلق السماوات والارض ؛ وهكذا سبق لك مني ؛ وهكذا قضيت عليك قبل ان اخلق الدنيا ؛ أفتريد أن أعيد خلق الدنيا من أجلك ؟ أم تريد ان ابدل ما قدرته عليك ، فيكون ما تحب فوق ما احب ، ويكون ما تريد فوق ما اريد ؟ وعزتي وجلالي ! لئن تلجلج هذا في صدرك مرة اخرى ، لامحونك من ديوان النبوة » (٧) • وروي انه : « أوحى الله - تعالى - الى داود (ع) : تريد واريد وانما يكون ما اريد ؛ فان اسلمت لما اريد كفيتك ما تريد ؛ وان لم تسلم لما اريد اتعبتك فيما تريد ثم لا يكون الا ما اريد » (٨) •

وبالجملة : من عرف أن العالم بجميع اجزائه ، من الجواهر والاعراض صادرة عنه على وجه الحكمة والخيرية ، وانها النظام الاصلح الذي لا يتصور

(٧) صححنا هذا الحديث ، وكذا الاخبار القدسية ، السابقة ، على

« احياء العلوم : ٢٩٥/٤ - ٢٩٦

(٨) صححنا هذا الحديث ، وكذا ما روي قبله عن أهل البيت - عليهم

السلام - على « اصول الكافي » : ج ٢ - باب الرضا بالقضاء وعلى (سفينة

البحار) : ٢٢٤/١

فوقه نظام ؛ ولو تغير جزء منه على ما هو اختلت الاصلحية والخيرية ؛ وعرف الله بالربوبية ؛ وعرف نفسه بالعبودية ؛ يعلم أن السخط والاعراض وعدم الرضا بشيء مما يرد ، ويكون غاية الجهل والخطر ، ولذلك لم يكن احد من الانبياء أن يقول قط في أمر : ليت كان كذا ، حتى قال بعض اصحاب النبي (ص) : « خدمت رسول الله (ص) عشر سنين ، فما قال لي لشيء فعلته : لم فعلت ، ولا لشيء لم أفعله لم لم تفعله ؛ ولا قال في شيء كان : ليته لم يكن ؛ ولا في شيء لم يكن : ليته كان ؛ وكان اذا خاصمني مخاصم من أهله ، يقول : دعوه ، لو قضى شيء لكان » * وروى : « أن آدم (ع) كان بعض أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون ، ويجعل أحدهم رجله على اضلاعه كهيئة الدرج ؛ فيصعد الى رأسه ، ثم ينزل على اضلاعه كذلك وهو مطرق الى الارض لا ينطق ، ولا يرفع رأسه ؛ فقال له بعض ولده : ياأبت ! أما ترى ما يصنع هذا بك ؟ لو نهيته عن هذا ، فقال : يا بني ! اني رأيت ما لم تروا ، وعلمت ما لم تعلموا ؛ اني تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار الكرامة الى دار الهوان ؛ ومن دار الشقاء ؛ فاخاف أن اتحرك حركة اخرى فيصيبني مالا أعلم » (٩) *

فصل

الرضا - فضيلة الرضا - رضا الله - رد انكار تحقق الرضا - هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا - طريق تحصيل الرضا - التسليم *

ضد السخط (الرضا) ، وهو ترك الاعتراض والسخط باطنا وظاهرا قولاً وفعلاً ، وهو من ثمرات المحبة ولوازمها ؛ اذ المحب يستحسن كلما يصدر عن محبوبه ، وصاحب الرضا يستوي عنده الفقر والغنى ، والراحة والعناء ، والبقاء والفناء ؛ والعز والذل ، والصحة والمرض ؛ والموت والحياة ولا يرجح بعضها على بعض ، ولا يثقل شيء منها على طبعه ؛ اذ يرى صدور الكل من الله - سبحانه - ، وقد رسخ حبه في قلبه ، بحيث يحب افعاله ، ويرجح على مراده مراده - تعالى - ، فيرضى لكل ما يكون ويرد * وروى : « أن واحدا من ارباب الرضا عمر سبعين سنة ، ولم يقل

في هذه المدة لشيء كان : ليته لم يكن ، ولا لشيء لم يكن : ليته كان .
وقيل لبعضهم : « ما وجدت من آثار الرضا في نفسك ؟ فقال : ما في رائحة
من الرضا ، ومع ذلك لو جعلني الله جسرا على جهنم ، وعبر عليه الاولون
والآخرون من الخلائق ودخلوا الجنة ؛ ثم يلقوني في النار ؛ وملا بي جهنم
لاحببت ذلك من حكمه ، ورضيت به من قسمه ، ولم يختلج بيالي أنه
لم كان كذا ؛ ولت لم يكن كذا ؛ ولم هذا حظي وذاك حظهم » . وصاحب
الرضا أبدا في روح وراحة ؛ وسرور وبهجة ، لانه يشاهد كل شيء بعين
الرضا ، وينظر في كل شيء الى نور الرحمة الالهية ؛ وسر الحكمة الازلية
فكأن كل شيء حصل على وفق مراده وهواه . وفائدة الرضا ، عاجلا ، فراغ
القلب للعبادة والراحة من الهموم ، وآجلا ، رضوان الله والنجاة من غضبه
- تعالى - .

فصل فضيلة الرضا

الرضا بالقضاء افضل مقامات الدين ، وأشرف منزل المقربين ، وهو
باب الله الاعظم ؛ من دخله دخل الجنة . قال الله - سبحانه - :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » (١٠)

وعن النبي (ص) : « أنه سأل طائفة من اصحابه : ما أتمم ؟ فقالوا :
مؤمنون ، فقال : ما علامة ايمانكم ؟ فقالوا : نصبر على البلاء ، ونشكر
عند الرخاء ؛ ونرضى بمواقع القضاء ، فقال : مؤمنون ورب الكعبة ! » ،
وفي خبر آخر ؛ قال : « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا انبياء » .
وقال (ص) : « اذا أحب الله عبدا ابتلاه ، فان صبر اجتباه ، فان رضى
اصطفاه » . وقال (ص) : « اعطوا الله الرضا من قلوبكم ، تظفروا بشواب
فقركم » . وقال (ص) : اذا كان يوم القيامة ، أنبت الله - تعالى -
لطائفه من امتي أجنحة ، فيطيرون من قبورهم الى الجنان ، يسرحون فيها ؛
ويتنعمون فيها كيف شاءوا ، فتقول لهم الملائكة : هل رأيتم الحساب ؟ فيقولون

(١٠) المائدة ، الآية : ١٢٢ . التوبة ، الآية : ١٠١ . المجادلة ، الآية : ٢٢ .

ما رأينا حسابا ، فتقول لهم : هل جزتم الصراط ؟ فيقولون : ما رأينا صراطا ، فتقول لهم : هل رأيتم جهنم ؟ فيقولون : ما رأينا شيئا ، فتقول الملائكة : من أمة من أئتم ؟ فيقولون : من أمة محمد (ص) ، فتقول : ناشدناكم الله ! حدثونا ما كانت اعمالكم في الدنيا ؟ فيقولون : خصلتان كاتتا فينا ، فبلغنا الله هذه المنزلة بفضل رحمته ، فيقولون : وما هما ؟ فيقولون : كنا اذا خلونا نستحي أن نعصيه ؛ ونرضى باليسير مما قسم لنا ، فتقول الملائكة : يحق لكم هذا « . وقال الصادق (ع) : « ان الله بعدله وحكمته وعلمه ، جعل الروح والفرح في اليقين والرضا عن الله - تعالى - . وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » . وروي : « أن موسى (ع) قال : يارب ! دلني على امر فيه رضاك . فقال - تعالى - : ان رضاي في رضاك بقضائي » . وروي : « ان بني اسرائيل قالوا له (ع) : سل لنا ربك امرا اذا نحن فعلناه يرضى عنا ، فقال موسى (ع) : الهي ! قد سمعت ما قالوا ، فقال : يا موسى ! قل لهم يرضون عني حتى ارضى عنهم » (١١) . وقال سيد الساجدين (ع) : « الصبر والرضا رأس طاعة الله ، ومن صبر ورضى عن الله فيما قضى عليه فيما احب او كره ، لم يقض الله - عز وجل - له فيما احب او كره الا ما هو خير له » . وقال - صلوات الله عليه - : « الزهد عشرة اجزاء ، أعلى درجة الزهد أدنى درجة الورع ، وأعلى درجة الورع أدنى درجة اليقين ؛ وأعلى درجة اليقين أدنى درجة الرضا » . وقال الباقر (ع) : « أحق خلق الله ان يسلم لما قضى الله - عز وجل - ، من عرف الله - عز وجل - ومن رضى بالقضاء ، أتى عليه القضاء وعظم الله أجره » . وقال الصادق (ع) : « أعلم الناس بالله ارضاهم بقضاء الله » . وقال (ع) : « قال الله - عز وجل - : عبيد المؤمن ، لا اصرفه في شيء الا جعلته خيرا له ، فليرض بقضائي ؛ وليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي اكتبه يا محمد من الصديقين عندي » . وقال (ع) : « عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله - عز وجل - له قضاء الا كان خيرا له ، ان قرض بالمقاريض كان خيرا له ، وان ملك مشارق الارض ومغاربها كان خيرا له » . وقال (ع) :

« ان فيما أوحى الله - عز وجل - الى موسى بن عمران (ع) : يا موسى ابن عمران ! ما خلقت خلقا أحب الي من عبدي المؤمن ، واني انما ابتليته لما هو خير له ، واعافيه لما هو خير له ؛ وازوي عنه لما هو خير له ، وأنا أعلم بما يصلح عليه عبدي ، فليصبر على بلائي ، وليشكر نعمائي ، وليرض بقضائي ، اكتبه في الصديقين عندي ، اذا عمل برضاي واطاع امري » .
وقيل له (ع) : بأي شيء يعلم المؤمن أنه مؤمن ؟ قال : « بالتسليم لله ، والرضا فيما ورد عليه من سرور أو سخط » . وقال الكاظم (ع) : « ينبغي لمن غفل عن الله ، الا يستبطنه في رزقه ، ولا يتهمه في قضائه » (١٢) .

وصل

رضا الله

قد ظهر من بعض الاخبار المذكورة : أن رضا الله - سبحانه - من العبد يتوقف على رضا العبد عنه - تعالى - ، فمن فوائد رضا العبد بقضاء الله وثمراته رضا الله - سبحانه - عنه ، وهو اعظم السعادات في الدارين ، وليس في الجنة نعيم فوقه ، كما قال - سبحانه - :
« ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر » (١٣)

وفي الحديث : « ان الله يتجلى للمؤمنين في الجنة ، فيقول لهم : سلوني فيقولون : رضاك يا ربنا ! » ، فسؤالهم الرضا بعد التجلي ، يدل على أنه أفضل كل شيء . وورد في تفسير قوله - تعالى - : « ولدينا مزيد » : انه يؤتي لاهل الجنة في وقت المزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين ليس في الجنان مثلها :

احداها : هداية الله ، ليس عندهم في الجنان مثلها ، وذلك قوله تعالى :
« فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين » (١٤)

والثانية : السلام عليهم من ربهم ، فتزيد ذلك على الهداية ، وهو

(١٢) صححنا الاحاديث على « اصول الكافي » ج ٢ - باب الرضا بالقضاء

وعلى « سفينة البحار » : ٥٢٤/١ .

(١٣) التوبة ، الآية : ٧٣

(١٤) السجدة ، الآية : ١٧

قوله - تعالى - :

« سلام قولا من رب رحيم » (١٥)

والثالثة : يقول الله - تعالى - : « اني عنكم راض » ، وهو أفضل من الهدية والتسليم ، وذلك قوله - تعالى - :

« ورضوان من الله أكبر » (١٦) :

أي من النعيم الذي هم فيه •

ومعنى رضا الله عن العبد قريب من معنى حبه له ، الا انه في الآخرة سبب لدوام النظر والتجلي في غاية ما يتصور من اللقاء والمشاهدة • ولهذا ليست رتبة في الجنة فوقه • ويروه أهل الجنة اقصى الاماني ، وغاية الغايات •

فصل

رد انكار تحقق الرضا

من الناس من انكر امكان تحقق الرضا في انواع البلاء وفيما يخالف الهوى ، وقال المتمكن فيهما : هو الصبر دون الرضا ، وهو انما اتى من ناحية انكار المحبة ، اذ بعد ثبوت امكان الحب لله واستغراق الهم به لا يخفى ايجابه للرضا بافعال المحبوب • وذلك يكون من وجهين :

احدهما - ان يوجب الاستغراق في الحب ابطال الاحساس بالألم ، حتى يجرى عليه المؤلم ولا يحس به ، وتصيبه جراحة ولا يدرك المما • ولا تستبعدن ذلك ، فان المحارب عند خوضه في الحرب ، وعند شدة غضبه أو خوفه ، قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها ، فاذا رأى الدم استدل به على الجراحة ، بل الذي يعدو في شغل مهم قد تصيبه شوكة في قدمه ، ولا يحس بألمها لشغل قلبه • والسر : ان القلب اذا صار مستغرقا بامر من الامور ، لم يدرك ما عداه • فالعشق المستغرق الهم بمشاهدة المعشوق أو بحبه ، قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم ، لولا عشقه ، ولا يدرك المله وغمه لاستيلاء الحب على قلبه ، وهذا اذا اصابه من غير حبيبه ، فكيف اذا اصابه من حبيبه •

(١٥) يس ، الآية : ٥٨

(١٦) التوبة ، الآية ٧٣

ولا ريب في أن حب الله - تعالى - اشد من كل حب ، وشغل القلب به اعظم الشواغل ، اذ جمال الحضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ، فمن ينكشف له شيء منها ، فقد يبهره بحيث يدهش ويغشى عليه ، ولا يحس بما يجري عليه .

وثانيهما - الا - يبلغ الاستغراق في الحب بحيث لا يحس بالالام ولا يدركه ، ولكن يكون راضيا به ، بل راغبا فيه ، مريدا له بعقله ، وان كان كارها له بطبعه ، كالذى يلتبس من الفصاد الفصد والحجامة ، فانه يدرك ألمه ، الا انه راض به وراغب فيه . فالمحب الخالص لله ، اذا اصابته بلية من الله ، وكان على يقين بأن ثوابها الذي ادخر له فوق مافاته ، رضى بها ورغب فيها ، واحبها وشكر الله عليها . هذا ان كان نظره الى الثواب والاجر الذي يجازى به على ابتلائه بالمصائب والبلايا ، وربما غلب الحب بحيث يكون حظ المحب ولذته وابتهاجه في مراد حبيبه ورضاه لا لمعنى آخر فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوبا عنده ومطلوبا ، وكل ذلك مشاهد محسوس في حب الخلق ، فضلا عن حب الخالق والجمال الازلي الابدی الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعترىها الغلط والخطأ ، فان القلوب اذا وقفت بين جماله وجلاله ، فاذا لاحظوا جلالة هابوا ، واذا لاحظوا جماله تاهوا ويشهد بذلك حكايات المحبين ، على ماهو في الكتب مسطور ، وفي الالسنه والافواه مذكور . فان للحب عجائب ، من لم يذق طعمها لا يعرفها . وقد روينا : ان اهل مصر مكثوا اربعة اشهر لم يكن لهم غذاء الا النظر الى وجه يوسف الصديق (ع) ، كانوا اذا جاءوا نظروا الى وجهه ، فشغلهم جماله عن الاحساس بالهم الجوع . بل في القرآن ماهو ابلغ من ذلك ، وهو قطع النسوة ايديهن لامستهارهن بملاحظة جماله ، حتى ما احسسن بذلك . وروي « ان عيسى (ع) مرّ برجل اعمى وابصر ، مقعد مفلوج ، وقد تناثر لحمه من الجذام ، وهو يقول : الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيرا من الناس فقال عيسى : يا هذا ! أى شيء من البلاء تراه مصروفا عنك ؟ فقال : يا روح الله ! انا خير ممن لم يجعل الله في قلبه ما جعل في قلبي من معرفة ، فقال : صدقت ! هات يدك ، فناوله يده ، فاذا هو احسن الناس وجها ، وافضلهم

هيئة ، قد أذهب الله عنه ما كان به ، وصحب عيسى وتعبده به » •

فصل

هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا

اعلم ان الدعاء غير مناقض للرضا ، وكذلك كراهية المعاصي ، ومقت
اهلها ، وحسم اسبابها ، والسعي في ازالتها بالامر بالمعروف والنهي عن
المنكر ، والخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي • وقد زعمت طائفة من اهل
البطالة والغرور : ان جميع ذلك يخالف الرضا ، اذ كل ما يقصد رده بالدعاء
وانواع المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره ، فيجب للمؤمن أن
يرضى به • وقد رأوا السكوت على المنكرات مقاما من مقامات الرضا ، وسموه
حسن الخلق ، وهذا جهل بالتأويل ، وغفلة عن اسرار الشريعة ودقائقها •
اما الدعاء ، فلا ريب في اننا قد تعبنا به ، وقد كثرت ادعية الانبياء
والائمة ، وكانوا على أعلى مقامات الرضا ، وتظاهرت الآيات ، وتواترت
الاخبار في الامر بالدعاء وفوائده وعظم مدحه ، واثنى الله - سبحانه - على
عباده الداعين ، حيث قال :

« ويدعوننا رغبا ورهبا » (١٧) • وقال « ادعوني استجب لكم » (١٧) •

وقال : « أجيب دعوة الداع اذا دعان » (١٩) •

وهو يوجب صفاء الباطن ، وخشوع القلب ، ورقرة النظر ، وتنوير
النفس وتجليها • وقد جعله الله - تعالى - مفتاحا للكشف ، وسببا لتواتر
مزايا اللطف والاحسان • وهو اقوى الاسباب لافاضة الخيرات والبركات
من المبادي العالية •

فان قيل : ما يرد على العبد من المكاره والبلايا يكون بقضاء الله
وقدره ، والآيات والاخبار ناطقة بالرضا بقضاء الله مطلقا ، فالتشمر لرده
بالدعاء يناقض الرضا •

قلنا : ان الله - سبحانه - بعظيم حكمته ، أوجد الاشياء على التسبيب

(١٧) الانبياء ، الآية : ٩٠

(١٨) المؤمن ، الآية : ٦٠

(١٩) البقرة الآية : ١٨٦

والترتيب بينهما فربط المسببات بالاسباب ، ورتب بعضها على بعض ،
وجعل بعضها سببا وواسطة لبعض آخر ، وهو مسبب الاسباب . والقادر
عبارة عن حصول الموجودات في الخارج من اسبابها المعينة بحسب اوقاتها ،
مطابقة لما في القضاء ، والقضاء عبارة عن ثبوت صور جميع الاشياء في العالم
العقلي على الوجه الكلي ، مطابقة لما في العناية الالهية المسماة بالعناية الاولى
والعناية عبارة عن احاطة علم الله - تعالى - بالكل على ما هو عليه احاطة تامة
فنسبة القضاء الى العناية كنسبة القدر الى القضاء . ثم ، من جملة الاسباب
لبعض الامور الدعاء والتصديق وأمثالهما . فكما أن شرب الماء سبب رتبه
مسبب الاسباب لازالة العطش ، ولو لم يشربه لكان عطشه باقيا الى ان
يؤدي الى هلاكه ، وشرب المسهل سبب لدفع الاخلاق الردية ، ولو لم يشربه
لبقيت على حالها ، وهكذا في سائر الاسباب ، وكذلك الدعاء سبب رتبه
الله - تعالى - لدفع البلايا ورفعها ، ولو لم يدع لنزل البلاء ولم يندفع .
فلو قيل : لو كان في علم الله - تعالى - وفي قضائه السابق ، أن
زيدا - مثلا - يدعو الله ، أو يتصدق ، عند ابتلائه ببليّة كذا ، وتندفع
به بليته الدعاء أو تصدق ، ودفع بليته ، ولو كان فيهما أنه لا يدعو الله ولا
يتصدق ويبتلي بتلك البلية ، لم يدع الله ولم يتصدق ، ولم تندفع عنه
البلية . والحاصل : ان كل ما تعلق به العناية الكلية والقضاء الازلي يحصل
مقتضاه في الخارج وعالم التقدير ، ان خيرا فخير ، وان شرا فشر ، فأى فائدة
في سعي العبد واجتهاده ؟

قلنا : هذه من جملة شبهات الجبرية على كون العبد مجبورا في فعله
ونفي الاختيار عنه ، ولا مدخلية لها بكون الدعاء غير مناقض للرضا ، وكونه
من جملة الاسباب المرتبة منه - تعالى - لحصول مسبباتها ، كالترجيع
لتحصيل الولد ، والاكل والشرب لدفع الجوع والعطش ، ولبس الثياب
لدفع الحر والبرد ، وغير ذلك . ثم الجواب من الشبهة المذكورة وأمثالها
مذكور في موضعها .

وأما افكار المعاصي وكراحتها ، والفرار من أهلها ومن البلد الذي
شاعت فيه ، فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا بها ، فقال :

((ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها)) (٢٠) • وقال : ((رضوا بان يكونوا
مع الخوائف وطبع الله على قلوبهم)) (٢١)

وفي بعض الاخبار : ((من شهد منكرا ورضى به فكأنه قد فعله)) •
وفي آخر : ((لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب ، كان
شريكا في قتله)) • وفي آخر : ((ان العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه
مثل وزر صاحبه)) ، قيل وكيف ذلك ؟ قال ((فيبلغه فيرضى به)) •
وأما بعض الكفار والفجار والفساق ، ومقتهم والانكار عليهم ، فما
ورد فيه من شواهد الكتاب والسنة أكثر من أن يحصى • قال الله سبحانه:
((لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء)) (٢٢) • وقال ((بإيها الذين آمنوا
لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء)) (٢٣) •

وفي الخبر : ((ان الله أخذ الميثاق على كل مؤمن ان يبغض كل منافق)) •
وقال (ص) : ((أوثق عرى الايمان الحب في الله والبغض في الله)) • وقد
تقدمت جملة من شواهد هذا في باب الحب في الله والبغض في الله •
فان قيل : المعاصي ان لم تكن بقضاء الله وقدره فهو محال وقادح في
التوحيد ، وان كانت بقضاء الله مطلقا فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله •
والآيات والاخبار مصرحة بوجوب الرضا بقضاء الله مطلقا ، وذلك تناقض ،
فكيف السبيل الى الجمع ؟ وأنى يتأتى الجمع بين الرضا والكراهة في
شيء واحد ؟

قلنا : المقرر عند بعض الحكماء : أن الشرور الواقعة في العالم ، من
المعاصي وغيرها ، راجعة الى الاعدام دون الموجودات ، فلا تكون مرادة
له - تعالى - ، ولا داخلة في قضائه ، وعند بعضهم أنها داخلة في قضائه
بالعرض لا بالذات ، ولا ضير في كراهة ما ليس في قضاء الله - تعالى -
بالذات • وعند بعضهم : أنها شرور قليلة باعثة لخيرات كثيرة • وعلى هذا

(٢٠) يونس ، الآية : ٧ •

(٢١) التوبة ، الآية ٨٨ ، ٩٤

(٢٢) آل عمران ، الآية : ٢٨

(٢٣) المائدة ، الآية : ٥٤

فينبغي أن تكون مكروهة من حيث ذاتها ، وبهذه الحيشية لا تكون من قضاء الله والرضا به ، وفرضه من حيث كونها باعثة لخيرات كثيرة . والتحقيق : أن الاوصاف الثلاثة ثابتة للشروع الواقعة في العالم ، أعني أنها راجعة الى الاعدام وداخله في قضائه - تعالى - بالعرض ، وشروع قليلة باعثة لخيرات كثيرة . وعلى هذا فوجه الجمع اظهر . ثم لابي حامد الغزالي هنا وجه جمع آخر ، لا يروي الغليل ولا يشفي العليل .

فان قيل : بغض أهل المعاصي ومقتنهم موقوف على ثبوت الاختيار لهم وتمكنهم من تركها ، واثبات ذلك مشكل .

قلنا : لا اشكال فيه ، اذ البديهة قاضية بثبوت نوع اختيار للعباد في افعالهم ، لا سيما فيما يتعلق به التكليف والخوض في هذه المسألة مما لا ينبغي . فالاولى فيها السكوت ، والتأدب بأداب الشرع ، والرجوع الى ما ورد من العترة الطاهرة . وما يمكن أن يقال فيها قد ذكرناه في كتابنا المسمى بـ (جامع الافكار) .

فصل

طريق تحصيل الرضا

الطريق الى تحصيل الرضا ، أن يعلم أن ما قضى الله - سبحانه - له هو الاصلح بحاله ، وان لم يبلغ فهمه الى سيره فيه . مع أن السخط والكراهة لا يفيد شيئاً ولا يتبدل به القضاء . فان ما قدر يكون ، وما لم يقدر لم يكن ، وحسرة الماضي وتديبير الآتي يذهبان بتركة الوقت بلا فائدة ، وتبقى تبعة السخط عليه . فينبغي أن يدهشه الحب لخالقه عن الاحساس بالالم ، كما للعاشق ، وأن يهون عليه العلم بعظم التعب والعناء - كما للمريض والتاجر المتحملين شدة الحجامة والسفر - فيغوض امره الى الله ، ان الله بصير بالعباد .

تتميم التسليم

أعلم أن التسليم ، ويسمى تفويضاً أيضاً ، قريب من الرضا ، بن هو فوق الرضا ، لانه عبارة عن ترك الاعراض في الامور الواردة عليه ، وحوالتها

بأسرها الى الله ، مع قطع تعلقه عليها بالكلية ، بمعنى ألا يكون طبعه متعلقا بشيء منها • فهو فوق الرضا ، اذ في مرتبة الرضا اكلما يفعل الله به يوافق طبعه ، فالطبع ملحوظ ومنظور له ، وفي مرتبة التسليم يجعل الطبع وموافقته ومخالفته كلها موكولة الى الله - سبحانه - ، وفوق مرتبة التوكل أيضا ، اذ التوكل - كما يأتي - عبارة عن الاعتماد في اموره على الله ، فهو بمنزلة توكيل الله في اموره ، وكأنه يجعل الله - تعالى - بمثابة وكيله ، فيكون تعلقه باموره باقيا ، وفي مرتبة التسليم يقطع العلاقة من الامور المتعلقة به بالكلية .
ومنها :

الحزن

وهو التحسر والتألم ، لفقد محبوب ، أو فوت مطلوب . وهو أيضا ، كالاعتراض والانكار ، ومرتب على الكراهة للمقدرات الالهية •
والفرق : ان الكراهة في الاعتراض أشد من الكراهة في الحزن ، كما أن ضد الكراهة - أعني الحب في ضدهما - بعكس ذلك ، أي ظهوره في السرور الذي ضد الحزن اشد من ظهوره في الرضا الذي هو ضد الاعتراض • فان الرضا هو منع النفس في الواردات من الجزع مع عدم كراهة وفرح ، والسرور هو منعها فيها عن الجزع مع الابتهاج والانبساط • فالسرور فوق الرضا في الشرافة ، كما أن الحزن تحت الاعتراض في الخسة والردالة ، وسبب الحزن وشدة الرغبة في المشتبهات الطبيعية ، والميل الى مقتضيات قوتي الغضب والشهوة ، وتوقع البقاء للامور الجسمائية • وعلاجه : ان يعلم ان مافي عالم الكون والفساد من : الحيوان ، والنبات ، والجماد ، والعروض ، والاموال ، في معرض الفناء والزوال ، وليس فيها ما يقبل البقاء وما يبقى ويدوم هو الامور العقلية ، والكمالات النفسية المتعالية عن حيطة الزمان وحوزة المكان وتصرف الاضداد وتطرق الفساد • واذا تيقن بذلك زالت عن نفسه الخيالات الفاسدة ، والاماني الباطلة • فلا يتعلق قلبه بالاسباب الدنيوية ، ويتوجه بشرائه الى تحصيل الكمالات العقلية ، والسعادات الحقيقية الموجبة للاتصال بالجواهر النورية الباقية ، والمجاورة للانوار القادسة الثابتة ، فيصل الى مقام البهجة والسرور ، ولا تلحقه احزان

عالم الزور ، كما اشير اليه في الكتاب الالهي بقوله :

((ألا ان اولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون)) (٢٤)

وفي أخبار داود (ع) : « يا داود ! ما لاوليائي والهم بالدنيا ؟ ان الهم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم ، ان محبي من اوليائي أن يكونوا روحانيين لا يغتمون » . والحاصل : أن حب الفانيات والتعلق بما من شأنه الفوات خلاف مقتضى العقل ، وحرام على العاقل أن يفرح بوجود الامور الفانية ، أو يحزن بزوالها . ولقد قال سيد الاوصياء - عليه آلاف التحية والثناء - : « مالعليّ وزينة الدنيا؟ وكيف افرح بلذة تقنى ، ونعيم لا يبقى؟! » . بل ينبغي ان يرضى نفسه بالموجود ، ولا يغتم بالمفقود ، ويكون راضيا بما يرد عليه من خير وشر . وقد ورد في الآثار : « ان الله - تعالى - بحكمته وجلاله ، جعل الروح والفرح في الرضا واليقين » ، ومن رضى بالموجود ولا يحزن بالمفقود ، فقد فاز بأمن «لا فزع» ، وسرور بلا جزع ، وفرح بلا حسرة ، ويقين بلا حيرة ، وما لطالب السعادة أن يكون أدون حالا من سائر طبقات الناس ، فان كل حزب بما لديهم فرحون ، كالتاجر بالتجارة ، والزارع بالزراعة ، بل الشاطر بالشطارة ، والقواد بالقيادة ، مع أن ما هو السبب والموجب المفرح في الواقع ونفس الامر ليس الا لاهل السعادة والكمال وما لغيرهم محض التوهم ومجرد الخيال . فينبغي لطالب السعادة أن يكون فرحانا بما عنده من الكمالات الحقيقية ، والسعادات الابدية ، ولا يحزن على فقد الزخارف الدنيوية ، والحطام الطبيعية ، ويتذكر ما خاطب الله به نبيه (ص) :

((ولا تمدن عينيك الى مامتعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم

فيه ورزق ربك خير وأبقى)) (٢٥)

ومن تصفح فرق الناس ، يجد أن كل فرقة منهم فرحهم بشيء من الاشياء ، وبه اهتزازهم وقوامهم ونظام أمرهم . فالصبيان فرحهم باللعب وتهية اسبابه ، وهو في غاية القبح والركاكة عند من جاوز مرتبتهم . وبالغون

(٢٤) يونس ، الآية : ٦٢ .

(٢٥) طه ، الآية : ١٣١ .

حد الرجولية ، بعضهم فرحان بالدرهم والدينار ، وبعضهم بالضياح والعقار
وآخر بالاتباع والانصار ، وفرقة بالنسوان والاولاد ، وطائفة بالحرف
والصنایع ، وبعضهم بالحسب والنسب ، والآخر بالجاه والمنصب ، وبعضهم
بالقوة الجسمانية ، وآخر بالجمال الصوري ، وطائفة بالكلمات الدنيوية :
كالخط ، والشعر ، وحسن الصوت ، والطب ، والعلوم الغريبة ، وغير
ذلك ؛ حتى ينتهي الى من لا يفرح الا بالكلمات النفسية والرياسات المعنوية
وهم أيضا مختلفون ، فبعضهم غاية فرحه بالعبادة والمناجاة ، وآخر بمعرفة
حقائق الاشياء ، حتى يصل الى من ليس فرحه الا بالانس بحضرة
الربوبية ، والاستغراق في لجة أنواره ، وسائر المراتب عنده فيء زائل
وخيال باطل . ولا ريب في أن العاقل يعلم أن ما ينبغي أن يفرح ويتنمج به
حصول هذه المرتبة وسائر الامور ، كسراب بقيعة يحسبه الظمان ماء . فلا
ينبغي للعاقل ان يحزن بفقدها ويفرح بوجودها . ثم ، من تأمل ، يجد أن
الحزن ليس أمرا وجوديا لازما ، بل هو أمر اختياري يحدثه الشخص في نفسه
بسوء اختياره . اذ كلما يفقد من شخص ويحزن لاجله ليس موجودا لكثير
من الناس ، بل ربما لم يملكوه في مدة عمرهم أصلا ، ومع ذلك لا تجدهم
محزونين على عدمه ، بل فرحون راضون ، ولو كان الحزن لازما لفقد هذا
الامر ، لكان كل من فقده محزونا ، وليس كذلك . وايضا كل حزن يعرض
لاجل مصيبته يزول بعد زمان ويتبدل بالسرور ، ولو كان الحزن لاجلها أمرا
ضروريا لازما لما زال أصلا .

ثم العجب من العاقل أن يحزن من فقد الامور الدنيوية ، مع أنه
يعلم أن الدنيا دار فناء ، وزخارفها متنقلة بين الناس ، ولا يمكن بقاءها
لأحد ، وجميع الاسباب الدنيوية ودائع الله ينتقل الى الناس على سبيل
التبادل والتناوب . ومثلها مثل شمامة تدار في مجلس بين أهله على التناوب ،
يتمتع بها في كل لحظة واحد منهم ، ثم يعطيها غيره . فطامع البقاء للحطام
الدنيوية كمن طمع في ملكية الشمامة واختصاصها به ، اذا وصلت اليه نوبة
الاستمتاع ، واذا استردت منه عرض له الحزن والخجلة . وما المال
والاهلون الا ودايع ، ولا بد يوما أن ترد الودائع . فلا ينبغي للعاقل أن

يغتم ويحزن لاجل رد الوديعة ، كيف والحزن بردها كفران للنعمة ؟ اذ أقل مراتب الشكر أن ترد الوديعة الى صاحبها على طيب النفس ، لا سيما اذا استرد الاخس — أعني الخبائث الدنيوية — ، وبقي الاشرف — اعني النفس وكمالاتها العلمية والعملية — ، فينبغي لكل عاقل ألا يعلق قلبه بالامور الفانية ، حتى لا يحزن بفقدائها . قال سقراط : « اني لم أحزن قط ، اذ ما احببت قط شيئاً حتى أحزن بفوته ، ومن سره ألا يرى ما يسوؤه ، فلا يتخذ شيئاً يخاف له فقدا » .
ومنها :

عدم الاعتماد

أو ضعفه في اموره على الله ، والوثوق بالوسائط ، والنظر اليها فيها .
وسببه : اما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، أو كلاهما . فهو من رذائل الايمان ، بل هو من شعب الشرك . ولذا ورد في ذمه من الآيات والاحبار ما ورد ، قال الله — سبحانه — :

« ان الذين تدعون من دون الله عبادا أمثالكم » (٢٦) وقال : « ان الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه » (٢٧)
وقال : « ولله خزائن السموات والارض ولكن المنافقين لا يفقهون » (٢٨) .

وفي اخبار داود (ع) : « ما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي عرفت ذلك من نيته ، الا قطعت اسباب السموات من يديه ، واسخطت الارض من تحته ، ولم ابال بأي واد هلك » . قال رسول الله (ص) : « من اغتر بالعبيد أذله الله » . وقيل « مكتوب في التوراة : ملعون من ثقته بانسان مثله » . فينبغي للمؤمن أن يتخلى عنه باكتساب ضده ، أعني التوكل ، كما يأتي .

وصل

التوكل — فضيلة التوكل — درجات للتوكل — السعي لاينافي التوكل —
الاسباب التي لاينافي السعي اليها التوكل — اعقل وتوكل — درجات الناس

(٢٦) الاعراف ، الآية : ١٩٣

(٨) المنافقون ، الآية : ٧ .

(٢٧) العنكبوت ، الآية : ١٧ .

في التوكل - تفنيد زعم - طريق تحصيل التوكل .

التوكل اعتماد القلب في جميع الامور على الله ، وبعبارة اخرى :
حوالة العبد جميع أموره على الله ، وبعبارة اخرى : هو التبري من كل حول
وقوة ، والاعتماد على حول الله وقوته . وهو موقوف على أن يعتقد اعتقادا
جازما بأنه لا فاعل الا الله ، وأنه لا حول ولا قوة الا بالله وأن له تمام
العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملته
العباد والآحاد ، وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه
علم ، ولا وراء منتهى عنايته عناية . فمن اعتقد ذلك اتكل قلبه لا محالة
على الله وحده ، ولم يلتفت الى غيره ، ولا الى نفسه اصلا . ومن لم
يجد ذلك من نفسه ، فسببه اما ضعف اليقين ، أو ضعف القلب ، ومرضه
باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الاوهام الغالبة عليه . فان القلب
الضعيف ينزعج تبعا للوهم ، وطاعة له من غير نقصان في اليقين ، كانزعاجه
أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش ، مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور
منه اضرار ، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر عنه ، كما لا يفر من سائر الجمادات .
وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل - مثلا - ، فشبه العسل بين
يديه بالعدرة ، فربما نفر طبعه لضعف قلبه ، وتعذر عليه أن يتناوله ، مع
يقينه بأنه عسل ولا مدخلة للعدر فيه . فالتوكل لا يتم الا بقوة اليقين وقوة
القلب جميعا ، اذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته . فالسكون في القلب
شيء آخر ، واليقين شيء آخر . فكم من يقين لا طمأنينة معه ، كما قال تعالى :

« أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي » (٢٩) .

فالتمس أن يشاهد احياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله ، فان
النفس تتبع الخيال وتطمئن به ، ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمره الى أن
تبلغ درجة النفس المطمئنة ، وذلك لا يكون في البداية . وكم من مطمئن
لا يقين له ، كأرياب الملل والمذاهب الباطلة . فان اليهودي مطمئن القلب الى
تهوده ، وكذا النصراني ، ولا يقين لهما أصلا ، وانما يتبعون الظن وما

تهوى الانفس . واذا توقف التوكل على اليقين وقوة القلب ، وارتفع بضعف احدهما ، يظهر أن التوكل من الفضائل المتعلقة بقوتي العاقلة والغضبية معا ، وضده . اعني عدم التوكل - من رذائل احدهما أو كليهما . ثم ، انك قد عرفت في باب التوحيد ، أن عماد التوكل وما يبتني عليه ، عليه هو المرتبة الثالثة من التوحيد ، وهي أن ينكشف للعبد باسراق نور الحق ، بأنه لا فاعل الا هو ، وان ما عداه من الاسباب والوسائط مسخرات مقهورات تحت قدرته الازلية . فطالب التوكل يلزم عليه أن يحصل هذه المرتبة من التوحيد ليحصل له التوكل . وقد عرفت - ايضا - أن المرتبة الثانية منه - اعني التوحيد الاعتقادي - اذا قويت ربما اورثت حال التوكل ، الا أن التوكل كما ينبغي موقوف على المرتبة الثالثة منه .

فصل

فضيلة التوكل

التوكل منزل من منازل السالكين ومقام من مقامات الموحدين ، بل هو أفضل درجات الموقنين . ولذا ورد في مدحه وفضله وفي الترغيب فيه ما ورد من الكتاب والسنة ، قال الله - تعالى - :

« وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين » (٣٠)

وقال : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » (٣١) . وقال : « ان الله يحب المتوكلين » (٣٢) . وقال : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٣٣) . وقال : « ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم » (٣٤) :

أي عزيز لا يذل من استجار به ، فلا يضع من لاذ بجنايه ، وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره . وقال رسول الله (ص) : « من انقطع الى الله ، كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب . ومن انقطع الى الدنيا ، وكله الله اليها » . وقال (ص) : « من سره أن يكون

(٣٠) المائدة ، الآية : ٢٦

(٣١) آل عمران ، الآية : ١٢٢ ، ١٦٠ ، المائدة الآية : ١٢ ، التوبة ، الآية ٥٢ ابراهيم ، ابراهيم ، الآية : ١.١ المجادلة ، الآية ١٠ التغابن الآية : ١٣ .

(٣٢) آل عمران ، الآية : ١٥٩

(٣٣) الطلاق ، الآية : ٣

(٣٤) الانفعال ، الآية : ٥٠

أغنى الناس ، فليكن بما عند الله اوثق منه بما في يده » . وقال (ص) : « لو
أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقتم كما ترزق الطيور تغدو خصاصا
وتروح بطانا » . وعن علي بن الحسين - عليهما السلام - قال : « خرجت
حتى اتهمت الى هذا الحائط ، فاتكأت عليه ، فاذا رجل عليه ثوبان ابيضان
ينظر في تجاه وجهي ، ثم قال : يا علي بن الحسين ! مالي أراك كئيبا حزينا؟
أعلى الدنيا ؟ فرزق الله حاضر للبر والفاجر . قلت : ما على هذا أحزن ،
وانه لكما تقول . قال : فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر
قادر . قلت : ما على هذا أحزن ، وانه لكما تقول . فقال : مهم حزنك ؟
قلت مما تتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس . قال : فضحك ، ثم قال :
يا علي بن الحسين ! هل رأيت احدا دعا الله فلم يجبه ؟ قلت : لا ! قال : فهل
رأيت احدا توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت : لا ! قال : فهل رأيت احدا
سأل الله فلم يعطه ؟ قلت : لا ! . . . ثم غاب عني » ، ولعل الرجل كان
هو الخضر - على نبينا وعليه السلام - وقال الصادق (ع) : « اوحى الله
الى دواد : ما اعتصم بى عبد من عبادى دون أحد من خلقى ، عرفت ذلك
من نيته ، ثم تكيده السماوات والارض ومن فيهن ، الا جعلت له المخرج
من بينهن » . وقال (ع) : « ان الغنى والعز يجولان ، فاذا ظفرا بموضع التوكل
اوطنا » وقال (ع) : « من اعطى ثلاثا لا يمنع ثلاثا : من اعطى الدعاء اعلى
الاجابة ، ومن اعطى الشكر اعطى الزيادة ، ومن اعطى التوكل اعطى الكفاية
ثم قال : أتلوت كتاب الله - عزوجل - (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)
وقال : (ولئن شكرتم لأزيدنكم) ، وقال : (ادعوني استجب لكم) ؟ »
وقال (ع) : « ايما عبد أقبل قبل ما يحب الله - تعالى - اقبل الله قبل ما يحب
ومن اعتصم بالله عصمه الله ، ومن اقبل الله قبله وعصمه ، لم يبال لو سقطت
السما على الارض ، أو كانت نازلة نزلت على أهل الارض فتشملهم بلية ،
كان في حزب الله بالتقوى من كل بلية ، أليس - تعالى - يقول : (ان
المتقين في مقام امين) ؟ » . وقال (ع) « ان الله - تعالى - يقول : وعزتي
وجلالتي ومجدي وارتفاعي على عرشى ! لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس
في غيرى باليأس ، ولا كسونه ثوب المذلة عند الناس ، ولأفحينه من قربى

ولا بعدنه من وصلي ، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ؟ ويرجو غيري ؟ ويقرع بالفكر باب غيري ، وييدي مفاتيح الابواب وهي مغلقة ؟ وبابى مفتوح لمن دعائى ، فمن ذا الذى املنى لنوائبه فقطعته دونها ، ومن ذا الذى رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني ؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة ، فلم يرضوا بحفظي ، وملاأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي ، وأمرتهم ألا يغلقوا الابواب بينى وبين عبادى ، فلم يثقوا بقولي ، ألم يعلم من طرفته نائبة من نوائبى أنه لا يملك كشفها احد غيرى الا من بعد اذنى ؟ فما لي اراه لاهيا عنى ؟ اعطيته بجودى مالم يسألنى ، ثم اتزعته عنه فلم يسألنى رده ، وسأل غيرى ، أفترانى ابدأ بالعطاء قبل المسألة ؟ ثم اسأل فلا اجيب سألنى ؟ أبخيل أنا فيبخلنى عبادى ؟ اوليس الجود والكرم لى ؟ اوليس العفو والرحمة بيدي ؟ اولست أنا محل الآمال ؟ فمن يقطعها دونى ؟ أفلا يخشى المؤمنون ان يؤملوا غيرى ؟ فلو ان اهل سماواتى واهل ارضى أملوا جميعا ، ثم اعطيت كل واحد منهم مثل ماامل الجميع ، ما اقتقص من ملكى مثل عضو ذرة ، وكيف ينقص ملك انا قيمه ؟ فيا بؤسا للقائين من رحمتى ! ويا بؤسا لمن عصانى ولم يراقبنى ! (٣٥)

فصل

درجات التوكل

للتوكل في الضعف والقوة ثلاث درجات :

الاول - ان يكون حاله في حق الله والثقة بعنايته وكفالته كحالها بالثقة بالوكيل ، وهذه اضعف الدرجات ، ويكثر وقوعها ويدوم مدة مديدة ، ولا ينافي اصل التدبير والاختيار ، بل ربما زاوّل كثيرا من التدبيرات بسعيه واختياره . نعم ينافي بعض التدبيرات ، كالتوكل على وكيله في الخصومة ، فانه يترك تدبيره من غير جهة الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار اليه

(٣٥) صححنا الاحاديث على « اصول الكافي » : ج ٢ ، باب التفويض الى الله والتوكل عليه وعلى « البحار » : باب التوكل والتفويض والرضا : مج ١٥ / ٢ ، ط « امين الضرب » . وللعلامة (المجلسى) - قدس سره - في الموضوع المذكور ، في الحديث الخامس ، تحقيق دقيق وبيان لطيف ، لايسع المقام ذكره هنا ، فمن اراد الوقوف عليه ، فعليه بمراجعة الموضوع المذكور .

وكيله ، ولا التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته دون تصريح اشارته •
الثانية - ان تكون حاله مع الله كحال الطفل مع امه ، فانه لا يعرف غيرها ، ولا يفرع الا اليها ، ولا يعتمد الا عليها • فان رآها تعلق في كل حال بذيلها ، وان ورد عليه امر في غيبتها كان اول سابق لسانه يا امه ! • والفرق بين هذا وسابقه ، ان هذا متوكل قد فنى في موكله عن توكله ، اى ليس يلتفت قلبه الى التوكل ، بل التفاته انما هو الى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه • واما الاول فتوكل بالكسب والتكلف ، وليس فانيا عن توكله ، اى له التفات الى توكله ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده • وهذا أقل وقوعا ودواما من الاول اذ حصوله انما هو للخواص ، وغاية دوامه ان يدوم يوما او يومين ، وينافي التدبيرات ، الا تدبير الفرع الى الله بالدعاء والابتغال ، كتدبير الطفل في التعلق بامه فقط •

الثالثة - وهى اعلى الدرجات ، ان يكون بين يدي الله في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل ، بان يرى نفسه ميتا ، وتحركه القدرة الازلية كما يحرك الغاسل الميت • وهو الذى قويت نفسه ، ونال الدرجة الثالثة من التوحيد • والفرق بينه وبين الثانى ، ان الثانى لا يترك الدعاء والتضرع ، كما ان الصبى يفرع الى امه ، ويصيح ويتعلق بذيلها ، ويعدو خلفها ، وهذا ربما يترك الدعاء والسؤال ثقة بكرمه وعنايته ، فهذا مثال صبى علم انه ان لم يرض بامه ، فالام تطلبه ، وان لم يتعلق بذيلها فهي تحمله ، وان لم يسأل اللبن فهي تسقيه • ومن هذا القسم توكل ابراهيم الخليل (ع) لما وضع في المنجنيق ايرمى به الى النار ، و اشار اليه روح الامين بسؤال النجاة والاستخلاص من الله سبحانه - فقال : « حسبي من سؤالي علمه بحالى » • وهذا نادر الوقوع ، عزيز الوجود ، فهو مرتبة الصديقين ، واذا وجد فدوامه لا يزيد على صفة الوجل ، او حمرة الخجل ، وهو ينافي التدبيرات مادام باقيا ، اذ يكون صاحبه كالمبهوت • ثم ، توكل العبد على الله قد يكون في جميع اموره ، وقد يكون في بعضها • وتختلف درجات ذلك بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقتلتها • وقال الكاظم (ع) في قوله

عزوجل :-

« ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٣٦)

التوكل على الله درجات ، منها ان تتوكل على الله في امورك كلها فما فعل بك كنت عنه راضيا ، تعلم انه لا يألوئك خيرا وفضلا ، وتعلم ان الحكم في ذلك له ، فتوكل على الله بتفويض ذلك اليه ، وثق به فيها وفي غيرها . ولعل سائر درجات التوكل ان يتوكل على الله في بعض اموره دون بعض ، وتعدد الدرجات حينئذ بحسب كثرة الامور المتوكل فيها وقتتها .

فصل

السعي لاينافي التوكل

اعلم ان الامور الواردة على العباد اما ان تكون خارجة عن قدرة العباد ووسعهم ، بمعنى انه لا تكون لها اسباب ظاهرة قطعية او ظنية لجلبها او دفعها او تكون لها اسباب جالبة لها او دافعة اياها ، الا ان العبد لا يتمكن منها . فمقتضى التوكل فيها ترك السعي بالتمحلات والتدبيرات الخفية ، وجوانتها على رب الارباب ، ولو دبر في تغييرها بالتمحلات والتكلفات ، لكان خارجا عن التوكل راسا ، او لا تكون خارجة عن قدرتهم ، بمعنى ان لها اسبابا قطعية او ظنية يمكن للعبد ان يحصلها ويتوصل بها الى جلبها او دفعها . فالسعي في مثلها لاينافي التوكل ، بعد ان يكون وثوقه واعتماده بالله دون الاسباب . فمن ظن ان معنى التوكل ترك الكسب بالبدن ، وترك التدبير بالعقل راسا ، والسقوط على الارض كالخرقة الملقاة ، فقد ابعد عن الحق ، لان ذلك محرم في الشرع الاقدس ، فان الشارع كلف الانسان بطلب الرزق بالاسباب التي هداه الله اليها ، من زراعة ، او تجارة ، او صناعة ، او غير ذلك مما احله الله ، وبإبقاء النسل بالتزويج ، وكلفه بان يدفع عن نفسه الاشياء المؤذية بالتوصل الى الاسباب المعينة لدفعها . وكما ان العبادات امور امر الله - تعالى - عباده بالسعي فيها ، ليحصل لهم بها التقرب اليه والسعادات في دار الآخرة ، فكذلك طلب الحلال ودفع الضرر والالهم عن النفس والاهل والعيال امور امرهم الله - تعالى - ليحصل لهم

بها التوسل الى العبادات وما يؤدي الى التقرب والسعادة. ولكنه — سبحانه —
كلفهم ايضا بالا يثقوا الا به، ولا يعتمدوا على الاسباب. كما انه — سبحانه —
كلفهم بالا يتكلموا على اعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته. فمعنى
التوكل المأمور به في الشريعة: اعتماد القلب على الله في الامور كلها،
وانقطاعه عما سواه. ولا ينافيه تحصيل الاسباب اذا لم يسكن اليها، وكان
سكونه الى الله — سبحانه — دونها مجوزا في نفسه ان يؤتية الله مطلوبه
من حيث لا يحتسب، دون هذه الاسباب التي حصلها، وان يقطع الله هذه
الاسباب عن مسبباتها.

فصل

الاسباب التي لا ينافي السعى اليها التوكل

الاسباب التي لا ينافي تحصيلها ومزاولتها للتوكل، هي الاسباب القطعية
او الظنية، وهي التي يقطع او يظن بارتباط المسببات بها بتقدير الله ومشيته
ارتباطا مطردا لا يتخلف عنها، سواء كانت لجلب نفع او لدفع ضرر منتظر او
لازالة آفة واقعة، وذلك كمد اليد الى الطعام للوصول الى فيه، وحمل
الزاد للسفر، واتخاذ البضاعة للتجارة، والوقاع لحصول الاولاد، واخذ
السلاح للعدو، والادخار لتجدد الاضطرار، والتداوى لازالة المرض،
والتحرز عن النوم في ممر السيل ومسكن السباع وتحت الحائط المائل،
وغلق الباب، وعقل البعير، وترك الطريق الذي يقطع او يظن وجود السارقين
أو السباع الضارة فيه. وقس عليها غيرها.

واما الاسباب الموهومة، كالرقية، والطيرة، والاستقصاء في دقائق
التدبير، وابداء التمحللات لأجل التبديل والتغيير، فيبطل بها التوكل،
لان امثال ذلك ليست باسباب عند العقلاء، وليست مما امر الله — تعالى —
بها، بل ورد النهي عنها، على ان المأمور به الاجمال في الطلب وعدم
الاستقصاء قال رسول الله (ص): «الا ان الروح الأمين نث في روعي:
أنه لامتوت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله — تعالى — واجملوا
في طلب». وقال (ص): «ما جممل في الطلب من ركب البحر». . .
وقال الصادق (ع): «ليكن طلب المعيشة فوق كسب المضيع، ودون طلب

الحريص، الراضى بدينياه، المطمئن اليها، ولكن انزل نفسك من ذلك بمنزلة المنصف المتعفف ؛ ترفع نفسك عن منزلة الواهن الضعيف ، وتكتسب ما لا بد منه ، ان انذين اعطوا المال ثم لم يشكروا لامال لهم « وقال (ع) : « اذا فتحت بابك ، وبسطت بساطك ، فقد قضيت ما عليك » .

فصل

اعقل وتوكل

اعلم ان التوكل لا يبطل بالاسباب المقطوعة والمظنونة ، مع ان الله قادر على اعطاء المطلوب بدون ذلك ، لان الله — سبحانه — ربط المسببات بالاسباب ، وأبى ان يجرى الاشياء الا بالاسباب . ولذا لما اهمل الاعرابى بغيره ، وقال : توكلت على الله ، قال له النبي (ص) : اعقلها وتوكل « . وقال الصادق (ع) : اوجب الله لعباده ان يطلبوا منه مقاصدهم بالاسباب التى سببها لذلك وامرهم بذلك « . وقال الله — تعالى :

« خذوا حذرکم » (٣٧) . وقال فى كيفية صلاة الخوف : « وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم » ٢٨ وقال : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ٣٩ . وقال موسى : « فاسر بعبادي ليلا » ٤٠ . والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر .

وفى الاسرائيليات : ان موسى بن عمران (ع) اعتل بعلة ، فدخل عليه بنو اسرائيل ، فعرفوا علته ، فقالوا له : لو تداويت بكذا لبرئت ، فقال : لا تداوى حتى يعافنى الله من غير دواء . فطالت علته ، فاوحى الله اليه : وعزتى وجلالى ! لا ابرؤك حتى تتداوى بما ذكروه لك . فقال لهم داوونى بما ذكرتهم . فداووه ، فبرىء . فاوجس فى نفسه من ذلك فاوحى الله تعالى اليه : اردت ان تبطل حكمتى بتوكلك علي ، فمن اودع العقاقير منافع الاشياء غيرى ؟ « . وروى : « ان زاهدا من الزهاد ، فارق الامصار واقام فى سفح جبل ، فقال : لا اسال شيئا حتى يأتينى ربي برزقى . فقعد سبعا ، فكاد

(٣٧) النساء ، الآية : ٧٠

(٣٨) النساء ، الآية : ١٠١

(٣٩) الانفال ، الآية : ٦١ .

(٤٠) الدخان الآية : ٢٣

يموت ، ولم يأتته رزق ، فقال : يارب ! ان احيينني فأنتى برزقى السدى
قسمت لى ، والا فاقبضنى اليك • فاوحى الله تعالى اليه : وعزتى وجلالى
لا ارزقك حتى تدخل الامصار ، وتقع بين الناس • فدخل المصر فأقام ، فجاء
هذا بطعام ، وهذا بشراب ، فاكل وشرب فاوجس في نفسه ذلك ، فاوحى
الله اليه : أردت أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا ، أما علمت اني ارزق
عبيدي بايدي عبادي احب الي من أن ارزقه بيد قدرتي ؟» •

فصل

درجات الناس في التوكل

اعلم أن درجات الناس — كما عرفت — في التوكل مختلفة ، بحسب
تفاوت مراتبهم في قوة اليقين وضعفه ، وفي قوة التوحيد وضعفه :
فمنهم : من كمل ايمانه ويقينه ، بحيث سقط وثوقه عن الاسباب بالكلية ، وتوجه
بشراشه الى الواحد الحق ، ولا يرى مؤثرا الا هو ، وليس نظره الى غيره
اصلا ، وقلبه مطمئن ساكن بعنايته ، بحيث لا يختلج بهاله احتمال أن يكله
ربه الى غيره ، ولا يعتري نفسه اضطراب اصلا • فلا بأس لمثله أن يعرض
عن الاسباب المقطوعة او المظنونة بالكلية ، لان الله سبحانه يحفظه ويحرسه
ويصلح اموره ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، سواء حصل الاسباب أم لا ،
وسواء كسب أم لم يكتسب ، الا انه ربما لم يترك السبب والكسب ويتبع
امر الله فيه ، الا انه ليس وثوقه الا بالله دون السبب والكسب • وما ورد
من حكايات بعض الكمل من الاولياء ، من أنهم يسافرون في البوادي التي
لا يطرقتها الناس بغير زاد ثقة بالله ، ويصل اليهم الرزق ، أولا يتحرزون من
السباع الضارة ، أو يغلظون القول بالنسبة الى أهل الاقتدار من الملوك
والسلطين من دون خوف ومبالاة ، اعتمادا على الله ، والله — سبحانه —
ينجيهم منهم ، كانوا منهم : أي من الكاملين في التوكل • قال الصادق (ع) :
«أبى الله — عز وجل — أن يجعل ارزاق المؤمنين الا من حيث لا يحتسبون» •
وانما خصه بالمؤمنين ، لان كمال الايمان يقتضي ألا يثق صاحبه بالاسباب
وأن يتوكل على الله — عز وجل — وحده • وكمال الايمان انما يكون

لصاحب العلم المكنون من الانبياء والاولياء ، وذلك فضل الله يؤتيه
من يشاء •

ومنهم : من لم يبلغ قوة ايمانه ويقينه حداً تغيب عن نظره الاسباب
والوسائط ، ويكون مقصور الالتفات الى جناب الحق • فهذا هو الذي
لا ينبغي له أن يعرض عن الاسباب ويتركها ، لان مثله ليس له المظنة التي
توصله الى المقصد بدون الوسائط : اعني قوة التوكل على الله واليقين
به سبحانه •

فصل

تفنيذ زعم

بعض الناس زعم : أن حق التوكل أن يكتفي بالاسباب الخفية عن
الاسباب الجلية ، كأن يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس بغير زاد ،
بعد أن راض نفسه على جوع الاسبوع وما يقاربه ، بحيث يصبر عنه من
غير ضيق قلب ، واضطراب نفس ، وتشويش خاطر ، وفتور في ذكر الله ،
وبعد أن يكون بحيث يقوى على التقوت بالحشيش وما يتفق له ، وان يوطن
نفسه على أنه ان مات جوعاً كان خيراً له في الآخرة •

وكان يجلس في مسجد أو بيته ويترك الكسب ، ويتفرغ للعبادة
والفكر والذكر ، واستغراق وقته بها ، بحيث لا يستشرف نفسه الى الناس
في انتظاره ومن يدخل فيحمل اليه شيئاً ، بل يكون قوى القلب في الصبر
والاتكال على الله • وهذا محض الخطأ ، اذ من جاهد نفسه وراضها بحيث
يصبر على جوع الاسبوع ، ويمكنه التقوت بالحشيش ، صارت الاسباب
له جلية • فان عدم الحاجة احد الغنائين • ثم ان كان اعتماده - حينئذ -
على صبره وتمكنه من التقوت بالحشيش ، فاين التوكل ؟ وان كان وثوقه
بالله وحده ، فليقم في باده مع الاسباب ، كما أمر الله به في الشرع • وأما
توطين نفسه باختياره على الموت ، فممنوع عقلاً ، ومحرم شرعاً • قال الله
- سبحانه - :

« ولاتلقوا بأيديكم الى النهلكة » ٤١

(٤١) البقرة ، الآية : ١٩٥ .

وأما الجالس في بيته ، التارك لكسبه ، يعبد الله من دون طلب ، فهو أيضا قد ترك متابعة امر الله • قال الصادق (ع) : « ان من يقوته أشد عبادة منه » • وربما يكون مثله كلا على الناس ، فان حاله ينادي بالبؤس واليأس ، بل هو ضرب على تواطن الناس وتعرض للذل • وبالجملة لامدخل لخفاء الاسباب وجلأئها في التوكل ، بعدما تقرر ان معناه الثقة بالله وحده ، لا بالاسباب ، فسواء وجود الاسباب وفقدها وجلأؤها وخفأؤها .

فصل

طريق تحصيل التوكل

الطريق الى تحصيل التوكل - بعد تقوية التوحيد والاعتقاد ، بأن الامور باسرها مستندة اليه سبحانه ، وليس لغيره مدخلية فيها - ان يتذكر الآيات والاعمال المذكورة الدالة على فضيلته ومدحه ، وكونه باعث النجاة والكفاية ، ثم يتذكر أن الله - سبحانه - خلقه بعد أن لم يكن موجودا ، واوجده من كتم العدم ، وهياً له ما يحتاج اليه ، وهو أرأف بعباده من الوالدة بولدها ، وقد ضمن بكفاية من توكل عليه ، فيستحيل أن يضيعه بعد ذلك ولا يكفيه مؤنته ، ولا يوصل اليه ما يحتاج اليه ، ولا يدفع عنه ما يؤذيه ، لتقدمه من العجز والنقص والخلف والسهو • وينبغي ان يتذكر الحكايات التي فيها عجائب صنع الله في وصول الارزاق الى صاحبها وفي دفع البلايا والاسواء عن بعض عبيده ، والحكايات التي فيها عجائب قهر الله في اهلاك اموال الاغنياء واذلال الاقوياء ، وكم من عبد ليس له مال وبضاعة ويرزقه الله بسهولة ، وكم من ذي مال وثروة هلكت بضاعته أو سرقت وصار محتاجا ، وكم من قوي صاحب كثرة وعدة وسطوة صار عاجزا ذليلا بلا سبب ظاهر ، وكم من ذليل عاجز صار قويا واستولى على الكل • ومن تأمل في ذلك ، يعلم أن الامور بيد الله ، فيلزم الاعتماد عليه والثقة به • والمناط أن يعلم ان الامور لو كانت بقدره الله - سبحانه - من غير مدخلية للاسباب والوسائط فيها ، فعدم التوكل عليه - سبحانه - والثقة بغيره غاية الجهل ، وان كانت لغيره - سبحانه - من الوسائط والاسباب مدخلية ، فالتوكل من جملة أسباب الكفاية وانجاح الامور ، اذ السم

والتجربة شاهدان بأن من توكل عليه وانقطع اليه كفاه الله كل مؤنة • فكما أن شرب الماء سبب لازالة العطش ، وأكل الطعام سبب لدفع الجوع ، فكذا التوكل سبب رتبه مسبب الاسباب لانجاح المقاصد وكفاية الامور • وعلامة حصول التوكل ، ألا يضطرب قلبه ، ولا يبطل سكونه بفقد اسباب نفسه وحدوث اسباب ضره • فلو سرقت بضاعته ، أو خسرت تجارته ، أو تعوق أمر من أموره ، كان راضيا به ، ولم تبطل طمأنينته ، ولم تضطرب نفسه ، بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا • فان من لم يسكن الى شيء لم يضطرب بفقدته ، ومن أضطر لفقد شيء فقد سكن اليه واطمأن به • ومنها :

الكفران

وضده الشكر

الشكر - فضيلة الشكر - الشكر نعمة يجب شكرها - المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه - اقسام النعم واللذات - الاكل - لا فائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل - عجائب المأكولات - حاجة تحضير الطعام الى آلاف الاسباب - تسخير الله التجار لجلب الطعام - نعم الله في خلق الملائكة للانسان - الاسباب الصارفة للشكر - طريق تحصيل الشكر - الصحة خير من السقم •



وبعد ما تعرف حقيقة الشكر ، وكونه متعلقا بأي القوى ، تعرف بالمقايسة حقيقة الكفران وكونه من رذائل القوى • فنقول : الشكر هو عرفان النعمة من المنعم ، والفرح به ، والعمل بموجب الفرح باضمار الخير ، والتحميد للمنعم ، واستعمال النعمة في طاعته • أما المعرفة ، فبأن تعرف أن النعم كلها من الله ، وأنه هو المنعم ، والوسائط مسخرات من جهته • ولو انعم عليك أحد ، فهو الذي سخره لك ، وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطرا الى الايصال اليك ، فمن عرف ذلك ، حصل أحد اركان الشكر لله ، وربما كان مجرد ذلك شكرا ، وهو الشكر بالقلب • كما روى : « أن موسى قال في مناجاته : اللهم

خلقت آدم بيدك ، واسكنته جنتك ، وزوجته حواء أمتك ، فكيف شكرك؟
فقال : علم أن ذلك منى ، فكافت معرفته شكرا » .

ثم هذه المعرفة فوق التقديس وفوق بعض مراتب التوحيد ، وهما
داخلان فيها . اذ التقديس تنزيهه سبحانه عن صفات النقص ، والتوحيد
قصر المقدس عليه ، والاعتراف بعدم مقدس سواه وهذه المعرفة هي اليقين
بأن كل ما في العالم موجود منه ، والكل نعمة منه ، فينطوي فيها مع
التقديس والتوحيد كمال القدرة والافراد بالفعل ، ولذلك قال رسول الله
(ص) : « من نزل : سبحانه الله ، فله عشر حسنات ، ومن قال : لا اله الا الله ، فله عشرون حسنة ، ومن قال : الحمد لله ، فله ثلاثون حسنة » .
فسبحان الله : كلمة تدل على التقديس ، ولا اله الا الله : كلمة تدل على
التوحيد ، والحمد لله : كلمة تدل على معرفة النعم من الواحد الحق . ولا
تظن أن هذه الحسنات بازاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير عقد القلب
بمعانيها ، بل هي بازاء الاعتقاد بمعانيها التي هي المعارف المعدودة من ابواب
الايمان واليقين . واما الفرح بالمنعم ، مع هيئة الخضوع والتواضع ، فهو
ايضا من اركان الشكر . بل كما أن المعرفة شكر قلبي برأسه ، فهو ايضا
في نفسه شكر بالقلب ، وانما يكون شكرا اذا كان فرحه بالمنعم او بالنعمة
لا من حيث انه نعمة او مال ينتفع به ويلتذ منه في الدنيا ، بل من حيث انه
يقدر بها على التوصل الى القرب من المنعم ، والنزول في جواره ، والنظر الى
وجهه على الدوام . وأمارته ألا يفرح من الدنيا الا بما هو مزرعة الآخرة
ومعينة عليها ، ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله وتصده عن سبيله ، لانه
ليس يريد النعمة لذاتها ، بل من حيث انها توصله الى مجاورة المنعم وقربه
ولقائه . وأما العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم ، فهو القيام بما
هو مقصود المنعم ومحبوبة ، وهو يتعلق بالقلب واللسان والجوارح . أما
المتعلق بالقلب فقصدته الخير واضماره لكافة الخلق . وأما المتعلق باللسان
فاظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه . وأما المتعلق بالجوارح ، فاستعمال
نعم الله في طاعته ، والتوقى من الاستغاثة بها على معصيته حتى أن من جملة
شكر العينين أن يستر كل عيب يراه من مسلم ، ومن جملة شكر الاذنين

أن يستتر كل عيب يسمعه من مسلم ، فيدخل هذا وأمثاله في جملة شكر
نعمة هذه الاعضاء • بل قيل : من كفر نعمة العين ولم يستعملها فيما خلقت
لاجله كفر نعمة الشمس ايضا ، اذ الابصار انما يتم بها ، وانما خلقتنا ليبصر
بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويقي بهما ما يضره فيهما • بل المراد من خلق
السماء والارض وخلق الدنيا واسبابها أن يستعين بها على الوصول الى الله
ولا وصول اليه الا بمحبته والانس به في الدنيا ، والتجافي عن الدنيا
وغرورها ولذاتها وعلائقها ، ولا انس الا بدوام الذكر ولا محبة الا بالمعرفة
الحاصلة بدوام الفكر ، ولا يمكن الذكر والفكر الا ببقاء البدن ، ولا يبقى
البدن الا بالارض والماء والهواء والنار ، ولا يتم ذلك الا بخلق الارض
والسماء وخلق سائر الاشياء وكل ، ذلك لاجل البدن • والبدن مطية
النفس • والنفس الراجعة الى الله هي المطمئنة بطول العبادة والمعرفة • فكل
من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الاسباب التي لا بد منها
لاقدامه على تلك المعصية • واذا عرفت حقيقة الشكر ، تعرف بالمقايسة
حقيقة الكفران ، فانه عبارة عن الجهل بكون النعم من الله ، أو عدم الفرح
بالمنعم والنعمة من حيث ايصالها الى القرب منه ، أو ترك استعمال النعمة
فيما يحبه المنعم ، أو استعمالها فيما يكرهه •

ثم ، بما ذكرناه ، وان ظهر أن حقيقة الشكر ملتزمة من الامور الثلاثة،
الا أنه قد يطلق الشكر على كل واحد ايضا ، كما قال الصادق (ع) :
« شكر كل نعمة ، وان عظمت ، أن تحمد الله » ، وقال (ع) : « شكر
النعم اجتناب المحارم ، وتمام الشكر قول الرجل : الحمد لله رب العالمين » •
وسئل عنه (ع) : « هل للشكر حد اذا فعله العبد كان شاكرا ؟ قال : نعم !
قيل : ما هو ؟ قال : يحمد الله على كل نعمة عليه في أهل ومال ، وان كان
فيما انعم عليه في ماله حق أداء • ومنه قوله - جل وعز - :

« سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ٤٢ • ومنه قوله تعالى
« رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » ٤٣ • وقوله : « رب أدخلني

(٤٢) الزخرف ، الآية : ١٣
(٤٣) المؤمنون ، الآية : ٢٩ •

مدخل صدق واخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا» (٤٤)

وقال (ع) : « كان رسول الله (ص) اذا ورد عليه أمر يسره ، قال : الحمد لله على هذه النعمة . واذا ورد عليه أمر يغتم به ، قال : الحمد لله على كل حال » . وقال (ع) . « اذا أصبحت وأمسيت ، فقل عشر مرات : اللهم ما أصبحت بي من نعمة او عافية في دين أو دنيا ، فمك وحدك لا شريك لك لك الحمد ولك الشكر بها علي يارب ، حتى ترضى وبعد الرضا . فانك اذا قلت ذلك ، كنت قد أدت شكر ما أنعم الله به عليك في ذلك اليوم وفي تلك الليلة » . وفي رواية : « كان نوح (ع) يقول ذلك اذا أصبح ، فسمى بذلك عبدا شكورا » . وقال (ع) : « اذا ذكر أحدكم نعمة الله ، فليضع خده على التراب شكرا لله ، فان كان راكبا فلينزل وليضع خده على التراب وان لم يكن يقدر على النزول للشهرة فليضع خده على قربوسه (٤٥) ، وان لم يقدر فليضع خده على كفه ، ثم ليحمد الله على ما انعم عليه » . وروي : « ان الصادق (ع) قد ضاعت دابته ، فقال : لئن ردها الله علي لا شكرن الله حق شكره » قال الراوي : فما لبث ان اتى بها ، فقال : « الحمد لله » . فقال قائل له جعلت فداك ! أليس قلت لأشكرن الله حق شكره ؟ فقال ابو عبد الله (ع) « ألم تسمعي قلت : الحمد لله ؟ » (٤٦) . ثم الشكر باللسان لاظهار الرضا من الله ؛ ولذا أمر به . وقد كان السلف يتساءلون بينهم ؛ ونيتهم استخراج الشكر لله ، ليوجر كل واحد من الشاكر والسائل . وقد روي : « أن الرسول الله (ص) قال لرجل : كيف أصبحت ؟ فقال : بخير . فأعاد عليه السؤال فأعاد عليه الجواب ، فأعاد السؤال ثلاثة ، فقال : بخير ، أحمد الله واشكره . فقال (ص) : هذا الذي أردت منك » .

(تنبيه) لا ريب في أن الجزء الاول من الشكر - اعني معرفة النعم من الله - من متعلقات العاقلة وفضائلها . والثاني - اعني الفرح للنفس -

(٤٤) الاسراء ، الآية : ٨٠

(٤٥) القربوس - بفتحين - : حنو السرج ، أى قسمه المقوس المرتفع

من قدام المقعد ومن مؤخره .

(٤٦) هذه الرواية مذكورة في «اصول الكافي» ج٢ - باب الشكر . وفي «الوافي» ٣/٣٢٤ - باب الشكر . الا ان المنقول في نسخ «جامع السعادات» فيه اختلاف كثير عما في الموضوعين فصححناها عليهما .

ان كان من النعم العقلية الروحانية ، يكون متعلقا بالعاقلة ايضا ، وان كان لاجل وصول نعمة الغلبة والاستيلاء - مثلا - على عدو ظالم ، يكون متعلقا بالقوة الغضبية ، وان كان من نعمة المال والاولاد ، يكون متعلقا بالقوة الشهوية . والجزء الثالث - اعني العمل بمقتضى الفرح الحاصل من معرفة المنعم - فهو من ثمرات الحب للمنعم والخوف من زوال نعمته . وبهذا يظهر : أن الشكر والكفران من متعلقات القوى الثلاث ، والاول من فضائلها اذا امتزجت وتسالمت ، والثاني من رذائلها .

فصل

فضيلة الشكر

الشكر أفضل منازل الابرار ، وعمدة زاد المسافرين الى عالم الانوار ، وهو موجب لدفع البلاء وازدياد النعماء . وقد ورد به الترغيب الشديد ، وجعله الله سببا للمزيد . قال الله - سبحانه - :

((ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم)) ٤٧ . وقال : ((شن شكرتم لازيدنكم)) ٤٨ وقال : فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون)) ٤٩ . وقال ((وسنجزي الشاكرين)) ٥٠ .

ولكونه غاية النضائل والمقامات ، ليس لكل سالك أن يصل اليه ، بل ليس الوصول اليه الا لأوحد من كمل السالكين . ولذا قال الله رب العالمين :

((وقليل من عبادي الشكور)) ٥١ وكفى به شرفا وفضلا ، انه خلق من اخلاق الربوبية ، كما قال الله - سبحانه - : ((والله شكور حلِيم)) ١ . وهو فاتحة كلام اهل الجنة وخاتمته ، كما قال الله - تعالى - : ((وقالوا الحمد

(٤٧) النساء ، الآية : ١٤٦

(٤٨) ابراهيم ، الآية : ٧ .

(٤٩) البقرة ، الآية : ١٥٢

(٥٠) آل عمران ، الآية : ١٤٥

(٥١) سبأ ، الآية : ١٣

(١) التغابن ، الآية : ١٧ .

الله الذي صدقنا وعده» ٣ . وقال: «(وآخر دعوانهم ان الحمد لله رب العالمين)» ٣

وقال رسول الله (ص): «الطاعم الشاكر، له من الاجر كأجر الصائم المحتسب . والمعافي الشاكر، له من الاجر كأجر المبتلي الصابر . والمعطي الشاكر، له من الاجر كأجر المحروم القانع» . وقال (ص): «ان للنعم أوابد كأوابد الوحش، فقيدوها بالشكر» . وقال (ص): «ينادي مناد يوم القيامة: ليقوم الحمادون! فيقوم زمرة . فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة» فقيل: من الحمادون؟ فقال: «الذين يشكرون الله على كل حال» وقال السجاد (ع): «ان الله - سبحانه - يحب كل عبد حزين، ويحب كل عبد شكور» . وقال الباقر (ع): «كان رسول الله (ص) عند عائشة ليلتها، فقالت: يا رسول الله! لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: يا عائشة! ألا اكون عبدا شكورا؟ . . .»

قال: وكان يقوم على أطراف اصابع رجليه، فأنزل الله - تعالى - طه! ما انزلنا عليك القرآن لتشقى» . وقال الصادق (ع): «ما انعم الله على عبد من نعمة فعرفها بقلبه وحمد الله ظاهرا بلسانه، فتم كلامه، حتى يؤمر له بالمزيد» . وقال (ع): «ثلاث لا يضر معهن شيء: الدعاء عند الكرب، والاستغفار عند الذنب، والشكر عند النعمة» (٤) . وقال (ع): «في كل نفس من انفاسك شكر لازم لك، بل الف أو أكثر، وأدنى الشكر رؤية النعمة من الله - تعالى - من غير علة يتعلق القلب بها دون الله - عز وجل - أو الرضا بما اعطى، وألا تعصيه بنعمته وتخالفه بشيء من امره ونهيه بسبب نعمته . فكن لله عبدا شاكرا على كل حال، تجد الله ربا كريما على كل حال، ولو كان عند الله - تعالى - عبادة تعبد بها عباده المخلصون أفضل من الشكر على كل حال؛ لا تطلق لفظه منهم على جميع الخلق بها؛ فلما لم يكن افضل منها، خصها من بين العبادات، وخص أربابها؛ فقال:

(٢) الزمر، الآية: ٧٤

(٣) يونس الآية: ١٠

(٤) صححنا الاحاديث على «اصول الكافي»: ج ٢، باب الشكر . وعلى «البحار»: مج ١٥: ١٣٢/٢ - ١٣٥، باب الشكر .

(وقليل من عبادي الشكور) • وتتمام الشكر الاعتراف بلسان السر ، خاضعا لله بالعجز عن بلوغ أدنى شكره ، لان التوفيق للشكر نعمة حادثة يجب الشكر عليها ، وهي اعظم قدرا وأعز وجودا من النعمة التي من أجلها وفقت له ؛ فيلزمك على كل شكر شكر اعظم منه ، الى مالا نهاية له ، مستغرقا في نعمه ، قاصرا عاجزا عن درك غاية شكره ، وأنى يلحق العبد شكر نعمة الله ، ومتى يلحق صنيعه بصنيعه ، والعبد الضعيف لا قوة له أبدا الا بالله - عزوجل - ، والله غني عن طاعة العبد قوي على مزيد النعم على الابد ، فكن لله عبدا شاكرا على هذا الاصل ، ترى العجب» (٥) • ثم كما ان الشكر من المنجيات الموصلة الى سعادة الابد وزيادة النعمة في الدنيا ، فضده اعني الكفران - من المهلكات المؤدية الى شقاوة السرمذ وعقوبة الدنيا وسلب النعم • قال الله - سبحانه - :

« فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » ٦ • وقال تعالى

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ٧

وقال الصادق (ع) : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك ، فانه لا زوال للنعماء اذا شكرت ، ولا بقاء لها اذا كفرت • الشكر زيادة في النعم ، وامان من الغير ، أي من التغيير » •

فصل

الشكر نعمة يجب شكرها

لما كانت حقيقة الشكر عبارة عن عرفان كل النعم من الله مع صرفها في جهة محبة الله ، فالشكر على كل نعمة على أن تعرف كونها من الله وتصرفها في جهة محبته • ولا ريب في أن هذه المعرفة والصرف أيضا نعمة من الله ، اذ جميع ما يتعاطاه باختيارنا نعمة من الله ، لان جوارحنا ، وقدرتنا ، وارادتنا ، ودواعينا ، وافاضة المعارف علينا ، وسائر الامور التي هي اسباب حركاتنا ، بل نفس حركاتنا ، من الله • وعلى هذا ، فالشكر على كل نعمة

(٥) صححنا الحديث على « مصباح الشريعة » : الباب السادس . وعلى

« سفينة البحار » ١/٧١٠

(٦) النحل الآية : ١١١

(٧) الرعد الآية : ١٢

نعمة اخرى من الله يحتاج الى شكر آخر ، وهو أن يعرف أن هذا الشكر أيضا نعمة من الله - سبحانه - ، فيفرح به ويعمل بمقتضى فرحه . وهذا المعرفة والفرح تحتاج الى شكر آخر . وهكذا ، فلا بد من الشكر في كل حال ، وليس يمكن ان تنتهي سلسلة الشكر الى مالا يحتاج الى شكر . فغاية شكر العبد أن يعرف عجزه عن اداء حق شكره - تعالى - ، اذ عرفان عجزه مسبب عن عرفان جميع النعم ، حتى شكره من الله وهذا غاية ما يمكن للعبد . ويشهد بذلك ما روي : « أن الله - عز وجل - أوحى الى موسى (ع) : يا موسى ! اشكرني حق شكري . فقال : يارب ! كيف اشكرك حق شكرك وليس من شكر أشكرك به الا وأنت انعمت به على ؟ قال : يا موسى ! الآن شكرتني ، حيث علمت أن ذلك مني » . وكذلك أوحى ذلك الى داود ، فقال : « يارب ! كيف اشكرك وانا لا استطيع أن اشكرك الا بنعمة ثانية من نعمك » . وفي لفظ آخر : « وشكري لك نعمة اخرى منك ويوجب علي الشكر لك ، فقال : اذا عرفت هذا فقد شكرتني » . وفي خبر آخر : « اذا عرفت ان النعم مني ، رضيت عنك بذلك شكرا » . وروى : « أن السجادة (ع) كان اذا قرأ هذه الآية (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) يقول : سبحان من لم يجعل في أحد من معرفة نعمه الا المعرفة بالتقصير عن معرفتها ! » . كما لم يجعل في أحد من معرفة ادراكه اكثر من العلم انه لا يدركه فشكره - تعالى - معرفة العارفين بالتقصير عن معرفة شكره ، فجعل معرفتهم بالتقصير شكرا ، كما علم علم العارفين بأنهم لا يدركونه ، فجعله ايمانا علما منه أنه قد وسع العباد فلا يتجاوز ذلك ، فان شيئا من خلقه لا يبلغ مدى عبادته ، فكيف يبلغ مدى عبادته من لامدى له ولا كيف ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . وقال ابو الحسن (ع) : « من حمد الله على النعمة فقد شكره ، وكان الحمد لله افضل من تلك النعمة »^(٨) ، يعني انه نعمة فوق تلك النعمة ، يستدعي شكرا آخر .

(٨) صححنا الروايات على « اصول الكافي » ج ٢ ، باب الشكر . وعلى « الوافي » ٣/٣٢٤ باب الشكر

فصل

المدرک لتتميز محاب الله عن مكارهه

لما عرفت أن الشکر عبارة عن استعمال نعم الله فيما يحبه ، والكفران عبارة عن تقيض ذلك - اعني ترك استعمالها فيه أو استعمالها فيما يكرهه - فلا بد من معرفة ما يحبه وما يكرهه ، وتميز محابه عن مكارهه ، حتى يتمكن من اداء الشکر وترك الكفران ، لتوقفهما على معرفتهما وتميزهما . وهذا التمييز والتعريف له مدرکان :

أحدهما - الشرع ، فانه كشف عن جميع ما يحبه وما يكرهه ، عبر عن الاول بالواجبات والمندوبات ، وعن الثاني بالمحرمات والمكروهات . فمعرفة ذلك موقوفة على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد ، فمن لم يطالع على حكم الشرع في جميع أفعاله ، لم يمكنه القيام بحق الشکر .
وثانيهما - العقل والنظر بعين الاعتبار ، فان العقل متمكن - في الجملة - من أن يدرك بعض وجوه الحكم في بعض الموجودات . فان الله سبحانه ما خلق شيئاً في العالم الا وفيه حكم كثيرة ، وتحت كل حكمة مقصود ومصلحة ، وهذا المقصود والمصلحة هو محبوب الله تعالى . فمن أستعمل كل شيء على النحو الذي يؤدي الى المقاصد المطلوبة وعلى الجهة التي خلق لها فقد شكر نعم الله تعالى ، وان استعمل شيئاً على النحو الذي لم يؤدي الى المقصود منه أو في جهة غير الجهة التي خلق لها ، فقد كفر نعمة الله .»

ثم العقل لا يتمكن من معرفة كل حكمة مطلوبة من كل شيء ، اذ الحكم المقصودة من الاشياء ، اما جليلة أو خفية . أما الجليلة : كحكمة حصول الليل والنهار في وجود الشمس ، وحكمة انتشار الناس وسكونهم في وجود الليل والنهار ، وحكمة انشقاق الارض بأنواع النبات في وجود الغيم ونزول الامطار ، وحكمة الابصار في العين ، والبطش في اليد ، والمشى في الرجل ، وحصول الاولاد ، وبقاء النسل في آلات التناسل وخلق الشهوة ، وحكمة المضغ والطحن في خلق الاسنان وأمثال ذلك . وأما الحكم الخفية : كالحكم التي في خلق الكواكب السيارة والثابتة ، وأختصاص كل منها بقدر معين وموضع خاص ، والحكم التي في بعض الاعضاء الباطنية للحيوان ، من

الامعاء والمرارة والكلية وأحاد العروق والاعصاب والعضلات ، وما فيها من التجاويف والالتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والغلظة وغير ذلك . فهذه الحكم وأمثالها لا يعرفها كل أحد ، ومن يعرف منها شيئا فلا يعرف الا قدرا يسيرا . فان جميع أجزاء العالم ، سماءه وكواكبه ، وما فيها من الاوضاع والحركة والاختصاصات ، وعناصره من كثرة النار والهواء والماء والارض ، وما فيها من البحار والجبال والرياح ، والمعادن والنبات والحيوان ، لا تخلو ذرة من ذراته من حكم كثيرة من عشرة الى الف او اكثر ، وقليل منها جلية ، وأكثرها دقيقة خفية ، وبعضها متوسطة في الجلاء والخفاء ، يعرفها المتفكرون في خلق السماوات والارض ، وأكثر الحكم الدقيقة مما لا يعرفها غير خالقها وموجدها . ثم ما عدا الانسان من الاشياء المجردة والمادية ، الروحانية والجسمانية ، جارية على وفق الحكمة ، ومستعملة ذواتها واجزائها وما يتعلق بهاء على الوجه الذي هو مقتضى المصلحة المقصودة منها واما الانسان فلكونه محل الاختيار ومجراه فقد يجري ويستعمل الاشياء التي يتمكن من استعمالها على خلاف ذلك ، فيكون كافرا بنعمة الله سبحانه . فمن ضرب غيره بيده فقد كفر بنعمة الله في اليد ، اذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يؤذيه ، ويأخذ ما ينفعه ، لاليهلك به غيره . ومن نظر الى وجه غير المحرم فقد كفر بنعمة العين ، لانها خلقت ليصير بها ما ينفعه في دينه ودنياه ، ويتقى بها ما يضره فيهما . ومن أدخّر الدراهم والدنانير وحبسهما فقد كفر بنعمة الله فيهما ، لانهما حيران لا منفعة ولا عوض في أعيانهما ، وانما خلقهما الله تعالى ليكونا حاكمين يحصل بهما التعديل والمساواة والتقدير بين سائر الاموال من الاعيان المتنافرة المتباعدة ، فهما عزيزان في أنفسهما . ولا غرض في اعينهما . ونسبتهما الى سائر الاموال نسبة واحدة . فمن ملكهما فكأنه ملك ، كل شيء لا كمن ملك ثوبا ، فانه لا يملك الا الثوب . فان احتاج الى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب ، اذ لا غرض له في ذاته ، بخلاف التقدين ، فانهما من حيث الصورة كأنهما ليسا بشيء ، ومن حيث المعنى كأنهما كل الشيء . والاشياء انما تستوى نسبتها الى المختلفات - اذا لم يكن لها صورة خاصة تقيدها

بخصوصها - كالمراة لا لون لها وتحكي كل لون ، وكالحرف لا معنى لها في نفسها ، بل تظهر لها المعاني في غيرها ، وكذلك النقدان ، لاغرض فيهما مع كونهما وسيلة الى كل غرض . فالحكمة في خلقهما أن يحكما بين الاموال بالعدل ، وتعرف بهما المقادير المختلفة ، وتنوم بهما الاشياء المتباينة ، ويحصل التوصل بهما الى سائر الاموال . فيلزم اطلاقهما لتداولهما الايدي ، وتحصل بهما التسوية في تبادل الاعيان والمنافع المتخالفة ، فمن ادخرهما وحبسهما فقد ظلمهما ، وأبطل الحكمة فيهما ، وكفر نعمة الله فيهما ، وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن ، ومن لم يدخرهما ولم يتصرف أزيد مما يحصل به التوصل الى ما يحتاج ، واثق الزائد في سبيل الله ، فهو الذي أستعملهما على وفق الحكمة وشكر نعمة الله فيهما . ولما عجز أكثر الناس عن قراءة الاسطر الإلهية المكتوبة على صفحاتهما في فائدتهما وحقمتهما بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت ، أخبرهم الله عن ذلك بقوله :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم

بعذاب أليم » ٩

وبما ذكرنا من وجه الحكمة فيهما ، يظهر أن من أتخذ الاواني منهما فقد كفر نعمة الله فيهما أيضا ، وكذا من عامل معاملة الربا فيهما فقد كفر النعمة وظلم ، لانهما انما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما ، اذ لاغرض في عينيهما ، فاذا أتجر في عينيهما فقد اتخذهما مقصودا لأنفسهما على خلاف وضع الحكمة . وكذلك الحكمة في خلق الاطعمة أن يفتدى بها ، فلا ينبغي ان تصرف عن جهتها وتفيد في الايدي ، بل اللازم ان تخرج عن يد المستغنى عنها الى المحتاج . ولذا ورد في الشرع حرمة الاحتكار والمنع عن معاملة الربا في الاطعمة ، لان ذلك يوجب صرفها عن الحكمة المقصودة منها . واذا عرفت ذلك ، فقس عليه جميع أفعالك وأعمالك وحركاتك وسكناتك ، فان كل فعل يصدر منك اما شكر أو كفران لا يتصور أن ينفك عنهما ، مثلا لو أستنجيت باليمين ، فقد كفرت نعمة اليمين ، اذ خلق الله اليمين وجعل

احدهما أقوى ، واستحق الأقوى لرجحانه التفضيل ، وتفضيل الناقص عليه عدول عن العدل ، وهذا التفضيل انما يتصور بأن تصرفه الأقوى في الافعال الشريفة ، كأخذ المصحف وأكل الطعام ، وتصرفه الاضعف في الاعمال الخسيسية ، كازالة النجاسة ، فمن خالف ذلك فقد عدل عن العدل وأبطل الحكمة وكفر النعمة ، وكذلك اذا لبست خفك فأبتدأت باليسرى فقد ظلمت ، لأن الخف وقاية للرجل ، فللرجل فيه حظ ، والبداءة في الحفظ ينبغي أن تكون بالاشرف ، وهو العدل والعمل على وفق الحكمة ، فخالفه ظلم وكفران . وكذلك ان استقبلت القبلة عند قضاء الحاجة ، فقد كفرت نعمة الله في خلق الجهات وخلق سعة العالم ، لانه خلق الجهات متعددة متسعة ، وشرف بعضها بأن وضع فيه بيته ، فينبغي أستقباله بالافعال الشريفة ، كالصلاة والجلوس للذكر والاعتسال والوضوء ، دون الافعال الخسيسية ، كقضاء الحاجة ورمي البزاق ، فمن قضى حاجته أو رمى بزاقه الى جهة القبلة فقد ظلمها وكفر نعمة الله . وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة مهمة ، ومن غير غرض صحيح ، فقد كفر نعمة الله في خلق الاشجار وفي خلق اليد . أما اليد فلأنها لم تخلق للعبث ، بل للطاعة المعينة عليها . وأما الشجر ، فلأن الله تعالى خلقه ، وخلق له العروق وساق اليه الماء ، وخلق فيه قوة الاغتذاء والنماء ليبلغ منتهى نشوه فينتفع به عباده ، فكسره قبل منتهى نشوه لاعلى وجه ينتفع به عباده ، مخالفة لمقصود الحكمة وعدول عن العدالة . نعم ان كان له غرض صحيح في كسره فله ذلك . اذ الشجر والحيوان جعلاء قداءين لاغراض الانسان ، فأنهما جميعا فانيان هالكان . فأفناء الاخص في بقاء الاشرف مدة ما أقرب الى العدل من تضييعهما جميعا . واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وسخر لكم مافي السماوات ومافي الارض جميعا » ١٠

ثم هذه الافعال المتصفة بالكفران ، بعضها يوجب نقصان القرب وانحطاط المنزلة ، وبعضها يخرج بالكلية عن حدود القرب الى عالم البعد

الذي هو أفق الشياطين • ولذلك يوصف بعضها - في لسان الفقه -
بالكراهة وبعضها بالحضر • وقد سومح في الفقه حيث جعل فيه بعض هذه
المكارة مكروهة غير محظورة ، مع ان جميعها عدول عن العدل ، وكفران
للنعمة ، وتقصان عن الدرجة المبلغه الى القرب ، لأن الخطاب به انما هو
الى العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الانعام ، وقد انغمسوا في ظلمات
أعظم من أن تظهر امثال هذه الظلمات بالاضافة اليها • فان المعاصي كلها
ظلمات ، الا أن بعضها فوق بعض ، فيتمحق بعضها في جنب البعض • ولذا
ترى أن السيد يعاتب عبده اذا أستعمل سكينه بغير اذنه ، ولكن لو قتل
بهذا السكين أعز اولاده لم يبق لاستعمال السكين بغير اذنه حكم ونكايه
في نفسه • ولذا جميع هذه المكارة موصوفة عند أرباب القلوب بالحظر ،
ولا يتسامحون في شيء مما راعاه الانبياء والاولياء من الآداب • حتى نقل :
« ان بعضهم جمع أكرارا من الحنطة ليتصدق بها ، فسئل عن سببه فقال :
لبست المداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهوا ، فأريد أن اكفره بالصدقة » •

فصل

أقسام النعم والذات

أعلم ان النعمة عبارة عن كل خير ولذة وسعادة ، بل كل مطلوب
ومؤثر • وهي تنقسم الى مؤثر لذاته لا لغيره ، أي تكون غاية مطلوبة
لذاتها ليس فوقها غاية أخرى ، وهي مخصوصة بسعادة الآخرة التي لا انقضاء
لها ، أعني لذة النظر الى وجه الله ، وسعادة لقائه ، وسائر لذات الجنة ،
من البقاء الذي لا فناء له ، والسرور الذي لا غم فيه ، والعلم الذي لا جهل
معه ، الغنى الذي لا فقر بعده وغير ذلك • فانها لا تطلب ليتوصل بها الى غاية
أخرى مقصودة وراءها ، بل تطلب لذاتها ، وهذه هي النعمة الحقيقية واللذة
الواقعية ، ولذلك قال رسول الله (ص) : « لا عيش الا عيش الآخرة » ،
وغالب هذه النعمة والسعادة وأقواها وأشرفها هي اللذة والبهجة المرضية
العقلية دون الجسمانية - كما لا يخفى - ، فيختص بادراكها العقل ، ولاحظ
للسمع والبصر والشم والبطن والفرج فيها • والى ما يقصد لغيره ، أي تكون
مطلوبة لأجل الغاية المطلوبة لذاتها ووسيلة اليها ، سواء أكانت مقصودة

لذاتها أيضا أم لا * وهي تنقسم الى أربعة اقسام :

القسم الاول - وهو الاقرب الاخص : الفضائل النفسية المذكورة في هذا الكتاب ، ويجمعها العلم والعنة والشجاعة والعدالة ، وهذه مع كونها لذيدة في نفسها ، تكون وسيلة الى النعمة التي هي غاية الغايات بلا توسط وسيلة أخرى * ولذلك قلنا : هي أقرب الوسائل واخصها * وأشرفها العلم وأشرف أفراد العلم : العلم بالله وصفاته وملائكته ورسله ، وأحوال النشأة الآخرة ، وسائر أفعاله ، وعلم المعاملة الراجع الى علم الاخلاق ، اذ هو الذي يؤدي الى السعادة الحقيقية بلا توسط شيء آخر ، وسائر العلوم انما هي مقصودة من حيث كونها وسائل الى هذا العلم ، وهذه الفضائل لذيدة في الدنيا والآخرة نافعة فيهما ، أي تؤدي الى الراحة فيهما ، وجميلة على الاطلاق ، أي تستحسن في جميع الاحوال * وضدها - أعني الجهل والاخلاق السيئة - ضارة مؤلمة في الدارين ، قبيحة على الاطلاق * وسائر الصفات ليست جامعة لهذه الاوصاف * فان أكل لذائد الاطعمة وطيباتها يوجب اللذة والنفع ، أي حصول الراحة في الحال ، ولكنه ضار في المال ، وترك الشهوات بعكس ذلك *

ثم لذة المعرفة وفضائل الاخلاق دائمة لازمة لاتزول أبدا ، لا في الدنيا ولا في الآخرة ، وعقلية يختص بادراكها العقل دون سائر الحواس * وأما غيرها من اللذات ، فبعضها مما يشترك فيه الانسان وبعض الحيوانات ، كلكة الرئاسة والغلبة والاستيلاء ، وهذه اللذة موجودة في الاسد والنمر وبعض آخر من الحيوانات * وبعضها مما يشترك فيه الانسان وسائر الحيوانات ، كلكة البطن والفرج ، وهي أخس اللذات ، ولذلك أشترك فيها كل مادب ودرج ، حتى الديدان والحشرات * فمن جاوز هذه اللذة ، تشبث به لذة الغلبة والاستيلاء ، فان جاوزها أيضا ارتقى الى اللذة العقلية ، فصار أقرب اللذات عليه لذة المعرفة ، لاسيما لذة معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله * وهذه مرتبة الصديقين ، ولا ينال تمامها الا بخروج حب الرئاسة من القلب ، وآخر ما يخرج من رؤس الصديقين حب الرئاسة والجاه ، ولذلك قمعها بالكلية ، بحيث لا يقع بها الاحساس قط ، يشبه ان يكون

خارجا عن مقدرة البشر * نعم ربما غلبت لذة المعرفة في أحوال ، بحيث لا يقع معها الاحساس بلذة الجاه والرئاسة ، الا أن ذلك لا يدوم ، بل تعتريه الفترات ، فتعود الى الحالة البشرية * وعلى هذا تنقسم القلوب الى أربعة أقسام : قلب : لا يجب الا الله ، ولا يستريح الا اليه ، وليس فرحه الا بزيادة المعرفة والفكر فيه ، ولا يسكن الا بحبه وأنسه ، وقلب : أغلب أحواله الانس بالله والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ، ولكن في بعض الاوقات والاحوال يعتريه الرجوع الى أوصاف البشرية * وقلب : أغلب أحواله التلذذ بالجاه والرئاسة والمال وسائر الشهوات البدنية ، وفي بعض الاوقات يتلذذ بالعلم والمعرفة وحب الله والانس به * وقلب : لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الانس بالله ، وانما لذته بالرئاسات والشهوات * والاول — ان كان ممكنا في الوجود فهو في غاية الندور * والثاني — أيضا نادر * والسر في ندور هذين القسمين : أن من أنحصرت لذاته بمعرفة الله وحبه وانسه ، او غلب عليه ذلك ، فهو من ملوك الآخرة ، والملوك هم الاقلون ولا يكثرون فكما لا يكون الفائق في الملك والاستيلاء في الدنيا الا نادرا ، وأكثر الناس دونهم ، فكذا في ملك الآخرة فان الدنيا مرآة الآخرة * اذ الدنيا عالم الشهادة وفي الآخرة عالم الغيب ، وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب ، كما ان الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة ، وهي وان كانت الثانية في رتبة الوجود ، الا أنها في أمر الرؤية أولى ، لانك ترى صورتك في المرآة أولا ، ثم ترى نفسك ، فتعرف بالصورة القائمة بالمرآة صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة ، فأثقل التابع في الوجود متبوعا في حق الرؤية والمعرفة ، وأثقل المتأخر متقدما * وهذا النوع من الانعكاس والاتكاس ضرورة هذا العالم * وكذا عالم الملك والشهادة يحاكي عالم الغيب والملكوت ، فمن الناس من لا ينظر في مرآة عالم الشهادة الا بنظر الاعتبار ، فلا ينظر في شيء من عالم الملك الا ويعبر به الى عالم الملكوت ، فيسمى عبوره عبرة ، وقد أمر الخلق به ، فقيل :

« فاعتبروا يا أولي الابصار » ١١

(١١) الحشر الآية : ٢

ومنهم من عميت بصيرته ، فلم يعتبر ، فاحتبس في عالم الملك والشهادة
وستفتح الى حبسه له أبواب جهنم • وأما الثالث — فأكثر وجودا منه •
وأما الرابع — فدار الدنيا طافحة به ، لقصور أكثر الناس عن ادراك لذة
العلم ، اما لعدم الذوق ، اذ من لم يذق لم يعرف ولم يشق ، اذ الشوق فرع الذوق
وذلك اما لقصور فطرتهم وعدم اتصافهم بعد بالصفة التي بها يستلذ العلم ،
كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة العسل ، ولا يستلذ الا باللبن ، فهؤلاء
ممن يحيى باطنهم بعد كالطفل • واما لمرض قلوبهم أو موتها بسبب اتباع
الشهوات ، كالمريض الذي لا يدرك لذة الشكر ، او الميت الذي سقط عنه
الادراك ، وهؤلاء كالمرضى او الاموات بسبب اتباع الشهوات •
القسم الثاني — الفضائل البدنية : وهي أربعة : الصحة ، والقوة ،
وطول العمر ، والجمال •

الثالث — النعم الخارجة المضيئة بالبدن : وهي : المال ، والجاه ،
والاهل ، وكرم العشيرة •

الرابع — الاسباب التي تناسب من وجه الفضائل النفسية ، ويعبر عنها
بالنعم التوفيقية : وهي : هداية الله ، ورشده ، وتسديده ، وتأيينه • وهذه
الجملة مما يتوقف بعضها على بعض ، الى أن ينتهي الى السعادة التي هي
مطلوبة لذاتها • والتوقف اما على سبيل اللزوم والضرورة ، كتوقف سعادة
الآخرة على الفضائل النفسية والبدنية ، وتوقف الفضائل النفسية على صحة
البدن ، أو على سبيل النفع والاعانة ، كتوقف الفضائل النفسية والبدنية
على النعم الخارجة • ووجه كونها معينة نافعة في تحصيل العلم وتهذيب
الاخلاق وصحة البدن ظاهر • وأعانة الجمال في كسب الفضائل النفسية
والبدنية مبني على أن القبيح مذموم ، والطباع عنه نافرة ، فحاجات الجميل
الى الاجابة أقرب ، وجاهه في الصدور أوسع • وأيضا الغالب دلالة الجمال
على فضيلة النفس ، لأن نور النفس اذا تم أشراقه تأدى الى البدن • ولذلك
عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيئات البدن • ثم إنا
لا نعنى بالجمال ما يجره الشهوة ، فان ذلك أنوثة ، بل نعنى به البراءة
عن العيوب والنقص والزيادة ، وأرتفاع القائمة على الاستقامة ، مع الاعتدال

في اللحم ، وتناسب الاعضاء ، وتناسب خلقه الوجه ، بحيث لا تنبو الطباع عن النظر اليه . وأما احتياج الفضائل الخلقية والجسمية والخارجية الى النعم التوقيفية ، فلأن المراد بالتوقيفية هو التألف بين ارادة العبد وبين قضاء الله وقدره ، بشرط كون المراد والمقضى سعادة . وبعبارة أخرى : هو توجيه الاسباب نحو المطلوب .

وأما الهداية ، فلها مراتب : أولاها : الهداية العامة ، وهي اراءة طريق الخير وتعريفه . وثانيها : الخاصة ، وهي الافاضات المتتالية الواردة من الله على بعض عبده ، نظرا الى مجاهدتهم . وثالثها : الهداية المطلقة ، وهي النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية ، فيهدى بهما الى مالا يهتدى اليه بالعقل . وتوقف تحصيل كل خير وفضيلة ، كائنا ما كان ، على مساعدة القضاء والقدر ، وعلى العلم بطريق الخير ، ظاهر .

وأما الرشده ، فالمراد به العناية الإلهية ، التي تعين الانسان عند توجيهه الى مقاصده ، فيقويه على ما فيه صلاحه ، ويفتره عما فيه فساده ، ويكون ذلك من الباطن . وبعبارة أخرى : هو هداية باعثة الى جهة السعادة محركة اليها . وقد ظهر احتياج تحصيل الخير والسعادة اليه من مفهومه .

وأما التسديد ، فهو توجيه حركاته الى صوب المطلوب وتيسرها عليه ، ليصل اليه في أسرع وقت . فالهداية محض التعريف ، والرشده هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتتحرك ، والتسديد أمانة ونصرة بتحريك الاعضاء الى صوب الصواب والسداد . وقد ظهر وجه كون التسديد معينا في طلب الخير أيضا من حاق معناه .

وأما التأييد ، فانه جامع للكل ، اذ هو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة فكأنه من داخل ، وبقوة البطش ومساعدة الاسباب من خارج . وتقرب منه العصمة ، وهي عبارة عن وجود إلهي يسبح في الباطن ، يقوى به الانسان على تحري الخير وتجنب الشر ، حتى يصير كمانع باطني غير محسوس يمنع عن الشر . وهو المراد من برهان الرب في قوله تعالى :

« ولقد هممت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ١٢

تنبيه

أعلم أن النعم الآخروية ، التي هي الغايات المطلوبة لذواتها ، وتفصيلها وأسبابها وما يتوقف وجودها عليه ، إلى أن ينتهي إلى مسبب الأسباب ، مما لا يمكن دركها ، والعقول البشرية قاصرة عن درك قليلها فضلا عن كثيرها ، وأما الوسائل الأربعة من النعم التي انقسم كل منها أيضا إلى أربعة أقسام ، وصار مجموعها ستة عشر قسماً ، فيستدعي كل قسم من الستة عشر أسباباً ، وتلك الأسباب أسباباً ؛ حتى تنتهي بالآخرة إلى مسبب الأسباب وموجد الكل . والمتفكر يعلم ، أن كلا منها يتوقف على نعم وأسباب أخرى متسلسلة خارجة عن حد الإحصاء . فإن نعمة الصحة التي من النعم الواقعة في المرتبة المتأخرة تتوقف على أسباب ونعم من جملتها نعمة الأكل ، فإن إحصاءها وإن لم يكن ممكناً ، إلا أننا نشير إلى بعضها على سبيل التلويح دون الاستقصاء ، لتقاس عليها البواقي . فنقول :

نعمة الأكل تتوقف على ادراك الغذاء وأسبابه ، وعلى شهوة الطعام وميله وارادته وأسبابه ، وعلى القدرة إلى تحصيله وأسبابه ، وعلى وجود أصل الغذاء المأكول وتكوّنه ، وعلى أصله بعد وجوده وتكوّنه ، وعلى الأسباب الموصلة له إلى كل إنسان أو كان بعيداً عنه ، وعلى أسباب الطحن والجذب والهضم والدفع وسائر الأفعال الباطنة إلى أن يصير جزءاً للبدن ، وعلى الملائكة الموكلين على فعل من الأفعال المذكورة . فهذا هي نذكرها أجمالاً وتلويحاً في فصول :

فصل

الأكل

الأكل يتوقف أولاً على أدراك الغذاء المأكول رؤية ولمساً واستشماماً وذوقاً ، إذ مالم يبصره لم يمكنه تمييزه وطلبه ، ومالم يلامسه لم يتمكن من درك بعض أوصافه اللازمة في الأكل ، ومالم يشمه لم يتشخص ما يكره رائحته عما تطيب رائحته ، وربما توقف تحصيله على استشمام رائحته من بعد ، لاسيما لبعض الحيوانات ، ومالم يذقه لم يدرك أنه موافق أو مخالف له ، وبذلك ظهر توقفه على خلق الحواس المدركة الظاهرة ، فخلقها الله

سبحانه • ثم ، الاسباب التي يتوقف عليها خلق هذه الحواس مما لا تتناهى ، فلا تتعرض البيانها • وبعد ادراك الغذاء - على ما ذكر - لا بد له من قوة أخرى يعرف بها كون الغذاء الذي ذاقه سابقا ورآه مرة أخرى موافقا أو مخالفا ، وهذه القوة هي الحس المشترك ، الذي يتأدى اليه جميع المحسوسات ويجتمع فيه ؛ فانك اذا أكلت شيئا أصفر مثلا فوجدته مرة مخالفا لك فتركته فاذا رأيته مرة أخرى فلا تعرف أنه مره ما لم تذوقه ، لو لا الحس المشترك ، اذا العين تبصر الصفرة ولا تدرك المرارة ، والذوق يدرك المرارة ولا يدرك الصفرة ، فلا بد من حاكم يجتمع عنده الصفرة والمرارة جميعا ، حتى اذا أدرك الصفرة حكم بأنه مره ، فيستنع عن تناوله ثانياً • وهذه القوة - أعني الحس المشترك - يتوقف خلقه على أسباب ونعم لا يمكن أحصاؤها ، فلتذرها على سبيلها •

ثم الادراك بالحواس الظاهرة والحس المشترك ، مما تشترك فيه سائر الحيوانات ، ولو انحصر ادراك الانسان أيضا به لكان ناقصا • اذ البهيمة تأكل ما تستلذ به في الحال ويضرها في ثاني الحال ، فتمرض وتموت ، اذ ليس لها الا الإحساس بالحاضر ، وأما ادراك العواقب فليس لها اليه سبيل • فيتوقف ، تمييز صلاح العواقب وفسادها على قوة أخرى • فخلق الله للانسان العقل ، به يدرك مضرة الاطعمة ومنفعتها في المآكل ، وبه يدرك كيفية طبخ الاطعمة وتركيبها ، وأعداد أسبابها ، فينتفع بعقله في الاكل الذي هو سبب صحته ، وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه ، اذ الحكم والفوائد المترتبة عليه أكثر من ان تحصى ، وأعظم الحكم فيه معرفة الله ومعرفة صفاته وأفعاله • والعقل بمنزلة السلطان في مملكة البدن ، والحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الاخبار والموكلين بنواحي المملكة ، وقد وكل كل واحدة منها بأمر خاص • فواحدة بأخبار الالوان ، وأخرى بأخبار الاصوات وأخرى بأخبار الروائح ، وأخرى بأخبار الطعوم ، وأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة والملاسة واللين والصلابة • فهذه الجواسيس يقتنصون الاخبار من أقطار المملكة ، ويسلمونها الى الحس المشترك ، وهو قاعد في مقدمة الدماغ ، مثل صاحب الكتب والقصص على باب الملك ، يجمع

القصص والكتب الواردة من نواحي العالم ، ويأخذها ويسلمها الى العقل الذي هو السلطان مختومة ، اذ ليس له الا أخذها وحفظها ، وأما معرفة حقائق ما فيها فليس اليه . ولكن اذا صادف القلب العاقل الذي هو الامير والملك سلم ، لانها آتية اليه مختومة ، فيفتشها الملك ويطمع على أسرار المملكة ، ويحكم فيها بأحكام عجيبة لا يمكن استقصاؤها . وبحسب ما يلوح له من الاحكام والمصالح يحرك الجنود - أعنى الاعضاء - في الطلب او الهرب او اتمام التدبيرات التي تعين له . ثم عجائب حكم العقل والاسباب التي يتوقف خلقه عليها ليس دركها في مقدرة البشر ، وهذه ما يتوقف عليه الاكل من الادراكات وأسبابها .

فصل

لافائدة في الغذاء ما لم يكن بشهوة وميل

اذا أدرك الغذاء ، لم يفد فائدة ما لم تكن شهوة له وميل وشوق اليه . اذ لولا الميل اليه لكان ادراكه بأي حس وقوة فرضاً معطلا . ألا ترى أن المريض يرى الطعام ويدرك انه أنفع الاشياء له ، وقد سقطت شهوته ، فلا يتناوله ، فيبقى البصر والادراك معطلا في حقه ؟ فيتوقف الاكل على ميل الى الموافق ، ويسمى شهوة ، ونفرة عن المخالف ، ويسمى كراهة . فخلق الله شهوة الطعام وسلطها على الانسان كالمتقاضى الذي يضطره الى تناول ، وهذه الشهوة لولم تسكن بعد أخذ قدر الحاجة لأسرفت وأهلكت نفسه ، فخلق الله الكراهة عند الشبع لترك الاكل بها ، ولم يجعلها كالأزرع الذي لا يزال يجتذب الماء اذا أنصب في أسافله حتى يفسد ، ولذلك يحتاج الى آدمي يقدر غذاءه بقدر الحاجة ، فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى . ثم مجرد الميل والشهوة لا يكفي ، ما لم تنبعث الداعية الى تناول الغذاء ، فخلق الله تعالى له الارادة أعني انبعث النفس الى تناوله . وربما حصل الاحتياج الى قوة الغضب أيضا ليندفع عن نفسه المؤذى وما يضاده ويخالفه ، ومن أراد أن يأخذ منه ما حصله من الغذاء . ثم لكل واحد من الشهوة ، والكراهة ، والارادة ، والغضب ، أسباب لا يمكن احصاؤها . ثم بعد أدراك الغذاء وميله وشهوته وارانته ، لا يفيد شيئاً من ذلك ما لم يتحقق الطلب والاخذ بالفعل بالاتهما . فكم من زمن شائق الى شيء بعيد منه مدرك له مائل

اليه مرید له ، لا يمكنه ان يمشى اليه لفقده رجله ، او لا يمكنه أن يتناوله لفقده يده أو لفلج او عذر فيهما • فلا بد من آلات للحركة ، وقدرة في تلك الآلات على الحركة ، لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا ، فلذلك خلق الله تعالى لك الاعضاء التي تنظر الى ظاهرها ولا تعرف أسرارها • فمنها ماهو آلة للطلب ، كالرجل للانسان ، والجنح للطير ، والقوائم للدواب • ومنها ما هو آلة لدفع المؤذي والمانع من طلب الغذاء ، كالقرن لبعض الحيوانات ، والانياب لبعض آخر منها ، والمخالب لبعض آخر منها ، والاسلحة للانسان القائمة مقام هذه الآلة • ومنها ماهو آلة للأخذ والتناول ، كاليدين للانسان • ثم لهذه الاعضاء أسباب وحكم خارجة عن الحد والحصر ، وقد تقدم قليل من حكمها وعجائبها في باب التفكير •

فصل

عجائب المأكولات

عمدة ما يتوقف عليه الأكل وأصله ومناطه ، هي الاغذية والاطعمة المأكولة ، والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لا تحصى ، وأسباب متواليبة لا تتناهى • والاغذية والادوية من الاطعمة لم يبلغ عددها من الكثرة حدا يمكن أحصاؤها وحصرها ، فضلا عن بيان عجائبها وأسبابها • فنحن نترك الجميع ، ونأخذ من جملتها حبة من الحنطة ، ونبين بعض أسبابها وحكمها وعجائبها • فنقول :

قد خلق الله في حبة الحنطة من القوى ما يغتذي به كما خلق فيك ، فان النبات انما يفارقك في الحس والحركة دون الاغذاء ، لانه يغتذي بالماء • ولا تتعرض لذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء الى نفسه ، بل نشير الى لمعة من كيفية اغتذاء الحبة • فنقول :

ان الحبة لا تغتذي بكل شيء ، بل يتوقف اغتداؤها على أرض فيها ماء • ولا بد ان تكون أرضها رخوة متخلخلة بتغلغل الهواء اليها ، فلو تركتها في أرض ندية صلبة متراكمة لم تنبت لفقده الهواء • ثم الهواء لا يتحرك اليها بنفسه ، فلا بد من حصول أسباب الريح حتى تحرك الهواء وتضربه وينفذ فيها بقهر وعنف ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وأرسلنا الرياح لواقح » ١٣

وإلقاها انما هو ايقاعها الازدواج بين الهواء والماء والارض . ثم لا يكفي ذلك في انباته في برد مفرط ، فيحتاج الى حرارة الصيف والربيع . فهذه أربعة أسباب ، فان الماء لا بد ان ينساق الى أرض الزراعة من البحار والشطوط والانهار والعيون والسواقي ، فأنظر كيف خلق الله جميع ذلك . ثم الارض ربما تكون مرتفعة لا ترتفع اليها مياه العيون والقنوات ، فخلق الله الغيوم ، وهي سحب ثقيل حاملات للماء ، وسلط عليها الرياح لتسوقها بأذنه الى أقطار العالم من المرتفعات والمنخفضات ، وترسلها مدرارا على الاراضي في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة ، ثم خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريجا على قدر الحاجة ، ولو خرجت دفعة لغرقت البلاد ، وهلك الزرع والمواشي . ونعم الله تعالى وعجائب صنعه وحكمته في السحاب والبحار والجبال والامطار لا يمكن احصاؤها . وأما الحرارة ، فانها لا يمكن ان تحصل في الماء والارض ، لكونهما باردين . فخلق الله الشمس ، وسخرها ، وجعلها — مع بعدها عن الارض — مسخنة لها في وقت دون وقت ، ليحصل الحر عند الحاجة اليه ، والبرد عند الافتقار اليه ، وهذه أحسن حكم الشمس ، والحكم فيها أكثر من أن تحصى . ثم النبات ان أرتفع على الارض كان في الفواكه انعقاد وصلابة ، فتفتقر الى رطوبة تنضجها ، فخلق الله القمر ، وجعل من خاصيته الترطيب ، كما يظهر لك ذلك اذا كشفت رأسك له في الليل ، فانه تغلب على رأسك الرطوبة المعبر عنها بـ (الزكام) ، فهو بترطيبه ينضج الفواكه ويرطبها ، ويصبغها بتقدير الخالق الحكيم . وهذا أيضا أحسن فوائد القمر وحكمه ، وما فيه من الحكم والفوائد لا متمع في استقصائه ، بل كل كوكب في السماء فقد سخر لفوائده كثيرة لانتهى القوى البشرية بأحصائها . وكما انه ليس في اعضاء البدن عضو لافائدة فيه ، فكذلك ليس عضو من أعضاء بدن العالم لا تكون فيه فائدة أو فوائد كثيرة . والعالم كله كشخص واحد ، وآحاد أجسامه

كالأعضاء له ، وهي متفاوتة تفاوت أعضاء البدن ، وشرح ذلك ليس في مقدرة البشر ، وكلها مسخرات لله سبحانه ، وآثار من قدرته الكاملة ، ورشحات من أبحر عظمته الباهرة ، وليست في أنفسها إلا أعدام صرفة . فأرباب القلوب العارفون بالله المحبون له ، إذا نظروا إلى ملكوت السماوات والأرض ، والآفاق والانس ، والحيوانات والنباتات ، لا ينظرون إليها إلا من حيث أنها آثار قدرة ربهم ، ورشحات صفاته ، ويكون تفكرهم وسعيهم في العثور على عجائبها وحكمها ، وابتهاجهم وشغفهم لأجل ذلك . كما أن من أحب عالما لم يزل مشغوقا بطب تصانيفه ، فيزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه حبا له . فكذلك الأمر في عجائب صنع الله ، فإن العالم كله من تصنيفه تعالى ، بل جميع المصنفين أيضا من تصنيفه الذي صنفه بواسطة قلوب عباده . فإن تعجبت من تصنيف ، فلا تتعجب من المصنف ، بل من الذي سخر المصنف لتأليفه بما انعم عليه من هدايته وتسديده وتعريفه . كما إذا رأيت لعب المشعوذ (١٤) يترقص ويتحرك حركات موزونة متناسبة ، فلا تتعجب من اللعب ، فإنها خرق محرقة لا متحركة ، ولكن تعجب من حذق المشعوذ المحرك لها بروابط دقيقة عن الابصار . وقد ظهر أن غذاء النبات لا يتم إلا بالماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ، ولا يتم ذلك إلا بالافلاك التي هي مركوزة فيها ، ولا تتم الافلاك إلا بحركاتها ، ولا تتم حركاتها إلا بملائكة سماوية يحركونها ، وكذلك تتسلسل الاسباب إلى أن تنتهي إلى مسبب الاسباب وغاية الكل ، وليس لناسيب إلى ادراك تفاصيلها واستنباط عجائب حكمها ودقائق مصالحها .

فصل

حاجة تحضير الطعام إلى آلاف الاسباب

ثم ما ينبت من الأرض من النبات ، وما يحصل من الحيوانات ، لا يمكن أن تقضم وتؤكل كذلك ، بل لابد في كل واحد من أصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف ، بالقاء البعض وابقاء البعض ، إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تحصى ، وكل من الاطعمة يتوقف أصلاحها على أمور خاصة كثيرة ،

(١٤) المشعوذ : الرجل الحيال الذي يصنع الشعبة .

واستقصاء ذلك في كل طعام طويل • فلنأخذ رغيفا واحدا ، وننظر الى بعض ما يحتاج اليه حتى يستدير ويصلح للأكل ، اذ بيان جميع ما يحتاج اليه حتى يستدير الرغيف الواحد ليس ممكنا ، فنقول :

أول ما يتوقف عليه هذا الرغيف الارض ، ثم القاء البذر فيها ، ثم الثور الذي يثير الارض مع آلاته ، كالفدان وغير ذلك ، ثم تنقية الارض من الحشائش ، والتعهد بسقي الماء الى أن يعقد الحب ويبدو صلاحه ، ثم الحصاد ، ثم الفرك ، ثم التنقية والتصفية ، ثم الطحن ، ثم العجن ، ثم الخبز • فتأمل عدد هذه الافعال ، واستحضر سائر الافعال التي لم نذكرها ، ثم تذكر عدد الاشخاص القائمين بها ، وعدد الآلات التي يحتاج اليها • من الحديد والخشب والحجر وغيرها • وانظر الى أعمال الصناع في اصلاح آلات الحراثة والتصفية والطحن والخبز من تجارة وحدادة وغيرها ، واحتياج كل منها الى آلات كثيرة • ثم انظر كيف ألف الله سبحانه بين قلوب هؤلاء الصناع المصلحين ، وسلط عليهم الانس والمحبة ، حتى ائتلفوا وأجتمعا وبنوا المدن والبلاد ، ورتبوا المساكن والدور متجاورة متقاربة ، وبنوا الاسواق والخانات وسائر أصناف البقاع ، ولو تفرقت آراؤهم ، وتنافرت طباعهم تنافر طباع الوحوش ، لتبددوا وتباعدوا ، ولم ينتفع بعضهم ببعض • ثم لما كان في جبلة الانسان الغيظ والعداوة ، والحسد والمنافسة ، والانحراف عن الحق ، ربما زالت المحبة بين البعض لاعراض ، فيزدحمون عليها ، ويتنافسون فيها ، وربما أدى الى التنافر والتقابل • فبعث الله الانبياء بالشرائع والقوانين ليرجعوا اليها عند التنازع ، فيرتفع نزاعهم • ثم بعث العلماء الذين هم ورثة الانبياء لحفظ هذه الشرائع والعلم بها • وبعث الله السلاطين حتى يقيموا الناس قهرا عليها لو أرادوا التخلف عنها ، فسلط الله السلاطين اولى القوة والعدة على الناس ، وألقى رعبهم في قلوبهم ، والههم اصلاح العباد ، بأن رتبوا الرؤساء والقضاة والحكام والسجن والاسواق واضطروا الخلق الى قانون الشرع والعدل ، وألزموهم التالف والتعاون ، ومنعوهم عن التفرق والتباغض فاصلاح الرعايا والصناع بالسلاطين ، واصلاح السلاطين بالعلماء ، واصلاح العلماء بالانبياء ، واصلاح الانبياء بالملائكة

واصلاح الملائكة بعضهم ببعض الى ان ينتهى الى حضرة الربوبية ، التى هى ينبوع كل نظام ، ومطامع كل حسن وجمال ، ومنشأ كل ترتيب وتأليف . وقد ظهر مما ذكر : ان من فتش يعلم ان رغيها واحدا لا يستدير بحيث يصلح للاكل ما لم يعمل عليه آلاف ألوف من الملائكة وصناع الانس .

فصل

تسخير الله التجار لجلب الطعام

ثم جميع الاطعمة لما لم يمكن ان يوجد في كل مكان وبلد ، اذ لكل واحد شروط مخصوصة لاجلها ، لا يمكن الا ان يوجد في بعض الاماكن دون بعض ، والناس منتشرون على وجه الارض ، وقد يبعد عنهم بعض ما يحتاجون اليه من الاطعمة ، بحيث تحول بينهم وبينها البرارى والبحار ، فسخر الله - تعالى - التجار ، وسلط عليهم حرص المال وشره الربح ، حتى يقاسوا الشدائد ، ويركبوا الاخطار في قطع المفاوز وركوب البحار فيحملون الاطعمة وانواع الحوائج من الشرق الى الغرب ، ومن الغرب الى الشرق . فانظر كيف علمهم الله صناعة السفن وكيفية الركوب فيها ، وكيف خلق الحيوانات وسخرها للحمل والركوب في البوادي والجبال من الجمال وكيفية قطعها البرارى والمراحل تحت الاعباء الثقيلة وصبرها على الجوع والعطش ، ومن الخيل وكيفية سرعة سيرها وحرركاتها ، ومن الحمار وصبره على التعب وانظر كيف خلق الله ما يحتاج اليه السفن وهذه الحيوانات من الاسباب والغذاء ، وينتهى الى حد لا يمكن تحديده .

فصل

نعم الله في خلق الملائكة للانسان

ثم مجرد وجود الغذاء وحضوره واصلاحه لا يفيد فائدة ما لم يؤكل ويصير جزء للبدن . وهذا موقوف على اعمال كثيرة ، محتاجة الى اسباب كثيرة ، من الطحن ، والجذب ، والهضم المعدي والكبدى ، وغير ذلك من الافعال التى يحتاج كل منها الى اسباب كثيرة . وقد اشرنا الى لمعة من كيفية ذلك في باب التفكير ، فارجع اليه . وهنا تشير الى انموذج من نعمة الله في خلق الملائكة . فنقول :

ان كثرة الملائكة لم تبلغ حدا يمكن تصوره تفصيلا او اجمالا * ولهم طبقات وأصناف : منها : طبقات الملائكة الارضية * ومنها : الملائكة السماوية * ومنها : حملة العرش العظيم * ومنها : المسلسلون * ومنها : المهيمنون * * وغير ذلك مما لم نسمع اسمهم ورسومهم ، ولا يحيط بهم الا الله - سبحانه - فكل صنع من صنائع الله في الارض والسما لا يخلو عن ملك أو ملائكة موكلين به * فانظر كيف وكلهم الله بك فيما يرجع الى الاكل والاغتذاء الذي كلامنا فيه ، دون ما يجاوزه ، وذلك من صنائع الله وافعاله ، ومن الوحي الى الانبياء والهداية والارشاد وغيرها ، فان استقصاء ذلك ليس من مقادير البشر * فنقول : ان كل جزء من اجزاء بدنك ، بل من اجزاء النبات ، لا يغتذى الا بأن يوكل به سبعة من الملائكة ، هم أقل الاعداد الى عشرة الى مائة ، الى أكثر من ذلك بمراتب *

بيان ذلك : ان معنى الاغتذاء : ان يقوم جزء من الغذاء مقام جزء تلف من بدنك * وهذا موقوف على حركات وتغيرات واستحالات للغذاء ، حتى يصير جزء للبدن كالجذب والهضم وصيرورته لحما وعظما * ومعلوم ان الغذاء والدم واللحم اجسام ليست لها قدرة ومعرفة واختيار حتى تتحرك وتتغير بانفسها ، ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في اطوارها ، كما ان البر بنفسه لا يصير طحيننا وعجيننا وخبزا مطبوخا الا بصناع ، والصناع في الباطن هم الملائكة ، كما ان الصناع في الظاهر هم أهل البلد * فالغذاء ، بعد وضعه في الفم الى أن يصير دما لا بد له من صناع من الملائكة ، ولا تتعرض لهم وليبيان عددهم ، ونقول : بعد صيرورته دما الى ان يصير جزء للبدن ، يتوقف على سبعة من الملائكة ، اذ لا بد من ملك يجذب الدم الى جوار اللحم والعظم اذ الدم لا يتحرك بنفسه ، ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ، ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ، ومن رابع يكسوه صورة اللحم والعظم والعرق ، ومن خامس يدفع الفضل الزائد من الحاجة ، ومن سادس يلصق ما اكتسب صفة اللحم باللحم ، وما اكتسب صفة العظم بالعظم ، وما اكتسب صفة العرق بالعرق حتى لا يكون منفصلا ، ولا بد من سابع يراعى المقادير في الاصاق ، فيالحق بالمستدير على ما لا يبطل استدارته ، وبالعريض

على ما لا يبطل عرضه ، وبالمجوف على ما لا يبطل تجويفه ، وهكذا * * *
ويراعى في الالتصاق لكل عضو ما يليق به ويحتاج اليه * فلو جمع لاتف
الصبي - مثلاً - من الغذاء ما يجمع على فخذة ، لكبر أفعه ، وبطل تجويفه
وتشوهدت صورة ، بل ينبغي ان يسوق الى الاجفان مع رقتها ، والى الافخاذ
مع غلفتها ، والى الحدثة مع صفائها ، والى العظام مع صلابته ، ما يليق
بكل واحد منها من حيث القدر والشكل ، ويراعى العدل في القسمة
والتقسيم والا بطلت الصورة ، وتشوهدت الخلقة ، ورق بعض المواضع
وضعف البعض فمراعاة هذه الهندسة مفوضة الى ملك من الملائكة * واياك
وان تظن ان الدم بطبعه يهندس شكل نفسه ، فان من أحال هذه الامور
الى الطبع جاهل ولا يدري ما يقول * فان اراد من الطبع قوة عديمة الشعور
ويقول : ان كل فعل من هذه الافعال موكل الى قوة لا شعور لها ، فنقول
ذلك أدل على عظمة الله وحكمته وقدرته ، اذ لا ريب في ان ما لا شعور
له ليس له في نفسه ان يفعل فعلاً ما ، فضلاً عن ان يفعل أفعالاً متقنة محكمة
مشملة على الحكم الدقيقة ، والمصالح الجليلة والخفية * فتكون هذه شروطاً
ناقصة لايجاد الله سبحانه هذه الافعال بلا واسطة او بواسطة عدده القوي
من الملائكة * وعلى أى تقدير ، لا بد من سبعة اشخاص من مخلوق الله
سبحانه - مسخرين في باطنك ، موكلين بهذه الافعال ، قد شغلوا بك وانت
في النوم تستريح ، وفي الغفلة تتردد ، وهم يصلحون الغذاء في باطنك
ولاخبر لك منهم ، وكذلك في كل جزء من اجزائك التى لا تتجزأ ، حتى
يفتقر بعض الاجزاء - كالعين والقلب - الى أكثر من مائة ملك * ثم الملائكة
الارضية مددهم من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم ، لا يحيط بكنهه
الا الله ، ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش ، والمنعم على جميعهم
بالتأييد والتسديد والهداية المهيمن القدوس ، المتفرد بالملك والملكوت والعزة
والجبروت * ومن اراد ان يعلم - اجمالاً - كثرة الملائكة الموكلين بالسماوات
والارضين ، وأجراء النبات والحيوانات ، والسحب والهواء والبحار والجبال
والامطار وغير ذلك ، فليرجع في ذلك الى الاخبار الواردة من الحجج
- عليهم السلام - * ثم لا بد أن يفرض كل فعل من الافعال السبعة المذكورة

الى ملك من الملائكة ، ويكون الموكل به ملكا واحدا على حدة ، ولا يمكن أن يفوض جميعها الى ملك واحد ، كما لا يمكن أن يتولى انسان واحد سبعة اعمال في الحنطة ، كالطحن وتمييز النخالة ، ودفع الفضلة عنه ، وصب الماء عليه ، والعجن ، وقطعها كسرات مدورة ، وترقيقها رغفانا عريضة ، والصاقها بالتنور . اذ الملك وحداني الصفة ، ليس فيه خلط وتركيب من المتضادات . فلا يكون لكل واحد منهم الا فعل واحد ، كما اشير اليه بقوله - تعالى - :

« وما منا الا له مقام معلوم » ١٥

ولذلك ، ليس بينهم تحاسد وتنافس . ومثالهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وعدم مزاحمة الاخر له مثال الحواس الخمس ، وليس كالانسان الذي يتولى بنفسه امورا مختلفة ، وسبب ذلك اختلاف صفاته ودواعيه ، فانه لما لم يكن وحداني الصفة لم يكن وحداني الفعل ، ولذلك ترى انه يطيع الله تارة ويعصيه أخرى . وذلك غير موجود في الملائكة ، فانهم مجبولون على الطاعة لم تتصور في حقهم معصية ، ولكل منهم طاعة خاصة معينة . فالرايع منهم رايع أبدا ، والساجد منهم ساجد دائما ، والقائم منهم قائم أبدا ، لا اختلاف في افعالهم ولا فتور ، ولكل واحد منهم مقام معلوم . واذ قد ظهر لك عدد ما يحتاج اليه بعض افعال مجرد الاغتذاء من الملائكة الارضية المستمدين من الملائكة السماوية ، فقس عليه سائر افعال الاغتذاء ، وسائر افعالك الباطنة والظاهرة ، فان بيان ذلك ليس ممكنا . ثم قس على ذلك اجمالا جملة صنائع الله وافعاله الواقعة في عالمي الجبروت والملكوت ، وعالم الملك والشهادة ، فسماواته وارضه وما بينهما وما تحتها وما فوقها فان اعداد الملائكة الموكلين بها غير متناهية ، كيف ومجامع طبقات الملائكة وانواعهم خارجة عن الاحصاء ، فضلا عن الآحاد الداخلة تحت الطبقات؟ وقد ظهر مما عرفت من توقف كل نعمة على نعم كثيرة متسلسلة ، الى أن ينتهي الى الله ، واتصال البعض ببعض ووقوع الارتباط والترتب

بينهما : ان من كفر نعمة الله فقد كفر كل نعمة في الوجود ، فمن نظر الى غير محرم - مثلا - فقد كفر ، ففتح العين نعمة الله في الاجفان ، ولا تقوم الاجفان الا بالعين ، ولا العين الا بالرأس ، والا الرأس الا بجميع البدن ، ولا البدن الا بالغذاء ، ولا الغذاء الا بالماء والارض والهواء والمطر والغيم والشمس والقمر وسائر الكواكب ، ولا يقوم شيء من ذلك الا بالسماوات ولا السماوات الا بالملائكة . فان الكل كالشيء الواحد ، يرتبط البعض منه بالبعض ارتباط اعضاء البدن بعضها ببعض . فاذن قد كفر كل نعمة في الوجود ، من ابتداء الثرى الى منتهى الثريا . وحينئذ لا يبقى جماد ولا نبات ولا حيوان ، ولا ماء ولا هواء ، ولا كوكب ولا فلک ولا ملك ، الا يلعبه . ولذلك ورد في الاخبار : « ان البقعة التي يجتمع فيها الناس ، اما تلعبهم اذا تفرقوا ، أو تستغفر لهم » . وكذلك ورد : « ان الملائكة يلعبون العصاة » . وورد : « ان العالم يستغفر له كل شيء ، حتى الحوت في البحر » . وأمثال هذه الاخبار الدالة على ما يفيد المراد خارجة بطرفه عن الاحصاء ، وكل ذلك اشارة الى ان العاصي بتطريفة واحدة يجني على جميع الملك والملكوت .

ثم جميع ما ذكرناه انما يتعلق بجزء من المطعم ، فاعتبر ما سواه . ثم تأمل هل يمكن أن يخرج أحد عن عهدة الشكر ؟ كيف والله في كل طرفة على كل عبد من عبده نعم كثيرة خارجة عن الاحصاء ؟ فان في كل نفس ينسبط وينقبض نعمتين ، اذ بانسباطه يخرج الدخان المحترق من القلب ، ولو لم يخرج لهلك ، وبانقباضه يجتمع روح الهواء الى القلب ، ولو لم يدخل نسيم الهواء فيه لا تقطع قلبه وهلك . ولما كان اليوم والليلة اربعا وعشرين ساعة وفي كل ساعة يوجد الف نفس تخميناً ، واذا اعتبرت ذلك وقست عليه سائر النعم ، يكون عليك في كل يوم وليلة آلاف ألوف نعمة في كل جزء من اجزاء بدنك ، بل في كل جزء من اجزاء العالم ، وكيف يمكن احصاء ذلك ولذلك قال الله - تعالى - :

« وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ١٦

وورد : « ان من لهم يعرف نعمة الله الا في مطعمه ومشربه ؛ فقد قل علمه وحضر عذابه » . فالبصير لا تقع عينه في العالم على شيء ، ولا يلم خاطره بموجود ، الا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليه . ولذلك قال موسى بن عمران : « الهي ! كيف أشكرك ولك علي في كل شعرة من جسدي نعمتان : أن لينت اصلها ، وان طمست رأسها » .

فصل

الاسباب الصارفة للشكر

اعلم أن السبب الصارف لاكثر الخلق عن الشكر ، اما قصور معرفتهم بأن النعم كلها من الله - سبحانه - ، أو قصور معرفتهم واحاطتهم بصنوف النعم وآحادها ، أو جهلهم بتحقيقة الشكر وكونه استعمال النعمة في اتمام الحكمة التي اريدت بها ، وظنهم أن حقيقة الشكر مجرد أن يقولوا بلسانهم : الحمد لله ، أو الشكر لله ، أو الغفلة الناشئة عن غلبة الشهوة واستيلاء الشيطان ، بحيث لا يتنبهون للقيام بالشكر ، كما في سائر الفضائل والطاعات أو عدم احتسابهم للجهل ما يعم الخلق ويشملهم في جميع الاحوال من النعم نعمة . ولذلك لا يشكرون على جملة من النعم ، لكونها عامة للخلق ، مبذولة لهم في جميع الحالات . فلا يرى كل واحد لنفسه اختصاصا بها ، فلا يعدها نعمة . وتأكد ذلك بألفهم واعتيادهم بها ، فلا يتصورون خلاف ذلك ، ويظنون أن كل انسان يلزم أن يكون على هذه الاحوال . فلذلك تراهم لا يشكرون الله على روح الهواء ، ووفور الماء ، وصحة البصر والسمع وأمثال ذلك . ولو أخذ يمحققهم ، حتى انقطع عنهم الهواء ، وحبسوا في بيت حمام فيه هواء حار ، أو بئر فيها هواء تقبل رطوبة الماء ، ما تواءم انبلى واحد بشيء من ذلك ، ثم نجى منه ، ربما قدر ذلك نعمة وشكر الله عليه . وكذا البصير ، اذا عميت عينه ، ثم اعيد عليه بصره ، عده نعمة وشكره ، ولو لم يتل بالعمى وكان بصيرا دائما كان غافلا عن الشكر . وهذا غاية الجهل ، اذ شكرهم صار موقوفا على أن تسلب منهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الاحوال ، مع أن النعمة في جميع الاحوال أولى بالشكر .

فلما كانت رحمة الله واسعة قد عمت الخلق في جميع احوالهم لم يعدها الجاهلون نعمة • ومثلهم كمثل العبد السوء الذي لو لم يضرب بطنه وترك الشكر ، واذا ضرب في غالب الاحوال ترك ساعة شكر المولى على ذلك • ومن تأمل يعلم أن نعمة الله عليه في شربة ماء عند عطشه اعظم من ملك الارض كلها • كما نقل : « ان بعض العلماء دخل على بعض الخلفاء ، وفي يده كوز ماء يشربه ، فقال له : عظمي • فقال : لو لم تعط هذه الشربة الا ببذل أموالك وملوكك كله ، ولو لم تعطه بقيت عطشاناً ، فهل تعطيه ؟ قال : نعم ! قال : فكيف تفرح بملك لا يساوي شربة ماء ! » • هذا مع أن كل عبد لو أمعن النظر في حاله ، لرأى من الله نعمة أو نعماً كثيرة تخصه لا يشاركه فيها احد ، أو يشاركه يسير من الناس ، اما في العقل ؛ أو في الخلق ؛ أو في الورع والتقوى ، أو الدين ، أو في صورته وشخصه ، أو أهله وولده أو مسكنه وبلده ؛ أو رفقاءه وأقاربه ، أو عزه وجاهه ، أو طول عمره وصحة جسمه ، أو غير ذلك من محابه • بل نقول : لو كان أحد لا يكون مخصوصاً بشيء من ذلك ، فلا ريب في أنه يعتقد في نفسه اختصاصه ومزيتة في بعض هذه على سائر الخلق • فان أكثر الناس يعتقدون كونهم اعقل الناس ، أو أحسن أخلاقاً منهم ، مع أن الامر ليس كذلك • ولذلك لا يشكون من نقصان العقل كما يشكون من قلة المال ، ولا يسألون الله أن يعطيهم العقل كما يسألون منه زيادة المال ، ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يذمها ، ولا يرى ذلك من نفسه •

وبالجملة : كل أحد يقدر في نفسه من المحاب وصفة الكمال ما لا يراه في غيره ، وان لم يكن مطابقاً للواقع • ولذلك لو خير بأن يسلب منه ماله ويعطي ما خصص به غيره ، لكان لا يرضى به • بل التأمل يعطي : ان كل واحد من أكثر الناس لا يرضى أن يكون في جميع الصفات والافعال والدين والدنيا مثل شخص آخر من الناس كائناً من كان ، بل لو وكل اليه الاختيار وقيل له : أمت مخير في صيرورتك مثل من شئت وأردت من أفراد الناس لم يخير الا نفسه • والى هذا أشار الله — سبحانه — بقوله :

« كل حزب بما لديهم فرحون » ١٧

وإذا كان الامر هكذا ، فأني له لا يشكر الله على ذلك مع قطع النظر عن النعم العامة ؟ ولو لم يكن لشخص من نعم الله الا الأمن والصحة والقوة لعظمت النعمة في حقه ، ولم يخرج عن عهدته الشكر . قال رسول الله (ص) : « من أصبح آمناً في سربه ، معافى في بدنه ، وعندة قوت يومه ، فكأنما خيرت له الدنيا بحذافيرها » . ومهما فتشت الناس ، لوجدتهم يشكون عن امور وراء هذه الثلاث ، مع أنها وبال عليهم . بل لو لم تكن للانسان نعمة سوى الايمان الذي به وصوله الى النعيم المقيم والملك العظيم ، لكان جديراً به أن يستعظم النعمة ويصرف في الشكر عمره . بل ينبغي للعاقل ألا يفرح الا بالمعرفة واليقين والايمان . ونحن نعلم من العلماء من لو سلم اليه جميع ما دخل تحت ملوك الارض من الشرق الى الغرب ، من اموال واتباع ، وانصار وبلدان وممالك ، بدلا عن عشر عشير من علمه لم يأخذه ، لرجائه أن نعمة العلم تقضى به الى قرب الله - تعالى - في الآخرة . بل لو سلم اليه جميع ذلك عوضا عن لذة العلم في الدنيا ، مع نيله في الآخرة الى ما يرجوه ، لم يأخذه ولم يرض به ، لعله بأن لذة العلم دائمة لا تنقطع ، وثابتة لا تسرق ولا تغصب ، وصافية لا كدورة فيها بخلاف لذات الدنيا .

فصل طريق تحصيل الشكر

الطريق الى تحصيل الشكر أمور :

الاول - المعرفة والتفكير في صنائعه - تعالى - ، وضروب نعمه الظاهرة والباطنة والعامة والخاصة .

الثاني - النظر الى الأدنى في الدنيا والى الاعلى في الدين .

الثالث - أن يحضر المقابر ، ويتذكر أن أحب الاشياء الى الموتى ، وأهم سؤالهم ودعواهم من الله أن يردوا الى الدنيا ، ويتحملوا ضروب الرياضات ومشاق العبادات في الدنيا ، ليتخلصوا في الآخرة من العذاب ،

أو يزيد ثوابهم وترفع درجاتهم • فليقدر نفسه منهم مع اجابة دعوته وورده الى الدنيا ، فليصرف بقية عمره فيما يشتهي أهل القبور العود لاجله •
الرابع - أن يتذكر بعض ما ورد عليه في بعض ايام عمره من المصائب العظيمة والامراض الصعبة التي ظن هلاك نفسه بها ، فليتصور أنه هلك بها ويفتتم الآن حياته وماله من النعم ، فليشكر الله على ذلك ، ولا يتألم ولا يحزن من بعض ما يرد عليه مما ينافي طبعه •

الخامس - أن يشكر في كل مصيبة وبلية من مصائب الدنيا من حيث انه لم تصبه مصيبة أكبر منها ، وانه لم تصبه مصيبة في الدين • ولذلك قال عيسى (ع) في دعائه : « اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني ! » • وقال رجل لبعض العرفاء : « دخل اللص في بيتي وأخذ متاعي » ، فقال له : « اشكر الله لو كان الشيطان يدخل بدله في قلبك ويفسد توحيدك ، ماذا كنت تصنع؟ » •
ومن حيث ان كل مصيبة انما هي عقوبة لذنب صدر منه ، فاذا حلت به هذه العقوبة حصلت له النجاة من عقوبة الآخرة ، كما قال رسول الله (ص) : « ان العبد اذا أذنب ذنبا فاصابته شدة أو بلاء في الدنيا ، فالله اكرم من أن يعذبه ثانيا » • وقد ورد هذا المعنى بطرق متعددة من أئمتنا - عليهم السلام - ايضا ، فليشكر الله على تعجيل عقوبته وعدم تأخيرها الى الآخرة •
ومن حيث ان هذه المصيبة كانت مكتوبة آتية اليه ألبتة ، افقد أتيت وفرغ منها • ومن حيث ان ثوابها اكثر منها وخير له ، لما يأتي في باب الصبر من عظم مثوبات الابتلاء بالمصائب في الدنيا • ومن حيث انها تنقص في القلب حب الدنيا والركون اليها ، وتشوق الى الآخرة والى لقاء الله سبحانه •
اذ لا ريب في أن من آتاه النعم في الدنيا على وفق المراد ، من غير امتزاج ببلاء ومصيبة ، يورث طمأنينة القلب الى الدنيا وانسا بها ، حتى تصير كالجنة في حقه ، فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتة ، واذا كثرت عليه المصائب انزعج قلبه عن الدنيا ولم يأنس بها ، وصارت الدنيا سجنا عليه وكانت نجاته منها كالخلاص من السجن • ولذلك قال رسول الله (ص) : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » • فمحن الدنيا ومصائبها ورياضاتها توجب انزعاج النفس عنها ، والتفاتها الى عالمها الاصلي ، وتشوقها الى

الخروج عنها اليه . ورغبتها الى لقاء الله وما أعد في الدار الآخرة لأهلها .
فان قلت : غاية ما يتصور في البلاء أن يصبر عليه ، وأما الشكر عليه
فغير متصور ، اذ الشكر إنما يستدعي نعمة وفرحا ، والبلاء مصيبة والم
فكيف يشكر عليه ؟ وعلى هذا ينبغي ألا يجتمع الصبر والشكر على شيء
واحد ، اذ الصبر يستدعي بلاء وألما ، والشكر يستدعي نعمة وفرحا ، فهما
متضادان غير مجتمعين ، فكيف حكمتهم بأجتماعهما في المصائب والبلايا الدنيوية ؟
قلنا : كل واحد من النعمة والبلاء ينقسم الى مطلق ومقيد . فالنعمة
المطلقة كسعادة الآخرة والعلم والايمان والاخلاق الحسنة في الدنيا ، والنعمة
المقيدة في الدنيا - أي ما هو نعمة وصلاح من وجه وبلاء وفساد من وجه -
كالمال الذي يصلح الدين من وجه ، ويفسده من وجه . والبلاء المطلق ،
كشقاوة الآخرة والكفر والجهل والاخلاق السيئة والمعاصي في الدنيا ، والبلاء
المقيد ، كمصائب الدنيا ، من الفقر والخوف والمرض وسائر اقسام المحن
والمصائب ، فانها وان كانت بلاء في الدنيا ، ولكنها نعم في الآخرة . وعند
التحقيق لا تخلو عن تكفير الخطيئة ، أو رياضة النفس ، أو زيادة التجرد ،
أو رفع الدرجة . فالنعمة المطلقة بازائها الشكر المطلق ، ولا معنى لاجتماع
الصبر معه ، والصبر الذي يجتمع معه لا ينافيه ، كما يأتي . والبلاء المطلق
لهم يؤمر بالصبر عليه ، اذ لا معنى للصبر على الكفر والمعصية ، بل يجب
عدم الصبر عليه والسعي في تركه . وأما البلاء المقيد ، فهو الذي يجتمع
فيه الصبر والشكر ، وليس اجتماعهما من جهة واحدة حتى يلزم اجتماع
الضدين ، بل الصبر من حيث ايجابه الاعتماد والالتم في الدنيا ، والشكر
من حيث ادائه الى سعادة الآخرة وغيرها مما ذكر .

ثم لو لم يصبر على جهة شريفة ، ولم يشكر على جهة خيرية ، صار بلاء
مطلقا لزم تركه بالرجوع الى الصبر والشكر . واما النعمة المقيدة ، كالمال
والثروة ، فان أدت الى اصلاح الدين كانت نعمة مطلقة يجب عليها الشكر ،
ولم يكن محلا للصبر ، وان ادت الى فساده كانت بلاء مطلقا واجب الترك ،
وان أدت الى بلاء الدنيا ، كأن يصير ماله سببا لهلاك أولاده ، وفساد مزاجه
ويصير فوته باعثا لابتلائه ببعض المصائب الدنيوية ، كان حكمه حكم البلاء

المقيّد • ثم يأتي في باب الصبر : ان الصبر قد يكون على الطاعة وعلى المعصية ، وفيهما يتحقق الشكر والصبر ، اذ الشكر - كما عرفت - هو عرفان النعمة من الله والفرح به ، وصرف النعمة الى ما هو المقصود منها بالحكمة ، والصبر - كما يأتي - وهو ثبات باعث الدين ، اعني العقل النظري ، في مقابلة باعث الهوى ، اعني القوة الشهوية • ولا ريب في انه في أداء الطاعة وترك المعصية يتحقق الثبات المذكور ، اذ هو صرف النعمة الى ما هو المقصود ، اذ باعث الدين انما خلق لحكمة دفع باعث الهوى ، وقد صرفه الى مقصود الحكمة • واثبت خبير بأنه وان تحقق الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، الا أن ما تصبر عليه هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، اذ الصبر انما هو عليهما ، واما الشكر فعلى باعث الدين اعني العقل الباعث لهذه الطاعة وترك هذه المعصية ، فالمشكور عليه هو باعث الدين دون نفس الطاعة وترك المعصية ، فاختلف فيهما الصبر والشكر في المتعلق ، أي ما يصبر عليه وما يشكر عليه ، واتحدا في فعل الصبر والشكر اذ فعل الصبر هو الثبات والمقاومة ، وهو عين الطاعة وترك المعصية ، وفعل الشكر هو صرف النعمة في مقصود الحكمة ، وهو ايضا عين الطاعة وترك المعصية • ويمكن ان يقال : ان من فعل هذه الطاعة ، وترك هذه المعصية عرف كونهما من الله وفرح به ، ويعمل طاعة اخرى شكرا له • وعلى هذا فيتحد متعلقا الشكر والصبر في هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، اعني المشكور عليه وما يصبر عليه ، اذ هما نفس هذه الطاعة وترك هذه المعصية بعينها ، ويختلف فعلاهما • اذ فعل الصبر هو هذه الطاعة وترك هذه المعصية ، وفعل الشكر تحميد أو طاعة أخرى •

فصل

الصحة خير من السقم

لا تظنن مما قرع سمعك من فضيلة البلاء وادائه الى سعادة الابد انه خير من العافية في الدنيا ، بل مع ذلك كله العافية في الدنيا خير من البلاء والمصيبة فيها ، فايك ان تسأل من الله البلاء والمصائب في الدنيا ، فان رسول الله (ص) كان يستعيز في دعائه من بلاء الدنيا ومن بلاء الآخرة ، وكان يقول هو

والانبياء والاولياء - عليهم السلام - : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة » ، وكانوا يستعيذون من شماتة الاعداء وسوء القضاء .
وقال (ص) : « سلوا الله العافية ، فما أعطى عبد أفضل من العافية الا اليقين » ،
وأشار باليقين الى عافية القلب من الجهل والشك ، وهو أعلى وأشرف من عافية البدن ، وقال (ص) في دعائه : « والعافية أحب الي » .

وبالجملة : هذا اظهر من ان يحتاج الى الاستشهاد . اذ البلاء انما يصير نعمة بالاضافة الى ما هو اكثر منه في الدنيا والآخرة ، وبلاضافة الى ما يرجى من الثواب في الآخرة ، ومن حيث يوجب تجرد النفس وانقطاعها من الدنيا وميلها الى الآخرة . فينبغي ان يسأل تمام النعمة في الدنيا ، والثواب في الآخرة على شكر المنعم ، والتجافي عن دار الغرور ، والالابة الى دار الخلود ، فانه قادر على اعطاء الكل ، وما نقل عن بعض العارفين ، من سؤالهم المصائب والبلاء ، كما قال بعضهم : « اود ان اكون جسرا على النار يعبر علي الخلق كلهم فينجون ، واكون انا في النار » وقال سمنون المحب : « وليس لي في سواك حب فكيفما شئت فاخبرني » فمناه على غلبة الحب ، بحيث يظن المحب بنفسه انه يحب البلاء . ومثل ذلك حالة تعتريه وليس لها حقيقة . فان من شرب كأس المحبة سكر ، ومن سكر توسع في الكلام ، ولما زال سكره علم أن ما غلب عليه كانت حالة لا حقيقة . فما تسمعه من هذا القبيل فهو كلام العشاق الذين أفرط حبهم ، وكلام العشاق يستلذ سماعه ولا يعول عليه . وقد روي : « ان فاختة كان يراودها زوجها فتمنعه ، فقال : ما الذي يمنعك عني ، ولو أردت ان اقلب لك ملك سليمان ظهرا لبطن لفعلته لاجلك ؟ فسمع ذلك سليمان (ع) ، فطلبه وعاتبه في ذلك فقال : يا نبي الله كلام العشاق لا يحكى » . ونقل : « أن سمنون المحب بعد ما قال البيت المذكور ، ابتلى بمرض الحصر ، فكان يصيح ويجزع ويسأل الله العافية ، ويظهر الندامة مما قال ، ويدور على ابواب المكاتب ، ويقول للصبيان : ادعوا لعكمم الكذاب » . والحاصل : ان صيرورة البلاء أحب عند بعض المحبين من العافية ، لاستشعارهم رضا المحبوب لأجله ، وكون رضاه عندهم أحب وألذ من العافية انما يكون في غليان الحب ، فلا يثبت ولا يدوم . ومع ذلك كله ، فاعلم ان الظاهر من بعض الاخبار الآتية

في باب الصبر : ان في الجنان درجات عالية لا يبلغها أحد الا بالمصائب الدنيوية والصبر والشكر عليها ، ويؤيده ابتلاء اكابر النوع ، من الانبياء والاولياء بالمصائب العظيمة في الدنيا ، وماورد من أن اعظم البلاء موكل بالانبياء ثم بالاولياء ، ثم بالامثل فالامثل في درجات العلاء والولاء . وعلى هذا فالظاهر اختلاف اصلحية كل من البلاء والعافية باختلاف مراتب الناس . فمن كان قوي النفس صابرا شاكرا في البلاء ، ولم يصدده عن الذكر والفكر والحضور والانس والطاعات والاقبال عليها ، ولم يصير باعثا لنقصان الحب لله ، فالبلاء في حقه افضل في بعض الاوقات ، اذ بأزائه في الآخرة من عوالي الدرجات مالا يبلغ بدونه . ومن كان له ضعف نفس يوجب ابتلاءه بالمصائب جزعا أو كفرانا ، او منعه عن شيء مما ذكر ، فالعافية أصلح في حقه ، وربما كان البلاء مما منعه من الوصول الى المراتب العظيمة ، فلا ريب في أن العافية وعدم هذا البلاء افضل وأعلى منه . فان البصير الذي توسل بعينه الى النظر الى عجائب صنع الله ، وتوصل به الى معرفة الله ، وتمكن لأجل العينين الى مطالعة العلوم وتصنيف الكتب الكثيرة من أنواع العلوم ، وتبقى آثاره العلمية على مر الدهور ، وينتفع من علومه الناس أبدا ، وربما بلغ لأجل العينين الى غاية درجات المعرفة والقرب والحب والانس والاستغراق، ولولا وجود العينين له لم يبلغ الى شيء من ذلك ، فلا ريب في أن وجود البصر لمثله أفضل وأصلح من عدمه ، ولولا ذلك لكانت رتبة شعيب مثلا - وقد كان ضريرا من بين الانبياء - فوق رتبة موسى و ابراهيم وغيرهما - عليهم السلام - لانه صبر على فقد البصر ، وموسى لم يصبر عليه ، ولكان الكمال في أن يسلب الانسان الاطراف كلها ويترك كلحم على وضم . وهذا باطل ، فان كل واحد من الاعضاء آلة في الدين ، فيفوت بفواتها ركن من الدين . ويدل على ذلك ما ورد في عدة من الاخبار : « أن كل ما يرد على المؤمن من البلاء أو عافية أو نعمة أو بلية ، فهو خير له واصلح في حقه » وما ورد في بعض الاحاديث القدسية : « ان بعض عبادي لا يصلحه الا الفقر والمرض ، فأعطيته ذلك ، وبعضهم لا يصلحه الا الغنى والصحة ، فأعطيته ذلك » . وبذلك يجمع بين أخبار العافية وأخبار البلاء .

الجزع

ومنها :

وهو اطلاق دواعي الهوى ، من الاسترسال في رفع الصوت ، وضرب الخدود ، وشق الجيوب ، او ضيق الصدر والتبرم والتضجر • وهو وان كان من نتائج ضعف النفس وصغرها الذي من رذائل القوة الغضبية فقط ، الا أنه لما كان ضده الصبر ، وله أقسام بعضها من متعلقات القوة الشهوية — كما يأتي — فلذلك لم نذكره في متعلقات قوة الغضب فقط ، بل ذكرناه هنا • ثم الجزع في المصائب من المهلكات ، لانه في الحقيقة انكار لقضاء الله ، واكراه لحكمه ، وسخط على فعله • ولذا قال رسول الله (ص) : « الجزع عند البلاء تمام المحنة » وقال (ص) : « ان عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وان الله اذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » • وفي الخبر القدسي : « من لم يرض بقضائي ، ولم يشكر على نعمائي ، ولم يصبر على بلائي ، فليطلب ربا سواي » • وروى : « ان زكريا لما هرب من الكفار ، واختفى في الشجرة ، وعرفوا ذلك ، جاؤا بالمنشار فنشرت الشجرة حتى بلغ المنشار رأس زكريا ، فأَنَّهُ أَتَتْهُ ، فأوحى الله اليه : يا زكريا ! لئن سعدت منك أَتَتْهُ ثَانِيَةً لَأَمْحُونَكَ من ديوان النبوة ! فعرض زكريا (ع) على أصبعه حتى قطع شطرين » وبالجملة : العاقل يعلم ان الجزع في المصائب لافائدة فيه ، اذ ما قدر يكون ، والجزع لايرده • ولا ريب في أنه يترك الجزع بعد مضي مدة ، فليتركه أولا حتى لا يضيع أجره • وقد نقل : « انه مات ابن لبعض الاكابر ، فعزاه مجوسى ، وقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيام • فقال : أكتبوه عنه » • وقال الصادق (ع) : « الصبر يظهر ما في بواطن العباد من النور والصفاء ، والجزع يظهر ما في بواطنهم من الظلمة والوحشة • والصبر يدعيه كل أحد وما يثبت عنده الا المختبئون ، والجزع ينكره كل أحد وهو أبين على المنافقين ، لأن نزول المحنة والمصيبة يخبر عن الصادق والكاذب • وتفسير الصبر ما يستمر مذاقه ، وما كان عن اضطراب لا يسمى صبورا • وتفسير الجزع اضطراب القلب وتحزن الشخص ، وتغير اللون

والحال * وكل فazole خلت أوائلها من الاخبات والاثابة والتضرع الى الله فصاحبها جزوع غير صابر * والصبر ما اوله مر وآخره حلو ، من دخله من أواخره فقد دخل ، ومن دخله من أوائله فقد خرج ، ومن عرف قدر الصبر لا يصبر عما منه الصبر ، وقال الله تعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: فكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا ، فمن صبر كرها ، ولم يشك الى الخلق ، ولم يجزع بهتك ستره ، فهو من العام ، ونصيبه ما قال الله عز وجل : وبشر الصابرين : أي بالجنة والمغفرة * ومن استقبل البلاء بالرحب ، وصبر على سكينه ووقار ، فهو من الخاص ، ونصيبه ما قال الله عز وجل : ان الله مع الصابرين » (١٨) *

فصل

الصبر - مراتب الصبر - أقسام الصبر - فضيلة الصبر - الصبر على السراء - اختلاف مراتب الصبر في الثواب - طريق تحصيل الصبر - التلازم بين الصبر والشكر - القانون الكلي في معرفة الفضائل - تفضيل الصبر على الشكر *



ضد الجزع (الصبر) ، وهو ثبات النفس وعدم اضطرابها في الشدائد والمصائب ، بأن تقاوم معها ، بحيث لا تخرجها عن سعة الصدر وما كانت عليه قبل ذلك من السرور والطمأنينة ، فيجس لسانه عن الشكوى ، وأعضاءه عن الحركات الغير المتعارفة * وهذا هو الصبر على المكروه ، وضده الجزع * وله أقسام آخر لها أسماء خاصة تعد فضائل آخر : كالصبر في الحروب ، وهو من أنواع الشجاعة ، وضده الجبن * والصبر في كظم الغيظ ؛ وهو الحلم ، وضده الغضب * والصبر على المشاق ، كالعبادة ، وضده الفسق ، أي الخروج عن العبادات الشرعية * والصبر على شهوة البطن والفرج من قبائح اللذات ، وهي العفة ، واليه اشير في قوله سبحانه :

(١٨) صححنا الحديث على «مصباح الشريعة» : باب ٩٢ وعلى «البحار» باب الصبر واليسر بعد العسر ، مج ١٥ : ١٤٣/٢

((وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى)) ١٩

وضده الشره • والصبر عن فضول العيش ، وهو الزهد ، وضده
الحرص • والصبر في كتمان السر ، وضده الاذاعة ، والاولان ، كالصبر
على المكروه من فضائل قوة الغضب • والرابع ، من نتائج المحبة والخشية •
والبواقى ، من فضائل قوة الشهوة كما يأتى • وبذلك يظهر : أن من عدَّ
الصبر مطلقا من فضائل القوة الشهوية او القوة الغضبية انما أراد به
بعض أقسامه •

ويظهر من ذلك : أن اكثر أخلاق الايمان داخل في الصبر • ولذلك
لما سئل رسول الله (ص) عن الايمان ، قال : « هو الصبر ، لانه أكثر
اعماله وأشرفها » ، كما قال : « الحج عزم » • وقد عرف مطلق الصبر بأنه
مقاومة النفس مع الهوى ، وبعبارة أخرى : انه ثبات باعث الدين في مقابلة
باعث الهوى • والمراد بباعث الدين هو العقل النظري الهادي الى طريق الخير
والصلاح ، والعقل العملي المنفذ لأحكامه المؤدية الى الفوز والفلاح • والمراد
بباعث الهوى هو قوة الشهوة الخارجة عن اطاعة العقل ، والقتال دائما بين
الباعثين قائم ، والحرب بينهما أبدا سجال (٢٠) ، وقلب العبد معركته ، ومدد
باعث الدين من الملائكة الناظرين لحزب الله ، ومدد باعث الهوى من الشياطين
الناصرين لأعداء الله ، فان ثبت باعث الدين بأمداد الملائكة حتى يقهر باعث
الهوى واستمر على مخالفته ، غلب حزب الله والتحق بالصابرين ، وان
تحاول وضعف حتى سلب باعث الهوى بأمداد الشياطين ولم يصبر على دفعه ،
التحق بأتباع الشياطين • وعمدة ما يثبت به باعث الدين هي قوة المعرفة ،
أي اليقين بكون الهوى عدوا قاطعا لطريق الوصول الى الله مضادا لأسباب
السعادات في الدنيا والآخرة • ثم باعث الدين اما يقهر داعي الهوى بالكلية ،
بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، فيدوم الصبر ، وتستقر النفس في مقام
الاطمينان ، وتنادي من وراء سرادقات الجمال بخطاب : (يا أيتها النفس

(١٩) النزاعات ، الآية : ٤٠ - ٤١

(٢٠) « الحرب بينهم سجال » : مثل مشهور ، أى تارة لهم وتارة عليهم

المطمئنة ! ارجعي الى ربك راضية مرضية) ، فتدخل في زمرة الصديقين السابقين ، وتنسلك في سلك عباده الصالحين ، أو يغلب داعي الهوى وينقهر باعث الدين ، بحيث لا تبقى له قوة المنازعة ، ويأس عن المجاهدة والمقاومة ، فتسلم نفسه الشريفة الملكوتية التي هي سرّ الله ووديعته الى حزب الشيطان . ومثله مثل من أخذ أعز اولاده المتصف بجميع الكمالات ، ويسلمه الى الكفار من أعدائه ، فيقتلونه لديه ، ويحرقونه بين يديه ، بل هو أسوأ حالاً منه بمراتب كما لا يخفى . إذ لا يكون لأحدهما الغلبة التامة ، بل يكون بينهما تنازع وتجادب ، فتارة يغلب هذا ، وتارة يغلب ذلك ، فتكون النفس في مقام المجاهدة الى أن يغلب أحد الباعثين ، فتدخل في حزب الله أو حزب الشيطان . ثم غلبة أحد الباعثين على الآخر اما أن تكون في جمع مقتضياته أو بعضها ، وتخرج من القسمين ثلاثة أحوال :

- الاولى - ان يغلب باعث الدين على جميع الشهوات في جميع الاوقات .
- الثانية - أن يغلب عليه الجميع في الجميع .
- الثالثة - أن يغلب على بعض دون بعض في الجميع ، أو يغلب عليها كلاً أو بعضاً دون بعض .

وقد أشير الى أهل الحالة الاولى في الكتاب الإلهي بقوله تعالى :
« يا ايها النفس المطمئنة . . . الى آخر الآية » ٢١ والى الثانية بقوله :
« ولكن حق القول منى لاملان جهنم من الجنة والناس أجمعين » ٢٢ والى الثالثة بقوله : « خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » ٢٣

فصل

مراتب الصبر

الصبر على المكروه ومشاق العبادات وعن ترك الشهوات ، ان كان يسر وسهولة فهو الصبر حقيقة ، وان كان بتكلف وتعيب فهو التصبر مجازاً . واذا أدام التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى ،

(٢١) الفجر ، الآية : ٢٧ - ٢٨

(٢٢) السجدة ، الآية : ١٣

(٢٣) التوبة ، الآية : ١٠٣

تيسر الصبر ولم يكن له تعب ومشقة ، كما قال الله سبحانه :

« فاما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى » ٢٤

ومتى تيسر الصبر وصار ملكة راسخة أورث مقام الرضا ، واذا أدام مقام الرضا أورث مقام المحبة • وكما أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا، فكذلك مقام الرضا أعلى من مقام الصبر • ولذلك قال رسول الله (ص) : « أعبد الله على الرضا ، فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » • قال بعض العارفين : « أهل الصبر على ثلاثا مقامات : الاول : ترك الشكوى ، وهذه درجة التائبين • الثاني : الرضا بالمقدر ، وهذه درجة الزاهدين • الثالث : المحبة لما يصنع به مولاه ، وهذه درجة الصديقين » • وكان هذا الانقسام مخصوص بالصبر على المكروه من المصائب والمحن • ثم باعث الصبر اما اظهار الثبات وطمأنينة القلب عند الناس ، ليكون عندهم مريضا ، كما نقل عن معاوية : انه اظهر البشاشة ، وترك الشكوى في مرض موته ، وقال :

وتجلدي للشامتين أريهم اني لرب الدهر لا أتزعزع
وهذا صبر العوام ، وهم الذين يعملون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، او توقع الثواب ونيل الدرجات الرفيعة في دار الآخرة ، وهذا صبر الزهاد والمتقين ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ٢٥

أو الالتذاذ والابتهاج بورود المكروه من الله سبحانه • اذ كل ما يرد من المحبوب محبوب ، والمحب يشتاقي الى التفات محبوبه ، ويرتاح به ، وان كان ما يؤذيه ابتلاءً وامتحانا له ، وهذا صبر العارفين ، واليه الاشارة بقوله تعالى :

« وبشر الصابرين ، الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون

أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة » ٢٦

(٢٤) الليل ، ، الآية : ٥-٧

(٢٥) الزمر ، الآية : ١٠

(٢٦) البقرة ، الآية : ١٥٥ - ١٥٧ .

وقد ورد : أن الامام محمد بن علي الباقر عليهما السلام قال لجابر ابن عبد الله الانصاري - وقد اكتشفته علل وأسقام ، وغلبه ضعف الهرم - : « كيف تجدحالك ؟ » قال : أنا في حال الفقر أحب اليّ من الغنى ، والمرض أحب اليّ من الصحة ، والموت أحب اليّ من الحياة . فقال الامام (ع) : « أما نحن أهل البيت ، فما يرد علينا من الله من الفقر والغنى والمرض والصحة والموت والحياة ، فهو أحب إلينا » . فقام جابر ، وقبل بين عينيه ، وقال : صدق رسول الله (ص) حيث قال لي : « يا جابر ! ستدرك واحدا من أولادي اسمه اسمي ، يبقر العلوم بقرا » .

تذنيب

اقسام الصبر

الصبر بأعتبار حكمه ينقسم الى الاقسام الخمسة ، فالصبر عن الشهوات المحرمة وعلى مشاق العبادات الواجبة فرض ، وعلى بعض المكاراه وأداء المندوبات نفل ، وعلى الاذية التي يحرم تحملها حرام ، كالصبر على قطع يده ، او يد ولده ، او قصد حريمه بشهوة محظورة ، وعلى أذى تناله بجهة مكروهة في الشرع . وبذلك يظهر أن كل صبر ليس محمودا ، بل بعض أنواعه ممدوح ، وبعض أنواعه مذموم ، والشرع محكم ، فما حسنه حسن ، وما قبحه قبيح .

فصل

فضيلة الصبر

الصبر منزل من منازل السالكين ، ومقام من مقامات الموحدين . وبه ينسلك العبد في سلك المقربين ، ويصل الى جوار رب العالمين . وقد أضاف الله أكثر الدرجات والخيرات اليه ، وذكره في نيف وسبعين موضعا من القرآن . ووصف الله الصابرين بأوصاف ، فقال عز من قائل :

« وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا » ٢٧ وقال : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » ٢٨ وقال : « ولنجزين الذين

(٢٧) السجدة ، الآية : ٢٤

(٢٨) الاعراف ، الآية : ١٣٦

صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ٢٩ وقال : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ٣٠ . فما من فضيلة الا واجرها بتقدير وحساب الا الصبر ، ولذا قال : « انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » ٣٢ . ووعد الصابرين بأنه معهم ، فقال : « واصبروا ان الله مع الصابرين » ٣٢ وعلق النصره على الصبر ، فقال : « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين » ٣٣ . وجمع للصابرين الصلوات والرحمة والهدى ، فقال : « أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ٣٤ والآيات الواردة في مقام الصبر خارجة عن حد الاستقصاء ، والاخبار المادحة له أكثر من أن تحصى . قال رسول الله (ص) : « الصبر نصف الايمان » . وقال (ص) : « من أقل ما اوتيتهم اليقين وعزيمته الصبر ، ومن أعطى حظه منهما لم ييال ما فاته من قيام الليل وصيام النهار ، ولئن تصبروا على مثل ما أنتم عليه أحب الي من أن يوافيني كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ، ولكنى أخاف ان تفتح عليكم الدنيا بعدي فينكربعضكم بعضا ، وينكركم أهل السماء عند ذلك ، فمن صبر واحتسب ظفر بكمال ثوابه » . . . ثم قرأ قوله تعالى :

« ما عندكم ينقد وما عند الله باق » ٣٥

وقال (ص) : « الصبر كنز من كنوز الجنة » . وقال (ص) : « أفضل الاعمال ما أكرهت عليه النفوس » . ولا ريب في ان الصبر مما تكرهه النفوس ، ولذا قيل : (الصبر صبر) . وقال (ص) : « في الصبر على تكراه خير كثير » . وقال (ص) : « الصبر من الايمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ولا جسد لمن لا رأس له ، ولا ايمان لمن لا صبر له » . وسئل (ص) عن الايمان ، فقال : « الصبر والسماحة » . وقال (ص) :

(٢٩) النحل ، الآية : ٩٦

(٣٠) القصص ، الآية : ٥٤

(٣١) الانفال ، الآية : ٤٧ .

(٣٢) آل عمران ، الآية : ١٢٥

(٣٣) البقرة ، الآية : ١٥٧

(٣٤) الزمر ، الآية : ١٠

(٣٥) النحل ، الآية : ٩٦

« ما تجرع عبد قط جرعتين ، أحب الى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ، ولا فطرت بقطرة أحب الى الله تعالى من قطرة دم اهريق في سبيل الله ، وقطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه الا الله ، وما خطأ عبد خطوتين أحب الى الله تعالى من خطوة الى الصلاة الفريضة ، وخطوة الى صلة الرحم » . وروى : « انه تعالى أوحى الى داود (ع) : يا داود ! تخلق باخلاقى ، وان من اخلاقى انى أنا الصبور » . وروى : « أن المسيح قال للحواريين : انكم لا تدركون ما تحبون الا بصبركم على ما تكرهون » (٣٦) . وقال (ص) : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله : انا لله وانا اليه راجعون ، اللهم أجرني في مصيبتى واعقبني خيرا منها ، الا وفعل الله ذلك » . وقال (ص) : « قال الله عز وجل : اذا وجهت الى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله او ولده ، ثم أستقبل ذلك بصبر جميل ، استحيت منه أن انصب له ميزانا وانشر له ديوانا » (٣٧) . وقال (ص) : « الصبر ثلاثة : صبر عند المصيبة ، وصبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية . فمن صبر على المصيبة حتى يردّها بحسن عزائها كتب الله له ثلاث مائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين السماء الى الارض ، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الارض الى العرش ، ومن صبر على المعصية كتب الله له ستمائة درجة ، ما بين الدرجة الى الدرجة كما بين تخوم الارض الى منتهى العرش » . وقال (ص) : « سيأتى على الناس زمان لا ينال الملك فيه الا بالقتل والتجبر ، ولا الغنى الا بالغصب والبخل ، ولا المحبة الا باستخراج الدين واتباع الهوى ، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى ، وصبر على البغضة وهو يقدر على المحبة ، وصبر على الذل وهو يقدر على العز ، آتاه الله ثواب خمسين صديقا ممن صدق بى » (٣٨) . وقال (ص) : « ان الله تعالى قال لجبرئيل : ما جزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانه ! لا علم لنا الا ما علمتنا .

(٣٦) صححنا النبويات على « احياء العلوم » : ٥٣/٤ ، كتاب الصبر

(٣٧) صححنا الرواية على « البحار » : مج ١٥ : ١٤٨ / ٢ ، باب الصبر

قال : جزاؤه الخلود في داري ، والنظر الى وجهي » * وقال (ص) لرجل
قال له : ذهب مالي وسقم جسمي : « لاخير في عبد لا يذهب ماله ولا
يسقم جسمه ، ان الله اذا أحب عبدا ابتلاه ، واذا ابتلاه صبره » * وقال (ص) :
« ان الرجل ليكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى يبتلئ ببلاء
في جسمه فيبلغها بذلك » * وقال (ص) : « اذا أراد الله بعبد خيرا ،
وأراد ان يصابه ، صب عليه البلاء صبا وثجه عليه ثجا ، فاذا وعاه ، قالت الملائكة
صوت معروف ، واذا دعاه ثانيا ، فقال : يارب ! قال الله تعالى : لبيك
عبيدي وسعديك ! ألا تسألني شيئا الا أعطيتك ، او رفعت لك ما هو خير ،
وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه * فاذا كان يوم القيامة جيء بأهل
الاعمال فوزنوا أعمالهم بالميزان ، أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ،
ثم يؤتى بأهل البلاء ، فلا ينصب لهم ميزان ، ولا ينشر لهم ديوان ، يصب
عليهم الاجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا ، فيود أهل العافية في
الدنيا لو أنهم كانت تقرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل
البلاء من الثواب ، فذلك قوله تعالى : انما يوفى الصابرون أجرهم بغير
حساب » * وقال (ص) : « اذا رأيتم الرجل يعطيه الله ما يحب ، وهو
مقيم على معصيته ، فأعلموا أن ذلك أستدرج » * * * ثم قرأ قوله تعالى :

« فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء » ٣٩

يعني : لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخيرات ، حتى اذا
فرحوا بما أوتوا - أي بما أعطوا من الخير - أخذناهم بغتة * وروى :
« أن نبيا من الانبياء شكى الى ربه ، فقال : يارب ، العبد المؤمن يطيعك
ويجتنب معاصيك تزوى عنه الدنيا وتعرضه للبلاء ، ويكون العبد الكافر
لا يطيعك ويجترى على معاصيك تزوى عنه البلاء وتبسط له الدنيا ! فأوحى
الله تعالى اليه : أن العباد الي والبلاء لي ، وكل يسبح بحمدي * فيكون
المؤمن عليه من الذنوب ، فأزوى عنه الدنيا وأعرض له البلاء ، فيكون كفارة

(٣٨) صححنا الرواية ، وكذا ما قبلها ، على « اصول الكافي » : ج ٢ ، باب
الصبر وعلى « الوافي » : ٣ / ٣٢١ - ٢٢٣ ، باب الصبر .
(٣٩) الانعام ، الآية : ٤٤

لذنوبه حتى يلقاني ، فأجزيه بحسناته ، ويكون الكافر له من الحسنات ،
فأبسط له في الرزق وأزوى عنه البلاء ، فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني
فأجزيه بسيئاته » (٤٠) . وعن أبي عبدالله (ع) قال : « قال رسول الله
صلى الله عليه وآله : قال الله عز وجل : اني جعلت الدنيا بين عبادي قرضا ،
فمن أقرضني منها قرضا أعطيته بكل واحدة منهن عشرة الى سبعمائة ضعف
وما شئت من ذلك ، ومن لم يقرضني منها قرضا فأخذت منه شيئا قسرا ،
اعطيته ثلاث خصال لو أعطيت واحدة منهن ملائكتي لرضوا بها مني . قال :
ثم تلا ابو عبدالله (ع) قوله عز وجل (الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا
انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم » ، فهذه واحدة
من ثلاث خصال ، (ورحمة) ائتان ، (واولئك هم المهتدون) ثلاث . ثم
قال ابو عبدالله (ع) : هذا لمن أخذ الله منه شيئا قسرا » . وقال أمير
المؤمنين (ع) : « بنى الايمان على اربع دعائم : اليقين ، والصبر ،
والجهاد ، والعدل » . وقال أمير المؤمنين (ع) « الصبر صبران : صبر
عند المصيبة حسن جميل ، وأحسن من ذلك الصبر عندما حرم الله عز وجل
عليك » . وقال علي (ع) : « الصبر وحسن الخلق والبر والحلم من
أخلاق الانبياء » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « أيما رجل حبسه السلطان
ظلما فمات ، فهو شهيد ، وان ضربه فمات ، فهو شهيد » (٤١) . وقال أمير
المؤمنين (ع) : « من أجالل الله ومعرفة حقه ألا تشكرو وجعك ، ولا تذكر
مصيبتك » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « ألا أخبركم بأرجى آية في كتاب
الله ؟ » قالوا : بلى ! فقرا عليهم :

(وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير) « ٤٢

فالمصائب في الدنيا بكسب الاوزار ، فاذا عافاه الله في الدنيا فالله أكرم
من أن يعذبه ثانيا ، وان عفى عنه في الدنيا فالله أكرم من أن يعذبه يوم
القيامة » . وقال الباقر (ع) : « الجنة محفوفة بالمكاره والصبر ، فمن

(٤٠) صححنا الاحاديث الاربع على « احياء العلوم » : ١١٤/٤ ، باب الصبر

(٤١) صححنا الروايات الثلاث على « اصول الكافي » : ج ٢ ، باب الصبر

وعلى « الوافي » : ٣/٣٢١-٣٢٣ ، باب الصبر

(٤٢) الشورى ، الآية : ٣٠

صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة * وجههم مخفوفة باللذات والشهوات
فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار * وقال (ع) : « مروءة الصبر
في حال الفاقة والحاجة والتعفف والغنى ، أكثر من مروءة الاعطاء » (٤٣)
وقال (ع) : « لما حضرت ابي علي بن الحسين عليهما السلام الوفاة ،
ضمني الى صدره ، ثم قال : يا بني ! أوصيك بما أوصاني به أبي حين
حضرت الوفاة ، وبما ذكر أن أباه أوصاه به ، قال : يا بني اصبر على الحق
وان كان مرا » * وقال الصادق (ع) : « اذا دخل المؤمن قبره ، كانت
الصلاة عن يمينه ، والزكاة عن يساره ، والبر مظل عليه ، ويتنحى الصبر
ناحيته * فاذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته ، قال الصبر للصلاة
والزكاة والبر : دونكم صاحبكم ، فان عجزتم عنه فأنا دونه » * وقال
عليه السلام : « اذا كان يوم القيامة ، يقوم عنق من الناس ، فيأتون باب
الجنة ، فيضربونه ، فيقال لهم : من أنتم ؟ فيقولون : نحن أهل الصبر ،
فيقال لهم : على ما صبرتم ؟ فيقولون : كنا نصبر على طاعة الله ونصبر عن
معاصي الله ، فيقول الله تعالى : صدقوا ! أدخلوهم الجنة * وهو قول
الله تعالى : انما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » * وقال (ع) :
« من ابتلى من المؤمنين ببلاء فصبر عليه ، كان له مثل أجر الف شهيد » *
وقال (ع) : « ان الله عز وجل أنعم على قوم فلم يشكروا ، فصارت
عليهم وبالاً » ، وابتلى قوما بالمصائب فصبروا ، فصارت عليهم نعمة » وقال
عليه السلام : « من لا يعد الصبر لنوائب الدهر يعجز » * وقال (ع) :
« ان من صبر صبر قليلا ، وان من جزع جزع قليلا ... » ثم قال : عليك
بالصبر في جميع أمورك ، فان الله عز وجل بعث محمدا (ص) فأمره
بالصبر والرفق ، فقال :

« واصبروا على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا » (٤٤)

وقال ابو الحسن (ع) لبعض أصحابه : « ان تصبر تغتبط ، والا

(٤٣) قال العلامة « المجلسي » - قدس سره في « بحار الانوار » : مج ١٥
ج ٢ ، في باب الصبر على المصيبة ، في ذيل هذا الخبر : « بيان المروءة : هي
الصفات التي بها تكمل انسانية الانسان »
(٤٤) الزمل ، الآية : ١٠

تصبر يقدر الله مقاديره ، راضيا كنت أم كارها « (٤٥) • والاخبار في فضيلة الصبر على البلاء وعظم ثوابه وأجره أكثر من أن تحصى • ولذلك كان الاتقياء والاكابر محبين طالبين له ، حتى نقل : « ان واحدا منهم دخل على ابن مريض له ، فقال : يا بني ! لئن تكن في ميزاني أحب الي من أن أكون في ميزانك • فقال : يا أبه ! لئن يكن ماتحب أحب الي من ان يكون ما أحب » • وقال بعضهم : « ذهب عيني منذ ثلاثين سنة ، ما علم به أحد » •

فصل

الصبر على السراء

كل ما يلقي العبد في الدنيا ، وما يوافق هواه ، أو لا يوافق ، بل يكرهه ، وهو في كل منهما محتاج الى الصبر • اذ ما يوافق هواه ، كالصحة الجسمية ، واتساع الاسباب الدنيوية ، ونيل الجاه والمال ، وكثرة الاولاد والاتباع ، لو لم يصبر عليه ، ولم يضبط نفسه عن الانهماك فيه والاعتزاز به ، أدركه الطغيان والبطر • (فان الانسان ليظغى أن رآه استغنى) • وقال بعض الاكابر : « البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها الا الصديق » • وقال بعض العرفاء : « الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء » • ولذا لما توسعت الدنيا على الصحابة وزال عنهم ضيق المعاش ، قالوا : « ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلا تقدر على الصبر عليها » • ومن هنا قال الله سبحانه :

« يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله » ٤٦ • وقال

« ان من ازواجكم واولادكم عدوا لكم » ٤٧

ومعنى الصبر على متاع الدنيا : ألا يركن اليه ، ويعلم أنه مستودع عنده ، وعن قريب يسترجع عنه ، فلا ينهمك في التمتع والتلذذ ، ولا يتفاخر

(٤٥) صححنا الاحاديث الواردة عن أهل البيت - عليهم السلام - في باب الصبر على الجزء الثاني من اصول الكافي باب الصبر ، وعلى الوافي : ٣/٣٢١ - ٣٢٣ ، كتاب الصبر

(٤٦) المنافقون ، الآية : ٩

(٤٧) التغابن ، الآية : ١٤

به على فاقده من أخوانه المؤمنين ، ويرعى حقوق الله في ماله بالانفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي منصبه بأعانة المظلومين ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه .

والسر في كون الصبر عليها أشد من الصبر على البلاء : أنه ليس مجبوراً على ترك ملاذ الدنيا ، بل له القدرة والتمكن على التمتع بها ، بخلاف البلاء ، فإنه مجبور عليه ، ولا يقدر على دفعه ، فالصبر عليه أسهل . ولذا ترى أن الجائع إذا لم يقدر على الطعام أقدر على الصبر منه إذا قدر عليه .

وأما مالا يوافق هواه وطبعه ، فله ثلاثة أقسام :

الاول - ما يكون مقدوراً للعبد ، كالطاعات والمعاصي . أما الطاعة ، فالصبر عليها شديد ، لأن النفس بطبعها تنفر عنها ، وتشتهي التقهر والربوبية كما يأتي وجهه ، ومع ذلك يثقل عليها بعض العبادات بأعتبار الكسل ، وبعضها بأعتبار البخل ، وبعضها بأعتبارهما ، كالحج والجهاد ، فلا تخلو طاعة من أعتبار يشق على النفس أن تصبر عليه ، ومع ذلك يحتاج المطيع فيها الى الصبر في حالات ثلاثة تتضاعف لأجلها الصعوبة ، إذ يحتاج اليها قبل العمل في تصحيح النية والاخلاص ، وتطهيرها عن شوائب الرياء ، وفي حالة العمل لئلا يغفل عن الله في أثنائه ، ولا يخل بشيء من وظائفه وآدابه ، ويستمر على ذلك الى الفراغ وبعد الفراغ عنه ، لئلا يتطرق اليه العجب ، ولا يظهر رياء وسمعة . والنهي عن ابطال العمل وعن ابطال الصدقات بالمن والاذى أمر بهذا القسم من الصبر . وأما المعاصي ، فلكون جميعها مما تشتهيها النفس . فصبرها عليها شديد ، وعلى المألوفة المعتادة أشد ، إذ العادة كالطبيعة الخامسة ، ولذا ترى أن كل معصية شاعت وتكررت ثقل استنكارها ، فان الاستبعاد في مثل لبس الحرير أكثر من الاستبعاد في إطلاق اللسان طول النهار في أعراض الناس ، مع أن الغيبة أشد من الزنا ، كما نطقت به الاخبار . فاذا أضافت العادة الى الشهوة ، ظهر جندان من جنود الشيطان على جند الله ، فيصعب تركها .

ثم المعصية ان كانت مما يسهل فعلها ، كان الصبر عنها أشد ، كمعاصي

اللسان من الغيبة والكذب ، ولو كانت مع ذلك مشتملة على تمام ما تقتضيه
جيلة النفس من الاستعلاء والربوبية ، كالكلمات التي توجب نفى الغير ،
والقدح فيه ، والثناء على ذاتها تصریحا أو تعريضا ، كان الصبر عنها أشده .
اذ مثل ذلك — مع كونه مما تيسر فعله وصار مألوفا معتادا — أنضافت اليه
شهووتان للنفس فيه : احدهما نفى الكمال من غيرها ، وأخرهما اثباته
لذاتها . وميل النفس الى مثل تلك المعصية في غاية الكمال ، اذ به يتم
ما تقتضيه جبلتها من التفوق والعلو ، فصبرها عنها في غاية الصعوبة . وقد
ظهر مما ذكر : أن أكثر ما شاع وذاع من المعاصي انما يصدر من اللسان .
فينبغي لكل أحد أن يجتهد في حفظ لسانه بتقديم التروى على كلام يريد
أن يتكلم به ، فإن لم يكن معصية تكلم به ، والا تركه ، ولو لم يقدر
على ذلك ، وكان لسانه خارجا عن أطاعته في المحاورات ، وجبت عليه العزلة
والانفراد ، وتركه التكلم مع الناس ، حتى تحصل له ملكة الاقتدار على
حفظه . ثم صعوبة الصبر وسهولته لما كانت تختلف في آحاد المعاصي باختلاف
داعية تلك المعاصى قوة وضعفا ، فينبغي لكل طالب السعادة أن يعلم ان
داعية نفسه الى أي معصية أشده ، فيكون سعيه في تركها أكثر . ثم حركة
الخواطر باختلاج الوسوس أيسر بكثير من حركة اللسان بقباح الكلمات ،
فلا يمكن الصبر عنها أصلا ، الا بأن يغلب على القلب هم آخر في الدين
يستغرفه ، كمن أصبح وهمومه هم واحد . وأكثر جولان خاطر انما يكون
في فائت لا تدارك له ، او في مستقبل لا بد وان يحصل منه ما هو مقدور .
وكيف كان ، فهو تصور باطل ، وتضييع وقت . اذ آلة استكمال العبد
قلبه ، فاذا غفل القلب في لحظة من ذكر يستفيد به أنسا بالله ، او فكريستفيد
به معرفة بالله ، ويستفيد بالمعرفة حب الله ، فهو مغبون .

الثاني — ما ليس حصوله مقدورا للعبد ، ولكنه يقدر على دفعه
بالتشفى ، كما لو أوذى بفعل او قول ، او جنى عليه في نفسه او ماله ،
فان حصول الاذية والجناية وان لم يرتبط بأختياره ، الا أنه يقدر على
التشفي من المؤذي او الجاني بالانتقام منه ، والصبر على ذلك بترك المكافات .
وهو قد يكون واجبا ، وقد يكون قضيلا ، وهو أعلى مراتب الصبر .

ولأجل ذلك خاطب الله نبيه (ص) بقوله :

« واصبروا كما صبر اولو العزم من الرسل » ٤٨ وبقوله : « فاصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا » ٤٩ . وبقوله : « ودع اذاهم وتوكل على الله . » وقال : « ولنسمع من الذين اتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين اشركوا اذى كثيرا وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الامور » ٥١ . وقال « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » ٥٢ وقال رسول الله (ص) : « صل من قطعك ، واعط من حرملك ، واعف عن ظلمك » وروى : « أنه (ص) قسم مرة مالا ، فقال بعض الاعراب من المسلمين : هذه قسمة ما اريد بها وجه الله ! فاخبر به رسول الله ، فاحمرت وجنتاه ثم قال : رحم الله أخى موسى ، قد اودى باكثر من هذا فصبر »

الثالث — ما ليس مقدورا للعبد مطلقا ، كالمصائب والنوائب . والصبر عليه شديد في غاية الصعوبة ، ولا ينال الا ببضاعة الصديقين ، والوصول اليه يتوقف على اليقين التام . ولذا قال النبي (ص) : « أسألك من اليقين ما يهون على مصائب الدنيا » . وقد تقدم بعض الاخبار الواردة في فضيلة هذا القسم من الصبر . وقال (ص) : « قال الله : اذا ابتليت عبدى ببلائى فصبر ، ولم يشكنى الى عواده ، أبدلته لحما خيرا من لحمه ، ودما خيرا من دمه ، فان ابرأته ابرأته ولا ذنب له ، وان توفيته فالى رحمتى » . وقال صلى الله عليه وسلم : « من اجل الله ومعرفة حقه : ألا تشكو وجعك ، ولا تذكر مصيبتك » . وقال (ص) : « من ابتلى فصبر ، وأعطى فشكر ، وظلم فغفر ، اولئك لهم الا من وهم مهتدون » . وقال (ص) : « ان الله تعالى قال لجبرائيل : ماجزاء من سلبت كريمته ؟ فقال : سبحانك ! ! لا علم لنا الا ما علمتنا . قال : جزاؤه الخلود في دارى ، والنظر الى وجهى » . وقال داود (ع) : « يارب ! ماجزاء الحزين يصبر على المصائب ابتغاء مرضاتك ؟

(٤٨) الاحقاف ، الآية : ٣٥

(٤٩) المزمل ، الآية : ١٠

(٥٠) الاحزاب ، الآية : ٤٨

(٥١) آل عمران ، الآية : ١٨٦

(٥٢) النحل ، الآية : ١٢٦

قال : جزاؤه ان ألبسه الامان ، لا انزعه عنه ابدا « . وقال لابنه سليمان (ع) « يستدل على تقوى المؤمن بثلاث : حسن التوكل فيما لم ينل ، وحسن الرضا فيما قد نال ، وحسن الصبر في ما قد فات » . وروى : « ان من ابتلى بموت ثلاثة ادلاد ، لم يرد على النار أصلا » .

تذنيب

اختلاف مراتب الصبر في الثواب

لما كان الصبر على العافية بمعنى ترك الشهوات المحرمة وعدم الانهماك فيها ، فهو راجع الى الصبر عن المعصية . وعلى هذا فاقسام الصبر ثلاثة : الصبر على المصائب والنوائب ، والصبر على الطاعة ، والصبر عن المعصية . ثم ما تقدم من الخبر النبوي صريح في كون الاول أقل ثوابا ، والاخر أكثر ثوابا ، والوسط وسطا بينهما . وربما ظهر من بعض الاخبار : كون الاول أكثر ثوابا . وأبو حامد الغزالي رجح الاول أولا ، وبه صرح بعض المتأخرين من اصحابنا للخير النبوي ، ثم رجح الثاني ثانيا محتجا بما روى عن ابن عباس أنه قال : « الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله - تعالى - فله ثلاثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى - وله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الاولى ، فله تسعمائة درجة » . وبأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم ، وأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه الا ببضاعة الصديقين ، لكونه شديدا على النفس . وعندى : ان القول بكون أحدهما أكثر ثوابا على الاطلاق غير صحيح اذ القول بأن الصبر عن كلمة كذب أو لبس ثوب من الحرير لحظة ، أكثر ثوابا من الصبر على موت كثير من أعز الاولاد بعيد ، وكذا القول بأن الصبر على فقد درهم أكثر ثوابا من كف النفس عن كبائر المعاصي ، وفطامها عن ألد اللذات والشهوات مع القدرة عليها أبعد ، فالصواب : التفضيل بأن كل صبر من أي قسم كان من الثلاثة اذا كان على النفس أشد وأشق فتوابه أكثر مما كان أسهل وأيسر ، كائنا ما كان ، لما ثبت وتقرر ان افضل الاعمال أحمرها ، وبه يحصل الجمع والتلاؤم بين الاخبار .

فصل

طريق تحصيل الصبر

الطريق الى تحصيل الصبر : تقوية باعث الدين ، وتضعيف باعث الهوى
والاول : انما يكون بأمور :

الاول - ان يكثر فكرته فيما ورد من فضل الصبر وحسن عواقبه
في الدنيا والاخرة ، وان يعلم ان ثواب الصبر على المصيبة اكثر مما فات ،
وانه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة ، اذ فاته ما لا يبقى معه الامدة الحياة في
الدنيا ، وحصل له ما يبقى بعد موته ابد الدهر ، فيجازى على المدة القصيرة
الفانية بالمدة الطويلة الخالدة ، وعلى الغاية القريبة الزائلة بالغاية المديدة
الباقية . ومن اسلم خسيسا في نفيس ، فلا ينبغي ان يحزن بفوات الخسيس
في الحال .

الثاني - ان يتذكر قلة قدرة الشدة الدنيوية ووقتها واستخلاصه
عنها عن قريب ، مع بقاء الاجر على الصبر عليها .

الثالث - ان يعلم ان الجزع قبيح مضر بالدين والدنيا ، ولا يفيد ثمرة
الا حبط الثواب وجلب العقاب ، كما قال امير المؤمنين (ع) : « ان صبرت
جرت عليك المقادير وانت مأجور ، وان جزعت جرت عليك المقادير وانت مأزور
الرابع - ان يعود مصارعة هذا الباعث باعث الهوى تدريجا حتى يدرك
لذة الظفر بها فيتجرى عليها ، ويقوى متنه في مصارعتها . فان الاعتياد
والممارسة للاعمال الشاقة يؤكد القوى التي تصدر منها تلك الاعمال . ولذا
تزيد قوة الممارسين للاعمال الشاقة - كالحمالين والفلاحين - على قوة التاركين
لها فمن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما شاء و اراد .

وأما الثاني : أعنى تضعيف الهوى ، انما يكون بالمجاهدة والرياضة ،
من الصوم والجوع وقطع الاسباب المهيجة للشهوة من النظر الى مظانها
وتخليها ، وبالتسلية بالمباح من الجنس الذي يشتهيه بشرط الا يخرج عن
القدر المشروع .

تتميم

ان قيل : الصبر في المصائب ان كان المراد به الا تكون في نفسه كراهة المعصية ، فذلك داخل تحت الاختيار ، اذ الانسان مضطر الى الكراهة ، فماذا ينال درجة الصبر في المصائب ؟

قلت : من كان عارفا بالله وبأسرار حكمته وقضائه وقدره ، بأن يعلم يقينا بأن كل أمر صدر من الله وابتلى به عباده من ضيق أو سعة ، وكل أمر مرهوب أو مرغوب على وفق الحكمة والمصلحة بالذات ، وما عرض من ذلك مما يعده شرا ، فأمر عرضي لا يمكن نزع الخير المقصود منه ، وان ذلك اذا كان متيقنا له ، استعدت نفسه للصبر ومقاومة الهوى في الغم والحزن ، وطابت بقضائه وقدره ، وتوسع صدره بمواقف حكمه ، وايقن بأن قضاءه لم يجز الا بالخيرة . وقد أشار الى ذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله : « اطرح عنك واردات الهموم بعزائم الصبر وحسن اليقين » . ون بلغ بهذه الدرجة ، يتلذذ وبكل ما يرد عليه . ومثله يتمتع بثروة لا تنفد ، ويتأيد بعز لا يفقد ، فيسرح في ملك الابد ، ويعرج الى قضاء السرمد . هذا مع أن العبد انما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، واظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمطعم ونحوها ، وهذه الامور داخلية تحت اختياره ، فينبغي ان يجتنب عنها ، ويظهر الرضا بالقضاء ، ويبقى مستمرا على عاداته ، ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت ، ولا يخرج عن حد الصابرين توجع القلب وجريان الدمع ، لان ذلك مقتضى البشرية . ولذلك لمات ابراهيم ولد النبي (ص) فاضت عيناه بالدمع ، فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ قال : « هذه رحمة ، انما يرحم الله من عباده الرحماء » . وقال ايضا (ص) : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا يقول ما يسخط الرب » . بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا ايضا ، فان المقدم على الفصد والحجامة راض به ، مع انه متألم بسببه لامحالة . نعم ، من كمال الصبر كتمان المصائب ، لما ورد من أن كتمان المصائب والاوجاع والصدقة من كنوز البر . وقد ورد المدح في كثير من الاخبار على عدم الشكاية من الامراض والمصائب . وقال الباقر (ع) : « الصبر الجميل ، صبر ليس فيه شكوى الى الناس » . وفي بعض الاخبار :

« أن الشكاية أن تقول : ابتليت بما لم يتل به أحد ، واصابني ما لم يصب أحدا ، وليس الشكوى أن تقول سهرت البارحة ، وحميت اليوم ، ونحو ذلك » • وقال الصادق (ع) : « من اشتكى ليلة ، فقبلها بقبولها ، وأدى الى الله شكرها ، كانت كعبادة ستين سنة » ، قيل له : ما قبولها ؟ قال : « يصبر عليها ولا يخبر بما كان فيها ، فاذا اصبح حمد الله على ما كان » •

تتميم

التلازم بين الصبر والشكر

اعلم أنه اختلف في أفضلية كل من الصبر والشكر على الآخر ، فرجح كلا منهما على الآخر طائفة • والظاهر أنه لا ترجيح لاحدهما على الآخر ، لانهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر • اذ الصبر على الطاعة وعلى المعصية هو عين الشكر ، لكون أداء الطاعة وترك المعصية شكرا ، كما مر في باب الشكر • والصبر على الشدائد والمصائب يستلزم الشكر ، لما مر من أن الشدائد والمصائب الدنيوية تتضمن نعمًا ، فالصبر على هذه الشدائد يستلزم الشكر على تلك النعم ، ولأن الصبر على المصائب هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله - سبحانه - وهذا هو الشكر بعينه ، لانه تعظيم لله يمنع عن العصيان ، والشاكر يمنع نفسه عن الكفران مع ميل النفس اليه ، وهذا هو عين الصبر عن المعصية • وأيضا ، توفيق الصبر والعصمة من الجزع نعمة يشكر عليها الصابر ، فكل صبر يستلزم الشكر ، وبالعكس • وبالجملة : لا ريب في استلزام كل من الصبر والشكر للآخر ، فان اجتماعهما في الطاعة وترك المعصية ، بل اتحادهما فيهما ، أمر ظاهر ، كما تقدم • وفي البلاء المقيد الدنيوي ، اذا حصل فيه الصبر ، فلا ريب في عدم انفكاكه عن تصور النعم اللازمة له ، من الثواب الاخروي ، وحصول الانزعاج عن الدنيا والرغبة الى الآخرة ، فيشكر على ذلك • فهو لا ينفك عن الشكر ، لانه يعرف هذه النعم من الله ، كما يعرف البلاء ايضا من الله فيفرح بالنعم ، ويعمل بمقتضى فرحه من التحميد وغيره • وفي النعمة المقيدة مثل المال ، اذا توصل به الى تحصيل الدين ، فلا ريب في انه كما تحقق فيه الشكر تحقق فيه الصبر ايضا • اذ في انفاق المال وبذله في تحصيل الدين

حبس النفس عما تجبه وتميل اليه ، وثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى . وفي البلاء المطلق ، كالكفر والجهل ، لا معنى لتحقيق الشكر أو الصبر فيه ، وفي النعمة المطلقة كسعادة الآخرة والعلم وحسن الاخلاق ، كما يتحقق فيها الشكر يتحقق فيها الصبر ايضا . اذ تحصيل السعادة ، والعلم ، والاخلاق الفاضلة ، والابقاء عليها ، لا ينظك عن مقاومته مع الهوى ومنع النفس عما تميل اليه . مع ان الشكر عليهما يستلزم منع النفس عن الكفران وهو الصبر على المعصية . حتى أن شكر العينين بالنظر الى عجائب صنع الله يستلزم الصبر عن الغفلة والنوم ، والنظر الى ما تميل اليه النفس من النظر الى غير المحارم وأمثال ذلك .

فان قيل : استلزام كل من الصبر والشكر للآخر مما لا ريب فيه ، الا أن الكلام في أنه اذا لم يتحقق الاتحاد بينهما في فعل ، كما في فعل الطاعة وترك المعصية لكونهما متحدين فيهما ، بل تحقق الاستلزام الموجب لتحقيق جهتين ، فأبي الجهتين أفضل ؟ مثل أن يبئلى أحد بمصيبة دنوية ، فصبر عليها ، بمعنى أنه عرف أنها من الله وحبس نفسه عن الجزع والاضطراب ، وشكر عليها ايضا ، بمعنى أنه عرف أن النعم اللازمة لها من الثواب الاخروي وغيرها من الله ، وفرح بها ، وعمل بمقتضى افرحه من التحميد أو طاعة اخرى ، فهل الافضل حينئذ جهة الصبر ، او جهة الشكر ؟

قلنا : التأمل يعطي : أن كل صبر هو شكر بعينه ، وبالعكس . فلا تتحقق بينهما جهتان مختلفتان حتى يتصور الترجيح بينهما . فان الصبر على البلاء انما هو حبس النفس عن الجزع تعظيما لله . وهذا هو عين الشكر اذ كل طاعة لله - سبحانه - شكر ، وفي الشكر على النعم المطلقة منع النفس عن الكفران ، وهو عين الصبر عن المعصية .

فان اقلت : فعلى هذا ، يجتمع الصبر والشكر في محل واحد بجهة واحدة ، وقد تقدم انهما متضادان ، اذ الصبر يستدعي ألم ، والشكر يستدعي فرحا ، وقد ذكرت ان اجتماع الصبر والشكر في محل واحد انما يكون من جهتين متغايرتين لا من جهة واحدة .

قلنا : امتناع الاتحاد فيهما انما هو في الصبر والشكر على ما هو كان

نعمة وبلاء بعينه ، فانه لا يمكن أن يكون الصبر على فوت ولد - اعني حبس النفس عن الجزع - هو عين الشكر على النعمة ، اذ موت الولد بعينه ليس نعمة ، بل هو مستلزم للنعمة . فالشكر على اللازم ، والصبر على الملزوم . فاختلفت جهتا الصبر والشكر ، فلا اتحاد . وما ذكرناه من الاتحاد انما هو الشكر والصبر على النعمة وترك المعصية ، أو على البلاء والطاعة . وندعي أن من وصلت اليه نعمة ، فشكر عليها بعرفانها من الله ، ففرح بها وعمل بمقتضى الفرح ، من التحميد أو طاعة اخرى ، كان هذا الشكر عين الصبر عن معصية هي الكفران ، أو على الطاعة التي هي التحميد وغيره . كذا من ابتلى ببلية ، فصبر عليها بحبس نفسه عن الجزع ، فهذا الصبر عين الشكر بأداء الطاعة التي هي تعظيم الله بكف النفس عن الجزع ، أو عن المعصية التي هي الجزع والاضطراب . وهذا الاتحاد والعينية يتردد في كل صبر وشكر ، ولا يتحقق شكر لا يكون عن الصبر من هذا الوجه ، وبالعكس . وليس بينهما تضاد وتغاير اصلا ، واستلزم واختلاف الجهة انما هو في ٥٦ الصبر على البلاء والشكر على ما يستلزمه من النعم ؛ ولا يمكن هنا اتحادهما لتضادهما ؛ وفي هذه الصورة ؛ يكون كل من الصبر والشكر المتميزين عن الآخر باختلاف الجهة عين الآخر ؛ من حيث ملاحظة الاعتبار السابق فلا يمكن الترجيح في هذه الصورة مع اختلاف الجهة أيضا .

فان قيل : عرفان النعم من الله داخل في حقيقة الشكر ، وليس داخلا في الصبر ، فينبغي أن يكون الشكر لذلك افضل من الصبر .
قلنا : في الشق الاول من صورة العينية والاتحاد ، يكون عرفان النعمة داخلا في الصبر ، وفي الشق الثاني منهما ، وفي صورة الاستلزام ، يدخل عرفان البلاء من الله في الصبر . فكما أن الشاكر يرى نعمة العينين من الله ، فكذا الصابر يرى العمى من الله ، فهما في المعرفة متساويان . ثم جميع ما ذكر في الفرق بين الصبر والشكر انما اذا كانت حقيقة الصبر حبس النفس عن الشكوى في البلاء مع الكراهة والتألم^(١) ، وعلى هذا يكون

(١) قال استاذ البشر المحقق «الطوسي» - قدس سره - في تعريف الصبر «الصبر حبس النفس عن الجزع عند المكروه ، وهو يمنع الباطن عن الاضطراب واللسان عن الشكاية ، والأعضاء عن الحركات غير المعتادة .»

الرضا فوقه ، لو قطع النظر عن كون الصبر شكرا أيضا ، ويكون الشكر فوق الرضا ، اذ الصبر مع التألم والرضا يمكن بما لا ألم فيه ولا فرح ، والشكر لا يمكن الا على محبوب يفرح به ، ولو لم يعتبر في مفهوم الصبر الكراهة والتألم ، لصار الرضا والشكر في بعض درجاته ، اذ يمكن أن يصل حال العبد في الحب مرتبة لا يتألم من البلاء أو يفرح به ، لانه يراه من محبوبه * وحينئذ ، فترك الشكوى في البلاء مع الكراهة صبر ، وبدونها رضا ، ومع الفرح به شكر *

تنبيه

القانون الكلي في معرفة الفضائل

اعلم أن المعيار والقانون الكلي في معرفة فضائل الاعمال والاحوال وترجيح بعضها على بعض عند ارباب القلوب : أن العمل كلما كان اكثر تأثيرا في اصلاح القلب وتصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا ، وأشد اعدادا له لمعرفة الله وانكشاف جلاله في ذاته وصفائه وأفعاله ، كان أفضل * وعلى هذا القانون ، لولا الاتحاد والعينية والتلازم بينهما ، لكان اللازم أن يوازن بين كل درجة درجة من درجات الصبر والشكر وترجيح أحدهما ، اذ لكل منهما درجات مختلفة في تنوير القلب وتصفيته ، وسبب الاختلاف اسباب : منها - الاختلاف بين اقسام النعم وأقسام البلاء *

ومنها - اختلاف مراتب المعرفة والفرح المأخوذين في الشكر، واختلاف الطاعة التي تفعل في كل منهما صعوبة وسهولة * فربما كان بعض درجات الصبر أشد تنويرا وأكثر اصلاحا للقلب من بعض درجات الشكر ، وربما كان الامر بعكس ذلك في بعض آخر من درجاتهما * فان الاعمال والاحوال المندرجة تحت كل منهما كثيرة ، وباختلافها - كثرة وقلة - تختلف درجاتهما . فمن الامور والاحوال التي تدرج تحت الشكر : حياء العبد من تتابع نعم الله عليه ، ومعرفة بتقصيره عن الشكر ، واعتذاره من قلة الشكر ، واعترافه بأن النعم ابتداء من الله - تعالى - من غير استحقاقه لها ، وعلمه بأن الشكر ايضا نعمة من نعمه ومواهبه ، وحسن تواضعه بالنعم ، والتذلل ، وقلة اعتراضه ، وحسن ادبه بين يدي المنعم وتلقى النعم بحسن القبول ، واستعظام

صغيرها ، وشكر الوسائط ، لقوله (ص) : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » وقال السجاد (ع) : « أشكركم لله أشكركم للناس » وقال (ع) : « يقول الله - تعالى - لعبد من عبده يوم القيامة : أشكرت فلانا ؟ فيقول : بل شكرتك يارب ! فيقول : لم تشكرني اذ لم تشكره » وقال الصادق (ع) : « اشكر من انعم عليك ، وانعم على من شكرك » . ولا ريب في أنه كلما ازدادت هذه الاحوال في الشكر ، وطال زمانه ، ازداد فضله . وقد نقل : « أن رجلا (كان) يهوى ابنة عم له ، وهي ايضا تهواه ، فاتفق مزاجتهما فقال الرجل ليلة الزفاف لها : تعالي حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله على ما جمعنا ؛ فقالت : نعم ! فصليا تلك الليلة بأسرها ، ولم يتفرغ احدهما الى صاحبه . فلما كانت الليلة الثانية ، قالوا مثل ذلك ، فصليا طول الليل . . . فهكذا يفعلان في ثمانين سنة ، وبقي على تلك الحالة في ثمانين سنة في كل ليلة ، من دون رجوع لاحدهما الى الآخر ، ومن دون اتفاق مضاجعة بينهما ، فضلا عن شيء آخر » . ولا يخفى أن هذا الشكر أفضل بمراتب من صبرهما على بلاء العزوبة لو لم يحصل بينهما الجمع والوصول .

تتميم

تفضيل الصبر على الشكر

أعلم ان الظاهر من بعض الاخبار : أن الصبر أفضل وأكثر ثوابا من الشكر . كما روى : « أنه يؤتى يوم القيامة بأشكر أهل الارض ، فيجزيه الله جزاء الشاكرين . ويؤتى بأصبر أهل الارض ، فقال له : أترضى ان نجزيك كما جزينا هذا الشاكر ؟ فيقول : نعم يارب ! فيقول الله تعالى : كلا ! أنعمت عليه فشكر ، وابتليتك فصبرت ، لضعفك عليك الأجر عليه ! فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين » . وكقوله (ع) : « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر » . وهذا يدل على أفضلية الصبر من الشكر ، لأن المشبه به أعلى رتبة من المشبه . وكقول الباقر (ع) : « مروة الصبر في حال الحاجة والفاقة والتعفف والغنى ، أكثر من مروة الاعطاء » . ويؤيد ذلك قوله تعالى : (انما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب) . وينبغي أن يرتكب في أمثال هذه الاخبار تقييدان :

أحدهما - التقييد ببعض المراتب ، بأن يقال : المراد ان بعض مراتب الصبر أفضل من بعض مراتب الشكر * وهذا مما لا يرب فيه ، فان من سلب أعز أولاده وابتلى بالفقر والمرض ، ومع ذلك صبر ولم يجزع ، فهو أفضل البتة ممن اعطى مالا كثيرا فقال : شكرا لله ، الحمد لله ، من دون أبداء عمل آخر من الطاعات * وليس المراد أن كل ما يسمى صبورا أفضل من كل درجة من درجات الشكر * اذ البديهة حاكمة بأن الشكر على نعمة بالاشتغال بالطاعة والعبادات ، وترك المعاصي سنين كثيرة متتالية ، من دون فتور ، أفضل وأعلى رتبة من منع النفس عن الجزع لأجل عشرة دراهم سرقته منه * وثانيهما - التقييد بخروجها على ما هو الظاهر عند جمهور الناس من الانفكاك بين الصبر والشكر * فان الجمهور لا يفهمون من حبس النفس عن الجزع عند الابتلاء ببلية الا الصبر ، ولا يلتفتون الى أن هذا الحبس نوع عبادة حصلت تعظيما لله ، وهو عين الشكر * وكذا لا يفهمون من اظهار التحميد والاشتغال بالصلاة عند وصول نعمة الا الشكر ، ولا يلتفتون الى أن هذا العمل عين منع النفس عن الكفران ؛ وهو الشكر بعينه * ومنها :

الفسق

وهو الخروج عن طاعة المبدأ الحقيقي وعبادته * وضده الطاعة ، وهي تمجيد المبدأ والتخضع له باداء ضروب العبادات المقررة في الشريعة * وعمدة العبادات الموظفة في الشريعة هي : الطهارة ، والصلاة ، والذكر ، والدعاء ، وتلاوة القرآن ، والصوم ، والحج ، وزيارة النبي (ص) والائمة عليهم السلام : والجهد في سبيل الله ، واداء المعروف ، الشامل للزكاة ، والخمس ، والصدقة المندوبة ، وغيرها * والاخير - اعني أداء المعروف بأقسامه - قد تقدم * والجهد في هذا الزمان ساقط * فنشير الى بعض الاسرار والدقائق والآداب الباطنة المتعلقة بالبواقي ، في مقاصد وخاتمة * وأما آدابها واحكامها وشرائطها الظاهرة ، فهي مذكورة في الفقهيات *

المقصد الاول

الطهارة - حقيقة الطهارة - ما ينبغي للمؤمن في الطهارة - إزالة

الاوساخ - آداب الحمام - السر في ازالة الاوساخ .

أعلم ان الطهارة والنظافة أهم الامور للعباد . اذ الطهارة الظاهرة وسيلة الى حصول الطهارة الباطنة ، وما لم تحصل الاولى لم تحصل الثانية . ولذا ورد في مدحها ما ورد ، قال الله سبحانه :

« فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المتطهرين » (٢١) . وقال :
« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم » (٣) .

وقال رسول الله (ص) : « بني الدين على النظافة » . وقال (ص) :
« الطهور نصف الايمان » . وقال (ص) : « مفتاح الصلاة الطهور » .
وقال (ص) : « بس للعبد القاذورة » . وقال (ص) : « من اتخذ ثوبا فلينظفه » . وقال أمير المؤمنين عليه السلام : « النظيف من الثياب يذهب الهم والحزن ، وهو طهور للصلاة » .
ثم للطهارة أربع مراتب :

الاولى - تطهير الظاهر من الاحداث والابخاث والفضلات .
الثانية - تطهير الجوارح من الجرائم والآثام والتبعات .
الثالثة - تطهير القلب من مساوي الاخلاق وذرائلها .
الرابعة - تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهي تطهير الانبياء والصديقين . والطهارة في كل مرتبة نصف العمل الذي فيها ، اذ الغاية القصوى في عمل السر أن ينكشف له جلال الله وعظمته ، وتحصل له المعرفة التامة ، والحب والانس . ولا يمكن حصول ذلك ما لم يرتحل عنه ماسوى الله ، ولذلك قال الله تعالى :

« قل الله ثم ذرهم » (٤) . فان الله وغيره لا يجتمعان في قلب واحد :
« وما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه » (٥) .

فتطهير السر عما سوى الله نصف عمله ، والنصف الآخر شروق نور

(٢) التوبة ، الآية : ١٠٩

(٣) المائدة ، الآية : ٧

(٤) الانعام الآية : ٩١

(٥) الاحزاب الآية : ٤

الحق فيه • والغاية القصوى في عمل القلب عمارته بالاخلاق المحمودة ،
والعقائد الحقّة المشروعة • ولا يتصف بها مالم ينظف عن تقائضها ، من
الاخلاق المذمومة ، والعقائد الفاسدة • فتطهيرها عنها أحد الشطرين ،
والشطرن الآخر تحليته بالفضائل والعقائد الحقّة •

وأما عمل الجوارح ، فالمقصود منه عمارتها بالطاعات • ولا يمكن ذلك
مالم يطهر عن المعاصي والمناهي • فهذا التطهير نصف عملها ، ونصفه الآخر
عمارتها بالطاعات • وقس على ذلك الحال في المرتبة الاولى • والى ذلك
الاشارة بقول النبي (ص) : « الظهور نصف الايمان » • فان المراد : أن
تطهير الظاهر ، والجوارح ، والقلب ، والسر ، من النجاسات والمعاصي
ورذائل الاخلاق وما سوى الله نصف الايمان ، ونصفه الآخر عمارتها
بالنظافة والطاعات ومعالي الاخلاق ، والاستغراق في شهود جمال الحق
وجلاله • ولا تظن أن مراده (ص) أن مجرد تطهير الظاهر عن النجاسات
بافاضة الماء نصف الايمان ، مع تلوث الجوارح بأخبث المعاصي ، وتنجس
القلب بأقذار مساوي الاخلاق ، وتشوش السر وتكدره بما سوى الله •
فالمراد التطهير في المراتب الاربع ، التي هي من مقامات الدين ، وهي مرتبة
يتوقف بعضها على بعض ، ولا يمكن أن ينال العبد ما هو فوق ، مالم
يتجاوز ما دونه ، فلا يصل الى طهارة السر مما سوى الله ، وعمارته بمعرفة
الله ، وانكشاف جلاله وعظمته ، مالم يفرغ عن طهارة القلب عن الاخلاق
المذمومة ، وتحليته بالملكات المحمودة • ولا يصل الى ذلك مالم يفرغ عن
طهارة الجوارح من المعاصي وعمارتها بالطاعات • ولا يصل الى ذلك مالم
يفرغ عن ازالة الخبث والحدث عن الظاهر ، وعمارته بالنظافة والنزاهة •

فصل

حقيقة الطهارة

طهارة الظاهر ، اما عن الخبث ، او عن الحدث ، او عن فضلات
البدن ، وما يتعلق بها من الاحكام الظاهرة الواجبة والمحرمة والمندوبة
والمكروهة ، مستقصاة في كتب الفقه •

وأما الآداب الباطنة لطهارة الخبث وازالته عند التخلي لقضاء الحاجة ،

أن يتذكر عنده نقصه وحاجته ، وخبث باطنه ، وخسة حاله ، وما يشتمل عليه من الاقدار ، وكونه حامل النجاسات ، ويتذكر بأستراحة نفسه عند أخراجها ، وسكون قلبه عن دنسها ، وفراغه للعبادات والمناجات ، وأن الاخلاق الذميمة التي في باطنها نجاسات باطنة ، وأقدار كامنة ، لتستريح نفسها عند أخراجها ، ويطمئن قلبه من ازالة دنسها ، وعند أخراجها يصلح للوقوف على بساط الخدمة ، ويتأهل للقرب والوصول الى حريم العزة . فكما يسعى في أخراج النجاسات الظاهرة لاستراحة البدن مدة قليلة في الدنيا ، فينبغي أن يجتهد أيضا في اخراج الاقدار الباطنة ، والنجاسات الداخلة الغائضة (٦) في الاعماق ، المفسدة على الاطلاق ، لتستريح الروح والبدن في الدنيا والآخرة أبد الآباد . قال الصادق (ع) : « انما سمي المستراح مستراحا لاستراحة النفس من أفعال النجاسات ، واستفراغ الاقدار والكسافات فيها . والمؤمن يعتبر عندها ان الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته ، فيستريح بالعدول عنها وتركها ، ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها ، ويستتفك عن جمعها وأخذها استتكافه عن النجاسة والغائط والقذر ، ويتفكر في نفسه المكرمة في حال كيف تصير ذليلة في حال ، ويعلم أن التمسك بالقناعة والتقوى يورث له راحة الدارين . فان الراحة في هوان الدنيا ، والفراغ من التمتع بها ، وفي ازالة النجاسة من الحرام والشبهة . فيغلق عن نفسه باب الكبر بعد معرفته اياها ، ويفرغ من الذنوب ، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ، ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيه ، طلبا لحسن المآب ، وطيب الزلفى . ويسجن نفسه في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات ، الى أن يتصل بأمان الله تعالى في دار القرار ، ويذوق طعم رضاه ، فان المعول على ذلك ، وما عداه فلا شيء » (٧) . وينبغي أن يتأمل في ان ما دفع عنه من الغائط والقذر هو ما كان يشتهي ، ويحترص في طلبه من لذائذ الاطعمة ، وكلما كانت ألد عفوتها أشد ، فما

(٦) الغائضة : الغائر . غيض الدمع حبسه وأخفاه

(٧) الحديث المذكور في « مصباح الشريعة » ، الباب التاسع وفي « مستدرک الوسائل » : ٣٧/١ - ٣٨ ، كتاب الطهارة . وفي الموضوعين اختلاف كثير عما ذكر هنا ، فصححناه كما كان في الموضوعين .

كانت عاقبته ذلك ، فليحذر من أن يأخذه من غير حله ، فيعذب أبد الآباد
الأجله .

فصل

ما ينبغي للمؤمن في الطهارة

ينبغي لكل مؤمن ان يستحضر عند اشتغاله بالطهارة عن الحدث : أن
تكلفه بها للدخول في العبادات والمناجاة مع خالق البريات انما هو لكون
أعضائه التي أمر بغسلها مباشرة للأموال الدنيوية ، منهكة في الكدورات
الطبيعية ، فخرجت عن أهلية القيام بين يدي الله سبحانه ، والاشتغال
بعبادته . فالأمر بغسلها ، لتنتهر عن هذه الكدورات ، فيتأهل للمناجاة .
ولا ريب في أن مجرد غسلها لا يطهرها عن الأدناس الدنيوية والكدورات
الجسمانية ، ما لم يطهر قلبه عن الاخلاق الذميمة ، والعلائق الدنيوية ،
وما لم يعزم على الرجوع الى الله ، والانتقاع عن الدنيا وشهواتها . فينبغي
أن يكون قلبه عند الطهارة مطهرا عن ذمائم الصفات وخبائث الشهوات ،
جازما على فطام الاعضاء التي هي أتباعه وخدامه عن شهوات الدنيا ، لتسرى
نوريته وطهارته الى تلك الاعضاء ، ثم أمر في الوضوء أولا : بغسل الوجه ،
الذي هو مجمع أكثر الحواس الظاهرة ، التي هي أعظم الاسباب الباعثة على
مطالب الدنيا ، ليتوجه ويقبل بوجه للقلب على الله ، وهو خال من تلك
الأدناس ، وثانيا : بغسل اليدين ، لمباشرتيها أكثر الامور الدنيوية والمشتبهات
الطبيعية المانعة من الاقبال على الآخرة ، وثالثا : بمسح الرجلين ، للتوصل
بهما الى أكثر المطالب الدنيوية ، والمقاصد الطبيعية . فأمر بتطهير جميعها
ليسوغ له الدخول بها في العبادات والاقبال عليها . وأمر في الغسل بغسل
جميع البشرة ، لأن أدنى حالات الانسان وأشدّها تعلقا بالملكات الشهوية
حالة الوقاع ، ولجميع بدنه مدخل في تلك الحالة . ولهذا قال رسول الله
صلى الله عليه وآله : « تحت كل شعرة جناحة » . فحيث كان جميع بدنه
بعيدا عن المرتبة العلية ، منغمسا في اللذات الدنية ، كان غسله أجمع من أهم
المطالب الشرعية ، ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة ، والدخول في العبادة المنيفة .
وأمر في التيمم بمسح الاعضاء بالتراب ، عند تعذر غسلها بالماء ، وضعتلك

الاعضاء الرئيسية ، وهضما لها بملاقاتها أثر التربة الخسيسة .
ثم لما كان القلب هو الرئيس الاعظم لهذه الجوارح والاعضاء ،
والمستخدم لها في تلك الامور المبعدة عن جنبه تعالى ، وهو الموضع لنظر
الله سبحانه ، كما قال (ص) : « ان الله لا ينظر الى صوركم ، ولكن
ينظر الى قلوبكم » ، فله من ذلك الحظ الاوفر والنصيب الاكمل . فيكون
الاشتغال بتطهيره من الرذائل والتوجهات المانعة من درك الفضائل أولى من
تطهير الاعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل . واذا لم يمكن تطهيره من الاخلاق
الرذيلة ، وتحليلته بالافوصاف الجميلة ، لرسوخه على حب الدنيا الدنية ،
فليقمه في مقام الهضم والازراء ، ويسقه بسياط الذل والاعضاء . كما أنه
عند تعذر غسل الاعضاء بالماء يهضمها ويدلكها بالوضع على التراب ، عسى
أن يرحم ربه تواضعه وانكساره ، فيهبه تفحة من تفحات نوره اللامع ،
فانه عند المنكسرة قلوبهم ، كما ورد في الاثر ، فترق من هذه الاشارات
ونحوها الى ما يوجب لك الاقبال ، ويتدارك سالف الاهمال .

ثم ما ذكر من السر في الطهارة ، يمكن استنباطه - مع الزيادة -
من كلام مولانا الصادق (ع) في (مصباح الشريعة) ، حيث قال : « اذا
أردت الطهارة والوضوء ، فتقدم الى الماء تقدمك الى رحمة الله ، فان الله
تعالى قد جعل الماء مفتاح قربته ومناجاته ، ودليلا الى بساط خدمته ، وكما
أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لاغيره ،
قال الله تعالى :

« وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماء
طهورا » (٨) . وقال الله - تعالى - : « وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا
يؤمنون » (٩) .

فكما أحبى به كل شيء من نعيم الدنيا ، كذلك برحمته وفضله جعل
حياة القلوب بالطاعات . وتفكر في صفاء الماء ورقته ، وطهره وبركته ،
ولطيف أمتزاجه بكل شيء . واستعمله في تطهير الاعضاء التي أمرك الله

(٨) الفرقان ، الآية : ٤٨

(٩) الانبياء ، الآية : ٣٠

بتطهيرها ، وتعبدك بأدابها في فرائضه وسنته • فان تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة ، فاذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ، ثم عاشر خلق الله تعالى كما مزاج الماء بالاشياء ، يؤدي كل شيء حقه ، ولا يتغير عن معناه ، معتبرا لقول الرسول (ص) : (مثل المؤمن الخالص كمثل الماء) • ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعتك كصفوة الماء حين انزله من السماء وسماه طهورا ، وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء » (١٠) •

ومن الاسرار الواردة في الطهارة وتخصيص بعض الاعضاء بالتطهير في الوضوء ، ما أشار اليه مولانا الرضا (ع) بقوله : « انما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهرا اذا قام بين يدي الجبار عند مناجاته اياه ، مطيعا له فيما أمره ، تقيا من الادناس والنجاسة ، مع ما فيه من ذهاب الكسل ، وطرده النعاس ، وتركية الفؤاد للقيام بين يدي الجبار • وانما وجب ذلك على الوجه واليدين والرأس والرجلين ، لأن العبد اذا قام بين يدي الجبار ، فانما ينكشف من جوارحه ويظهر ما يجب فيه الوضوء ، وذلك أنه بوجهه يسجد ويخضع ، ويبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل ، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده ، وبرجليه يقوم ويقعد • وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء ، لأن الجنابة من نفس الانسان ، وهو شيء يخرج من جميع جسده والخلاء ليس هو من نفس الانسان ، انما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب » (١١) •

(١٠) صححنا الحديث على «مصباح الشريعة» ، الباب العاشر . وعلى «المستدرک» : ٥١/١-٥٢ كتاب الطهارة

(١١) هذه الرواية نقلها العلامة «المجلسي» - قدس سره - في «البحار» ٥٦/١٨ ، باب علل الوضوء وثوابه وعقابه تركه ، وعن «العيون والعلل» لشيخ المحدثين مولانا «الصدوق» - رضوان الله عليه - ولم اعثر عليها الا في الموضع المذكور من «بحار الانوار» .

ولا يخفى ان ما نقله العلامة «المجلسي» - قدس الله روحه في الموضع المذكور فيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ «جامع السعادات» الخطية والمطبوعة ، بحيث لا يمكن تصحيح الرواية الا بنقلها من «البحار» وذكرها في هامش الكتاب وذلك غير ممكن ، لضيق المقام ، فلا جله تركنا تصحيحها ، لعل القارئ الكريم يقف على مصدر آخر لها فمن اراد الاطلاع على الرواية ، فعليه بمراجعة «البحار» في الموضع المذكور

فصل

ازالة الاوساخ

ينبغي لكل مؤمن أن يطهر بدنه من فضلاته ودرنه وأوساخه ، كشعر الرأس بالحلق ، وشعر الانف والشارب وما طال من اللحية بالقبض ، وشعر الإبط والعانة وسائر الاعضاء بالنورة ، وكأظفار اليدين والرجلين بالقلم ، وما يجتمع من الوسخ والقمل في شعر الرأس واللحية بالغسل والتسريح بالمشط ، وما يجتمع من الوسخ في معاطف الاذنين بالمسح ومثله ، وما يجتمع منه على الاسنان وأطراف اللسان بالسواك والمضمضة ، وما يجتمع في الانف من الرطوبات المنتصقة بالاستنشاق ، وما يجتمع من الوسخ تحت الاظفار بالقلم والغسل ، وما يجتمع منه في رؤس الانامل وفي معاطف ظهورها عقب أكل الطعام بالغسل ، وما يجتمع من الدرن على جميع بدنه ، وترشيح العرق وغبار الطريق بالدخول في الحمام .

تنبيه

آداب الحمام

ينبغي لمن يدخل الحمام ، أن يتذكر بحرارته حرّ النار ، ويقدر نفسه محبوساً في البيت ساعة ، ويقيسه الى جهنم ، ويستعيد بالله منها . قال الصادق (ع) : « فاذا دخلت البيت الثالث ، فقل : نعوذ بالله من النار ونسأله الجنة . وتردها الى وقت خروجك من البيت الحار » . وقال أمير المؤمنين (ع) : « نعم البيت الحمام ، يذهب بالدرن ، وتذكر فيه النار » . وفيه إشارة الى أنه ينبغي للعاقل ألا يغفل عن ذكر الآخرة في لحظة ، فانها مقره ومستقره . فيكون له في كل ما يراه ، من ماء أو نار أو غيرهما ، عبرة وموعظة . فان المرأ ينظر في كل شيء بحسب همته . فالبزار اذا دخل داراً معمورة مفروشة ينظر الى الفرش ويتأمل في قيمتها . والحائك اذا دخلها ينظر الى الثياب ويتأمل في كيفية نسجها ، والنجار اذا دخلها ينظر الى أبوابها وشبابيكها ويتأمل في كيفية نجرها وتركيبها ، والبناء اذا دخلها ينظر الى الحيطان والسقف وكيفية بنائها واحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة ، لا ينظر الى شيء الا وتكون له موعظة وعبرة من

الآخرة ، فان نظر الى ظلمة تذكر ظلمة اللحد ، وان نظر الى نار تذكر نار جهنم ، وان نظر الى حية تذكر أفاعي جهنم ، وان سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور ، وان نظر الى صورة قبيحة تذكر صورة النكيرين والزبانية ، وان رأى المحاسبة بين قوم تذكر محاسبة الآخرة ، وان سمع كلمة رد أو قبول تذكر ما ينكشف له في آخر أمره بعد الحساب من الرد والقبول ، وان رأى شيئا حسنا تذكر نعيم الجنة . . . الى غير ذلك .

تتميم

السر في ازالة الاوساخ

السر في ازالة الفضلات المذكورة عن البدن ظاهر ، فانها توجب تنوير القلب ، وانسراح الصدر ، وطرد الشيطان . اذ هي كسافات مانعة عن النورية والتجرد ، فتشمز منها الملائكة ، ويرغب اليها الشياطين . ومن تأمل في الاحكام والآداب التي جاء بها رسول الله (ص) ، وكانت نه بصيرة فاقدة ، يعلم أن شيئا منها لا يخلو عن حكمة ، حتى أن ما صدر عنه في الآداب والحركات والافعال والاقوال ، من ترتيب خاص ، او تخصيص بعدد معين ، او ابتداء من موضع خاص ، او بواحد معين من الاشياء المتماثلة ، يتضمن حكما أو حكمة البتة . مثال ذلك : انه (ص) كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثا وفي عينه اليسرى اثنتين ، والسر في هذا الترتيب وهذا التخصيص : أن اليمنى أشرف العينين فبدأ بها ، وتفاوته بين العينين لتكون الجملة وترا ، فان للوتر فضلا على الزوج ، لأن الله وتر يحب الوتر ، فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد عن مناسبة لوصف من أوصاف الرب ، وانما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر ، لأن اليسرى حينئذ لاتخصها الا واحدة ، والغالب أن الواحدة لاتستوعب أصول الاجفان بالكحل ، وانما خصص اليمين بالزيادة لان التفضيل لا بد منه للايثار ، واليمين أفضل ، فهو بالزيادة أحق ، وانما اقتصر على الاثنتين لليسرى مع كونه زوجا ، اذ الزوجية في أحدهما لازمة ضرورية ، اذ لو جعل لكل واحدة وترا لكان المجموع زوجا اذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعاية الايثار في مجموع الفعل وهو في حكم الخصلة الواحدة أحب من رعايته في الآحاد . مثال آخر . روى الجمهور

في تقليم الاظفار : « أن رسول الله (ص) كان يبدأ عند تقليم أظفاره الشريفة بمسبحة اليمنى ، ويختم بأبهام اليمنى ، بأن يتدىء من مسبحتها الى خنصرها ، ثم يتدىء من خنصر اليسرى الى ابهام اليمنى » . وفي طريقنا روايتان : احدهما أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى ، وأخرهما بعكس ذلك ، وهي أشهر . فالسر على رواية الجمهور - كما قيل - أن اليد اليمنى أشرف من اليسرى فيبتدىء بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها فيبتدأ بها ، ثم ينبغي ان يتدىء بما على يمينها لكون اليمنى أشرف ، ولذا استحب في الشرع وضع الطهور وغيره على اليمنى . ولا ريب في أنه اذا وضعت الكف على الارض فيمين مسبحة اليمنى هي الوسطى ، ووضع ظهر اليد على الارض وان اقتضى كون الابهام هو اليمنى ، الا ان الاعتبار الاول أولى ، اذ اليد اذا تركت بطبعها كانت الكف مائلة الى جهة الارض ، لأن جهة حركة اليد اليمنى الى جهة اليسرى ، واليسرى الى جهة اليمنى ، واستتمام حركة كل منهما في جهة يجعل الكف على الارض وظهرها عاليا ، واذا كانت الكف مائلة الى جهة الارض فأعتبار ما يقتضيه الطبع أولى ، فتكون يمين المسبحة هي الوسطى . ثم اذا وضعت الكف على الكف ، صارت الاصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضى ترتيب الدور الذهاب من يمين المسبحة الى ان يعود الى المسبحة ، فتقع البداية بخنصر اليسرى والختم بأبهامها ، ويبقى ابهام اليمنى ، وانما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الاصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها ، وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف ، فان ذلك لا يقتضيه الطبع .

هذا ، وأما السر على الرواية الاولى من طريقنا ، فكأنه اعتبار الاصابع العشرة في حكم صف واحد ثابت على الارض ، والابتداء باليمين ، فأكتفى بما يرى بالنظر الجليل مع ترك اليد بطبعها . وأما الرواية الثانية ، فلعل السر فيها تحصيل التيامن في كل اصبع بعد الاولى مع الترتيب فيها ، ووضع اليدين على ما يقتضيه الطبع . هذا ، وأما اصابع الرجل ، فلم نعثر على خبر يدل على كيفية الابتداء والترتيب فيها ، فينبغي اعتبار أحد الطريقتين

المرويين عندنا فيها ، ولعل اعتبار الاولى لأظهرية سرها أولى ، وينبغي ان يكون تقليم أظفارها بعد تقليم اظفار اليدين ان وقع في وقت واحد ، اذ اليد أشرف من الرجل • وقس على ما ذكر سائر ما ورد من الآداب والتخصيصات ، فانه لا يخلو شيء منها على سر حكيم ، وان كانت عقولنا قاصرة عن أدراك أكثرها •

المقصد الثاني

الصلاة — حقيقة الصلاة — حضور القلب — دفع اشكال — شرائط الصلاة — طريق تحصيل المعاني الباطنة — أسرار الصلاة — الوقت — آداب الصلاة — آداب المصلى — الاستقبال — القيام — التكبيرات — النية — تكبيرة الاحرام — دعاء الاستفتاح — الاستعاذة — الركوع — السجود — التشهد — التسليم — أفاضة الانوار على المصلى على قدر صفائه — ما ينبغي في امام الجماعة — ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين — ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات •

اعلم ان الصلاة معجون سماوي ، وتركب إلهي ، ركبت من أجزاء كثيرة مختلفة ، متفاوتة في الفضل والاهتمام بها • فبعضها بمنزلة الروح ، وبعضها بمثابة الاعضاء الرئيسة ، وبعضها بمنزلة سائر الاعضاء •

وتوضيح ذلك : ان الانسان — مثلا — لما كان حقيقة مركبة من أجزاء معينة ، فهو لا يكون انسانا موجودا كاملا الا بمعنى باطن هو الروح ، وأعضاء محسوسة بعضها في جوفه وبعضها في ظاهرة • وهذه الاعضاء متفاوتة المراتب ، اذ بعضها مما ينعدم الانسان بعدمه وتزول الحياة بزواله ، كالقلب والدماع والكبد والمعدة وأمثالها ، وبعضها وان لم ينعدم بعدمه أصل الحياة ، الا أنه ترتفع به تمامية الانسان ويصير ناقصا ، كاليد والرجل والعين وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته الحسن ، كالحاجبين واللحية والاهداب وأمثالها ، وبعضها يفوت بفواته كمال الحسن لا أصله ، كأستقواس الحاجبين وتناسب الخلقة ، وسواد شعر اللحية ، وامتزاج البياض بالحمرة ، وأمثال ذلك • وكذلك الصلاة حقيقة مركبة ، وصورة صورها الشرع من أمور متفاوتة ، وتعبدنا بأكتسابها • فروحها : النية ، والقربة ، وحضور القلب ؛

والاخلاص • وأعمالها الاركانية : من تكبيرة الاحرام ، والركوع ، والسجود ، والقيام ، بمنزلة الاعضاء الرئيسة ، فتفتوت بفواتها الصلاة على الاطلاق ، ولا يمكن تحققها وصحتها بدونها • وسائر الاعمال الواجبة : من الفاتحة ، والسور ، واذ كان الركوع ، والسجدتين ، والطمأنينة فيهما ، وفي رفع الرأس عنهما ، والتشهد ، والتسليم ، وغير ذلك من الاعمال الواجبة التي تبطل الصلاة بتركها عمدا لاسهوا ، بمنزلة اليدين والرجلين وآلات التناسل وغير ذلك ، مما قد تفتوت الحياة بزوالها وقد لا تفتوت به ، والاعمال المسنونة والهيئات المندوبة ، والآداب المستحبة : من انقنوت ، ودعاء الافتتاح ، وغير تكبيرة الاحرام من التكبيرات ، والتعوذ ، والزائد عن قدر الواجب في التشهد والتسليم من الاذكار ، وغير ذلك مما لا تبطل الصلاة بتركها عمدا أو سهوا ، ولكن تخرج بها عن الحسن والكمال وزيادة الاجر والثواب ، فهي بمنزلة الحاجبين وأستقواسهما واللحية والاهداب وتناسب الخلقة ، وغير ذلك مما يفوت بعضها الحسن والجمال وبفوات بعض كمالها ، ويصير الشخص بسببه مشوه الخلقة مذموما غير مرغوب فيه •

وإذا عرفت ذلك : فأعلم — يا حبيبي — أن صلاتك قرينة وتحفة تتقرب بها الى حضرة ملك الملوك ، كوصيفة يهديها طالب القرب والجاه من السلاطين اليهم • وهذه التحفة تعرض على الله ثم ترد اليك في يوم العرض الاكبر ، فاليك الخيرة في تحسين صورتها او تقبيحها ، فمن أداها على النحو المأمور به ، بأعمالها الواجبة والمندوبة ، وشرائطها الظاهرة والباطنة ، مع الاخلاص وحضور القلب ، كان كمن أهدى عبدا صحيحا سويا شابا جميلا عاقلا كاملا الى ملك من الملوك • ومن أقتصر على أعمالها الظاهرة ، وغفل من الحضور والتوجه والقربة والاخلاص ، كان كمن أهدى عبدا ميتا بلا روح الى ملك من الملوك • ومن ترك عمدا شيئا من واجباته ، كان كمن أهدى عبدا مقتولا اليه • ومن أقتصر على أقل ما يجزى كان كمن أهدى اليه عبد حي أعمى ، او أصم ، او ابكم ، او مقطوع الاطراف ، او هرما ، او قبيح المنظر ، او مجروح الاعضاء ، او امثال ذلك • فتنبه أيها الغافل ، وتأمل في انك اذا أهديت تحفة الى ملك من ملوك الدنيا ، بل الى من دونه بمراتب كثيرة ،

من الامراء والحكام ، كيف تجتهد وتسعى في تجويدها وتحسينها ليقبلها ،
فما بالك أيها المعرور تغفل وتتساهل من تحسين هديتك وتحفتك الى ملك
الملوك الذي منه بدؤك واليه عودك؟! وقد ورد : ان كل صلاة لا يتم الانسان
ركوعها وسجودها فهي الخضم الاول على صاحبها يوم العرض الاكبر، وتقول
« ضيعك الله كما ضيعتني ! »

فصل

حقيقة الصلاة

لأبحث لنا عما يتعلق بظواهرها من الاجزاء والشرايط والاحكام ،
اذبيانها على عهدة الفقه ، فلنشر الى المعاني الباطنة التي بها تتم حياتها ، والى
الاسرار والاداب الخفيه الباطنة المتعلقة باجزائها وشرايطها الظاهرة ، لتكون
ملحوظة للعبد عند فعلها .

فنقول : المعاني الباطنة التي هي روح الصلاة وحقيقتها ، سبعة :
الاول - الاخلاص والقربة ، وخلوها عن شوائب الرياء . وقد
تقدم تفصيل القول في ذلك .

الثاني - حضور القلب : وهو ان يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له
ومتكلم به ، حتى يكون العلم مقرونا بما يفعله وما يقوله ، من غير جريان
الفكر في غيرهما . فمهما انصرف الفكر عن غير ما هو فيه ، وكان في قلبه ذكر
لما هو فيه من غير غفلة عنه ، فقد حصل حضور القلب . ثم حضور القلب
قد يعبر عنه بالاقبال على الصلاة والتوجه ، وقد يعبر عنه بالخشوع بالقلب
فان الخشوع في الصلاة خشوعان : خشوع بالقلب : وهو ان يتفرغ لجمع
الهمة لها ، والاعراض عما سواها ، بحيث لا يكون في قلبه غير المعبود .
وخشوع بالجوارح : وهو ان يغض بصره ، ولا يلتفت ، ولا يعبث ،
ولا يتشاءب ، ولا يتمطى ، ولا يفرقع أصابعه وبالجملة : لا يتحرك لغير الصلاة
ولا يفعل شيئا من المكروهات ، وربما عبر ذلك بالخشوع .

الثالث - التفهم لمعنى الكلام : وهو امر وراء حضور
القلب . فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ، ولا يكون حاضرا مع معناه
فالمراد بالتفهم هو اشتغال القلب على العلم بمعنى اللفظ . وهذا مقام يتفاوت

فيه الناس ، اذ ليس يشترك الناس في تفهم معاني القرآن والتسييحات ، فكم من معان لطيفة يفهمها بعض المصلين في اثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه قبل ذلك ، ولا يفهمها غيره . ومن هذا الوجه كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر ، فانها تفهم امورا تمنع تلك الامور عن الفحشاء والمنكر لامحالة .
الرابع - العظيم : وهو امر وراء حضور القلب والتفهم . اذ الرجل ربما يخاطب غيره ، وهو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولا يكون معظما له .

الخامس - الهيبة : وهي زائدة على التعظيم لانها عبارة عن خوف منشأه التعظيم ، لان من لا يخاف لا يسمى هائبا . ثم كل خوف لا يسمى مهابة ، بل الهيبة خوف مصدره الاجلال .

السادس - الرجاء : ولاريب في كونه زائدا عما ذكر . فكم من رجل يعظم ملكا من الملوك ، ويهابه ويخاف سطوته ، ولا يرجو بره واحسانه ، والعبد ينبغي ان يكون راجيا بصلاته ثواب الله ، كما انه خائف بتقصيره عقابه .
السابع - الحياء : ومستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ، وهو زائد على التعظيم والخوف والرجاء ، لتصورها من غير حياء ، حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

فصل

حضور القلب

اعلم ان كون الامور المذكورة روح الصلاة وحقيقتها ، والمقصود الاصلى منها ، امر ظاهر . اذ الغرض الاصلى من العبادات والطاعات هي تصفية النفس وتصقيلاها ، فكل عمل يكون اشد تأثيرا فيهما يكون افضل . ولاريب في ان المقتضى لصفاء النفس وتجردها وتصقيلاها عن الكدورات من الصلاة ليس الا الامور المذكورة ، وليس لنفس الحركات الظاهرة كثير مدخلة فيها ، وكيف لا يكون حضور القلب والخشوع روح الصلاة ولا يتوقف كمال الصلاة عليه ، مع ان المصلي في صلاته ودعائه مناج ربه ؟ ولا شك ان الكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ، وايضا الكلام اعراب عما في الضمير ، ولا يتأتى الاعراب عما في الضمير الا بحضور القلب ، فاي سؤال في قوله : « اهدنا الصراط

المستقيم » اذا كان القلب غافلا ؟ ولاشك ايضا ان المقصود من القراءة والاذكار الثناء والحمد والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله - تعالى - ، فاذا كان قلب العبد محجوبا عنه بحجاب الغفلة ، ولا يراه ولا يشاهده ، بل كان غافلا عن المخاطب ، ويحرك لسانه بحكم العادة ، فما أبعد هذا المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقييل القلب ، وتجديد ذكر الله ، ورسوخ عقد الايمان بها . هذا حكم القراءة والذكر . واما الركوع والسجود ، فالمقصود منهما التعظيم قطعا ، والتعظيم كيف يجتمع مع الغفلة ، واذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق الا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه المشقة ما يقصد الامتحان به ، كما في أفعال الحج واعطاء المال في الزكاة ، وامسك النفس عن الشهوات في الصوم . فكيف يجعل مجرد هذه الحركة مع خفتها وسهولتها عماد الدين ، والفاصل بين الكفر والاسلام ، وتقدم على سائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركها على الخصوص ، ولكون الحضور والخشوع والخشية عمدة ما يقصد به من الصلاة تظاهرت الآيات والاحبار على الترغيب عليها وفضيلتها ومدح اهلها وعلى ذم الغفلة والتفكر في امور الدنيا والوساوس الباطلة عند الاشتغال بالصلاة ، وقد تظاهرت الاخبار ايضا بأن الانبياء والاولياء واکابر الاولياء كانوا عند اشتغالهم في الصلاة في غاية الاقبال والخشوع والخوف . قال الله - سبحانه - :

« الذين هم في صلاتهم خاشعون » (١٢) . وقال : « وأقم الصلاة لذكري » (١٣) . والغفلة تضاد الذكر ، فمن كان غافلا في صلاته لا يكون مقيما للصلاة لذكره . وقال : « ولا تكن من الغافلين » (١٤) . وقال : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون » (١٥) ، ذمهم على الغفلة عنهامع كونهم مصلين ، لا لانهم سهوا عنها وتركوها . وقال : « لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون » (١٦) .

-
- (١٢) المؤمنون ، الآية : ٢ .
(١٣) طه ، الآية : ١٤ .
(١٤) الاعراف ، الآية : ٢٠٤ .
(١٥) الماعون ، الآية : ٤ - ٥ .
(١٦) النساء ، الآية : ٤٢ .

قيل المراد : سكارى من كثرة الهم ، وقيل : من حب الدنيا ، ولو حمل على ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا ، اذ بين فيه العلة ، وقال : حتى تعلموا ما تقولون * وكم من مصل لهم يشرب الخمر وهو لا يعلم ما يقول في صلاته * وقال رسول الله (ص) : « من صلى ركعتين ، لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا ، غفر له ما تقدم من ذنبه » * وقال (ص) : « اذا صليت صلاة فريضة ، فصل لوقتها صلاة مودع يخاف ألا يعود فيها » * وقال (ص) : « لا ينظر الله الى صلاة لا يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه » * وقال (ص) : « انما فرضت الصلاة ، وامر بالحج والطواف ، واشعرت المناسك ، لاقامة ذكر الله ، فاذا لم يكن في قلبك للمذكور الذي هو المقصود والمبتغى عظمة ولا هيبة ، فما قيمة ذكرك ؟! » *

وعن ابي عبد الله (ع) قال : « قال الله - تبارك وتعالى - : انما أقبل الصلاة ممن تواضع لعضتي ، ويكف نفسه عن الشهوات من أجلي ، ويقطع نهاره بذكرى ، ولا يتعاطم على خلقي ، ويطعم الجائع ، ويكسو العاري ، ويرحم المصاب ، ويؤوي الغريب ، فذلك يشرق نوره مثل الشمس ، أجعل له في الظلمات نورا ، وفي الجهالة علما ، أكلاه بعزتي ، واستحفظه بملائكتي يدعوني فألبيه ، ويسألني فأعطيه * فمثل ذلك عندي كمثله جنات الفردوس لا تبيس ثمارها ، ولا تتغير عن حالها » (١٧) * وفي أخبار موسى : « يا موسى ، اذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغض اعضاءك ، وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا * واذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك * واذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل ، وتاجني بقلب وجل ولسان صادق » * وأوحى اليه (ع) : « قل لعصاة أمتك : لا تذكروني ، فاني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته ، واذا ذكروني ذكرتهم باللعة » * وفي بعض الاحاديث القدسية : « ليس كل مصل أتقبل صلاته ، انما أقبل صلاة من تواضع لعظمتي ، ولهم يتكبر على عبادي ، وأطعم الفقير الجائع لوجهي » * وقال أمير المؤمنين (ع) : « طوبى لمن اخلص لله العيادة والدعاء ، ولم يشتغل

(١٧) الحديث مروى في (بحار الانوار) : ١٨ / ١٩٦ ، باب آداب الصلاة عن (المحاسن) ، وفيه اختلاف كثير عما ذكر في نسخ (جامع السعادات) فصححناه على الموضوع المذكور من (بحار الانوار) .

قلبه بما تراه عيناه ، ولم ينس ذكر الله بما تسمع اذناه ، ولم يحزن صدره بما اعطى غيره » . وقال (ع) : « لا تجتمع الرغبة والرهبنة في قلب الا وجبت له الجنة ، فاذا صليت ، فاقبل بقلبك على الله - عز وجل - ، فانه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله - عز وجل - في صلاته ودعائه ، الا أقبل عليه بقلوب المؤمنين ، وأيده مع مودتهم اياه بالجنة » . وقال الباقر (ع) : « ان العبد ليرفع له من صلاته نصفها وثلثها وربعها وخمسها ، فما يرفع له الا ما أقبل عليه بقلبه ، وانما امروا بالنوافل ليتم لهم ما نقصوا من الفريضة » . وروي : « أن ابراهيم الخليل كان يسمع تأوّهه على حد ميل ، وكان يسمع له في صلاته أزيز كأزيز المرجل » ^(١٨) . وكذلك كان يسمع من صدر سيدنا رسول الله (ص) مثل ذلك . وقال بعض أزواجه : « كان النبي (ص) يحدثنا ونحدثه ، فاذا حضرت الصلاة ، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه » . وكان امير المؤمنين (ع) اذا أخذ في الوضوء ، يتغير وجهه من خيفة الله . وكان (ع) اذا حضر وقت الصلاة يتزأزل ويتلون ، فقيل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والارض والجبال فأبين ان يحملنها واشفقن منها ، وحملها الانسان » . وروي : « أنه وقع نصل في رجله (ع) ، فلم يمكن أحدا من أخراجه . فقالت فاطمة - عليها السلام - : أخرجوه في حال صلاته ، فانه لا يحس حينئذ بما يجري عليه . فاخرج وهو في صلاته ، فلم يحس به أصلا » . وكانت الصديقه فاطمة - عليها السلام - تنهج ^(١٩) في الصلاة من خيفة الله . وكان الحسن بن علي - عليهما السلام - اذا فرغ من وضوئه ، تغير لونه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « حق على من أراد أن يدخل على ذي العرش أن يتغير لونه » . وكان الامام علي بن الحسين - عليهما السلام - اذا توضأ اصفر لونه ، فيقال له : ما هذا الذي يعتريك عند الوضوء ؟ فيقول : « اني أريد الوقوف بين يدي ملك عظيم » . وقال أبو حمزة الشمالي : « رأيت يصلي ، فسقط رداؤه عن منكبه ، فتركه حتى فرغ من صلاته ، فسألته عن ذلك ،

(١٨) الازيز : صوت غليان القدر . والمرجل - وزان منير - : القدر

من الحجارة .

(١٩) النهج - بالتحريك - : تتابع النفس واللهاث .

فقال : ويحك ! أتدري بين يدي من كنت ؟ شغلني والله ذلك عن هذا !
أتعلم أنه لا يقبل من صلاة العبد الا ما أقبل عليه ؟ • فقلت له : يا بن رسول
الله ، هلكننا اذا • قال : كلا ! ان الله يتم ذلك بالنوافل » • وروى : انه (ع)
اذا قام الى الصلاة تغير لونه ، واذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقا •
وروي : « أنه (ع) كان اذا قام الى الصلاة كأنه ساق شجرة ، لا يتحرك
منه الا ما حركت الريح منه » • وسئل مولانا الصادق (ع) عن حالة لحقته
في الصلاة حتى خر مغشيا عليه ، فقال : « ما زلت اكرر آيات القرآن حتى
بلغت الى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها » (٢٠) • قيل : وكان لسان
الامام (ع) في تلك الحال كشجرة طور حين قالت : « أني أنا الله » • وسئل
بعض الاكابر عن صلاته ، فقال : « اذا جاءت الصلاة ، أسبغت الوضوء
وأيتت الموضع الذي اريد الصلاة فيه ، فأقعد فيه حتى تجتمع جوارحي ،
ثم أقوم الى الصلاة ، فأجعل الكعبة بين حاجبي ، والصراط تحت قدمي
والجنة عن يميني ، والنار عن شمالي ، وملك الموت ورائي ، وأظنها آخر
صلاتي ، ثم أقوم بين الرجاء والخوف واكبر تكبيرا بتحنن ، وأقرأ القرآن
بترتيل ، واركع ركوعا بتواضع ، وأسجد سجودا بتخشع ، وأقعد على
الورك اليسرى ، وأفرش ظهر قدميها ، وانصب القدم اليمنى على الابهام
وأتبعا الاخلاص ، ثم لا أدري اقبلت مني أم لا ! » •

ثم ؛ على ما عرفت من كيفية صلاة الانبياء والاولياء مع مشاهدة
كيفية صلاتك وصلاة الناس ، تعلم : ان الناس ينقسمون في صلاتهم : الى
غافل يتم صلاته ولا يحضر قلبه في لحظة • والى من يغفل في بعض صلاته
ويحضر قلبه في بعض منها ، وهذا تختلف حاله بحسب قلة كل من الحضور
والغفلة وكثرتهما ، وزيادة احدهما على الآخر ؛ فله مراتب غير متناهية •
والى من يتم صلاته ولا يغيب قلبه لحظة ، بل يكون حاضر القلب في جميع
صلاته وربما كان مستوعب الهم بها ، بحيث لا يحس بما يجري بين يديه
كما لم يحس مولانا أمير المؤمنين (ع) باخراج النصل من رجله الشريفة •

(٢٠) صححنا الاحاديث الواردة في الصلاة على بحار الانوار : ١٦٩/١٨

وبعضهم حضر الجماعة مدة ، ولم يعرف قط من على يمينه ويساره . وكان وجيب الخليل يسمع على ميلين . وكان جماعة تصفر وجوههم ، وترتعد فرائصهم عند الصلاة . وكل ذلك غير مستبعد ، فإن اضعافه مشاهدة في هم الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع ضعفهم وعجزهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم . حتى يدخل الرجل على ملك أو وزير ، ويحدثه بمهم ويخرج ، ولو سئل عن من كان على حواليه ، وعن ثوب الملك ؛ لكان غير قادر على الاخبار عنه ، لا شتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حوله :

« ولكل درجات مما عملوا » (٢١) .

فحظ كل واحد من صلواته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه . فان موضع نظر الله القلوب ، دون ظاهر الحركات . ولذا قال بعض الصحابة : « يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيتهم في الصلاة ، من الطمأنينة والهدوء ، ومن وجود النعم واللذة والبهجة بها » ، فالملحوظ حال القلب لاحال الشخص . ولذا قيل : « من صفات القلوب تصاغ الصور في دار الآخرة ، ولا ينجو :

« الا من أتى الله بقلب سليم » (٢٢) .

تنبيه

دفع اشكال

ان قيل : المستفاد من الظواهر المذكورة ، أن صلاة الغافل ليست مقبولة الا بقدر ما أقبل عليه منها ، والفقهاء لم يشترطوا الا حضور القلب عند النية والتكبير ، فكيف التوفيق ؟

قلنا : فرق بين القبول والاجزاء ، فان المقبول من العبادة ما يقرب العبد الى الله ، ويترتب عليه الثواب في الآخرة ، والمجزئي منها ما يسقط التكليف عن العبد ، وان لم يترتب عليه ثواب ولم يقربه الى الله . والناس مختلفون في تحمل التكليف ، فان التكليف انما هو بقدر الوسع والطاقة ؛ فلا يمكن أن يكلف الجميع باحضار القلب في جميع الصلاة ، اذ لا يقدر على ذلك الا الاقلون . واذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة ، فلا

(٢١) الانعام ، الآية : ١٣٢ . الاحقاف ، الآية : ١٩ .

(٢٢) الشعراء ، الآية : ٨٩ .

مرد له الا أن يشترط ما ينطلق عليه الاسم ، ولو في اللحظة الواحدة ، وأولى اللحظات به لحظة التكبير والتوجه ، فاقصر على التكليف بذلك . ونحن - مع ذلك - نرجوا ألا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فانه على الجملة أقدم على الفعل ظاهرا ، واحضر القلب لحظة ، وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسيا صلاته باطلة عند الله ، ولكن له أجر ما بحسب فعله وعلى قدر قصوره وعذره ؟ والحاصل : أن الاقبال والحضور هو روح الصلاة ، وان أقل ما يبقى به الروح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك ، وبقدر الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة ، وكم من حي لا حراك فيه قريب من الميت ، فصلاة الغافل في جميعها ، الا عند التكبير ، حي لا حراك فيه .

فصل

شرائط الصلاة

اعلم أن للمعاني الباطنة المذكورة اسبابا لا تتحقق بدونها .
أما حضور القلب : فسببه الاهتمام .

فان قلت : كل واحد تابع لهما ، فلا يحضر الا فيما يهمة ، ومهما أهمه أمر حضر فيه قلبه ، شاء أو لم يشأ ، فهو مجبول عليه مسخر فيه ، والقلب اذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلا ، بل كان حاضرا فيما يهمة من امور الدنيا . فلا حيلة ولا علاج لاحضار القلب في الصلاة الا يصرف الهمة اليها ، والهمة لا تنصرف اليها مالم يتيقن ان الآخرة خير وابقى ، وان الصلاة وسيلة اليها . واذا اضيف الى هذا العلم بحقارة الدنيا ومهانتها ، حصل من مجموع ذلك حضور القلب في الصلاة . ولكون الباعث والسبب لاحضار القلب في أمر انما هو الاهتمام والاعتناء بشأنه ، ترى قلبك يحضر اذا حضرت بين يدي ملك من ملوك الدنيا ، بل بين يدي بعض الاكابر ممن لا يقدر على نفعك وضررك . فاذا كان لا يحضر قلبك عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت ، والنفع والضر ، فلا تظن أن له سببا سوى ضعف الايمان واليقين ، فينبغي حينئذ السعي في تقوية اليقين والايمان .
وأما التفهم : فسببه - بعد حضور القلب - أدمان الفكر ، وصرف

الذهن الى ادراك المعنى . وعلاجه ماهو علاج احضار القلب ، مع الاقبال على الفكر ، والتشمر لرفع الخواطر الشاغلة بقطع موادها ، أعني النزوع عن الاسباب التي تنجذب الخواطر اليها . ومالم تنقطع تلك المواد لاتصرف عنها الخواطر . فان من أحب شيئا أو أبغض شيئا أو خاف من شيء ، أكثر ذكره . فذكر المحبوب والمبغوض والمخوف يهجم على القلب بالضرورة . ولذا ترى أن من أحب غير الله او كان قلبه مشغولا بعداوة أحد أو بالخوف عنه ، لاتصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم : فهو حالة للقلب يتولد من معرفتين : احدهما : معرفة جلال الله وعظمته ، فان من لايعتقد عظمته لاتدعن النفس لتعظيمه ، وهذه المعرفة حقارة النفس وخستها وذلتها ، وكونها عبدا مسخرا مربوبا لايقدر شيئا من النفع والضرر . وتتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله ، فيعبر عنه بالتعظيم ، ومالم تنتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الرب لاتنتظم حالة التعظيم والخشوع ، فان المستغنى عن غيره الآمن على نفسه ، يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة والجلال ، ونعوت القدرة والكمال ، ولا يكون خاشعا معظما له ، لأن معرفة حاجة النفس وحقارتها لم تقترن اليه .

وأما الهيبة والخوف : فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله تعالى وسطوته ونفوذ مشيئته فيه ، مع قلة المبالاة به ، وأنه لو أهلك الاولين والآخرين لم تنقص من ملكه ذرة ، مع تذكر ما جرى على الانبياء والاولياء من المصائب وأنواع البلاء مع القدرة على الدفع . وكلما زاد العلم بالله وبصفاته وأفعاله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء : فسببها معرفة لطف الله تعالى وكرمه وعميم انعامه ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة . فاذا حصل اليقين بوعدته والمعرفة بلطفه ، انبعث منهما الرجاء .

وأما الحياء : فسببه استنشعار التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله ، ويقوى ذلك بمعرفة عيوب النفس وآفاتهما ، وقلة إخلاصها وخبث باطنها ، وميلها الى الحظ العاجل في جميع أفعالها ، مع

العلم بجميع ما يقتضيه جلال الله وعظمته ، والعلم بأنه مطلع على السرائر
وخطرات القلب ، وان دقت وخفيت . وهذه المعارف اذا حصلت يقينا ،
انبعثت منها - بالضرورة - حالة تسمى بالحياء .

فصل

طريق تحصيل المعاني الباطنة

أعلم أن العلاج في تحصيل المعاني الباطنة المذكورة ، اعني الحضور
والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء ، هو تحصيل أسباب هذه المعاني ،
وقد عرفت أسبابها . وطريق العلاج في تحصيل هذه الأسباب انما يتم بأمرين :
الاول - معرفة الله ، ومعرفة جلاله وعظمته وأستناد الكل اليه ، ومعرفة
كونه عالما بذرات العالم وبسرائر العباد . ويلزم ان تكون هذه المعرفة
يقينية ، ليتها على الاثر . اذ ما لم يحصل اليقين بأمر ، لا يحصل التشمير
في طلبه والهرب عنه . وهذه المعرفة هي المعبر عنها بالايمان . ولا ريب في
كونها موجبة لحصول المعاني المذكورة وأسبابها . اذ المؤمن يكون البتة
حاضر القلب مع ربه عند مناجاته ، ومتفهما لما يسأله عنه ، معظما له ،
وخائفا منه ، وراجيا منه ، ومستحييا من تقصيره .

الثاني - فراغ القلب ، وخلوؤه من مشاغل الدنيا . فان انفكاك المؤمن
العارف ، المتيقن بالله وبجلاله وعظمته ، وباطلاعه عليه من المعاني المذكورة
في صلته ، لاسبب له الا تفرق الفكر ، وتقسم خاطر ، وغيبه القلب عن
المناجاة ، والغفلة عن الصلاة ، ولا تلهي عن الصلاة الا الخواطر الردية
الشاغلة . فالدواء في أحضار القلب هو دفع كل تلك الخواطر ، ولا يدفع
الشيء الا بدفع سببه .

وسبب توارد الخواطر ، اما أن يكون أمرا خارجا ، أو أمرا في ذاته

باطنا .

والاول : ما يظهر للبصر ، او يقرع على السمع . فان ذلك قد
يختطف الهمم حتى يتبعه ، ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر الى غيره ،
ويتسلسل فيكون الابصار او الاستماع سببا للافتكار ، ثم يصير بعض تلك
الافكار سببا للبعض . ومن قويت رتبته وعلت همته ، لم يلهه ما يجري

على حواسه • ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق فيه فكره • فعلاجه : قطع هذه الاسباب ، بأن يغمض بصره ، او يصلى في بيت مظلم ، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ؛ ويقرب من حائط عند صلاته ، حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويتحرز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصبوغة ، والعمارات العالية المرتفعة • ولذلك كان المتعبدون يصلون في بيت مظلم صغير ، سعته بقدر السجود ، ليكون أجمع اللهم • والاقوياء كانوا يحضرون المساجد ، ويغمضون البصر ؛ ولا يجاوزونه موضع السجود ، كما ورد الامر به ؛ ويرون كمال الصلاة في ألا يعرفوا من على يمينهم وشمالهم •

وأما الثاني : اعني الاسباب الباطنة ؛ فهي أشده . فان من تفرقت همومه وتشعبت خواطره في أودية الدنيا ، لم ينحصر فكره في فن واحد ، بل لا يزال يطير من جانب الى جانب • وغض البصر لا يغنيه ، فان ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل • فهذا علاجه : أن يرد نفسه قهرا الى فهم ما يقرؤه ، ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم ، بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة ، وخطر المقام بين يدي الله تعالى ، وهول المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهيمه من أمر الدنيا ، فلا يترك لنفسه شغلا يلتفت اليه خاطره ، فهذا طريق تسكين الافكار • فان لم تسكن أفكاره بهذا الدواء المسكن ، فلا ينجيه الا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق ، وهو ان ينظر في الامور الشاغلة الصارفة له عن أحضار القلب • ولا ريب في أنها تعود الى مهماته ، وهي انما صارت مهمة لأجل شهواته ، فليعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق • فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه ، وجند إبليس عدوه ، فإمسأكه أضر عليه من أخراجه ، فيتخلص عنه بأخراجه • وهذا هو الدواء القامع لمادة العلة ، ولا يغنى غيره • فان ما ذكر من التلطف بالتسكين والرد الى فهم الذكر ، انما ينفع في الشهوات الضعيفة ، والههم الذي لا يشغل الا حواشي القلب • وأما الشهوة القوية المرهقة ، فلا ينفع معها التسكين ، بل لا تزال تجاذبها وتجادبك ، ثم تغلبك وتتقضى جميع صلاتك في شغل المجاذبة • ومثاله مثال رجل تحت شجرة أراد ان يصفو له فكره ، وكانت أصوات

العصافير تشوِّش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة هي في يده ويعود الى فكره ، فتعود العصافير ، فيعود الى السفير بالخشبة ، فقليل له : ان هذا سير الواني ولا يتقطع ، فان أردت الخلاص فأقطع الشجرة • فكذلك شجرة الشهوة ، اذا أستعملت وتفرعت أغصانها ، انجذبت اليها الافكار انجذاب العصافير الى الاشجار ، وانجذاب الذباب الى الاقذار ، والشغل يطول في دفعها • فان الذباب كلما ذب آب ، ولأجله سمي ذبابا ، وكذلك الخواطر • وهذه الشهوات كثيرة قلما يخلو العبد منها ، ويجمعها أصل واحد ، وهو حب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة ؛ وأساس كل نقصان ، ومنبع كل فساد • ومن أنطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال الى شيء منها لا يتزود منها ويستعين بها على الآخرة ، فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة • فان من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمناجاته ، وهمة الرجل مع قرّة عينه • فان كانت قرّة عينه في الدنيا أنصرف همه لامحالة اليها • ولكن - مع هذا - لا ينبغي أن تترك المجاهدة ، ورد القلب الى الصلاة ، وتقليل الاسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء ؛ ولمراته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة ، وصار الداء عضالا • حتى أن الاكابر أجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون أنفسهم فيهما بأمور الدنيا ، فعجزوا عنه • فاذا لامطمع فيه لأمثالنا ، وياليت سلم لنا من الصلاة ثلثها أو ربعها من الوسوس ، لتكون ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا •

وعلى الجملة : فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح فيه خل ، فبقدر ما يدخل فيه الماء يخرج منه الخل لامحالة ، ولا يجتمعان • ثم جميع ما ذكر انما هو في الخواطر المتعلقة بالامور المهمة من الدنيا ، حتى اذا خرجت هذه الامور من القلب ، خرجت منه هذه الخواطر أيضا • وقد تكون الخواطر من مجرد الوسوس الباطنة والخيالات الفاسدة ، من دون تعلقها بشغل وعمل دنيوي يكون لها ، ومن دون اختيار للعبد في خطورها وعدم خطورها ، والامر فيها أصعب ، وان كان لقلع حب الدنيا وشهواتها عن القلب مدخلة عظيمة في زوالها أيضا ، اذ مادة هذه الوسوس أيضا ، اما حب المال وحب الجاه ، أو حب غيرهما من الامور الشهوية

الدينية . وقد تقدم تفصيل القول فيها وفي طريق علاجها في بحث الوسوس .

فصل

اسرار الصلاة

في تحصيل كل واحد من شروط الصلاة وأفعالها وأركانها أسرار وتنبهات ، فينبغي للمؤمن المرید للأخرة ألا يغفل عنها ، فهاهي نذكرها :
أما الاذان : فاذا سمعت نداء المؤذن ، فأخطر في قلبك هول النداء يوم القيامة ، وتشمر بباطنك وظاهرهك للإجابة والمسارعة ، فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الاكبر ، فأعرض قلبك على هذا النداء ، فان وجدته مملوا بالفرح والاستبشار ، مشحونا بالرغبة الى الابتداء ، فأعلم انه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء ، ولذلك قال سيد الانبياء : « أرحنا يا بلال ! » ، أي أرحنا بها وبالنداء اليها ، اذ كانت قرّة عينه فيها . واعتبر بفصول الاذان وكلماته كيف افتتحت بالله واختتمت بالله ، واعتبر بذلك أن الله جل جلاله هو الاول والآخر والظاهر والباطن ، ووطن قلبك بتعظيمه عند سماع التكبير ، واستحقر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذبا في تكبيرك ، وأنف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل . وأحضر النبي (ص) ، وتأدب بين يديه ، وأشهد له بالرسالة مخلصا ، وصل عليه وآله ، وحرك نفسك ، واسع بقلبك وقلبك عند الدعاء الى الصلاة ، وما يوجب الفلاح ، وما هو خير الاعمال وأفضلها . وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه ، واختمه بذلك كما أفتتحت به ، واجعل مبدئك منه ، وعودك اليه ، وقوامك به ، واعتمادك على حوله وقوته . فانه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

فصل

الوقت

واذا دخل الوقت ، استحضر أنه ميقات جعله الله لك ، لتقوم فيه بخدمته ، وتتأمل للمشول في حضرته ، والفوز بطاعته ، وليظهر على قلبك السرور ، وعلى وجهك البهجة عند دخوله ، لكونه سببا لقربك ووسيلة الى فوزك . فأستعد له بالطهارة والنظافة ، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة ،

كما تتأهب عند القدوم على ملك من ملوك الدنيا ، وتلقاه بالسكينة والوقار والخوف والرجاء ، واستحضر عظمة الله وجلاله ، وعدم تناهي قدرته ، وكماله وتقصان قدرك ومرتبك ، وعدم قابليتك للقيام بخدمته ، وقصورك عن أداء وظائف طاعته .

فصل

آداب الصلاة

إذا أتيت بالطهارة في مكانك ، وهو ظرفك الابعد ، ثم في ثيابك ، وهو غلافك الاقرب ؛ ثم في بشرتك ، وهي قشرك الادنى ، فلا تغفل عن لبك وذاتك ، وهو قلبك ؛ فطهره بالتوبة والندم على ما فرط ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهر بها باطنك ، فانه موضع نظر ربك . ثم اذا سترت مقابح بدنك عن أبصار الخلق باللباس ، فأخطر بالك فضائح شرك التي لا يطلع عليها الا ربك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر ، وانما يكفرها الخوف والندم والحياء ، فتستفيد بإظهارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والندم والحياء من مكانها ، فتدل به نفسك ؛ ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق ، الذي ندم فرجع الى مولاه ، ناكسا رأسه من الخوف والحياء . قال الصادق (ع) : « أزين اللباس للمؤمن لباس التقوى ، وأنعمه الايمان ، قال الله تعالى :

« ولباس التقوى ذلك خير » (٢٣) .

وأما اللباس الظاهر ، فنعمة من الله تعالى تستر بها عورات بني آدم ، وهي كرامة أكرم الله بها ذرية آدم مالم يكرم بها غيرهم ، وهي للمؤمنين آلة لأداء ما أفترض الله عليهم . وخير لباسك مالا يشغلك عن الله عزوجل ، بل يقرّبك من ذكره وشكره وطاعته ، ولا يحملك على العجب والرياء والتزين والتفاخر والخيلاء ، فانها من آفات الدين ، ومورثة للقسوة في القلب . فاذا لبست ثوبك ، فأذكر ستر الله عليك ذنوبك برحمته ، والبس باطنك بالصدق كما البست ظاهره بثوبك ، وليكن باطنك من الصدق في ستر

الهيبة ، وظاهره في ستر الطاعة • واعتبر بفضل الله ، حيث خلق أسباب اللباس ليستر بها العورات الظاهرة ، وفتح أبواب التوبة والافتاء والافتاء ليستر بها عورات الباطن من الذنوب وأخلاق السوء • ولا تفضح أحدا حيث ستر الله عليك ما أعظم منه • واشتغل بعيب نفسك واصفح عما لا يعينك حاله وأمره • وأحذر أن يفنى عمرك بعمل غيرك ، وينجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك ، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله في العاجل ، وأوفر أسباب العقوبة في الآجل • وما دام العبد مشتغلا بطاعة الله تعالى ، ومعرفة عيوب نفسه ، وترك ما يشين في دين الله عز وجل ، فهو بمعزل عن الآفات ، خائض في بحر رحمة الله عز وجل ؛ يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان • وما دام ناسيا لذنوبه ، جاهلا بعيوبه ، راجعا الى حوله وقوته ، لا يفلح اذا أبدا » (٢٤) •

فصل

آداب المصلي

اذا أتيت مصلا ، فأستحضر فيه أنك كأن بين يدي ملك الملوك ، تريد مناجاته ، والتضرع اليه ، والتماس رضاه ، ونظره اليك بعين الرحمة • فأختر مكانا يصلح ، كالمسجد الشريف ، والمشاهد المطهرة ، مع الامكان • فانه تعالى جعل تلك المواضع محلا لاجابته ، وموضع نزول فيوضاته ورحمته ، على مثال حضرة الملوك ، الذين يجعلونها وسيلة لنيل المقاصد والمطالب • فأدخلها بالسكينة والوقار ، ومراقبا للخشوع والانكسار • قال الصادق (ع): « اذا بلغت باب المسجد ، فأعلم أنك قد قصدت باب ملك عظيم ، لا يظأ بساطه الا المطهرون ، ولا يؤذن لمجالسته الا الصديقون ، فهب القدوم الى بساط هيبة الملك ، فانك على خطر عظيم ان غفلت ، فأعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك • فان عطف عليك برحمته وفضله ، قبل منك يسير الطاعة ، وأجزل لك عليها ثوابا كثيرا • وان طالبك بأستحقاقه الصدق والاخلاص عدلا بك ، حجبتك ورد طاعتك وان كثرت • وهو فعال لما يريد • واعترف بعجزك وتقصيرك وانكسارك وفقرك بين يديه ، فانك قد

(٢٤) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة): الباب ١٣٧/٧ - ١٣٨ •

توجهت للعبادة له ، والمؤانسة به • وأعرض أسرارك عليه ، ولتعلم انه لا تخفى عليه أسرار الخلائق أجمعين وعلانيتهم • وكن كأفقر عباده بين يديه • واخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك ، فانه لا يقبل الا الاطهر والاخلص • وأنظر من أي ديوان يخرج اسمك ، فان ذقت حلاوة مناجاته ولذيد مخاطباته ، وشربت بكأس رحمته وكراماته من حسن أقباله عليك وأجابته ، فقد صلحت لخدمته ، فأدخل فلك الاذن والامان ، والا فقف وقوف من قد انقطع عنه الحيل ، وقصر عنه الامل ، وقضى عليه الاجل • فان علم الله عزوجل من قلبك صدق الالتجاء اليه نظر اليك بعين الرأفة والرحمة والعطف ، ووقفك لما تحب وترضى ، فانه كريم يحب الكرامة لعباده المضطرين اليه ، المقيمين على بابه لطلب مرضاته • قال الله تعالى :

« أمن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » (٢٥) « (٢٦) •

فصل

الاستقبال

وأما الاستقبال ، فهو صرف لظاهر وجهك عن سائر الجهات الى جهة بيت الله • وهذا اشارة الى أنه ينبغي ان يصرف وجه القلب عن سائر الاشياء الى الله ، فان الاعمال الظاهرة تحريكات للبواطن على ما يناسبها ، فضبط الجوارح وتسكينها بالاثبات في جهة واحدة ، لأجل ألا تبقى على القلب ، لانها اذا توجهت الى جهات متعددة يتبعها القلب في التوجه الى أشياء متعددة ، فأمر الله بصرفها الى شطر بيته ، ليتذكر القلب صاحبه ، ويتوجه اليه ، ويثبت على ذلك كما تثبت الاعضاء على جهة واحدة • قال رسول الله (ص) : « ان الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت » ، وهذا الالتفات يشمل الالتفات الى القلب أيضا ، فكما يجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات الى الجهات ، فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات الى غير الله وغير الصلاة ، فان التفت الى غير الله وغير الصلاة ، فذكره بأطلاع الله عليه ، وقبح غفلة المناجى عن يناجيه وعمأ يقول له حين المناجاة ، لاسيما اذا كان

٢٥ | النحل ، لآية : ٦٢

(٢٦) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٢ / ١٤٠ - ١٤١ .

من ينجيه ملك الملوك * والزم قلبك الخشوع ، فان الخلاص عن الالتفات
ظاهراً وباطناً ثمرة الخشوع ، ومهما خشع الباطن خشع الظاهر ، ولذا قال
رسول الله (ص) وقد رأى مصلياً يعبت بلحيته : « أما هذا ، لو خشع
قلبه لخشعت جوارحه ، فان الرعية بحكم الراعي » * وفي الدعاء : « اللهم
أصلح الراعي والرعية » ، وهو القلب والجوارح *

وبالجملة : ينبغي لكل مؤمن صرف وجهه الى بيت الله للصلاة ، أن
يصرف وجه قلبه الى صاحب البيت ، وكما لا يتوجه الوجه الى جهة البيت
الا بالصرف عن غيرها ، فكذلك لا ينصرف وجه القلب الى الله الا بالتفريغ
عما سوى الله ، وقد قال رسول الله (ص) : « اذا قام العبد الى صلاته ،
وكان هواه وقلبه الى الله ، انصرف كيوم ولدته أمه » * وقال (ص) :
« أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار ؟! »
قيل : هذا نهي عن الالتفات عن الله ، وملاحظة عظمتة في حال الصلاة ،
فان الملتفت يمينا وشمالا غافل عن الله وعن مطالعة أنوار كبريائه ، ومن كان
كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه ، فيتحول وجه قلبه كوجه قلب
الحمار في قلة عقله للامور العلوية وعدم فهمه للمعارف * وقال الصادق (ع)
« اذا استقبلت القبلة ، فأيس من الدنيا وما فيها ، والخلق وما هم فيه ،
واستفرغ قلبك من كل شاغل يشغلك عن الله - تعالى - ، وعابن بسرك
عظمة الله - عزوجل - ، واذكر وقوفك بين يديه ، قال الله - تعالى - :

« هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا الى الله مولاهم الحق » (٢٧).

وقف على قدم الخوف والرجاء » (٢٨) *

فصل

القيام

وأما القيام ، فهو مشول بالشخص والقلب بين يدي الله - سبحانه -
فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطوقاً منتظماً متنكساً ، تنبيه القلب
على لزوم التواضع والتذلل والانكسار ، والتبري عن التكبر والترؤس *

(٢٧) يونس ، الآية : ٣٠ .

(٢٨) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٣ / ١٤١ .

وينبغي ان تتذكر هاهنا خطر المقام بين يدي الله في هول المطلع عند التعرض للسؤال ، وتذكر في الحال أنك قائم بين يدي الله وهو مطلع عليك ، فليكن قيامك بين يديه على ما يليق بعظمته وجلاله ، وان كنت تعجز عن معرفة كنهه جلاله ، فلا تجعل مالك الملك والملوك أنزل من بعض ملوك عصرك ، فقم بين يديه قيامك بين يدي ملك زمانك ؛ بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ بعين كائلة من رجل صالح من أهلك ؛ أو ممن ترغب ان يعرفك بالصلاح ؛ فانه تهدي عند ذلك أطرافك ؛ وتخشع جوارحك ؛ ويسكن جميع أجزائك ، خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين الى قلة الخشوع . وبالجملة الخضوع والخشوع والاستحياء والانفعال ، يقتضيها الطبع بين يدي من يعظم من ابناء الدنيا ، فكيف لا يقتضيها بين يدي ملك الملوك عند من يعرفه؟ فمن يكون بين يدي غير الله خاشعا ، ولا يكون بين يدي الله كذلك ؛ فذلك لقصور معرفته عن جلال الله وعن اطلاعه على سره وضميره ، وعدم تدبره في قوله - تعالى - :

((الذي يراك حين تقوم ، وتقلبك في الساجدين)) (٢٩) .

فتبا لمن يدعى معرفة الله والعلم بعظمته وجلاله وحبه والخشية منه ، ومع ذلك يستحي من أحد عبده المساكين الذي لا يقدر على نفع ولا ضرر ، ولا يستحي من الله ، ويخشى الناس ، ولا يخشاه !

فصل

التكبيرات

وأما التوجه بالتكبيرات ، فينبغي أن تستحضر عندك عظمة الله وجلاله وصغر نفسك وذلتها في جنب عظمته ، وقصورك عن القيام بوظائف خدمته .
وإذا قلت : (اللهم انك أنت الملك الحق) فتذكر عظيم ملكه ، وعموم قدرته واستيلاءه على جميع العوالم ، ثم ارجع على نفسك بالذل والانكسار .
وإذا قلت : (لبيك وسعديك ! والخير في يديك ، والشر ليس اليك) ، مثل نفسك بين يديه ، وتيقن أنه اقرب منك من نفسك ، يسمع نداءك ، ويجب دعائك ، وان خير الدنيا والاخرة بيده لا بيد غيره ، وانه خير محض

منزه عن الشر • واذا قلت : (عبدك وابن عبدك ، منك وبك ولك واليك) فقد اعترفت له بالعبودية ، وبانه ربك وخالقك ومالكك ، وموجدك ومخترعك وانت اثره وفعله ومنه وجودك ، ووبه قوامك ، وله ملكك ، واليه معادك فانت منه ؛ فلا يتركك ويرحمك ؛ فألق نفسك الضعيفة العاجزة بين يديه ، وكل امورك في الدنيا والاخرة اليه ؛ ولا تعتمد في مقاصدك الا عليه فاحضر في ذهنك في هذه الفقرات وغيرها من الكلمات التي ينطق بها لسانك أمثال هذه الحقائق ، وترق منها الى ما يفتح عليك من الاسرار والحقائق ، واحفظ نفسك عن الوقوع في أودية الوسوس والهوى ، فتلق الفيض من العالم الاعلى •

فصل

النية

واما النية ، فحقيقتها القصد الى الفعل ، امثالاً لامر الله ، وطلباً لتقربه ورجاء لثوابه ؛ وخوفاً من عقابه • فينبغي ان تجتهد في خلوصها الايشوبها غرض دنيوى فتفسد ، وحقيقة الاخلاص وما يتعلق بها قد تقدمت مفصلة في محلها • وينبغي ان تتذكر هاهنا عظيم لطفه ومنتته عليك ، حيث اذنك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة جنائتك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته • وانظر من تناجى ، وكيف تناجى ، وبماذا تناجى ، وعند هذا ينبغي ان يعرق جبينك من الخجلة ؛ وترتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفر وجهك من الخوف والخشية •

فصل

تكبير الاحرام

واذا كبرت تكبير الاحرام ، تذكر ان معناها : أنه - تعالى - اكبر من ان يوصف او اكبر من كل شيء ، او اكبر من ان يدرك بالحواس ، او يقاس بالناس • فانتقل منه الى غاية عظمته وجلاله ، واستناد ماسواه اليه ، بالايجاد والاختراع والاخراج من كنه العدم • وينبغي ان تكون على يقين بذلك ، حتى لا يكذب لسانك قلبك ، فان كان في قلبك شيء هو اكبر من الله - تعالى - عندك ، فالله يشهد انك كاذب ، وان كان الكلام صدقاً ، كما

شهد على المنافقين في قولهم : ان النبي رسول الله • وان كان هواك اغلب عليك من امر الله - تعالى - وانت اطوع له منك لله ولامره فقد اتخذته الهك وكبرته ، فيوشك ان يكون قولك (الله اكبر) كلاما باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما اعظم الخطر في ذلك ، لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرمه - تعالى - وعفوه • قال الصادق (ع) : « فاذا كبرت فاستصغر ما بين السماوات العلى والشرى دون كبريائه ، فان الله - تعالى - اذا اطلع على قلب العبد وهو يكبر ، وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره ، قال : يا كذاب أتخدعني؟! وعزتي وجلالي ! لأحرمك حلاوة ذكري ، ولأحجبك عن قربي والمسرة بمناجاتي ! » (٣٠) فأعتبر أنت قلبك حين صلاتك ، فان كنت تجد حلاوتها وفي نفسك سرورها وبهجتها ، وقلبك سرور بمناجاته ، وملتذ بمخاطباته ، فاعلم أنه - تعالى - قد صدقك في تكبيرك ، وان سلبت لذة المناجاة ، وحرمت حلاوة العبادة ، فاعلم أنه تعالى كذبك في تكبيرك ، وطرده عن بابه ، وابعده عن جنبه ، فابك على نفسك بكاء الشكلى ، وبادر الى العلاج قبل أن تدركك الحسرة العظمى •

فصل

دعاء الاستفتاح

وأما دعاء الاستفتاح ، فأول كلماته : (وجهت وجهي للذي فطر السماوات الارض) ، ومعلم ان المراد بالوجه هنا وجه القلب دون الوجه الظاهر ، لان الله سبحانه منزه عن الامكنة والجهات حتى توجه اليه الوجه الظاهر • فانت تدعي في هذا الكلام أن قلبك متوجه الى فاطر السماوات والارض ، فايك أن يكون اول مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق ، اذ لو كان قلبك متوجها الى أمانيه ، وهمه في البيت والسوق أو واقعا في اودية الوسوس ، أو كان غافلا ، لم يكن مقبلا على الله متوجها اليه ، وكنت كاذبا في أول مخاطبتك مع ربك • فاجتهد أن ينصرف قلبك عما سواه ، وتقبل عليه في هذا الوقت ، وان عجزت عنه على الدوام ، لثلا تكون كاذبا في أول كلامك • واذا قلت : (حنيفا مسلما) ، فاخطر

(٣٠) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ١٣ / ١٤١ •

ببإلئك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من يده ولسانه ، فإن لهم تكن موصوفا بهذا الوصف ، كنت كاذبا ، فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال ، وأن تندم على ما سبق من الأحوال • وإذا قلت : (وما أنا من المشركين) ؛ فأخطر ببالك الشرك الخفي ؛ وكونه داخلا في الشرك ؛ لاطلاق الشرك على القليل والكثير • فلو قصدت بجزء من عبادتك غير الله ، من مدح الناس وطلب المنزلة في قلوبهم ؛ كنت مشركا كاذبا في هذا الكلام • فأنف هذا الشرك عن نفسك ؛ واستشعر الخجلة في قلبك ؛ بأن وصفت نفسك بوصف ليست متصفة به في الواقع • وإذا قلت : (محياي ومماتي لله رب العالمين) ؛ فأعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه ، موجود لسيدته ، فإن عن ذاته باق بربه ؛ لا يرى لذاته من حيث هي قدرة وقوة ؛ بل يعلم حياته وبقائه من الله - تعالى - ، ولا تكون حركاته وسكناته الا لله تعالى • فالقائل بهذا الكلام ، اذا رأى لنفسه من حيث هي قدرة وأثرا ، او صدر عنه فعل : من الرضا ، أو الغضب ؛ أو القيام ؛ أو القعود ؛ أو الرغبة في الحياة ، او الرهبة من الموت لامور الدنيا ، كان كاذبا •

فصل

الاستعاذة

فاذا قلت : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) ، ينبغي ان تعلم ان الشيطان اعدى عدوك ، مترصد لصرف قلبك عن الله ، حسدا لك على مناجاتك مع الله وسجودك له ، مع انه لعن وطرد عن مقام القرب بترك السجدة • وينبغي الا تكون استعاذتك بالله منه بمجرد القول ، لتكون مثل من قصده سبع اعدو ليفترسه او يقتله ، فقال : أعوذ منك بهذا الحصن الحصين ، وهو ثابت على مكانه ، فان ذلك لا يفيد ولا ينفعه ما لم يتحرك ويدخل الحصن فكذلك مجرد الاستعاذة لا ينفعه ما لم يترك ما يحب الشيطان ، وما لم يأت بما يحبه الله • فمن اتبع الشهوات التي هي محاب الشيطان ومكاره الرحمن لا يغنيه مجرد القول ، فليقترن قوله بالعزم على التعوذ بحصن الله عن شيطان ، وحصنه (لا اله الا الله) ، اذ قال : (لا اله الا الله حصني ، ومن دخل حصني آمن من عذابي) • والدخول في حصن (لا اله الا الله) ليس ايضا

بمجرد التكلم به ، بل الاذعان القلبي واليقين القطعي بأن كل معبود سواه باطل ، وكل شئ عنده وله وبه واليه ، ولا مؤثر في الوجود الا هو . فالتحصن بالتوحيد من لامعبود له سوى الله ، وأما من اتخذ اله هواه ، فهو في ميدان الشيطان لافي حصن الله . ومن مكائد اللعين أن يشغلك في الصلاة بفكر الآخرة ، وتديير فعل الخيرات ، لتمنع من الحضور وفهم ما تقرأ ، فأعلم ان كل ما يشغلك عن الاقبال الى الله وعن فهم معاني القرآن والاذكار ، فهو وسواس ، اذ حركة اللسان غير مقصودة ، بل المقصود المعاني . واذا قلت : (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فانوبه التبرك لا يتدأئك بقراءة كلام الله ، والمراد بالاسم هنا المسمى ، فمعناه : ان كل الاشياء والامور بالله ، فيترتب عليه انحصار (الحمد لله) ، اذ المراد بالحمد الشكر ، والشكر انما يكون على النعم ، فاذا كانت النعم باسرها من الله فيكون منحصرها به ، فمن يرى نعمة من غير الله أو يقصد غيره سبحانه بشكر لا من حيث انه مسخر من الله ، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته الى غير الله سبحانه . واذا قلت : (الرحمن الرحيم) ، فاحضر في قلبك انواع لطفه ، وضروب احسانه ، لتتضح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك . واذا قلت : (مالك يوم الدين) ، فاستشعر من قلبك التعظيم والخوف ، أما العظمة فلأنه لملك الا هو ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكة . ثم جدد الاخلاص بقولك : (اياك نعبد) . وجدد العجز والافتقار والتبري من الحول والقوة بقولك : (واياك نستعين) ، وتحقق انه ما تيسرت طاعتك الا باعاقته وأن له المنة ، اذ وفقك لطاعته ، واستخدمك لعبادته ، وجعلك أهلا لمناجاته ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم ، واستحضر أن الاعانة لا تكون الا منه ، ولا يقدر غيره أن يعين أحدا ، فاخرج عن قلبك الوسائل والاسباب الا من حيث انها مسخرة منه تعالى . واذا قلت : (أهدنا الصراط المستقيم) ، فأعلم أنه طلب لاهم حاجاتك ، وهي الهداية الى النهج الحق الذي يسوقك الى جوار الله ، ويفضي بك الى مرضاته ويوصلك الى مجاورة من أنعم الله عليهم نعمة الهداية من الانبياء والصدقيين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب الله عليهم من الكفار والزائفين

من اليهود والنصارى والصابئين • وإذا تلوت (الفاتحة) كذلك ، فيشبهه ان تكون ممن قال الله فيهم بما اخبر عنه النبي (ص) : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، نصفها لي ، ونصفها لعبدي • يقول العبد : الحمد لله رب العالمين ، فيقول الله - عز وجل - : حمدني عبدي وأثنى علي • وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده ••• » الى آخر الحديث • فان لم يكن لك من صلاتك حظ سوى التذاك بذكر الله في جلاله وعظمته ، فناهيك به غنيمة ، فكيف ما ترجوه من ثوابه وفضله • وكذلك ينبغي أن تفهم وتخرج الحقائق مما تقرأه من السورة ، فلا تغفل عن امره ونهيه ، ووعده ووعيده ، ومواعظه وأخبار أنبيائه ، وذكر مننه واحسانه ، فكل واحد حق : فحق الامر والنهي العزم ، وحق الوعد الرجاء ، وحق الوعيد الخوف ، وحق الموعظة الاتعاض ، وحق أخبار الانبياء الاعتبار ، وحق ذكر المنة الشكر ، وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم على حسب العلم وصفاء القلب ، ودرجات ذلك لا تنحصر • والصلاة مفتاح القلوب ، فيها تنكشف اسرار الكلمات • فهذا حق القراءة ، وهو أيضا حق الاذكار والتسبيحات • واعلم أن الناس في القراءة ثلاثة : بعضهم يتحرك لسانه وقلبه غافل • وبعضهم يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان ، فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره ، وهو درجة اصحاب اليمين • وبعضهم يسبق قلبه الى المعاني اولاً ، ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه ، وفرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب ، والمقربون السنتهم ترجمان تتبع القلب • ثم ينبغي ان تراعى الهيئة في القراءة ، فترتل ، ولا تسرد ولا تعجل ، فان ذلك ايسر للتأمل ، وتفرق بين نعمائه في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد ، والتمجيد والتعظيم ، كان بعضهم اذا مر بمثل قوله :

« ما أتخذ الله من ولد وما كان معه من اله » (٣١)

يغض صوته ، كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء • وروي : « انه يقال يوم القيامة لصاحب القرآن : اقرأ وارق ، فكلما قرأ آية صعد درجة » •

(٣١) المؤمنون ، الآية : ٩٢ •

فصل

الركوع

وأما الركوع ، فينبغي ان تجدد عنده ذكر كبرياء الله ، وترفع بذلك معظما له منها على غاية عظمته وارتفاعه ، وكونه ارفع من أن تصل اليه أيدي العقول والايهام ، ومستجيرا بعفوه من عقابه ، وتستأنف بهوتك للركوع ذلا وتواضعا وتجهدي ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذلك وعزه ، وضعفك وقوته ، وعجزك وقدرته ، واتضاعك وعلوه ، وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبحه وتشهد له بالعظمة ، وانه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك في قلبك لتترسخ فيه عظمته وجلاله ، ثم ترفع عن ركوعك راجيا انه راحم ذلك ، وتؤكد الرجاء في نفسك بقولك : (سمع الله لمن حمده) : أي اجاب الله لمن شكره ، وتتبع ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد ، فتقول : (الحمد لله رب العالمين) ، ثم تزيد في التذلل والخشوع وتعظيم ربك واجلاله ، فتقول : (أهل الكبرياء والعظمة والجود والجبروت) • روى (الصدوق) — رضوان الله عليه — عن أمير المؤمنين (ع) : « أنه سئل عن معنى مد العنق في الركوع ، فقال (ع) : تأويله : آمنت بك ولو ضربت عنقي » • وقال الصادق (ع) : « لا يركع عبد لله ركوعا على الحقيقة ، الا زينة الله بنور بهائه ، وأظله في ظل كبريائه وكساه كسوة أصفيائه • والركوع أول ، والسجود ثان • فمن أتى بمعنى الاول صلح للثاني • وفي الركوع أدب ، وفي السجود قرب ، ومن لا يحسن الادب لا يصلح للقرب • فاركع ركوع خاشع لله عز وجل بقلبه ، متذلل وجل تحت سلطانه ، خافض له بجوارحه خفض خائف حزن على ما يفوته من فائدة الراكعين » ^(١) • وحكى : « أذ ربيع بن خيثم ، كان يسهر بالليل الى الفجر في ركعة واحدة ، فاذا هو اصبح ، تزفر وقال : آه ! سبق المخلصون وقطع بنا » • واستوف ركوعك باستواء ظهرك ، وانحط عن همتك في

(٢٢١) صححنا الحديث على الباب ١٥ من (مصباح الشريعة) . وعلى (بحار الانوار) : ١٨ / ٣٥٦ ، باب الركوع وآدابه من كتاب الصلاة . وعلى المستدرک) : ٣٢٥ / ١ ، باب نوادر ما يتعلق بالركوع من كتاب الصلاة ايضا .

القيام بخدمته الا بتأييده وعونه ، وفر بقلبك من وساوس الشيطان وخذاعه ومكائده ، فان الله يرفع عباده بقدر تواضعهم له ؛ ويهديهم الى اصول التواضع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم .

فصل

السجود

واذا هويت الى السجود، جدد على قلبك غاية الذل والعجز والانكسار اذ السجود أعلى درجات الاستكانة ، فمكن أعز أعضائك وهو الوجه ، لأذل الاشياء وهو التراب ، ولا تجعل بينهما حاجزا ، بل اسجد على الارض لانه أجلب للخضوع ؛ وأدل على الذل . فاذا وضعت نفسك موضع الذل والقيتها على التراب ، فاعلم انك وضعتها موضعها ، ورددت الفرع الى أصله ؛ فانك من التراب خلقت ، واليه رددت . فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله ، وقل : (سبحان ربي الاعلى وبحمده) ، وأكده بالتكرار اذ المرة الواحدة ضعيفة الآثار ؛ فان رق قلبك ، وطهر لبك ، فليصدق رجاؤك في رحمة ربك ، فان رحمته تتسارع الى موضع الذل والضعف ، لا الى محل التكبر والبطر . فارفع رأسك مكبرا ومستغفرا من ذنوبك ؛ وسائلا حاجتك ، ثم أكد التواضع بالتكرار ، وعد الى السجود ثانيا كذاك . وسئل مولانا أمير المؤمنين (ع) عن معنى السجدة الاولى ، قال : « تأويلها : اللهم انك منها خلقتنا » - يعني من الارض ، وتأويل رفع رأسك : « ومنها أخرجتنا » ، والسجدة الثانية : « واليها تعيدنا » ، ورفع رأسك : « ومنها تخرجنا تارة اخرى » . وقال مولانا الصادق (ع) : « ما خسر والله - تعالى - قط من اتى بحقيقة السجود ، ولو كان في العمر مرة واحدة ، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيها بمخادع نفسه ، غافل لاه عما أعد الله تعالى للساجدين من انس العاجل وراحة الآجل ، ولا بعد عن الله تعالى أبدا من أحسن تقربه في السجود ، ولا قرب اليه ابدا من أساء أدبه ، وضيع حرمة بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده فاسجد سجود متواضع لله ذليل ، علم أنه خلق من تراب يطأه الخلق ، وانه ركب من نطفة يستقذرها كل أحد ، وكون ولم يكن ، وقد جعل الله

معنى السجود سبب التقرب اليه بالقلب والسر والروح ؛ فمن قرب منه بعد من غيره ، الا ترى في الظاهر أنه لا يستوى حال السجود الا بالتواري عن جميع الاشياء ، والاحتجاب عن كل ما تراه العيون ؟ كذلك أراد الله تعالى أمر الباطن . فمن كان قلبه متعلقا في صلاته بشيء دون الله تعالى ، فهو قريب من ذلك الشيء ، بعيد عن حقيقة ما اراد الله منه في صلاته . قال الله تعالى : ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه « . وقال رسول الله (ص) : « قال الله عز وجل : ما اطلع على قلب عبد فاعلم فيه حب الاخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي ، الا توليت تقويمه وسياسته ، ومن اشتغل في صلاته بغيري فهو من المستهزئين بنفسه ؛ واسمه مكتوب في ديوان الخاسرين » (٣٢) .

فصل

التشهد

اذا جلست للتشهد - بعد هذه الافعال الدقيقة والاسرار العميقة ، المشتتة على الاخطار الجسيمة - فاستشعر الخوف التام والرغبة والوجل والحياء ، ان يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ، ولا محصلا بوظائفه وشرائطه ، ولا مكتوبا في ديوان القبول . فاجعل يدك صفرا من فوائدها ، وارجع الى مبدأ الامر ، وأصل الدين ؛ اعني كلمة التوحيد وحصن الله الذي من دخله كان آمنا ؛ فاستمسك به ان لم تكن لك وسيلة غيره ، فاشهد لربك بالوحدانية ، واحضر رسوله الكريم ونبيه العظيم ببالك واشهد له بالعبودية والرسالة ؛ وصل عليه وآله ، مجددا عهد الله باعادة كلمتي الشهادة ، متعرضا بهما لتأسيس مراتب العبادة ، فانهما اول الرسائل وأساس الفواضل ؛ ومتوسلا الى رسول الله بالصلاة عليه ، مترقبا بذلك عشرا من صلاته (ص) عليك - كما ورد في الخبر - ، ولو وصل اليك منها واحدة افلحت ابدا . قال الصادق (ع) : « التشهد ثناء على الله ، فكن عبدا له في السر ، خاضعا له في الفعل ، كما انك عبد له في القول والدعوى .

(٣٣) صححنا الحديث على : الباب ١٦ من (مصباح الزريعة) . وعلى (بحار الانوار) ١٨ / ٣٦٣ ، باب السجود وآدابه .

وصل صدق لسانك بصفاء صدق شرك ، فانه خلقك عبدا ، وأمرك أن تعبداه بقلبك ولسانك وجوارحك ، وان تحقق عبوديتك له وربوبيته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده ، فليس لهم نفس ولا لحظة الا بقدرته ومشيته وهم عاجزون عن اتيان أقل شيء في مملكته الا باذنه وارادته . قال الله عز وجل :

« وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى

عما يشركون » (٣٤) .

فكن لله عبدا شاكرا بالقول والدعوى ، وصل صدق لسانك بصفاء شرك ، فانه خلقك فعز وجل ان تكون ارادة ومشية لاحد الا بسابق ارادته ومشيته ، فاستعمل العبودية في الرضا بحكمته ، وبالعبادة في اداء أوامره وقد أمرك بالصلاة على حبيبه محمد (ص) ، فاوصل صلاته بصلاته ، وطاعته بطاعته ، وشهادته بشهادته ، وانظر ألا تفوتك بركات معرفة حرمة فتحرم عن فائدة صلاته ، وامره بالاستغفار لك ، والشفاة فيك ، ان أتيت بالواجب في الامر والنهي والسنن والآداب ، وتعلم جليل مرتبته عند الله عز وجل» (٣٥) .

فصل

التسليم

واذا فرغت عن التشهد ، فاحضر بحضرة سيد المرسلين ، والملائكة المقربين ، وبقيّة أنبياء الله وأئمنته - عليهم السلام - والحفظة لك من الملائكة المحصنين لاعمالك ، واحضرهم جميعا في بالك . فسلم اولا على نبيك الذي هو أفضل الكل ، وواسطة هدايتك وايمانك ، بقولك : (السلام عليك ايها النبي ورحمة الله وبركاته) . ثم توجه الى الجميع ، وسلم عليهم بقولك : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) . ولا تطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور المخاطب في ذهنك ، فتكون من العابثين واللاعبيين ، وكيف تسمع الخطاب لمن لا يقصد ، لولا فضل الله في اجترائه بذلك عن أصل الواجب وان كان بعيدا عن درجات القبول ، منحطاً عن اوج القرب والوصول . وان

« (٣٤) القصص ، الآية : ٦٨ .

(٣٥) صححنا الحديث على « مصباح الشريعة » : الباب ١٧ . وعلى

(بحار الانوار) : ١٨ / ٤٠٣ ، باب التشهد وأحكامه .

كنت اماما لقوم ، فاقصدهم بالسلام من تقدم من المقصودين ، وليقصدوا هم الرد عليك ايضا ، واذا فعلتم ذلك فقد اديتم وظيفة السلام ، واستحققتم من الله مزيد الاكرام . قال الصادق (ع) : « معنى التسليم في دبر كل صلاة : الامان ، أى من أتى أمر الله وسنة نبيه (ص) خاضعا خاشعا منه ، فله الامان من بلاء الدنيا والبراءة من عذاب الآخرة . والسلام اسم من اسماء الله تعالى أودعه خلقه ، ليستعملوا معناه في المعاملات والامانات والانصافات وتصديق مصابحتهم فيما بينهم ، وصحة معاشرتهم . فان أردت ان تضع السلام موضعه ، وتؤدى معناه ، فاتق الله تعالى ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك ألا تدنسها بظلمة المعاصي ، ولتسلم منك حفظتك ألا تبرمهم وتملهم وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم ، ثم مع صديقك ، ثم مع عدوك فان من لم يسلم منه من هو الاقرب اليه فالابعد أولى ، ومن لا يضع السلام مواضعه هذه فلا سلام ولا اسلام ولا تسليم ، وكان كاذبا في سلامه وان أفشاه في الخلق » (٣٦) .

فصل

افاضة الانوار على المصلى على قدر صفاته

اعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات ، واخلاصها لوجه الله ، وادائها بالشروط الباطنة المذكورة ، من الحضور والخشوع ، والتعظيم ، والهيبة ، والحياء : سبب لحصول أنوار في القلب ، تكون تلك الانوار مفاتيح للعلوم الباطنة ، وانما يفيض منها على كل مصلى على قدرة صفاته من كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقلة والكثرة ، والقوة والضعف ، والجلاء والخفاء ، ويختلف ايضا بما ينكشف من العلوم فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله ، وبعضهم من عجائب أفعاله ، وبعضهم من دقائق علوم المعاملة ، وبعضهم غير ذلك ، وأولى بالظهور والافاضة لكل شخص ما يهيمه ويكون في طلبه والى ما ذكرناه من ترتب الافاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤداة بالشروط المذكورة ، أشار النبي (ص) بقوله : « ان العبد اذا قام في الصلاة ، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ، وواجهه بوجهه وقامت الملائكة

من لدن منكبیه الى الهواء ، يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه ، وان المصلی
لينشر عليه البر من أعنان السماء الى مفرق رأسه ، ويناديه مناد : لو علم المصلی
من يناجی ما التفت . وان أبواب السماء تفتح للمصلین ، وان الله يباهی
ملائكته بصدق المصلی . فان رفع الحجاب وفتح ابواب السماء كناية عن
افاضة العلوم الباطنة عليه . وورد في التوراة : « يا ابن آدم ، لانعجز ان
تقوم بين یدی مصليا باکيا ، فأنا الله الذي اقتربت من قلبك ، وبالغيب رأيت
نوری » . وورد : « أن العبد اذا صلى ركعتين ، عجبت منه عشرة صفوف
من الملائكة ، كل صف منهم عشرة آلاف ، وباهی الله به مائة الف » .
وذلك لان العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود ، والركوع والسجود ،
والذكر باللسان ، وغير ذلك . وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة
الجامعة بين الكل ، بل هذه الافعال موزعة عليهم ، فبعضهم قائمون لا يركعون
الى يوم القيامة ، وبعضهم ساجدون لا يرفعون الى يوم القيامة ، وهكذا
الراکعون والقاعدون ، فان ما اعطى الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم ،
مستمر على حالة واحدة ، لا تزيد ولا تنقص ، وليس لهم مرتبة الترقی من درجة
الى اخرى ، وباب المزيد مسدود عليهم ، ولذلك قالوا : « وما منا الا له
مقام معلوم » ، بخلاف الانسان ، فان له الترقی في الدرجات ، والتقلب في
أطوار الكمالات ، ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة ، قال الله سبحانه :
« لقد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون » فمدحهم بعد الايمان
بصلاة مخصوصة ، وهي المقرونة بالخشوع ، ثم ختم اوصاف المفلحين بالصلاة
أيضا ، فقال في آخرها :

« والذين هم على صلاتهم يحافظون » ، ثم قال في ثمرة تلك الصفات :

« أولئك هم الوارثون ، الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » (٣٧) .

فوصفهم بالفلاح أولا ، وبوارثة الفردوس آخرا . فالمصلون هم وورثة
الفردوس وورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه وذنوه بالقلب .
وكل عاقل يعلم أن مجرد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب ، لا تنتهي
درجته الى هذا الحد .

فصل

ما ينبغي في امام الجماعة.

ينبغي لامام الجماعة : أن يختص من بين القوم بمزيد صفاء القلب ، واقباله الى الله ، والخشوع والتعظيم ، وغير ذلك من الشرائط الباطنة ، لأنه القدرة والجاذب لنفوس الجماعة الى الله ، فما أقبح به أن يكون قلبه غافلا عن الله ، أو واقعا في أودية الوسوس الباطلة في الصلاة ، ويكون بعض من اقتدى به من القوم خاشعا حاضر القلب معظما لله سبحانه ، وما أشنع به ان يكون التفات قلبه الى من وراءه من الناس الذين لا يقدرون على شيء من النفع والضر أكثر من التفات قلبه الى مالك الملك المحيط بالكل ، الذي حدث بمجرد ارادته العوالم العلوية والسفلية والملك والملكوت ، أو لا يستحي من علام الغيوب أن ينصب نفسه قدوة لأمة سيد الرسل (ص) ، ويحمل محل رسول الله (ص) وأوصيائه الراشدين - عليهم السلام - وينوب عنهم ، ويكون تغير قلبه وتأثر نفسه عن ضعفاء العوام الذين اقتدوا به أشد من انفعاله وتأثره من عظمة الله وجلاله؟! أو لا يخجل عند الله من تفاوت حاله بكثرة المأمومين وقتلتهم؟ فينبغي لكل امام قوم أن يمتحن نفسه ، فإن لم تكن له هذه الصفات الخبيثة فليؤم ، والا فليترك ولا يهلك نفسه ، ويعرف ذلك بأن يكون فرحه بامامة نفسه كفرحه بامامة غيره من امثاله وأقرانه بل ان كان قصده وفرحه بمجرد اقامة السنة ، واحياء رسوم الملة ، فينبغي ان يكون فرحه بامامة غيره ممن هو مرضى ، والاهتمام به اكثر من امانة نفسه لحصول المقصود مع السلامة عن العوائل المحتملة ، ينبغي - ايضا - الا يكون باعثة ومحركة الى المسجد لامامة القوم الا القربة ورجاء الثواب ، فلو كان في بعض زوايا قلبه باعث خفي من الشهرة والمنزلة في القلوب ، أو الوصل الى ما ينتظم به معاشه ، فله الويل والشبور ، ويكون ممن ضل وأضل وهلك وأهلك !

فصل

ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين

ينبغي للحاضر الى صلاة الجمعة والعيدين : ان يستحضر أن هذه الايام أيام شريفة عظيمة ، واعياد مباركة كريمة ، قد خص الله بها هذه الامة ،

وجعلها أوقاتا شريفة لعباده ، ليقرّبهم من جواره ، ويبيدهم من عذابه وفاره وحشهم فيها على الاقبال بصالح الاعمال ، وتلافي ما فرط منهم في بقية الايام والشهور من الاهمال . فلا جرم وجب الاهتمام بصلاتها زيادة على سائر الصلوات ، من التهيؤ والاستعداد للقاء الله ، والوقوف بين يديه ، والمشول في حضرته ، والفوز بمخاطبته . فليجتهد بعد الاتيان بالوظائف الظاهرة ، من التنظيف والتطيب ، والتعمم وحلق الرأس ، وقص الشارب والاذن وغير ذلك من السنن في تخلص النية ، واحضار القلب ، واكثر الخشوع والابتهاال الى الله تعالى في صلاته . وينبغي ان يحضر قلبه في العيدين من قسمة الجوائز وتفريقة الرحمة ، وازافة المواهب فيهما على من قبل صومه وقربانه وقام بوظائفهما ، فليكبر في صلاتهما وقبلها وبعدها في قبول أعماله والعفو عن تقصيراته ، وليستشعر الخجلة والحياء من خسران الرد ، وخذلان الطرد ، فتخسر صفقته ، وتظهر بعد ذلك حسرته ، فيفوز الفائزون ، ويسبق السابقون ، وينجو المخلصون ، وهو يكون من الخائبين الخاسرين .

فصل

ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات

اذا ظهرت الآيات ، من الكسوف والخسوف والزلازل وغيرها ، ينبغي لكل مؤمن ان يستحضر عندها أهوال الآخرة وزلازلها ، وتكور الشمس والقمر ، وظلمة القيامة ، ووجل الخلائق ، وخوفهم من الاخذ والنكال والعقوبة والاستيصال ؛ فيكثر في صلاتها من الدعاء والابتهاال بمزيد الخشوع والخشوع والهيبه والخوف في النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة ، وينبغي ان يكون منكسر النفس ، مطرق الرأس ، مستحييا من التقصير ، مستشعرا بقلبه عظمة الله وجلاله . وبالجملة : حصول الخوف والخشية ، والمبادرة الى التضرع والابتهاال ، واداء الصلاة بالاقبال والخشوع عند ظهور الآيات ، من شعار اهل الايمان . قال سيد الساجدين عليه السلام : « لا يفزع للآيتين ولا يرهب ، الا من كان من شيعتنا ، فان كان ذلك منهما ، فافزعوا الى الله وراجعوه » . وقال الرضا (ع) « انما جعلت للكسوف صلاة لانه من آيات الله تعالى ، لا يدري أرحمة ظهرت

أم لعذاب ، فاحب النبي (ص) ان يفزع امته الى خالقه وراحمه عند ذلك ،
ليصرف عنهم شرها ، ويقيهم مكروها ، كما صرف عن قوم يونس (ع) حين
تضرعوا الى الله تعالى » .

المقصد الثالث

الذكر - فضيلة الاذكار - الدعاء

اعلم انه ينبغي لكل مؤمن ان يكثر من الذكر والدعاء ، لاسيما عقيب
الصلاة المفروضة . وقد ورد في فضائلهما من الآيات والاحبار ما يمكن
احصاؤه ولاشنتها لاجابة الى ذكرها هنا .

فصل

الذكر

أما الذكر فالنافع منه هو الذكر على الدوام ، أو في اكثر الاوقات ، مع
حضور القلب ، وفراغ البال ، والتوجه الكلى الى الخالق المتعال ، حتى
يتمكن المذكور في القلب ، وتتجلى عظمته الباهرة عليه ، وينشرح الصدر
بشروق نوره عليه ، وهو غاية ثمرة العبادات ، وللذكر أول وآخر ، فالوله
يوجب الانس والحب ، وآخره يوجب الانس والحب ، والمطلوب منه ذلك
الحب والانس . فان العبد في بداءة الامر يكون متكلفا بصرف قلبه ولسانه
عن الوساس والفضول الى ذكر الله ، فان وفق للمداومة أنس به وانغرس
في قلبه حب المذكور . ومن أحب شيئا أكثر ذكره ، ومن أكثر ذكرشيء ، وان
كان تكلفا ، احبه . ومن هنا قال بعضهم : « كادت القرآن عشرين سنة
ثم تنعمت به عشرين سنة » ولا تصدر النعم من الانس والحب ، ولا يصدر
الانس والحب الا من المداومة على المكاءدة والتكلف مدة طويلة ، حتى يصير
التكلف طبعا . وكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الانسان تناول طعام يستبشعه
أولا ، ويكأئد اكله ، ويواظب عليه ، فيصير موافقا لطبعه حتى لا يصبر عنه؟
فالنفس تصير معتادة متحملة لما تكلفت : « هي النفس ماعودتها تتعود »

ثم اذا حصل الانس بذكر الله انقطع عن غير الله ، وما سوى الله يفارقه
عند الموت ، ولا يبقى الا ذكر الله ، فان كان قد انس به تمتع به وتلذذ
بأقطاع العوائق الصارفة عنه ، اذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن

ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه ،
فعظمت غبطته ، وتخلص من السجن الذي كان ممنوعا فيه عما به انسه ،
وهذا الانس يتلذذ به العبد بعد موته الى أن ينزل في جوار الله ، ويترقى
من الذكر الى اللقاء ، قال الصادق (ع) : « من كان ذاكرا لله على الحقيقة
فهو مطيع ، ومن كان غافلا عنه فهو عاص ، والطاعة علامة الهداية ، والمعصية
علامة الضلالة ؛ وأصلهما من الذكر والغفلة ، فأجعل قلبك قبلة لسانك ،
ولا تحركه الا بأشارة القلب ، وموافقة العقل ، ورضا الايمان ، فان الله
تعالى عالم بسرک وجهرك ؛ وكن كالنازع روحه ، او كالواقف في العرض
الاکبر ، غير شاغل نفسك عما عناك مما كلفك به ربك في أمره ونهيه
ووعده ووعيده ، ولا تشغلها بدون ما كلفك به ربك ، وأغسل قلبك بماء
الحزن ، وأجعل ذكر الله تعالى من أجل ذكره تعالى اياك ، فانه ذكرك وهو
غنى عنك ، فذكره لك أجل واشهى واثنى واتم من ذكرك له واسبق ،
ومعرفتك بذكره لك تورثك الخشوع والاستحياء والانكسار ، ويتولد من
ذلك رؤية كرمه وفضله السابق ، وتصغر عند ذلك طاعتك وان كثرت في
جنب منته ، وتخلص لوجهه ، ورؤيتك ذكرك له ، يورثك الرياء والعجب
والسفه والغلظة في خلقه ؛ واستكثار الطاعة ونسيان فضله وكرمه ، ولا
تزداد بذلك من الله تعالى الا بعدا ، ولا تستجلب به على مضي الايام الا
وحشة . والذكر ذكران : ذكر خالص بموافقة القلب ، وذكر صارف لك
ينفي ذكر غيره ، كما قال رسول الله (ص) : (انا لا أحصى ثناء عليك ،
انت كما أثنت على نفسك) . فرسول الله (ص) لم يجعل لذكره الله عز
وجل مقدارا عند علمه بحقيقة سابقة ذكر الله عز وجل من قبل ذكره ، ومن
دونه أولى ، فمن أراد ان يذكر الله تعالى ، فليعلم أنه ما لم يذكر الله العبد
بالتوفيق لذكره ، لا يقدر العبد على ذكره » (٣٨) .

(٣٨) الحديث المذكور في (مصباح الشريعة) : الباب ١٣٦/٥ . وفي
(المستدرک) : ٤٠١ ، كتاب الصلاة ، ابواب الذكر . وفي الموضوعين اختلاف
يسير ، فصححناه على (مصباح الشريعة) ، الموضوع المذكور .

تتميم

فضيلة الاذكار

الاذكار كثيرة ، كالتهليل ، والتسبيح ، والتحميد ، والتكبير ، والحوقلة والتسبيحات الاربع ، وأسماء الله الحسنى ، وغير ذلك . وقد وردت في فضيلة كل منها أخبار كثيرة ، والمواظبة على كل منها توجب صفاء النفس وأفراح الصدر ، وكلما كانت أدل على غاية العظمة والجلال والعزة والكمال ، فهي أفضل . ولذا صرحوا بأن افضل الاذكار التهليل ، لدلالته على توحده في الالوهية ، واستناد الكل اليه . وربما كان بعض اسماء الله تعالى في مرتبه أدل ، والعارف السالك الى الله يعلم : أنه قد ينبعث في القلب من عظمة الله وجلاله وشدة كبريائه وكماله ما لا يمكن التعبير عنه بأسم .

فصل

الدعاء

وأما الدعاء ، فهو مخ العبادة ، ولذا ورد في فضله ما ورد من الآيات والاحبار ، ولا حاجة الى ذكرها لاشتهارها . والادعية المأثورة كثيرة مذكورة في كتب الدعوات ، ولا يتصور مطلب من مطالب الدنيا والآخرة الا وقد وردت به أدعية ، فمن أراد شيئاً منها فليأخذ من مواضعها . ومما ينبغي لكل داع ، أن يراعى شرائط وآدابا في الدعاء ، حتى يستجاب له ، ويصل الى فائده ، وتحصل لنفسه نورانية ، وهي ان يترصد لدعائه الاوقات الشريفة ، والاحوال الشريفة ، والاماكن المتبركة المشرفة ، وأن يدعو متطهراً ، مستقبلاً القبلة ، رافعاً يديه بحيث يرى باطن ابطنه ، وأن يخفض صوته بين الجهر والاخفات ، ولا يتكلف السجع في الدعاء ، ويكون في غاية التضرع والخشوع والرغبة ، وأن يجزم ويتيقن أجابة دعائه ، ويصدق رجاءه فيه ، وأن يلج في الدعاء ، ويكرره ثلاثاً ، ويفتح الدعاء بذكر الله وتمجيده ، ولا يبتدىء بالسؤال ، وأن يتوب ، ويرد مظالم العباد ، ويقبل على الله بكنه الهمة ، وهو السبب القريب للاجابة ، وأن يكون مطعمه وملبسه من الحلال ، وهو أيضاً من عمدة الشرائط ، وان يسمى حاجته ،

ويعم في الدعاء ، ويبيكى عنده ، وهو أيضا سيد الآداب ، وأن يتقدم في الدعاء قبل الحاجة اليه ، وألا يعتمد في حوائجه على غير الله تعالى ، قال الصادق (ع) : « احفظ ادب الدعاء ، وانظر من تدعو ، وكيف تدعو ، ولماذا تدعو ، وحقق عظمة الله وكبريائه ، وعين بقلبك علمه بما في ضميرك ، وأطلعه على شرك وما تكن فيه من الحق والباطل ، وأعرف طرق نجاتك وهلاكك ، كيلا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك قال الله تعالى :

« ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا » (٣٩) .

وتفكر ماذا تسأل ، ولماذا تسأل . والدعاء أستجابة الكل منك للحق ، وتذويب المهجة في مشاهدة الرب ، وترك الاختيار جميعا ، وتسليم الامور كلها - ظاهرها وباطنها - الى الله تعالى ، فان لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الاجابة ، فانه يعلم السر وأخفى ، فلعلك تدعوه بشيء قد علم من شرك خلاف ذلك . واعلم انه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء ، لكننا اذا أخلصنا الدعاء ، تفضل علينا بالاجابة ، فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء ، وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الاعظم ، فقال : (كل اسم من أسماء الله اعظم) . ففرغ قلبك عن كل ما سواه ، وادعه بأي اسم شئت ، فليس في الحقيقة لله اسم دون ، بل هو الله الواحد القهار . وقال النبي (ص) : (ان الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه) . فاذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء ، وأخلصت شرك لوجهه ، فأبشر بأحدى ثلاث : اما ان يعجل لك بما سألت ، واما أن يدخر لك بما هو أفضل منه ، واما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت » (٤٠) . وسئل من الصادق (ع) : مالنا ندعوا ولا يستجيب لنا ؟ فقال : « لأنكم تدعون من لا تعرفونه ، وتسألون من لا تفهمونه ، فالاضطراب عين الدين ، وكثرة الدعاء مع العمى عن الله من علامة الخذلان ، لأن من لم يعرف ذلة نفسه وقلبه وسره تحت

(٣٩) الاسراء ، الآية : ١١١ .

(٤٠) الحديث المذكور في « مصباح الشريعة » الباب ١٩ / ١٤٥ - ١٤٦

وفيه اختلاف كثير عما هنا ، فصححناه على المصباح ، الموضع المذكور .

قدرة الله ، حكم على الله بالسؤال ، وظن أن سؤاله دعاء ، والحكم على الله من الجرأة على الله تعالى » .

المقصد الرابع

تلاوة القرآن

أعلم انه لا حد لثواب تلاوة القرآن ، والاخبار الواردة في عظم أجره ووفور ثوابه لا تحصى كثرة ، وكيف لا يعظم أجره وهو كلام الله ، حامله روح الامين الى سيد المرسلين ، فتأمل ان الكلام الصادر من الله بلا واسطة اذا كان من حيث اللفظ معجزة لغاية فصاحته ، ومن حيث المعنى متضمنا لاصول حقائق المعارف والمواعظ والاحكام ، ومخبرا عن دقائق صنع الله ، وعن مغيبات الاحوال والقصص الواقعة في سوانف القرون والاعوام ، كيف يكون تأثيره للقلوب وتصفيته للنفوس ؟ . وبالجملة : العقل والنقل والتجربة شواهد متظاهرة على عظم ثواب تلاوة القرآن ، والاخبار الواردة فيه مشهورة ، فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى بعض ما يتعلق بالتلاوة من الآداب الظاهرة والباطنة .

أما الآداب الظاهرة ، فالوضوء ، والوقوف على هيئة الادب ، والطمأنينة اما قائما أو جالسا ؛ مستقبل القبلة ، مطرقا رأسه ، غير متربع ولا متكىء . والترتيب والبكاء ، والجهر المتوسط لو أمن من الرياء . والا فالسر أفضل ، وتحسين القراءة وتنزيهاها ، ومراعاة حق الآيات ، فاذا مر بآية السجود سجد ، واذا مر بآية العذاب استعاذ منه بالله ، واذا مر بآية الرحمة ونعيم الجنة سأل الله تعالى ان يرزقه ، واذا مر بآية تسييح او تكبير سبح وكبر ، واذا مر بآية دعاء او استغفار دعا واستغفر ، وأفتتح القراءة بقوله : (أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم) ، وأن يقول عند الفراغ من كل سورة : (صدق الله العلي العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، اللهم أرفعنا به وبارك لنا فيه ، والحمد لله رب العالمين) .

وأما الآداب والاعمال الباطنة :

فمنها — فهم عظمة الكلام وعلوه ، وفضل الله تعالى ولطفه بخلقه ، في

نزوله عن عرش جلاله الى درجة أفهام خلقه : فلينظر كيف لطف بخلقه في
أيصال معاني كلامه الذي هو صفة قائمة بذاته الى افهام خلقه ، وكيف
تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات هي صفات البشر ، اذ يعجز
البشر عن الوصول الى فهم صفات الله الا بواسطة صفات نفسه ، ولولا
استتار كنه جمال كلامه بكسوة الحروف ، لما ثبت لسماع كلامه عرش
ولا ثرى ، ولا شيء ما بينهما ، من عظمة سلطانه وسبحات نوره ، ولولا
تثبيت الله موسى (ع) لما أطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادئ
تجليه حيث صار دكا ، ولا يمكن تفهيم عظمة الكلام الا بأمثلة على حد فهم
الخلق ، ولهذا عبر عنه بعض العارفين ، فقال : « ان كل حرف من كلام
الله في اللوح أعظم من جبل قاف ، وان الملائكة لو اجتمعت على الحرف
الواحد أن ينقلوه ما أطاقوه ، حتى يأتي أسرافيل ، وهو ملك اللوح ،
فيرفعه . فنقله بأذن الله ورحمته ، لا بقوته وطاقته » . وايصال معاني الكلام
مع علو درجته الى فهم الانسان مع قصور رتبته ، تشابه من درجة تصويت
الانسان البهائم والطيور . فان الانسان لما أراد تفهيم بعض الدواب والطيور
ما يريد من أقبالها وادبارها وتقديمها وتأخيرها ، وكان تمييزها قاصرا عن
فهم كلامه الصادر عن عقله مع حسنه وترتيبه وبديع نظمه ، فينزل الى درجة
تمييز البهائم ، ويوصل مقاصده اليها بأصوات لا تفتق بها ، من النفير والصفير
والاصوات القريبة من أصواتها ، يطيقون حملها . وكذلك الناس ، لما كانوا
عاجزين عن حمل كلام الله بكنهه وكمال صفاته ، فتنزل من عرش العظمة
والجلال الى درجة أفهامهم ، فتجلى في مظاهر الاصوات والحروف ، وقد
يشرف الصوت لأجل الحكمة المحبوة فيه . فكما أن بدن البشر يكرم
ويعزز لمكان الروح ، فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها .
والكلام عالي المنزلة ، رفيع الدرجة ، قاهر السلطان ، نافذ الحكم في الحق
والباطل ، وهو القاضى العادل ، يأمر وينهى ، ولا طاقة للباطل ان يقوم قدام
كلام الحكمة ، كما لا يستطيع الظل ان يقوم قدام شعاع الشمس ، ولا طاقة
للناس أن ينفذوا غور الحكمة ، كما لا طاقة لهم ان ينفذوا بأبصارهم ضوء
عين الشمس ، ولكنهم ينالون منها ما تقدر به أبصارهم ويستدلون به على

حوائجهم • فالكلام كالمملك المحجوب ، الغائب وجهه ، المشاهد أمره ، فهو مفتاح الخزائن النفيسة ؛ وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يمت ، ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسقم •

ومنها - تعظيم المتكلم : فينبغي للقارئ عند الابتداء بالتلاوة ، أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم انه ليس من كلام البشر ، بل هو كلام خالق الشمس والقمر ، وفي تلاوة كلامه غاية الخطر ، اذ كما لا ينبغي ان تمسّ جلده وورقه وحروفه البشرة المستقدرة بخبث او حدث ، فكذلك لا ينبغي ان تقرأه الالسنة المستخبثة بقبائح الكلمات ، وألا تحوم حول معناه القلوب المكدره برذائل الاخلاق والصفات ، فكما أنه لا يصلح لمس ظاهر خطه كل يد ، بل هو محروس عن ظاهر بشرة اللامس ، الا اذا كان متطهرا ، فكذلك لا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ؛ ولا لنيل معانيه كل قلب ، بل باطن معناه لعلوه وجلاله محجوب عن باطن القلوب ، الا اذا كانت منقطعة عن كل رجس ، مستنيرة بنور التعظيم والتوقير • وبالجملة : ينبغي ألا يترك عند التلاوة تعظيم المتكلم له ، ليتحقق تعظيم الكلام أيضا ، اذ تعظيم الكلام بتعظيم المتكلم ، ولو لم تحضره عظمة المتكلم لغفلة قلبه ، فليرجع الى التفكير في صفاته وأفعاله ، ويستحضر ان المتكلم هو الذي أوجد وأظهر بمجرد إرادته كل ما يشاهده ويسمعه ، من العرش والكرسي والسموات والارضين ، وما فيها وما تحتها وما فوقها ، وأنه الخالق والرازق للجميع ، والكل في قبضة قدرته مسخر أسير ، ومردد بين فضله ورحمته ، وبين تقمته وسطوته ؛ وجميع ذلك لانسبة له الى عوالم المجرّدات • فالتفكير في أمثال ذلك يوجب أستشعار القلب لعظمة المتكلم والكلام • ولمثل هذا التعظيم كان بعضهم اذا نشر المصحف للتلاوة غشى عليه ، ويقول : (هو كلام ربي ، هو كلام ربي !) •

ومنها - الخضوع والرقّة : قال الصادق (ع) : « من قرأ القرآن ، ولم يخضع ولم يرق قلبه ، ولا ينشئ حزنا ووجلا في سره ، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى ، وخسر خسرانا مبينا ، فقارئ القرآن محتاج الى ثلاثة اشياء : قلب خاشع ، وبدن فارغ ، وموضع خال • فاذا خشع الله قلبه فرّه

منه الشيطان الرجيم ، قال الله تعالى :

« فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم » (٤١) .

فاذا تفرغ نفسه من الاسباب ، تجرد قلبه للقراءة ، فلا يعرضه عارض فيحرمه بركة نور القرآن وفوائده . فاذا أتخذ مجلسا خاليا ، وأعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين : خضوع القلب وفراغ البدن ، استأنس روحه وسرّه بالله عز وجل ، ووجد حلاوة مخاطبات الله عز وجل عباده الصالحين ، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم ، بفنون كراماته ، وبدائع أشاراته ، فان شرب كأسا من هذا المشرب حينئذ ؛ لا يختار على ذلك الحال حالا ، ولا على ذلك الوقت وقتا ، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة ، لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة . فأنظر كيف تقرأ كتاب ربك ومنشور ولايتك ، وكيف تجيب أوامره ونواهيه ، وكيف تمتثل حدوده :

« وانه لكتاب عزيز ، لا ياتيهِ الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل

من حكيم حميد » (٤٢) .

فرتله ترتيلا ، وقف عند وعده ووعيده ، وتفكر في أمثاله ومواعظه ، وأحذر ان تقع من اقامتك حروفه في اضاءة حدوده » (٤٣) .

ومنها - حضور القلب ، وترك حديث النفس : وهو يترتب على التعظيم ، فان من يعظم شيئا ، كلما كان أو غيره ، يستبشر ويستأنس به ؛ ولا يغفل عنه . ولا ريب في أن القرآن يشتمل على ما يستأنس به القلب ، وتفوح به النفس ، ان كان التالي أهلا له .

ومنها - التدبر : وهو زائد على حضور القلب ، اذ التالي ربما لم يتفكر في غير القرآن ، ولكنه أقتصر على سماعه من نفسه ، من دون تدبر فيه . والمقصود من تلاوة القرآن التدبر فيه في الباطن ، قال الله سبحانه :

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (٤٤) .

|| (٤١) النحل ، الآية : ٩٨ .

|| (٤٢) فصلت ، الآية : ٤١ - ٤٢ .

|| (٤٣) صححنا الحديث على « مصباح الشريعة » : الباب ١٤ / ١٤٢ .

|| (٤٤) محمد - صلى الله عليه وآله - ، الآية : ٢٤ .

وقال أمير المؤمنين (ع) : « لاخير في عبادة لافقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها » * واذا لم يتمكن من التدبر الا بالترديد ، فليردد . ولذلك كان الاكابر كثيرا ما يكررون بعض الآيات مرات كثيرة للتدبر فيها ، وربما يقفون عند آية مدة مديدة ، وقال بعضهم : « لي في كل جمعة ختمة ، وفي كل شهر ختمة ، وفي كل سنة ختمة ، ولي ختمة منذ ثلاثين ما فرغت منها بعد ! » ، وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه * .

ومنها — التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، اذ القرآن يشتمل على ذكر صفاته تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر الجنة والنار ، وأحوال النشأة الآخرة ، وذكر أحوال انبيائه ، وأحوال المكذبين ، وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أحكامه وأوامره ونواهيه وغير ذلك * فان مرّ بآيات صفاته تعالى ، كقوله :

(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٤٥) * وكقوله تعالى : (الملك القدوس السلام) (٥٠) الى آخر الآية (٤٦) ، وغير ذلك * .

فليتأمل في معاني هذه الاسماء والصفات ، لتتكشف له أسرارها المكنونة تحتها ، ولا تتكشف هذه الاسرار الا للمؤيدين في فهم كتاب الله . قال أمير المؤمنين (ع) : « ما أسرّ الي رسول الله (ص) شيئا كتمه عن الناس ، الا ان يؤتى الله عز وجل عبدا فهما في كتابه » * وان مرّ بآيات الافعال ، أي الآيات الحاكية عن خلقه السماوات والارض ، وما فيهما من الملائكة والكواكب والجبال والحيوان والنبات ، وما بينهما من السحب والغيوم والرياح والامطار وغير ذلك ، فليفهم التالي منها عظمة الله وجلاله * . اذ الفعل يدل على الفاعل ، فعظمته تدل على عظمته * وينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل ، اذ من عرف الحق رآه في كل شيء ، اذ كل شيء منه وبه واليه وله ، فهو الكل في وحده ، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك الا وجهه ، وان اعتبر من حيث هو ، اذ مع قطع النظر عن الواجب

(٤٥) الشورى ، الآية : ١١١ .

(٤٦) الحشر ، الآية : ٢٣ .

وايجاده ، لا ذات ولا وجود ، بل محض العدم وعدم المحض . فذات كل شيء ووجوده وثباته وبقاؤه بالله العلي العظيم . فاذا قرأ التالي آية تدل على شيء من عجائب صنعه وغرائب فعله ، فليتأمل في تلك العجائب ، ثم يترقى منها الى أعجب العجائب ، وهي الصفة التي صدرت منها هذه الاعاجيب . واذا سمع وصف الجنة والنار وسائر أحوال الآخرة ، فليتذكر أن ما في هذا العالم من النعم والنقم لانسبة له الى ما في عالم الآخرة ، فلينتقل من ذلك الى عظمة الله تعالى ، وينقطع اليه باطنا ، ليخلصه من عقوبات تلك النشأة ، ويوصله الى نعيمها ولذاتها . واذا سمع أحوال الانبياء عليهم السلام ، من تكذيبهم وضربهم وقتلهم ، فليفهم منه صفة الاستغناء لله تعالى من الرسل والمرسل اليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لايؤثر في ملكه واذا سمع نصرتهم في الامر ، فليفهم قدرة الله وارادته لنصرته لنصرة الحق . وأما أحوال المكذبين وما جرى عليهم من العقوبات وضروب النكال ، فليستشعر الخوف من سطوته وقمته ، ويعتبر في نفسه ، ويعلم أنه غفل وأساء الادب ، واغتر بما امهل ، فربما تدركه النقمة . وكذلك اذا سمع الوعد والوعيد والامر والتهديد ، فلا يمكن استقصاء ما ينظهم من القرآن ، لانه لانه لانه له ، اذ (لارطب ولا يابس الا في كتاب مبين)

« قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات

ربي » (٤٧) .

ولكل عبد منه بقدر استعداده ومقدار فهمه وصفاء نفسه . ومنها - التخلي عن موانع الفهم : وهي التقليد والتعصب لمذهب ، فان ذلك بمنزلة حجاب لمرآة النفس يمنعها عن انعكاس غير معتقدها فيها ، والجمود على تفسير ظاهر ، ظانا ان غيره تفسير بالرأى لايجاوز ارتكابه ، وصرف الهمة والفهم الى تحقيق الحروف وما يتعلق بها من الامور المتداولة بين القراء ، فان قصر التأمل على ذلك مانع من انكشاف المعاني ، والاصرار على الذنوب الظاهرة والباطنة ، ومتابعة الشهوات المظلمة للقلب الموجبة للحرمان عن انكشاف الاسرار والحقائق فيه ، واشراق المعارف الحققة عليه .

قال رسول الله (ص) : - « اذا عظمت امتى الدينار والدرهم ، تنزع منها هيبة الاسلام ، واذا تركوا الامر بالمعروف ، حرموا بركة الوحي » . وقد شرط الله تعالى الاقامة في الفهم والتذكر ، قال الله تعالى :

« تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » (٤٨) . وقال تعالى : « وما يتذكر

الا من نيب » (٤٩) . وقال تعالى : « انما يتذكر اولوا الالباب » (٥٠) .

ومنها - التخصيص : وهو ان يقدر انه المقصود بكل خطاب في القرآن من الامر والنهي والوعيد والوعيد ، حتى انه لو سمع قصص الاولين يجزم بأن المقصود الاعتبار دون مجرد الحكاية والتشمر . فما من قصة في القرآن الا وسياقها الفائدة في حق النبي وامته ، ولذلك قال سبحانه :

« ما نثبت به فؤادك » (٥١) .

فان القرآن جميعه هدى وشفاء ورحمة ، ونور وموعظة وبصائر للعالمين فكل احد اذا قرأه ينبغي ان تكون قراءة العبد كتاب مولاه الذي كتب اليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . قال بعض الاكابر : « هذا القرآن رسائل اتنمن قبل ربنا عزوجل بعهوده ، فتندبرها في الصلوات ، وتقف في الخلوات ، ونفذهها في الطاعات بالسنة المتبعات » .

ومنها - التأثير : وهو ان يتأثر قلبه باثار مختلفه بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كل فهم حال : من الخوف ، والحزن والوجل ، والوجد ، والفرح ، والارتياح ، والرجاء ، والقبض ، والانبساط فاذا سمع الوعيد فليضطرب قلبه ، ويتضائل من الخرف كأنه يموت ، وان سمع وسعه الرحمة ووعد المغفرة ، فليفرح ويستبشر كأنه يطير من الابتهاج ، واذا سمع وصف الجنة ، فلينبعث باطنه شوقا اليها ، واذا سمع وصف النار ، فلتترعد فرائصه خوفا منها ، واذا سمع صفات الله واسمائه ونعوت جلاله ، فليتطأ خضوعا لجلاله واستشعارا لعظمته وكبريائه ، واذا سمع ذكر الكفار ما يستحيل على الله من اتخاذ الولد وامثاله ، فليغض صوته وينكسر في باطنه حياء من

(٤٨) ق ، الآية : ٨ .

(٤٩) المؤمن ، الآية : ١٣ .

(٥٠) الرعد الآية : ٢١ . الزمر ، الآية : ٩ .

(٥١) هود ، الآية : ١٢٠ .

قبح مقالته • • وقس على ذلك غيره ما الآيات المختلفة • ومهما تمت المعرفة كانت الخشية اغلب الاحوال على القلب ، اذ التضييق غالب على آيات القرآن اذ لا ترى ذكر المغفرة والرحمة الا مقرونا بشروط يقصر الاكثرون عن نيلها ، ولذلك كان في الخائفين من يصير مغشيا عليه عند استماع آيات الوعيد ، ومنهم من مات بمجرد استماعها • وبالجملة : المقصود الاصلي من القرآن ، استجلاب هذه الاحوال الى القلب والعمل به والا فالمؤنة بتحريك اللسان بحروفه خفيفة • وحق تلاوة القرآن ان يشترك فيها اللسان والعقل والقلب فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل ادراك المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالحالات المذكورة • فاللسان واعظ القلب ، والعقل مترجم ، والقلب متعظ •

ومنها - الترقى : وهو أن يترقى الى ان يسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه • فدرجات القراءة ثلاث : الاولى : وهي ادناها ، ان يقدر العبد انه يقرؤه على الله تعالى واقفا بين يديه ، وهو ناظر اليه ومستمع منه ، فتكون حاله - على هذا التقدير - التملق والسؤال والتضرع والابتهاال • الثانية : ان يشهد بقلبه ، كأن ربه يخاطبه بالطافة ، ويناجيه باحسانه وانعامه فمقامه الهيبة والحياء والتعظيم والاصغاء • الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر الى نفسه والى تلاوته ، ولا الى تعلق الانعام به من حيث انه منعم عليه ، بل يكون مقصود الهم على التكلم موقوف الفكر عليه • كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره • وهذه درجة المقربين والصديقين ، وما قبله من درجات اصحاب اليمين وما خرج عن ذلك فهو درجات الغافلين • وقد اخبر عن الدرجة العليا سيد الشهداء ارواحنا فداه - حيث قال (ع) : « الذي تجلى لعباده في كتابه بل في كل شيء ، وأراهم نفسه في خاطبه ، بل في كل نور » • وأشار اليها الامام ابو عبد الله الصادق عليه السلام حيث قال : « والله لقد تجلى الله عزوجل لخلقه في كلامه ! ولكن لا يبصرون » وروى : « أنه لحقته حالة في الصلاة ، حتى خر مغشيا عليه ، فلما سرى عنه ، قيل له في ذلك ، فقال (ع) : ما زلت اردد الآية على قلبي ، حتى سمعتها من المتكلم بها ، فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته » • وفي مثل

هذه الدرجة تشتد البهجة، وتعظم الحلاوة واللذة . ولذلك قال بعض الحكماء
« كنت اقرأ القرآن ، فلا أجد له حلاوة ، حتى تلوته كأنى أسمعته عن
رسول الله (ص) يتلوه على أصحابه ، ثم رفعت الى مقام فوقه ، فكنت اتلوه
كأنى أسمعته من جبرئيل يلقيه على رسول الله (ص) فعندها وجدت لذته ونعيمه
لا اصبر عنه » وقال حذيفة : « لو طهرت القلوب ، لم تشبع من قراءة القرآن »
وذلك لانها بالطهارة تترقى الى مشاهدة المتكلم في الكلام ، بل التوحيد
الخالص للعبد ، ألا يرى في كل شيء الا الله ، اذ لو رأى غيره ، لامن حيث
انه منه وله وبه واليه ، كان مشركا بالشرك الخفى .

ومنها - التبرى : وهو ان يتبرى من حوله وقوته ، ولا يلتفت الى
نفسه بعين الرضا والتزكية . فاذا قرأ آيات الوعد ومدح الاخير ، فلا يشهد
نفسه ولا يدخلها في زمرةهم ، بل يشهد أهل الصدق واليقين ، ويتشوق الى
ان يلحقه الله بهم . واذا قرأ آيات المقت والوعيد ، وذم العصاة والمقصرين
شهد نفسه هناك ، وقدر انه المخاطب خوفا واشفاقا . والى هذا أشار مولانا
أمير المؤمنين (ع) ، حيث قال في وصف المتقين : « واذا مروا بأية فيها تخويف
أصغوا اليها مسامع قلوبهم ، وظنوا ان زفير جهنم في آذانهم » فاذا رأى
القارئ نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه . فان من
شهد البعد في القرب ، لطف له بالخوف ، حتى يسوقه الى درجة اخرى في
القرب وراءها ، ومن شهد القرب في البعد مكر به بالامن الذى يفضيه الى
درجة اخرى في البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهدا نفسه بعين
الرضا ، صار محجوبا بنفسه . فاذا جاوز حد الالتفات الى نفسه ، ولم
يشاهد الا الله تعالى في قراءته ، وكشف له سر الملكوت بحسب احواله ،
فحيث يتلو آيات الرحمة والرجاء ، ويغلب على حاله الاستبشار ، وتنكشف
له صورة الجنة ، فيشاهدها كأنه يراها عيانا ، وان غلب عليه الخوف ،
كوشف بالنار ، حتى يرى انواع عذابها ، وذلك لان كلام الله عز وجل يشتمل
على السهل اللطيف ، والشديد العسوف ، والمرجو والمخوف ، وذلك بحسب
أوصافه ، اذ منها الرحمة واللطف .

ومنها - القهر والبطش والانتقام : فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات

ينقلب القلب في اختلاف الحالات ، وبحسب كل حالة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحالة ، ويمتنع ان يكون حال المستمع واحدا والمسموع مختلفا ، اذ فيه كلام راض ، وكلام غضبان ، وكلام منعم ، وكلام منتقم ، وكلام جبار متكبر لا يبالي ، وكلام منان متعطف لا يهمل .

المقصد الخامس

الصوم

اعلم ان الصوم اجره عظيم ، وثوابه جسيم ، وما يدل على فضله من الآيات والاخبار اكثر من ان تحصى ، وهى معروفة مشهورة فلا حاجة الى ذكرها ، فلنشر الى ما يتعلق به من الامور الباطنة :

فصل

ما ينبغى للصائم

ينبغى للصائم ان يفيض بصره عن كل ما يحرم النظر اليه ، او يكره ، او يشغل القلب ويلهيه عن ذكر الله تعالى ، ويحفظ اللسان عن جميع آفاته المتقدمة ، ويكف السمع عن كل ما يحرم او يكره استماعه ، ويكف بطنه عن الحرام والشبهات ، ويكف سائر جوارحه عن المكروه . وقد ورد في اشتراط جميع ذلك في الصوم في ترتب كمال الثواب عليه اخبار كثيرة . وينبغى أيضا الا يستكثر من الحلال وقت الافطار بحيث يمتلىء ، اذ ما من وعاء ابغض الى الله عز وجل من بطن ملىء من حلال ، كيف والسري في شرع الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة والهوى ، للتقوى النفس على التقوى ، وترتقى من حضيض حظوظ النفس البهيمية الى ذروة التشبيه بالملائكة الروحانية ، وكيف يحصل ذلك اذا تدارك الصائم عند الافطار ما فاتته ضحوة نهاره ، لاسيما اذا زيد عليه في ألوان الطعام ، كما استمرت العادات في هذه الاعصار ، وربما يؤكل من الاطعمة في شهر رمضان ما لا يؤكل في عدة شهور . ولاريب في أن المعدة اذا خليت من ضحوة النهار الى العشاء ، حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ، ثم أطعمت من اللذات ، واشبعت من ألوان المطاعم ، وجمع ما كان يأكل ضحوة الى ما يأكل ليلا ، واكل الجميع في الليل مرة أو مرتين أو اكثر زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعثت من الشهوات ما عساها كانت راكدة

لوتركت على عاداتها ، فلا يحصل ما هو المقصود من الصوم ، أعنى تضعيف القوى الشهوية التي هي وسائل الشيطان ، فلا بد من التقليل ، وهو ان يأكل في مجموع الليلة أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، من دون ضم مما يأكل في النهار اليه ، حتى ينتفع بصومه . والحاصل : ان روح الصوم وسره والغرض الاصلى منه : التخلق بخلق من اخلاق الله تعالى ، أعنى الصمدية والافتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بقدر الامكان ، وهذا انما يحصل بتقليل الاكل عما يأكله في غير وقت الصوم ، فلا جدوى لمجرد تأخير أكله وجمع أكلتين عند العشاء ، ثم لو جعل سر الصوم ما يظهر من بعض الظواهر من ادراك الاغنياء ألم الجوع والانتقال منه الى شدة حال الفقراء ، فيبعثهم ذلك على مواساتهم بالاموال والاقوات ، فهو أيضا لا يتم بدون التقليل في الاكل .

فصل

ما ينبغي للصائم عند الافطار

ينبغي لكل صائم ان يكون قلبه بعد الافطار مضطربا ، معلقا بين الخوف والرجاء ، اذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين أو يرد عليه فهو من الممقوتين ، وليكن الحال كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها . روى : « ان الامام ابا محمد الحسن المجتبي (ع) مر بقوم يوم العيد ، وهم يضحكون ، فقال (ع) : ان الله تعالى جعل شهر رمضان مضمارا لخلقه ، يستبقون فيه لطاعته ، فسبق أقوام ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل العجب للضحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه المسارعون وخاب فيه المبطلون ، أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن باحسانه ، والمسيء عن اسائه ! » ، أى كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك

فصل

درجات الصوم

للصوم ثلاث درجات :

الاولى - صوم العموم : وهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة ، وهذا لا يفيد أزيد من سقوط القضاء والاستخلاص من العذاب .

الثانية - صوم الخصوص : وهو الكف المذكور ، مع كف البصر والسمع واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن المعاصي ، وعلى هذا الصوم تترتب المثوبات الموعودة من صاحب الشرع .

الثالثة - صوم خصوص الخصوص : وهو الكفان المذكوران ، مع صوم القلب عن الهمم الدنية ، والاخلاق الرديئة ، والافكار الدنيوية ، وكفه عما سواه بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر في ماسوى الله واليوم الآخر ، وحاصل هذا الصوم اقبال بكنه الهمة على الله ، وانصراف عن غير الله وتلبس بمعنى قوله تعالى : « قل الله ثم ذرهم » ، وهذا درجة الانبياء والصدقيين* والمقربين ، ويترتب عليه الوصول الى المشاهدة واللقاء ، والفوز بما لا عين رأت ، ولا اذن سمعت ، ولا خطر على قلب احد . والى هذا الصوم أشار مولانا الصادق (ع) حيث قال : « قال النبي (ص) : الصوم جنة . أى ستر من آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة ، فاذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات ، وقطع الهمة عن خطرات الشياطين ، وانزل نفسك منزلة المرضى ، ولا تشتهي طعاما ولا شرابا ، وتوقع في كل لحظة شفاءك من مرض الذنوب ، وطهر باطنك من كل كدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الاخلاص لوجه الله قال رسول الله (ص) : قال الله تعالى : الصوم لى وانا اجزى به . والصوم يميئ مراد النفس وشهوة الطبع ، وفيه صفاء القلب ، وطهارة الجوارح ، وعمارة الظاهر والباطن ، والشكر على النعم والاحسان الى الفقراء ، وزيادة التضرع والخشوع والبكاء ، وحبل الالتجاء الى الله ، وسبب انكسار الهمة وتخفيف الحساب ، وتضعيف الحسنات ، وفيه من الفوائد ما لا يحصى ولا يعد ، وكفى بما ذكرناه لمن عقله ووفق لاستعماله » (٥٢)

تتميم

من صام شهر رمضان اخلاصا لله وتقربا اليه ، وطهر باطنه من ذمائم الاخلاق ، وكف ظاهره عن المعاصي والآثام ، وأجتنب عن الحرام ، ولم يأكل الا الحلال ، ولم يفرط في الاكل ، وواظب على جملة من النوافل

(٥٢) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢٠ . وعلى (المستدرک) : ١ / ٥٨٩ - ٥٩٠ ، كتاب الصوم .

والادعية وسائر الآداب المسنونة فيه ، استحق للمغفرة والخلاص عن عذاب الآخرة ، بمقتضى الاخبار المتواترة . ثم ان كان من العوام ، حصل له من صفاء النفس ما يوجب استجابة دعوته ، وان كان من أهل المعرفة ، فعسى الشيطان لا يحوم على قلبه ، فيكشف له شيء من الملكوت ، وسيما في ليلة القدر ، اذ هي الليلة التي تنكشف فيها الاسرار ، وتفيض على القلوب الطاهرة الانوار ، والمناطق والعمدة في نيل ذلك تقليل الاكل بحيث يحس ألم الجوع ، اذ من جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام ، فهو محجوب عن عوالم الانوار ، ويستحيل أن ينكشف له شيء من الاسرار .

المقصد السادس

الحج

أعلم أن الحج أعظم اركان الدين ، وعمدة ما يقرب العبد الى رب العالمين ، وهو أهم التكاليف الالهية وأثقلها ، وأصعب العبادات البدنية وأفضلها ، وأعظم بعبادة ينعدم بفقدائها الدين ، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الخسران المبين . والاخبار التي وردت في فضيلته وفي ذم تاركه كثيرة مذكورة في كتب الاخبار ، والاحكام والشرائط الظاهرة له على عهد الفقهاء ، فلنشر الى الاسرار الخفية ، والاعمال الدقيقة ، والآداب الباطنة ، التي يبحث عنها أرباب القلوب :

فصل

الغرض من ايجاد الانسان

اعلم أن الغرض الاصلي من ايجاد الانسان معرفة الله والوصول الى حبه والانس به ، والوصول اليه بالحب والانس يتوقف على صفاء النفس وتجردها . فكلما صارت النفس أصفى وأشد تجردا ، كان أنسها وحبها بالله أشد وأكثر . وصفاء النفس وتجردها موقوف على التنزه عن الشهوات والكف عن اللذات ، والاقطاع عن الحطام الدنيوية ، وتحريك الجوارح وإيقاعها لأجله في الاعمال الشاقة ، والتجرد لذكره وتوجيه القلب اليه . ولذلك شرعت العبادات المشتملة على هذه الامور ، اذ بعضها اتفاق المال وبذله ، الموجب للاقطاع عن الحطام الدنيوية ، كالزكاة والخمس والصدقات

وبعضها الكف عن الشهوات واللذات ، كالصوم ، وبعضها التجرد لذكر الله وتوجيه القلب اليه ، وارتكاب تحريك الاعضاء وتعبها ، كالصلاة ، والحج من بينها مشتمل على جميع هذه الامور مع الزيادة ، اذ فيه هجران أوطان ، واتعاب أبدان ، وانفاق أموال ، وانقطاع آمال ، وتحمل مشاق • وتجديد ميثاق ، وحضور مشاعر ، وشهود شعائر ؛ ويتحقق في أعماله التجرد لذكر الله ، والاقبال عليه بضروب الطاعات والعبادات ، مع كون أعماله أمورا لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدي الي معانيها العقول ، كرمى الجمار بالاحجار ، والتردد بين الصفا والمرورة على سبيل التكرار ، اذ بمثل هذه الاعمال يظهر كمال الرق والعبودية ، فان سائر العبادات اعمال وأفعال يظهر وجهها للعقل ، فللنفس اليها ميل ، وللطبع بها أنس •

وأما بعض أعمال الحج ، كرمى الجمار وترددات السعي ، فلاحظ للنفس ولا انس للطبع فيها ، ولا أهتداء للعقل الي معانيها ، فلا يكون الاقدام عليها الا لمجرد الامر وقصد الامتثال له من حيث انه أمر واجب الاتباع ، ففيها عزل العقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل انسه ، فان كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع اليه ميلا ما ، فيكون ذلك الميل معيننا للامتثال ، فلا يظهر به كمال الرق والالتقياد ، ولذلك قال النبي (ص) في الحج على الخصوص : « لبيك بحجة حقا وتعبدا ورقا ! » ، ولم يقل ذلك في غيره من العبادات • فمثل هذه العبادات - أي مالم يهتد العقل الي معناه ووجهه - أبلغ أنواع العبادات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطبع والبغي الي الاسترقاق ، فتعجب بعض الناس من هذه الافعال العجيبة مصدره الجهل بأسرار التعبدات ، وهذا هو السر في وضع الحج ، مع دلالة كل عمل من أعماله على بعض أحوال الآخرة ، أو في بعض أسرار آخر - كما يأتي - ما فيه من اجتماع أهل العالم في موضع تكرر فيه نزول الوحي ، وهبوط جبرئيل وغيره من الملائكة المقربين على رسوله المكرم ، ومن قبله على خليله المعظم - عليهما أفضل الصلاة - ، بل لا يزال مرجعا ومنزلا لجميع الانبياء ، من آدم الي خاتم ، ومهبطا للوحي ، ومحلا لنزول طوائف الملائكة • وقد تولد فيه سيد الرسل (ص) وتوطأت أكثر

مواضعه قدمه الشريفة وأقدام سائر الانبياء ، ولذلك سمي بـ (البيت العتيق) ، وقد شرفه الله تعالى بالاضافة الى نفسه ، ونصبه مقصدا لعباده ، وجعل ما حواليه حرما لبيته ، وتفخيما لأمره ، وجعل عرفات كالميدان على فناء حرمة ، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وقطع شجره ، ووضع على مثال حضرة الملوك ، فقصده الزوار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شعثناء غرباء ، متواضعين لرب البيت ، ومستكنين له ، خضوعا لجلاله ، واستكانة لعزته وعظمته ، مع الاعتراف بتنزهه عن أن يحومه بيت او يكتنفه بلد .

ولا ريب في أن الاجتماع في مثل هذا الموضع ، مع ما فيه من حصول الموافقة والمصاحبة ، ومجاورة الابدال والاوتاد والاختيار المجتمعين من أقطار البلاد ، وتظاهر الهمم ، وتعاون النفوس على التضرع والابتغال والدعاء الموجب لسرعة الاجابة ، بذكر النبي (ص) وأجلاله ، ونزول الوحي عليه ، وغاية سعيه وأهتمامه في اعلاء كلمة الله ونشر احكام دينه ، فتحصل الرقة للقلب ، والصفاء للنفس . ثم لكون الحج اعظم التكليفات لهذه الامة ، جعل بمنزلة الرهبانية في الملل السانفة ، فان الامم الماضية اذا أرادوا العمل لأصعب التكليف وأشقها على النفس ، أنفردوا عن الخلق ، وانحازوا الى قلل الجبال ، وآثروا التوحش عن الخلق بطلب الانس بالله ، والتجرد له في جميع الحركات والسكنات ، فتركوا اللذات الحاضرة ، وألزموا أنفسهم الرياضات الشاقة ، طمعا في الآخرة ، وقد اثنى الله عليهم في كتابه ، وقال :

« ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون » (٥٣) . وقال

تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم الا ابتغاء رضوان الله » (٥٤) .

ولما أندرس ذلك ، وأقبل الخلق على أتباع الشهوات ، وهجروا التجرد لعبادة الله تعالى ، وفروا عنها ، بعث الله تعالى من سررة البطحا محمدا (ص) ، لاحياء طريق الآخرة ، وتجديد سنة المرسلين في سلوكها ، فسأله أهل الملل من الرهبانية والسياحة في دينه ، فقال (ص) : « أبدلنا بالرهبانية الجهاد

(٥٣) المائدة ، الآية : ٨٥ .

(٥٤) الحديد ، الآية : ٢٧ .

والتكبير على كل شرف - يعني الحج - ، وأبدلنا بالسياحة الصوم « .
فأنعم الله على هذه الامة ، بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فهو بازاء أعظم
التكاليف والطاعات في الملل السابقة .

فصل

ما ينبغي في الحاج

ينبغي للحاج ، عند توجهه الى الحج ، مراعات أمور :
الاول - أن يجرد نيته لله ، بحيث لا يشوبها شيء من الاغراض
الدنيوية ، ولا يكون باعثه على التوجه الى الحج الا امتثال أمر الله ، ونيل
ثوابه ، والاستخلاص من عذابه ، فليحذر كل الحذر أن يكون له باعث
آخر ، مكنون في بعض زوايا قلبه ؛ كالرياء والحذر عن ذم الناس وتقسيقهم
لولا يحج ، او الخوف من الفقر وتلف أمواله لو ترك الحج ؛ لما أشتهر من
أن (تارك الحج يبتلى بالفقر والادبار) ، او قصد التجارة أو شغل آخر ،
فان كل ذلك يخرج العمل من الاخلاص ، ويحجبه عن الفائدة وترتب الشواب
الموعود ، وما أجهل من تحمل الاعمال الشاقة التي يمكن ان تحصل بها
سعادة الابد ، لأجل خيالات فاسدة لا يترتب عليها سوى الخسران فائدة
فيجتهد كل الجهد أن يجعل عزمه خالصا لوجه الله ، بعيدا عن شوائب الرياء
والسمعة ، ويتيقن أنه لا يقبل من قصده وعمله الا الخالص ، وان من أفحش
الفواحش أن يقصد بيت الملك وحرمة والمقصود غيره ، فليصحح في نفسه
العزم ، وتصحيحه بأخلاقه بأجتناب كل ما فيه رياء وسمعة .

الثاني - أن يتوب الى الله تعالى توبة خالصة ، ويرد المظالم ، ويقطع
علاقة قلبه عن الالتفات الى ما وراءه ، ليكون متوجها الى الله بوجه قلبه ،
ويقدر أنه لا يعود ، وليكتب وصيته لأهله وأولاده ، وينتهي لسفر الآخرة ،
فان ذلك بين يديه على قرب ؛ وما تقدمه من هذا السفر تهيئة لأسباب ذلك
السفر ، فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغي أن يغفل عن ذلك عند الاستعداد
لهذا ، فليتذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة .
الثالث - أن يعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، ويعلم انه
ترك الاهل والاطوان ، وفارق الاحبة والبلدان ، للعزم على أمر رفيع شأنه ،

خطير أمره : اعني زيارة بيت الله الذي جعل مثابة للناس ، فسفره هذا لا يضاهي أسفار الدنيا . فليحضر في قلبه ماذا يريد ، وأين يتوجه ، وزيارة من يقصد ، وأنه متوجه الى زيارة ملك الملوك في زمرة الزائرين اليه ، الذين نودوا فأجابوا ، وشوقوا فأشتاقوا ، ودعوا فقطعوا العلائق . وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله الرفيع قدره والعظيم شأنه ، تسليا بلقاء البيت عن لقاء صاحبه ، الى أن يرزقوا منتهى مناهم ، ويسعدوا بالنظر الى مولاهم ، فليحضر في قلبه عظم السفر ، وعظمة البيت ، وجلالة رب البيت ، ويخرج معظما لهما ، ناويا ان لم يصل وادركته المنية في الطريق لقي الله وافدا اليه بمقتضى وعده .

الرابع - أن يخلي نفسه عن كل ما يشغل القلب ، ويفرق الهم في الطريق ، أو المقصود ، من معاملة أو مثلها ، حتى يكون الهم مجردا لله ، والقلب مطمئنا منصرفا الى ذكر الله وتعظيم شعائره ، متذكرا عند كل حركة وسكون أمرا أخرويا يناسبه .

الخامس - ان يكون زاده حلالا ، ويوسع فيه ويطيبه ، ولا يعتم ببذله وانفاقه ، بل كان طيب النفس به ، اذ أنفاق المال في طريق الحج نفقة في سبيل الله ، والدرهم منه بسبعمئة درهم ، قال رسول الله (ص) : « من شرف الرجل أن يطيب زاده اذا خرج في سفر » . وكان السجاد (ع) اذا سافر الى الحج ، يتزود من أطيب الزاد ، من اللوز والسكر والسيويق المحمص والمحلى . وقال الصادق (ع) : « اذا سافرتهم ، فأتخذوا سفرة وتنوقوا فيها » . وفي رواية : « أنه يكره ذلك في زيارة الحسين (ع) » . نعم ينبغي أن يكون الانفاق على الاقتصاد من دون تقتير ولا اسراف ، والمراد بالاسراف التنعم بأطائب الاطعمة ، والترفيه بصرف أنواعها على ما هو عادة المترفين ، وأما كثرة البذل على المستحقين ، فلا اسراف فيه ، اذ لاخير في السرف ، ولا سرف في الخير . وينبغي - أيضا - أن يكون له طيب النفس فيما أصابه من خسران ومصيبة في مال وبدن ، لأن ذلك من دلائل قبول حجه ، فان ذهاب المال في طريق الحج يعد الدرهم منه سبعمئة في سبيل الله ، فالمصيبة في طريق الحج بمثابة الشدائد في طريق الجهاد ، فله بكل

أذى أحتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عند الله •
 السادس - أن يحسن خلقه ، ويطيب كلامه ، ويكثر تواضعه ، ويجتنب
 سوء الخلق والغلظة في الكلام ، والرفث والفسوق والجدال ، والرفث اسم
 جامع لكل فحش ولغو وخنى ، والفسوق اسم جامع لكل خروج عن طاعة
 الله ، والجدال هو المبالغة في الخصومة والممارة بما يورث الضغائن ، ويفرق
 الهمم ويناقض حسن الخلق • قال رسول الله (ص) : « الحج المبرور ليس
 له جزاء الا الجنة » ، فقيل : يارسول الله ، ما بر الحج ؟ قال : « طيب الكلام
 واطعام الطعام » • فلا ينبغي ان يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجماله ،
 وعلى غيرهما من أصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسائرين الى
 بيت الله ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق مجرد كف الاذى ، بل
 احتمال الاذى ، وقيل : سمي السفر سفرا ، لانه يسفر عن أخلاق الرجال •
 السابع - أن يكون أشعث أغبر ، غير متزين ولا مائل الى اسباب
 التفاخر والتكاثر ، فيكتب في المتكبرين ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين ،
 ويمشي ان قدر ، خصوصا بين المشاعر • وفي الخبر : « ما عبد الله بشيء
 أفضل من المشى » • وينبغي ألا يكون الباعث للمشى تقليل النفقة ، بل التعب
 والرياضة في سبيل الله ، ولو كان القصد تقليل النفقة مع اليسار ، فالركوب
 أفضل • وكذا الركوب أفضل لمن ضعف بالمشى ، وساء خلقه ، وقصر في
 العمل ، ففي الخبر : « تركبون أحب الي ، فان ذلك أقوى على الدعاء
 والعبادة » • وكان الحسين بن علي عليهما السلام يمشى وتساق معه المحامل
 والرحال • واذا حضرت الراحلة ليركبها ، فليشكر الله تعالى بقلبه على تسخيره
 له الدواب ، لتتحمل عنه الاذى ، وتخفف عنه المشقة • وينبغي ان يرفق
 بها ، فلا يحملها مالا تطيق •

فصل

الميقات

اذا خرج عن وطنه ، ودخل الى البادية ، متوجها الى الميقات ، وشاهد
 العقبات ، فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت الى ميقات يوم
 القيامة ، وما بينهما من الاهوال والمطالبات ، وليتذكر من هول قطاع الطريق

هول منكر ونكير ، ومن سباع البوادي وحياتها وعقاربهاحيات القبر ، وأفاعيها وعقاربها وديدانها ، ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر ووحدته وكربته ، وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر .

فصل

ما ينبغي في الميقات

إذا دخل الميقات ، ولبس ثوبي الاحرام ، فليتذكر عند لبسهما لبس الكفن ولفه فيه ، وأنه سيلقى الله ملفوفا في ثياب الكفن لامحالة ، فكما لايلقى بيت الله الا بهيئة وزى يخالف عاداته ، فكذلك لايلقى الله بعد الموت الا في زي يخالف زي الدنيا ، وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب ، اذ ليس مخيطا ، كما أن الكفن أيضا ليس مخيطا . واذا أحرم وتلبى ، فليعلم أن الاحرام والتلبية اجابة نداء الله ، فليرج ان يكون مقبولا ، وليخش ان يكون مردودا ، فيقال : لالبيك ولاسعديك ! فليكن بين الخوف والرجاء مترددا ، وعن حوله وقوته متبرأ ، وعلى فضل الله وكرمه متكلا . فان وقت التلبية هو بداية الامر ، وهو محل الخطر . وقد روى : « أن علي بن الحسين - عليهما السلام - لما أحرم ، واستوت به راحلته ، اصفر لونه واتقص ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبى . فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : أخشى ان يقول ربى : لالبيك ولاسعديك ! فلما لبي غشى عليه وسقط من راحلته ، فلم يزل يعتريه ذلك حتى قضى حجه » فليتذكر الملبى عند رفع الاصوات في الميقات خائفا راجيا ، انه اجابة لنداء الله تعالى : اذ قال تعالى :

« وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا » (٥٥) .

ويتذكر من هذا النداء نداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة لنداء الله ، ومنقسمين الى مقرئين ومباعدين ، ومقبولين ومردودين ، ومرددين في اول الامر بين الخوف والرجاء ، مثل تردد الحاج في الميقات ، حيث لايدرون أيتيسر لهم اتمام الحج وقبوله أم لا .

فصل

ما ينبغي عند دخول مكة

ينبغي ان يتذكر عند دخوله مكة : انه قد انتهى الى حرم من دخله كان آمنا ، وليرج عنده ان يأمن بدخوله من عقاب الله ، وليضطرب قلبه من الايكون اهلا للقرب والقبول فيكون بدخول الحرم خائبا مستحقا للمقت ، وليكن رجائوه في جميع الاوقات غالبا ، اذ شرف البيت عظيم ، ورب البيت كريم ، والرحمة واسعة ، والفيوضات نازلة ، وحق الزائر منظور ، واللائذ المستجير غير مردود . واذا وقع البصر على البيت ، فليحضر في قلبه عظمته ، ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه ، وليرج أن يرزقه لقاءه كما رزقه لقاء بيته ، وليشكر الله على تبليغه اياه الى بيته ، والحاقه اياه بزمرة الوافدين اليه ، ويتذكر عند ذلك ايصاب الخلائق الى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم الى مأذونين في الدخول ومصروفين عنها ، انقسام الحاج الى مقبولين ومردودين .

فصل

ما ينبغي عند الطواف

وينبغي عند الطواف ان يمتلىء قلبه من التعظيم والمحبة والخوف والرجاء ويعلم انه في الطواف متشبه بالملائكة المقربين الطائفين حول العرش ، وليعلم ان المقصود طواف قلبه بذكر رب البيت ، دون مجرد طواف جسمه بالبيت فليبتدىء الذكر به ويختم به ، كما يبتدأ الطواف من البيت ويختم بالبيت فروح الطواف وحقيقته هو طواف القلب بحضرة الربوبية ، والبيت مثال ظاهر في عالم الشهادة لتلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر ، وهو عالم الغيب وعالم الملك والشهادة ، مدرجة الى عالم الغيب والملكوت لمن فتح له الباب وماورد من البيت المعمور في السماوات بازاء الكعبة ، وان طواف الملائكة بها كطواف الانس بهذا البيت ، ربما كان اشارة الى ما ذكرناه من المماثلة ، ولما قصرت رتبة الاكثرين عن مثل ذلك الطواف ، أمروا بالتشبه بهم بقدر الامكان ، ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم .

فصل

ما ينبغي عند استلام الحجر

ينبغي ان يتذكر عند استلام الحجر الاسود ، انه بمنزلة يمين الله في أرضه ، وفيه موثيق العباد . قال رسول الله (ص) : « استلموا الركن ، فانه يمين الله في خلقه ، يصافح بها خلقه مصافحة العبد أو الدخيل ، ويشهد لمن استلمه بالموافاة » ومراده (ص) بالركن : الحجر الاسود لانه موضوع فيه ، وانما شبهه باليمين لانه واسطة بين الله وبين عباده في النيل والوصول والتعجب والرضا ، كاليمين حين التصافح . وقال الصادق (ع) « ان الله تبارك وتعالى لما أخذ موثيق العباد ، أمر الحجر فالتقمها ، فلذلك يقال : أماتتى اديتها ، وميثاقى عاهدته ، لتشهد لى بالموافاة » . وقال (ع) « الركن اليمانى باب من أبواب الجنة ، لم يلقه الله منذ فتحه » . وقال (ع) « الركن اليمانى بابنا الذى يدخل منه الجنة ، وفيه نهر من الجنة تلقى فيه أعمال العباد » ، قيل : انما شبهه بباب الجنة لان استلامه وسيلة الى وصولها وبالنهر ، لانه تغسل به الذنوب . ثم لتكن النية في الاستلام والاتصاق بالمستجار ، بل المماساة لكل جزء من البيت ، طلب القرب حبا وشوقا للبيت ولرب البيت ، وتمسكا وتبركا بالمماساة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء لافى البيت ، ولتكن نيته في التعلق بأستار البيت الالحاح في طلب المغفرة وسؤال الامان ، كالمقصر المتعلق بثياب من قصر في حقه ، المتضرع اليه في عفوه عنه المظهر له انه لاملجأ منه الا اليه ، ولا مفرج الاعفوه وكرمه ، وانه لايفارق ذيله حتى يعفو عنه ، ويعطيه الامان في المستقبل .

فصل

السعي

السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت ، يضاهى تردد العبد بفناء دار الملك جائيا وذاها مرة بعد اخرى ، اظهارا للخلوص في الخدمة ، ورجاء للملاحظة بعين الرحمة ، كالذى دخل على الملك وخرج ، وهو لا يدري ما الذى يقضى به الملك في حقه من قبول او رد ، فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد

اخرى ، يرجو ان يرحمه في الثانية ان لم يرحمه في الاولى ، وليتذكر عند
تردده التردد بين الكفتين ، ناظرا الى الرجحان والنقصان ، مرددا بين العذاب
والغفران .

فصل

ما ينبغي عند الوقوف بعرفات

واما الوقوف بعرفات ، فليتذكر بما يرى من ازدحام الخلق ، وارتفاع
الاصوات ، واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في التردد على المشاعر
عرصات يوم القيامة وأهوالها ، وانتشار الخلائق فيها حيارى ، واجتماع
الامم مع الانبياء والائمة ، واقتفاء كل امة نبهم ، وطمعهم في شفاعته لهم
وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول . واذا تذكر ذلك ، فليتضرع
الى الله تعالى ويستهل اليه ، ليقبل حجه ويحشره في زمرة الفائزين المرحومين
وينبغي ان يحقق رجاءه اذ اليوم شرف والموقف عظيم والنفوس من أقطار
الارض فيه مجتمعة ، والقلوب الى الله سبحانه منقطعة ، والههم على الدعاء
والسؤال متظاهرة ، وبواطن العباد على التضرع والابتهاال متعاونة ، وايديهم
الى حضرة الربوية مرتفعة ، وابصارهم الى باب فيضه شاخصة ، واعناقهم
الى عظيم لطفه وبره ممتدة ، ولا يمكن ان يخلو الموقف عن الاخبار والصالحين
وأرباب القلوب والمتقين ، بل الظاهر حضور طبقات الابدال وأوتاد الارض
فيه ، فلا تستبعدن ان تصل الرحمة من ذى الجلال بواسطة القلوب العزيزة
والنفوس القادسة الشريفة ، الى كافة الخليقة ، ولا تظن انه يخيب آمال
الجميع ، ويضع سعيهم ، ولا يرحم غربتهم وانقطاعهم عن الاهل والاطوان
فان بحر الرحمة اوسع من ان يظن به في مثل هذه الحالة ، ولذا ورد : انه
من اعظم الذنوب ان يحضر عرفات ويظن ان الله لم يغفر له .

فصل

المشعر

واذا فاض من عرفات ودخل المشعر ، فليتذكر عند دخوله فيه : ان الله
سبحانه قد أذن له في دخول حرمة بعد ان كان خارجا عنه ، اذ المشعر من

جملة الحرم ، وعرفات خارجة عنه ، فليتنازل من دخول الحرم بعد خروجه عنه ، بأن الله سبحانه قربه اليه وكساه خلع القبول ، وأجاره وآمنه من العذاب والعبد ، وجعله من اهل الجنة والقرب .

فصل

ما ينبغي عند الرمي والذبح

وإذا ورد منى ، وتوجه الى رمى الجمار ، فليقصد به الاتقياد والامتثال ، أظهارا للرق والعبودية ، وتشبيها بالخليل الجليل (ع) ، حيث عرض له إبليس اللعين في هذا الموضع ليفسد حججه ، فأمره الله تعالى ان يرميه بالحجارة طردا له وقطعا لأصله . وينبغي ان يقصد انه يرمى الحصا الى وجه الشيطان ، ويقصم به ظهره ، ويرغم به أنفه ، اذ أمتثال أمر الله تعالى تعظيما له يقصم ظهر اللعين ويرغم به أنفه . وإذا ذبح الهدي ، فليستحضر ان الذبح اشارة الى أنه بسبب الحج قد غلب على الشيطان والنفس الامارة وقتلها ، وبذلك استحق الرحمة والغفران ، ولذا ورد : أنه يعتق بكل جزء من الهدى جزء منه النار . فليجتهد في التوبة والرجوع عما كان عليه قبل ذلك من الاعمال القبيحة ، حتى يصير حاله أحسن من سابقه ، ليصدق عليه اذلاله الشيطان والنفس الامارة في الجملة ، ولا يكون في عمله من الكاذبين . ولذلك ورد : أن علامة قبول الحج : أن يصير حاله بعد الحج : أحسن مما كان عليه قبله . وفي الخبر : أن علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي ، وأن يستبدل بأخوانه البطالين أخوانا صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

تتميم

أسرار الحج

قد ورد عن مرلانا الصادق (ع) خبر يتضمن عمدة أسرار الحج ودقائقه فلنذكره تيمنا بكلماته الشريفة :

قال (ع) : « إذا أردت الحج ، فجرد قلبك لله عز وجل ، من قبل عزمك ، من كل شغل شاغل وحجب كل حاجب ، وفوض امورك كلها الى

خالقك ، وتوكل عليه في جميع ما يظهر من حركاتك وسكناتك ، وسلم لقضائه وحكمه وقدره ، وودع الدنيا والراحة والخلق ؛ وأخرج من حقوق يلزمك من جهة المخلوقين ، ولا تعتمد على زادك وراحتك واصحابك وقوتك وشبابك ومالك ، مخافة ان يصير ذلك عدوا ووبالا ، فان من ادعى رضا الله ، وأعتد على شيء ما سواه ، صيره عليه عدوا ووبالا ، ليعلم انه ليس له قوة ولا حيلة ولا الأحاد الا بعصمة الله تعالى وتوفيقه ، واستعد استعداد من لا يرجو الرجوع ، وأحسن الصحبة ، وراع أوقات فرائض الله تعالى وسنن نبيه (ص) ، وما يجب عليك من الادب ، والاحتمال ، والصبر ، والشكر ، والشفقة ، والسخاوة ، وايتار الزاد على دوام الاوقات ، ثم أغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك ، والبس كسوة الصدق والصفاء والخضوع والخشوع ، واحرم من كل شيء يمنعك عن ذكر الله عز وجل ويحجبك عن طاعته ، ولب بمعنى اجابة صافية خالصة زاكية لله عز وجل في دعوتك له ، متمسكا بالعروة الوثقى ، وطفه بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت . وهروول هرولة فزا من هواك ، وتبرأ من جميع حولك وقوتك ، واخرج من غفلتك وزلاتك بخروجك الى منى ، ولا تتمن مالا يحل لك ولا تستحقه ، واعترف بالخطأ بالعرفات ، وجدد عهدك عند الله تعالى بوحدانيته ، وتقرب اليه ، وأتقه بمزدلفه ، وأصعد بروحك الى الملاء الأعلى بصعودك على الجبل ، واذبح حنجرة الهوى والطمع عند الذبيحة ، وارم الشهوات والخصاسة والدناءة والافعال الذميمة عند رمي الجمرات ، وأحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك ، وادخل في أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخول الحرم ، وزر البيت متحققا لتعظيم صاحبه ومعرفته وجلاله ، واستلم الحجر رضى بقسمته وخضوعا لعظمته ، وودع ما سواه بطواف الوداع ، وصف روحك وسرك للقاء الله تعالى يوم تلقاه بوقوفك على الصفا ، وكن ذامرة من الله بفضاء أوصافك عند المروة ، واستقم على شروط حجتك ، ووفاء عهدك الذي عاهدت ربك ، واوجبت له الى يوم القيامة ، وأعلم بأن الله لهم يفترض الحج ، ولم يخصه من جميع الطاعات بالاضافة الى نفسه بقوله تعالى :

« والله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » (٥٦) .

ولا شرع نبيه (ص) سنة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه ،
الا للاستعداد والاشارة الى الموت والقبر والبعث والقيامة ، وفضل بيان
السبق من دخول الجنة أهلها ودخول النار أهلها ، بمشاهدة مناسك الحج
من أولها الى آخرها ، لأولى الالباب وأولى النهى » (٥٧) .

خاتمة

زيارة المشاهد

في الاشارة الى بعض الامور الباطنة المتعلقة بزيارة المشاهد .
أعلم ان النفوس القوية القدسية ، لاسيما نفوس الانبياء والائمة -
عليهم السلام - ، اذا نفضوا أبدانهم الشريفة ، وتجردوا عنها ، وصعدوا
الى عالم التجرد ، وكانوا في غاية الاحاطة والاستيلاء على هذا العالم ،
فأمور هذا العالم عندهم ظاهرة منكشفة ، ولهم القوة والتمكن على التأثير
والتصرف في مواد هذا العالم ، فكل من يحضر مقابرهم لزيارتهم يطلعون
عليه ، لاسيما ومقابرهم مشاهد أرواحهم المقدسة العلية ، ومحال حضور
أشباههم البرزخية النورية ، فانهم هناك يشهدون .

« بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٥٨) .

وبما آتاهم الله من فضله فرحون ، فلهم تمام العلم والاطلاع بزائري
قبورهم ، وحاضري مراقدهم ، وما يصدر عنهم من السؤال والتوسل
والاستشفاع والتضرع ، فتهب عليهم نسمات الطافهم ، وتفيض عليهم من
رشحات أنوارهم ، ويشفعون الى الله في قضاء حوائجهم ، وانجاح مقاصدهم ،
وغفران ذنوبهم ، وكشف كربهم . فهذا هو السر في تأكد استحباب زيارة
النبي والائمة - عليهم السلام - ، مع ما فيه من صلتهم وبرهم وأجابتهم ،
وادخال السرور عليهم ، وتجديد عهد ولايتهم . واحياء أمرهم ، واعلاء
كلمتهم ، وتبكيته أعدائهم . وكل واحد من هذه الامور مما لا يخفى عظيم
أجره وجزيل ثوابه . وكيف لا تكون زيارتهم أقرب القربات ، وأشرف الطاعات ،

(٥٧) صححنا الحديث على (مصباح الشريعة) : الباب ٢١ .

(٥٨) آل عمران ، الآية : ١٦٩ .

مع ان زيادة المؤمن - من جهة كونه مؤمناً فحسب - عظيم الاجر
جزيل الثواب ، وقد ورد به الحث والتوكيد والترغيب الشديد
من الشريعة الطاهرة ، ولذلك كثر تردد الاحياء الى قبور أمواتهم للزيارة ،
وتعارف ذلك بينهم ، حتى صارت لهم سنة طبيعية ، وأيضاً قد ثبت وتقرر
جلالة قدر المؤمن عند الله ، وثواب صلته وبره وادخال السرور عليه . واذا
كان الحال في المؤمن من حيث انه مؤمن فما ظنك بمن عصمه الله من
الخطأ ، وطهره من الرجس ، وبعثه الله الى الخلائق أجمعين ، وجعله حجة
على العالمين ، وارتضاه اماماً للمؤمنين ، وقدوة للمسلمين ، ولأجله خلق
السموات والارضين ، وجعله صراطه وسبيله ، وعينه ودليله ، وبابه الذي
يؤتى منه ، ونوره الذي يستضاء به ، وأمينه على بلاده ، وحبله المتصل
بينه وبين عبادته ، من رسل وأنبياء وأئمة واولياء .

ثم ، الاخبار الواردة في فضيلة زيارة النبي والائمة - عليهم السلام -
مما لا تحصى كثرة . قال رسول الله (ص) : « من زار قبري بعد موتي .
كان كمن هاجر الي في حياتي ، فان لم تستطيعوا فأبعثوا الي بالسلام ،
فانه يبلغني » . وقال (ص) للأمير المؤمنين (ع) : « يا أبا الحسن ، ان
الله تعالى جعل قبرك وقبر ولدك بقاعاً من بقاع الجنة ، وعروسة من عرصاتهما ،
وان الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عبادته ، تحن اليكم ،
وتحتمل المذلة والاذى فيكم ، فيعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها ، تقرباً
منهم الى الله ، ومودة منهم لرسوله ، أولئك يا علي المخصوصون بشفاعتي ،
والواردون حوضي ، وهم زواري وجيراني غداً في الجنة . يا علي ، من عمر
قبورهم وتعاهدها ، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ،
ومن زار قبوركم عدل ذلك سبعين حجة بعد حجة الاسلام ، وخرج من
ذنوبه حتى يرجع من زيارتكم كيوم ولدته امه . فأبشر ، وبشر أولياءك
ومحببك من النعيم وقررة العين ، بما لآعين رأيت ، ولا اذن سمعت ، ولا
خطر على قلب بشر ، ولكن حثالة من الناس يعيرون زوار قبوركم ، كما
تعيرون الزانية بزناها ، أولئك شرار أمتي ، لاتنالهم شفاعتي ، ولا يردون

حوضي» (٥٩) • وقال الصادق (ع) : « لو أن احدكم حج دهره ، ثم لم يزر الحسين بن علي - عليهما السلام - ، لكان تاركا حقا من حقوق رسول الله (ص) ، لأن حق الحسين (ع) فريضة من الله واجبة على كل مسلم » • وقال الرضا (ع) : « ان لكل امام عهدا في عنق اوليائه وشيعته ، وان من تمام الوفاء بالعهد وحسن الاداء زيارة قبورهم ، فمن زارهم رغبة في زيارتهم ، وتصديقا بما رغبوا فيه ، كان أئمنته شفعا له يوم القيامة » • والخبار في فضل زيارة النبي والائمة المعصومين ، لاسيما زيارة سيد الشهداء وأبي الحسن الرضا - عليهم أفضل التحية والثناء - ، وفضل زيارتهما على الحج والعمرة والجهاد ، أكثر من أن تحصى ، وهي مذكورة في كتب المزار لاصحابنا ، فلا حاجة الى أيرادها هنا •

فصل

ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة

واذا عرفت فضل زيارتهم وسرها ، وعظم قدرهم وجلالة شأنهم ، فينبغي ان تكثر التواضع والتخضع والانكسار عند الدخول في بلادهم ، ومراقبتهم المنورة ، ومشاهدتهم المكرمة ، وتستحضر في قلبك عظمتهم وجلالهم ، وتعرف عظيم حقهم ، وغاية جدتهم وسعيهم في ارشاد الناس واعلاء كلمة الله • فاذا قربت المدينة المنورة ، ووقع بصرك على حيطانها ، تذكر انها البلدة التي اختارها الله لنبيه (ص) ، وجعل اليها هجرته ، وأنها البلدة التي فيها شرع فرائض ربه وسننه ، وجاهد عدوه ، وأظهر بها دينه ، ولم يزل قاطنا بها الى أن توفاه الله ، وجعل تربته فيها •

ثم مثل في نفسك أقدام رسول الله (ص) عند تردداتك فيها ، وتذكر أنه ما من موضع قدم تطأه الا وهو موضع قدمه العزيز ، فلا تضع قدمك عليه الا على سكينته ووجل ، وكن متذكرا لمشيه وتخطيه في سككها ، وتصور سكينته ووقاره ، وخشوعه وتواضعه لعظمة ربه ، وما استودع الله في قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره ، حتى قرنه بذكر نفسه ، وأنزل عليه كلامه العزيز ، وأهبط عليه روح الامين وسائر ملائكته المقربين ، وأحبط

(٥٩) صححنا الحديث على (استدرك الوسائل) : ٢ / ١٩٥ - ١٩٦ ،

كتاب الحج ، ١٠ ، أبواب المزار وما يناسبه •

عمل من هتك حرمة ، ولو برفع صوته فوق صوته • ثم تذكر ما من الله به على الذين أدركوا صحبته ، وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظم تأسفك على ما فاتك من صحبته ، وتضرع الى الله ألا تفوتك صحبته في الآخرة ، ولتعظم رجاءك في ذلك ، بعد ان رزقك الله الايمان ، وأشخصك من أرضك لأجل زيارته ، محبة له ، وتشوقا اليه •

ثم اذا دخلت مسجده ، فتذكر ان أول موضع اقيمت فيه فرائض الله تلك العرصة ، وأنها تضمنت أفضل خلق الله حيا وميتا ، فارح الله غاية الرجاء أن يرحمك بدخولك آياه خاشعا معظما ، وما أجدر ذلك المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب كل مؤمن •

ثم اذا أتيت للزيارة ، فبينغي ان تقف بين يديه خاضعا خاشعا خائفا ، وتزوره ميتا كما تزوره حيا ، ولا تقرب من قبره الا كما تقرب من شخصه الكريم لو كان حيا ، اذ لا فرق بين ميتة وحيه ، ولو وجدت التفرقة في قلبك لما كنت مؤمنا ، ولتعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك ، وانه يبلغه سلامك وصلواتك • فمثل صورته الكريمة في خيالك ، جالسا على سرير العظمة بحذائك ، وأحضر عظيم رتبته في قلبك ، وقد ورد أن الله تعالى وكل بقبره ملكا يبلغه سلام من سلم عليه من أمته • وهذا في حق من نم يحضر قبره ، فكيف بمن فارق الاهل والوطن ، وقطع البوادي شوقا الى لقائه ، واكتفى وقنع بمشاهدة مشهده المنور ، اذ فاتته مشاهدته البهية ، وغرته الكريمة • وقد قال (ص) ، : « من صلى عليّ مرة ، صليت عليه عشرا » • فهذا جزاؤه عليه في الصلاة عليه بلسانه ، فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟

واذا فرغت من زيارته ، فأت المنبر وامسحه بيدك ، وخذ برماتيه ، وامسح بهما وجهك وعينيك ، وتضرع الى الله ، وابتهل اليه ، واسأل حاجتك • وتوهم صعود النبي (ص) المنبر ، ومثل في قلبك طلغته البهية ، قائما على المنبر ، وقد أحدق به المسلمون من المهاجرين والانصار ، وهو يحمد الله بأفصح الكلمات واللغات ، ويحث الناس على طاعة الله • واسأل الله ألا يفرق في القيامة بينه وبينك ، ويجعلك في جواره ، ويعطيك منزلا

فصل

ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء

وإذا دخلت أرض النجف لزيارة أمير المؤمنين وسيد الوصيين (ع) ،
تذكر أنها وادي السلام ، ومجمع أرواح المؤمنين ، وقد شرفها الله وجعلها
أشرف البقاع ، وجنة المؤمنين • فلما من مؤمن خالص الا وبعد الموت يأتي
روحه اليها ، ويتنعم فيها مع سائر المؤمنين ، الى ان يدخلوا دار كرامته
العظمى في القيامة الكبرى • وقد أكد شرافتها وعظم قدرها ، بأن جعلها
مدفن وصى رسوله ، بعد أن كانت مدفن آدم أبي البشر ، ونوح شيخ
المرسلين - عليهما السلام - • فأسأل الله ان يأتي بروحك اليها ، ويدخلك
في زمرة المؤمنين ، ويجعلها محل دفنك ، لتنالك شفاعة مولاك (ع) ،
ولا يحشرك مع الكفار والعصاة في وادي برهوت •

وإذا أتيت لزيارته ، تذكر عظيم مرتبته عند الله وعند رسوله ، وراع
الآداب التي ذكرناها في زيارة رسول الله (ص) •

وإذا أردت ارض كربلاء ، لزيارة سيد الشهداء (ع) ، فتذكر ان هذه
الارض هي التي قتل فيها سبط الرسول وأولاده وأقاربه واجناده ، وأسرت
فيها أهاليه وأهل بيته ، فجدد الحزن على قلبك ، وادخلها أشعث اغبر ،
منكسر الحال ، محزون القلب ، كئيبا حزينا باكيا ، وأحضر في قلبك حرمة
هذه الارض وشرافتها ، فانها الارض التي في تربتها الشفاء ، ولا يرد فيها
الدعاء ، وقد يجعلها الله يوم القيامة ارفع بقاع الجنة ، فتردد فيها على
سكينة ووجل •

ثم اذا دخلت الحائر للزيارة ، ووقع بصرك على ضريحه المنور ، ثم
على ضريح اصحابه المستشهدين معه ، المجتمعين في موضع واحد في جواره ،
فمثل في قلبك اشخاصهم ، وتذكر وقائعهم وما جرى عليهم من البلى والمحن
واحضر في نفسك أبا عبدالله الحسين (ع) واقفا في عرصة كربلاء ، ويأتي
اصحابه واحدا واحدا يستأذن منه للجهاد ، قائلا : السلام عليك يا أبا عبدالله
وهو يأذن له ، ويلقى نفسه في الميدان على الجهم الغفير ، فيقتل في سبيله ،

وإذا أيس من حياته ، ينادى بأعلى صوته : ادركني ياأبا عبدالله ! وهو (ع) يسرع اليه كالصقر المنقض ، ويأخذ جثته من الميدان ، ويلحقه بسائر أخوانه الشهداء . فمثل في نفسك أمثال ذلك ، وجدد عليهم الحزن والبكاء ، وتمن كونك معهم في تلك العرصة ، وقل : ياليتني كنت معهم فأفوز فوزا عظيما ! ثم راع الآداب الباطنة لزيارته (ع) ، وقس على ذلك زيارة كل واحد من الأئمة - عليهم السلام - ، فإنه ينبغي لك ان تستحضر ، عند حضورك كل واحد منهم ، جلال شأنه ، وعظمة قدره ، وعظيم حقه ، وتذكر مايناسب حاله ، وما جرى عليه ، ثم تستشعر في قلبك ما يترتب عليه ، من التعظيم ، والاجلال ، والخوف ، والحزن ، والفرح ، وامثال ذلك .

هذا آخر كتاب (جامع السعادات) ، والحمد لله على اتمامه ، واسأل الله ان يجعلنا من العاملين به ، وينفع به جميع عباده السالكين اليه . وقد وقع الفراغ من جمعه وتأليفه ، في سلخ شهر ذي القعدة الحرام سنة ست وتسعين ومائة بعد الالف من الهجرة النبوية ، على مهاجرها الف الف سلام وتحية .

هذا آخر ما كتبه المصنف (قدس سره)

فهرس الجزء الثالث من (جامع السعادات)

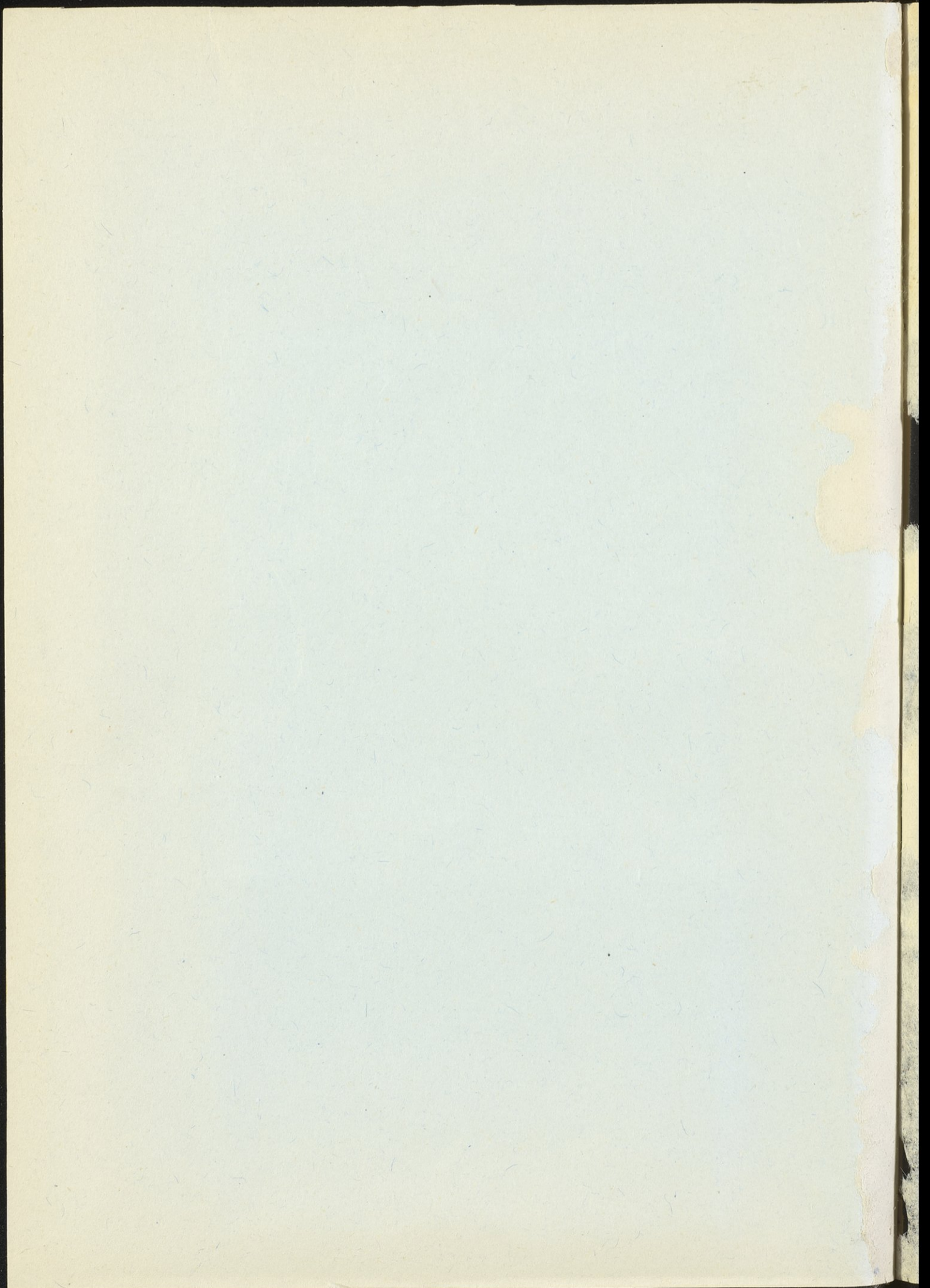
الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
العصيان (٣)	٣٥	بقية المقام الرابع المتعلق بالقوى	
الوقاحة (٤)	٣٥	الثلاث أو باثنتين منها ، من الرذائل	
الاصرار على المعصية	٣٦	والفضائل • وهي ثلاثة عشر نوعا	
التوبة وتعريفها	٣٨	٢ (١) الغرور	
هل يشترط في التوبة القدرة	٤١	٣ ذم الغرور	
وجوب التوبة	٤٣	٤ طوائف المغرورين ، وهم سبعة :	
تحقيق في وجوب التوبة	٤٤	٤ ١ - الكفار	
عموم وجوب التوبة	٤٦	٨ ٢ - العصاة والفساق من المؤمنين	
تذنب	٤٨	١١ ٣ - أهل العلم	
لا بد من العمل بعد التوبة	٤٩	١٥ ٤ - الوعاظ	
فضيلة التوبة	٥١	١٨ ٥ - أهل العبادة والعمل	
قبول التوبة	٥٢	١٩ ٦ - المتصوفة	
طريق التوبة عن المعاصي	٥٥	٢٣ ٧ - الاغنياء وارباب الاموال	
تكفير الصغائر ومعنى الكبائر	٥٧	٢٤ ضد الغرور الفطانة والعلم والزهد	
الصغائر قد تكون كبائر	٥٩	٢٥ (٢) طول الامل	
شروط كمال التوبة	٦٢	٢٧ علاج طول الامل	
هل يصح التبعض في التوبة	٦٢	٢٨ قصر الامل	
أقسام التائبين	٦٤	٢٨ اختلاف الناس في طول الامل	
مراتب التوبة	٦٥	٣٠ ذكر الموت مقصر للأمل	
عدم الثقة بالاستقامة لا يمنع	٦٦	٣١ العجب ممن ينسى الموت	
من التوبة		٣٢ الموت اعظم الدواهي	
علاج الاصرار على الذنوب	٦٩	٣٤ مراتب الناس في ذكر الموت	
الافابة	٦٩	٣٥ المبادرة الى الحسنات	

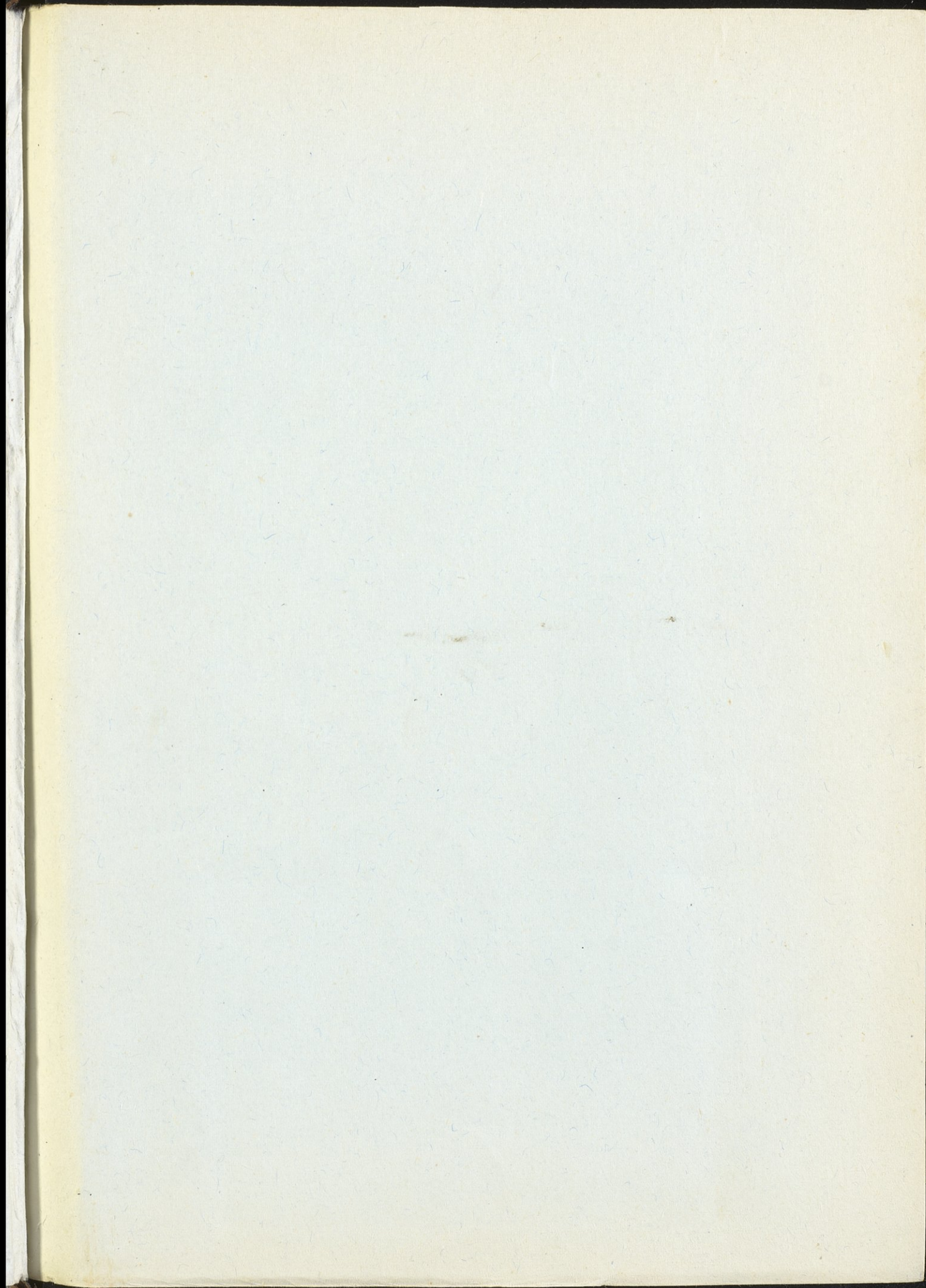
الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
لا محبوب حقيقة الا الله	١١٣	المحاسبة والمراقبة	٧٠
الشهود التام هو نهاية درجات	١١٧	المعنى الظاهر للمحاسبة والمراقبة	٧٠
العشق		حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا	٧١
سريان الحب في الموجودات	١١٩	مقامات مرابطة العقل للنفس .	٧٣
رد المنكرين لحب الله	١٢٠	وهي أربع مقامات :	
معرفة الله أقوى سائر اللذات	١٢٥	١ - المشاركة	٧٣
تحقق رؤية الله في الآخرة و	١٢٩	٢ - المراقبة	٧٥
الطريق الى الرؤية واللقاء	١٣٥	٣ - المحاسبة	٧٨
تفاوت المؤمنين في محبة الله	١٣٧	٤ - معاتبه النفس	٧٩
الواجب أظهر الموجودات	١٣٨	(٦) الغفلة	٨٣
علائم محبة الله	١٤٠	الغفلة موجبة للحرمان	٨٤
معنى حب الله لعبده	١٤٤	ضد الغفلة : النية	٨٥
الحب في الله والبغض في الله	١٤٧	تأثير النية على الاعمال	٨٦
الوفاء في الحب	١٥١	النية وروح الاعمال والجزاء بحسبها	٨٨
الانس بالله	١٥٢	عبادة الاحرار والاجراء والعبيد	٩١
الانس قد يثمر الادلال	١٥٤	نية المؤمن خير من العمل	٩٤
العزلة	١٥٦	النية غير اختيارية	٩٦
(٨) السخط	١٦٠	الطريق في تخلص النية	٩٧
الرضا	١٦٢	(٧) الكراهة	٩٨
فضيلة الرضا	١٦٣	الشوق	٩٩
رضا الله	١٦٥	أفضل مراتب الشوق الشوق	١٠٠
رد انكار تحقق الرضا	١٦٦	الى الله	
هل يناقض الدعاء ونحوه الرضا	١٦٨	تعلق الحب بجميع القوى	١٠٥
طريق تحصيل الرضا	١٧١	أقسام الحب بحسب مبادئه	١٠٦

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
تسخير الله والتجار لجلب الطعام	٢١١	التسليم	١٧١
نعم الله في خلق الملائكة للانسان	٢١٢	(٩) الحزن	١٧٢
الاسباب الصارفة للشكر	٢١٦	(١٠) عدم الاعتماد	١٧٥
طريق تحصيل الشكر	٢١٨	التوكل	١٧٥
الصحة خير من السقم	٢٢١	فضيلة التوكل	١٧٧
(١٢) الجزع	٢٢٤	درجات التوكل	١٧٩
الصبر	٢٢٥	السعي لا ينافي التوكل	١٨١
مراتب الصبر	٢٢٧	الاسباب التي لا ينافي السعي	١٨٢
اقسام الصبر	٢٢٩	اليها التوكل	
فضيلة الصبر	٢٢٩	اعقل وتوكل	١٨٣
الصبر على السراء	٢٣٥	درجات الناس في التوكل	١٨٤
اختلاف مراتب الصبر في الثواب	٢٣٩	تفنيدهم	١٨٥
طريق تحصيل الصبر	٢٤٠	طريق تحصيل التوكل	١٨٦
تتميم	٢٤١	(١١) الكفران	١٨٧
التلازم بين الصبر والشكر	٢٤٢	الشكر	١٨٧
القانون الكلي في معرفة الفضائل	٢٤٥	فضيلة الشكر	١٩١
تفضيل الصبر على الشكر	٢٤٦	الشكر نعمة يجب شكرها	١٩٣
(١٣) الفسق	٢٤٧	المدارك لتمييز محاب الله عن مكارهه	١٩٥
الطهارة	٢٤٧	اقسام النعم واللذات	١٩٩
حقيقة الطهارة	٢٤٩	تنبه	٢٠٤
ما ينبغي للمؤمن في الطهارة	٢٥١	الأكل	٢٠٤
ازالة الاوساخ	٢٥٤	لا فائدة في الغذاء	٢٠٦
آداب الحمام	٢٥٤	عجائب المأكولات	٢٠٧
السر في ازالة الاوساخ	٢٥٥	حاجة تحضير الطعام	٢٠٩

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
الذكر	٢٩٠	الصلاة	٢٥٧
فضيلة الاذكار	٢٩٢	حقيقة الصلاة	٢٥٩
الدعاء	٢٩٢	حضور القلب	٢٦٠
تلاوة القرآن	٢٩٤	دفع اشكال	٢٦٥
الصوم	٣٠٣	شرائط الصلاة	٢٦٦
ما ينبغي للصائم	٣٠٣	طريق تحصيل المعاني الباطنة	٢٦٨
ما ينبغي للصائم عند الافطار	٣٠٤	أسرار الصلاة	٢٧١
درجات الصوم	٣٠٤	الوقت	٢٧١
الحج	٣٠٦	آداب الصلاة	٢٧٢
الغرض من ايجاد الانسان	٣٠٦	آداب المصلي	٢٧٣
ما ينبغي في الحاج	٣٠٩	الاستقبال	٢٧٤
الميقات	٣١١	القيام	٢٧٥
ما ينبغي في الميقات	٣١٢	التكبيرات	٢٧٦
ما ينبغي عند دخول مكة	٣١٣	النية	٢٧٧
ما ينبغي عند الطواف	٣١٣	تكبيرة الاحرام	٢٧٧
ما ينبغي عند استلام الحجر	٣١٤	دعاء الاستفتاح	٢٧٨
السعي	٣١٤	الاستعاذة	٢٧٩
ما ينبغي عند الوقوف بعرفات	٣١٥	الركوع	٢٨٢
المشعر	٣١٥	السجود	٢٨٣
ما ينبغي عند الرمي والذبح	٣١٦	التشهد	٢٨٤
اسرار الحج	٣١٦	التسليم	٢٨٥
ما ينبغي للزائر عند دخول المدينة المنورة	٣٢٠	افاضة الانوار على المصلي	٢٨٦
ما ينبغي للزائر عند دخول النجف وكربلاء	٣٢٢	ما ينبغي في امام الجماعة	٢٨٨
		ما ينبغي في صلاة الجمعة والعيدين	٢٨٨
		ما ينبغي للمؤمن عند ظهور الآيات	٢٨٩

مطبعة النعمان - النجف الاشرف تلفون ٩٩٧





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758230

BJ
1291
.N5
1968
v. 3

MAR 20 1971

MAR 15 1971

MAR 26 1971

